

طبع بأمر من صاحب الجلالة الأمير المؤمنين الحسن الثاني في شهر الله

المملكة المغربية  
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

# الماء

في الفكر الإسلامي والأدب العربي

تأليف  
الأستاذ محمد بن عبد العزيز بن عبد الله

الجزء الرابع

طبع بأمر من صاحب الدولة الأمير الشومنيج الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية  
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

# الماء

في الفكر الإسلامي والأدب العربي

تأليف  
الأستاذ محمد بن عبد العزيز نعبد الله

الجزء الرابع

## الباب السادس عشر :

### وقف المياه.. حضارة إنسانية راقية

الثروة دائما في العطاء، لا في الأخذ أبدا، وهي الباقية بعد رحيل الإنسان، لأنها الذكرى التي يحملها له الناس في قلوبهم، كلما رأوا أعماله... لقد هام الأعراب بمياه الوطن، وافتتنوا بمشاربها وبرودتها، وزلّلتها وقراجها، وتذكروا بها ديارهم، والعربي معروف بحبه لوطنه، وقد ملأوا كتبهم بأحاديثهم عن الغربة والاغتراب، ووقعها في نفوسهم، فيذكرون ديارهم، فإذا تذكروها، كان أول ما يحنون إليه، وأول ما يتشوقون إليه، ويتمنونه هو ماؤها وشرابها..

في هذا الباب نتناول أحد عشر فصلا، تتمحور حول الوقوف المائية منذ العصر الجاهلي..

الفصل الأول : يتحدث عن هيام الأعراب بمياه الوطن.

الفصل الثاني : الوقوف للمياه في العصر الجاهلي.

الفصل الثالث : ارتباط الماء، بالشعائر الدينية.

الفصل الرابع : وقوف الآبار والعيون في المدينة المنورة.

الفصل الخامس : عمل إنساني نبيل.. عين زبيدة.

الفصل السادس : وقوف المياه في العهد الإسلامي.

الفصل السابع : توفير الماء، ووقوفه في طريق الحاج..

الفصل الثامن : مؤسسة السقايات، أنظمة اقتضتها فلسفة المدينة

الإسلامية...

الفصل التاسع : الإشراف على السقائين.. من اختصاص المحتسب.

الفصل العاشر : مؤسسة السقايات الوقفية في المملكة المغربية.

الفصل الحادي عشر : نظافة الجسم بالماء، رقي صحي، ومظهر

حضاري.





## هيام الأعراب بمياه الوطن

رغم ما قاله ابن الجوزي في تَذْمُرِهِ من أهل بغداد، وَوَلَعِهِمْ بَكْلَ ما هو طريفٌ وأجنبي، فإنه لم يستطع أن يخفيَ اعتزازه بأناقة حضارتها، وظرف أبنائها... روى عن عبيد الله بن محمد التميمي يقول : «سمعتُ ذا النُّون يقول بمصر : من أراد أن يتعلَّم المروءة والظُّرفَ، فعليه بِسَقَاءِ الماء ببغداد، قيل له : «وكيف ذلك؟ قال : «لما حُمِلْتُ إلى بغداد رُمِيَ بي على باب السُّلطان مُقَيِّدًا، فمرَّ بي رجلٌ مُتَزَرٌّ بمنديلٍ مصريٍّ، مُعْتَمٍ بمنديلٍ ديبقيٍّ، بيده كِيزَانُ خزفٍ رِقَاقٍ، وزجاجٌ مخروطٌ، فسألت : «هذا ساقِي السلطان؟ فقل لي : «لا، هذا ساقِي العامة» فأومأت إليه أن اسقِنِي، فتقدَّم، فشمت من الكُوز رائحةَ المِسْك، فقلت لمن معي : «إدفع إليه دينارًا»، فأعطاه الدينار، فأبَى، وقال : «لستُ آخُذُ منك شيئًا» فقلت : وَلِمَ؟ فقال : «أنت أسير، وليس من المروءة أن آخذ منك شيئًا، فقلت : «كُمِّل الظرف في هذا»...

\*\*\*

ولقد كان بعض السقائين في أحياء الكوفة ينشد، أثناء سيره في الطريق، وهو حاملٌ قِربته، قولَ الشاعر مفاخرًا بمهنته ولو بشيء من الجُهدِ اللِّذِّ، والتعبِ المُرِّيحِ :

وَأَكْرَمُ نَفْسِي، إِنَّنِي إِن أَهْنَتْهُهَا

وَحَقِّكَ، لَمْ تُكْرَمَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدِي

فسمعه الأصمعي، وأراد المزاح معه، فقال له : «وعن أي شيء أكرمت نفسك، وهذه حِرْفَة دنيئة! فأجابه السقاء : إنني أكرمتها عن ذل السؤال،

وعن الوقوف على باب لثيم مثلك، وأستغني بها عن السَّفَلَة... فأراد  
الأصمعي أن يمضي، وقد ظن أن الرجل لا يعرفه، لكن ظنه خاب، لأنه ما  
أن ابتعد قليلا حتى قال السَّقَاء : يا أصمعي : احفظ عني هذا... ثم أنشد :  
لَنَقُلَّ الصَّخْرَ مِنْ قُلَلِ الْجِبَالِ  
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَنَنِ الرَّجَالِ  
يقول الناس كسبٌ فيه عارٌ  
وكلُّ العار... في ذلِّ السُّوَالِ

رحم الله سقاء الكوفة، فقد كان أكثر دراية بقوانين احترام الذات،  
وحرمة الأدب من الكثيرين من معاصرينا!...

\*\*\*

ولعل هذا الإكرام للنفس هو ما حَدَا بوالد أبي الطيب المتنبي، لأن  
يسقي الماء لأهل المحلة حتى عرف بعبدان السقاء... فروايات بعض  
المؤرخين تقول بأن أبا الطيب ووالده كان سَقَاءً يسقي الماء لأهل  
المحلة، !!؟ وقد هجاه ابن لنكك البصري لما سمع بقدومه بغداد راجعا من  
مِصرَ بعد ستة عشر عاما من استيلاء مُعِز الدولة عليها، وأقام بالكوفة  
التي هجرها، من قبل مرارا وتكرارا، فراراً من القرامطة والأعراب، فقال :

لكن بغداد جاء الغيث ساكنها  
نعالهم في قفا السَّقَاء تزدحم  
فكان أبوه يسقي بالكوفة، وإلى هذا أشار بعض الشعراء في هجو  
المتنبي حيث قال :

أي فضل لشاعر يطلب الفضل  
—ل، من الناس، بُكْرَةً وعشياً

عاش حيناً يبيع في الكوفة الما  
ء، وحيناً يبيع ماء المُحيا (1)

\*\*\*

وكان الشاعر أبو تمام، وقد نشأ بمصر يسقي الماء في جامع عمرو.  
وبذلك نستطيع أن نقول بأنه لم يُضيع حياته سُدى، ذاك الذي حفر  
بئراً، أو غرس شجرة، أو رَبَّى ولداً...

ولكن... كم منا استطاع أن يجمع بين هذه الأعمال الثلاثة؟  
إننا نشرب كل يوم من آبار لم نحفرها، ونستظل بأشجار لم نغرسها...  
وربما كنا بعد هذا آباء لا نشعر بأبنائنا، أو أبناء لا ندرك أننا آباء للغد...  
وكما قال مالك بن نبي : «إننا نعرف في الجزائر، وفي البلاد الإسلامية  
الأخرى، ذلك الوجه المألوف، وهو يشق طريقه بين الجماهير في أسواق  
المدينة وبطحاتها، يوزع الماء، مجاناً، غَدَقاً، يسكبه من قربة يحملها بجنبه،  
يمرّ وهو يكرر كلمته المعروفة لدى أجيال المسلمين :  
في سبيل الله.. في سبيل الله... السبيل.. السبيل، إننا نعرف هذا الوجه  
الأصيل، بين وجوه وأخرى... كذلك المؤذن وهو يوزع في الواقع زهده  
وطمأنينته وعقيدته وروحانيته العميقة في الأسواق...

\*\*\*

إن مجموعة الأعمال الطيبة التي يُقدِّمها الإنسان في حياته لمجتمعه،  
وللأمة التي ينتمي إليها، هي ثروته الحقيقية، كما يقول فيلسوف فرنسا،

---

(1) لقد جارينا المؤرخين والمتأمرين على نسب المتنبي الذين كان من أذكاهم القاضي أبو علي  
التنوكي الذي كاد أن يكون هو المصدر الوحيد للروايات الموضوعة عن المتنبي وأبيه  
«السَّقاء»؛ التنوكي هذا، كان قد استدعاه الوزير حسن بن محمد المهلبي لصداقة كانت بينه  
وبين أبيه، بالإضافة إلى أن أبا الفرج الأصبهاني الذي كان هو نفسه من أصحاب المهلبي،  
أنظر «قاموس المحيط» للفيروز آبادي في شرحه لمعنى كلمة «عود»، وجمعها «عيدان»،  
فالمتنبي شريف من ذرية علي، وأبوه من زعماء البيت. وهكذا الكشف يعود إلى الأستاذ  
محمود محمد شاكر، وإبراهيم العريض، لأنهما أول من كشف النقاب عن نسب المتنبي، ورداه  
إلى أصله العلوي، وانظر كتاب : «المتنبي، يَسْتَرِدُّ أباه بعد ألف عام»، لصديقنا الأستاذ عبد  
الغني الملاح.

وشاعرها الكبير : فولتير Voltaire فالثروة دائماً في العطاء، لا في الأخذ أبدا... وهي الباقية بعد رحيله، لأنها الذكرى التي يحملها له الناس في قلوبهم كلما رأوا أعماله...

فكل حضارة تصنع هكذا نماذج اجتماعية، ووجوها تقليدية تتعاقب في الأجيال، تضع عليها طابعا، وترسم ملامحها ما يعبر عن رسالتها الخاصة...

\*\*\*

لقد كان تزويد المدينة بالماء عنصراً هاماً قامت عليه المدينة الإسلامية، وتكفلت طوائف السقّائين بذلك منذ العصور القديمة التي تمتد جذورها في الزمن السحيق، ولم يقتصر الأمر على إمداد البيوت، ودور العبادة بالمياه، وإنما اقتضت فلسفة المدينة الإسلامية، وحضارة إنسانيتها الراقية توفير مياه الشرب لكل مخلوق حي، بحيث يكون الماء في متناول الجميع أينما ولى الخلق وجوههم...

\*\*\*

### وفي السماء رزقكم :

العرب، قديما، كانوا يسمون الماء رزقا... وهو المعنى الذي أشار إليه الحق سبحانه وتعالى في قوله : ﴿وفي السماء رزقكم﴾ (2) فالرزق ما ينزل من السماء من مطر وتلج ينبث به الزرع ويحيا به الخلق (3).

والرزق ظاهر الارتباط بدورة الأفلاك، وعلاقتها بالحياة والماء والزرع والإنبات، وبسط الرزق وتضييقه بيد الله، وفق الأوضاع والظواهر العامة المذكورة في الآيات... فموارد الرزق من ماء ينزل، وأنهار تجري، وبحار تغذي، وزروع تنبت، وحيوان يتكاثر، ومن معادن وفلزات في جوف

(2) سورة «الذاريات» رقم الآية : 22.

(3) كما قال سعيد بن جبير والضحاك.

الأرض، وصيد في البَرِّ والبحر، إلى نهاية موارد الرزق العامة تتبع كلها نواميس الأرض والسماوات وتسخير الشمس والقمر، تَبَعِيَّةٌ مباشرة ظاهرة، ولو تغيرت تلك النواميس عما عليه أيما تغيير، لظهر أثرُ هذا في الحياة كُلِّها على سطح الأرض...

ولذلك كان الحسن إذا رأى السحاب، قال لأصحابه : «فيه، والله، رزقكم، ولكنكم تحرمونه بخطاياكم...»  
وقال أهل المعاني : «وفي السماء رزقكم» معناه، وفي المطر رزقكم، سمي المطر سماء، لأنه من السماء ينزل... قال مُعَوِّذُ الحكماء، معاوية بن مالك (4).

إذا سقط السماء بأرض قوم

رعيناه... وإن كانوا غضابا (5)

وكان من عادة العرب في الجاهلية، أنه إذا نزل المطر في جهة من الجهات، وأخصبت، انتقل إليها من لم تخصب منازلهم، فإن منعهم أهل تلك الناحية رَعَوْهُ رَغْماً عنهم، واقتتلوا عليه، وهذا هو معنى البيت السابق لمُعَوِّذ الحكماء...

فإن شاء أهل الخصب، ألا يقاتلوا، أذِنوا للقادمين أن يجاوروهم، ويرعوا معهم، على أن يصنعوا ذاك معهم، إذا أخصبوا

\* \* \*

من الذي أغضبَ الجليل حتى حلف ؟

قال الأصمعي : أقبلتُ ذات مَرَّةٍ من مسجد البصرة، إذ طلع أعرابي جِلْفٌ جَافٌ على قعوده، متقلداً سيفه، وبيده قوسه، فدنا وسلّم، وقال :

(4) سمي معود الحكماء : لقوله في هذه القصيدة :

أعوذ مثلها الحكماء بعدي

إذا ما الحق في الحدثان نابا

(5) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ص : 41/ ج : 17.

ممن الرجل؟.. قلت : من بني أسمع، قال : أنت الأصمعي؟ قلت : نعم قال :  
ومن أين أقبلت؟ قلت : من موضع يُتلى فيه كلام الرحمن، قال : وللرحمن  
كلام يتلوه الآدميون؟ قلت : نعم؛ قال : فاتل علي منه شيئاً... فقرأت :  
﴿والذاريات ذروا﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وفي السماء رزقكم﴾ فقال : «يا  
أصمعي، حسبك...!! ثم قام إلى ناقته، فنحرها وقطعها بجلدها، وقال :  
«أعني على توزيعها، ففرقناها على من أقبل وأدبر، ثم عمَدَ إلى سيفه  
وَقَوَّسِهِ، فَكَسَّرَهُمَا، ووضعهما تحت الرَّحْل، وولَّى نحو البادية، وهو يقول:  
﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ فمقتُ نفسي ولمتُها، ثم حجبت مع  
الرشيد، فبينما أنا أطوف، إذ أنا بصوت رقيق، فالتفت، فإذا أنا بالأعرابي،  
وهو ناحل مصفر، فسَلَّمَ علي، وأخذ بيدي، وقال : «أتل علي كلام الرحمن،  
وأجلسني من وراء المقام»، فقرأت : ﴿والذاريات ذروا﴾ حتى وصلت إلى  
قوله تعالى : ﴿وفي السَّماء رزقكم، وما توعدون﴾ فقال الأعرابي : «لقد  
وجدنا ما وعدنا الرحمن حقاً» وقال وهل غير هذا؟ قلت : نعم... يقول الله  
تبارك وتعالى : ﴿فَوَرَبُّ السَّماء والأرضِ، إنه لَحَقُّ مَثَلما أنكم  
تنطقون﴾ قال : فصاح الأعرابي، وقال : يا سبحانَ الله!! مَنْ الذي أغضب  
الجليل حتى حلف!! ألم يصدقوه في قوله، حتى ألجأوه إلى اليمين؟ فقالها  
ثلاثاً... وخرجت بها نفسه.(6)

\*\*\*

وقد دأب بعض المفسرين على تفسير الرزق في الآيتين الكريمتين :  
﴿وفي السماء رزقكم﴾ وهو الذي يريكم آياته، وينزل لكم من السماء  
رزقاً بالماء، إذ تمَّ تأويل الآية استناداً إلى ظاهرة بلاغية تفيد أن لفظة  
الرزق استعملت في غير معناها الحقيقي، حيث تم تعويض السبب

(6) المصدر السابق ص : 42 / ج : 17.

بالنتيجة،(7) قال المتمسكون بظاهرية النص إن استعمال لفظة الرزق كان في معناه الحقيقي، إذ الأرزاق مقسمة ومقدرة، ولكل نصيبه الخاص. ومن أسماء الرزق : «الرَّيْحَان، أو هو الرزق بُلْغَة حمير تقول : خرجتُ أطلب رَيْحَان الله»، أي رزقه، قال النَّمِرُ بن تَوَلْب :

سَلامُ اللهِ، وريحانُهُ  
ورحمتهُ وسَماءِ دِرَرُ

[تفسير القرطبي ج : 17 / ص : 157]

\*\*\*

وقد تطلق الرحمة، أيضا، ويراد بها المطر، وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ومن آياته أن يُرسل الرياح مبعثرات وليذيقكم من رحمته، ولتجري الفلك بأمره، ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون﴾ فالرياح في هذه الآية مبعثرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها، ومثل قوله في نفس السورة : ﴿فانظر إلى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحي الموتى، وهو على كل شيء قدير﴾ (8) فالمطر نعمة كبرى، وهي من آثار رحمته التي وسعت كل شيء...

\*\*\*

وهكذا كان العربي يعرف معنى الرزق، ويسمى المطر والماء رزقا، وقد أنشد فيه ابن خروف الأندلسي متحدثا عن النيل (9) :  
ما أعجب النيل! ما أحلى شمائله  
في ضفئته من الأشجار أدواح

(7) مجاز مرسل، علاقته السببية.

(8) سورة الروم، الآية رقم 46 - والآيات : 48 - 49 - 50.

(9) نفح الطيب، ص : 641 / ج : 2.

من جنة الخلد، فَيَاضُ على تُرَعٍ  
تهبّ فيها هبوبَ الريح أرواح  
ليست زيادته ماءً كما زعموا  
وإنما هي «أَرْزَاقُ» وأربـاح

\*\*\*

لقد هام الأعراب بمياه الوطن، وافتنوا بمشاربها وبرودتها، وزلّالها  
وقَرّاحِها، وتذكروا بها ديارهم.. والعربي معروف بحبه لوطنه، وبحنينه  
إليه، وقد ملأوا كتبهم بأحاديثهم عن الغربة والاغتراب ووقعها في  
نفوسهم، فيذكرون ديارهم، فإذا تذكروها كان أوّل ما يحنون إليه، وأول ما  
يتشوقون إليه، ويتمنّونه هو ماؤها وشرابها. (10)

وقد قيل للأحنف بن قيس، وهو مريض : ما تتمنى؟ قال : شربة من  
ماء الغَزِيز، (11) وماء الغَزِيز مُرٌّ، وإنما تمنّاه الأحنف لمحبهه الوطن، ومات  
الأحنف بالكوفة : وهو على شاطئ الفُرات... وماء الفُرات عذب، فلم يتمنّ  
منه شربة...

وقال أحمد بن الحسن بن حيدرة المعرف بابن الخراساني الطرابلسي :

وكيف التذاذي ماء دجلة مُعْرِقاً  
وأمواه لبَنانَ، أَلَذَّ وأَعَذَبُ  
فمالي، ولأليام لا دَرُّ دُرّها  
تُشَرِّقُ بي طوراً، وطوراً تَغْرِبُ

(10) أنظر بحثاً للدكتور جميل سعيد في «مجلة المجمع العراقي» مج: 13 عام 1966.

(11) ماء الغَزِيز : منهل معروف بهذا الاسم في الجاهلية، وهو باقٍ إلى هذا العهد، وفيه يقول  
جرير:

فهيّهات هيّهات الغَزِيزَ وَمَنْ بِهِ  
وهيّهات خُلْ بِالْغَزِيزِ نُوَاصِلُهُ



وقال أبو جابر الكلابي :

أيّا نخلتي وادي كتيفة، (12) حبذا  
ظلالكما، لو كنت يوماً أنالها  
وماؤكما العذب الذي لو شربته  
شفاءً لنفسي كان، طال اعتلالها  
مُعْنَى على طُول الهَيْام غليُّه  
بذكر مياهٍ ما يُنال زلالها

بل حتى إنهم لفرط استئثارهم بها كانوا يمنعون غيرهم من القرب  
إليها، والكَرْع منها... ويتمنون لو استطاعوا أن يحزّموا مذاق ما في حفر  
الجبال من مياه على اللثام...

فهذا الشاعر أبو القمقام الأسدي يتحدث عن مياه الوطن، ويتذكر بلده،  
وأول ما يتذكر منه جبلهم، وإذا ما تذكر الجبل، كانت صورة الماء أول  
الصور التي تسرع إلى خاطره، فتراه يُجسّ لمائهم طعما خاصا، لا  
يجده في غيره من المياه، حتى لتراه يرى أن كل المشارب ذميّم بالقياس  
إليه... يرى الماء ويذوقه، فتسرع إلى نفسه وإلى خاطره صورة الماء في  
بلده، فيذم المياه كلها بالقياس إليه، وتتلهف نفسه إلى جبله، فلا يجد أكثر  
من أن يدعو له «بالسُّقيا» ويَخُصُّ بهذه السقيا ظله بالعشي وبالضحى،  
ثم يَخُصُّ بها ماء أيضا، ذلك الماء الذي يكون باردا، حتى يكون غيره من  
المياه حميما...

وعندنا أن هذا الإحساس إحساس الروح، لا إحساس الجسم، وأنه  
يتعلق بإحساس النفس والخاطر أكثر منه متعلقا بإحساس الفم واللسان...

---

(12) كُتَيْفَة : جبل صغير في أعلى مُبَيْل، قال امرؤ القيس :  
وأضحى يَسُحُ الماء حول كُتَيْفَة  
يكب على الأذقة أن دَوَح الكنهيل  
وفي بلاد العرب ستة أجبل صغار يسمى كل واحد منها كُتَيْفَة.

يقول أبو القمقام الأسدي :

إقرأ على «الوشل» (13) السلام، وقل له :

«كُلُّ المِشَارِبِ، مُدٌّ، هَجَرَتْ، نَمِيمٌ

سَقِيًّا لظِّلِكَ، بِالْعَشِيِّ وبالضْحَى

وَلِيَرُدَّ مَائِكَ، والمِيَاهُ حميم(14)

لو كنتُ أملك منعَ مائك لم يَذُقْ

ما في قلاتك،(15) ما حييت، لئيم

إن هذه الصورة الأخيرة صورة أبي القمقام الأسدي يتعلق بماء الوشل

هذا التعلق، تورد إلى النفس صورة أبي نواس يتعلق بالخمير حيث

يقول(16):

أجل عن اللَّئَامِ السَّراخَ حتَّى

كَأَنَّ الرَّاحَ تَعَصِرُ من عظامي

ويقول أبو الطَّمَحَانِ الأسدي،(17) وكان نديما لناس من بني الحذاء،

وكانوا نصارى، فأحمد(18) نِدَامَهُم(19) :

كأن لم يكن في القصر، قَصْرٌ مقاتل(20)

وزُورَةٌ،(21) ظلُّ نَاعِمٍ وصديق

---

(13) الوشل : ماء معروف، أنظر معجم ياقوت في كلمة : الوشل : وانظر كتاب : «الشوامخ» للدكتور محمد صبري، ص : 34.

(14) حميم : حار.

(15) قلاتك ج : قلة، حفرة في الجبل يقع فيها المطر.

(16) تطور الخمريات في الشعر العربي، لجميل سعيد، ص : 109.

(17) أنظر تحقيقا في اسمه في ج : 5/ ص : 175، من كتاب : «الحيوان» للجاحظ تحقيق عبد السلام محمد هارون.

(18) الإحماد : مصدر أحمده، وجده مستحقا للحمد.

(19) النَّدَام : المنادمة على الشراب.

(20) قصر مقاتل : قصر كان بين عين التمر والشام.

(21) زورة : بلفظ واحد : الزيارة، موضع بين الكوفة والشام.

ولم أَرِدِ البطحاء، (22)، امزج ماءها

بخمر، من البرؤقتين (23) عتيق (24)

فالشاعر هنا يتشوق أول ما يتشوق إلى ماء البطحاء يمزجه بالخمـر...

وقال طُخَيْم بن أَبِي الطخماء الأسدي يمدح قومًا من أهل الحيرة من

رھط عدي ابن زيد العبادي :

كأن لم يكن يومٌ بِزُورَةٍ (25) صالحٌ

وبالقصر ظلُّ دائمٌ وصديقُ

ولم أَرِدِ البطحاءَ يمزج ماءها

شـرابٌ من «البرؤقتين» عتيق

معي كل فضفاض القميص كأنه

إذا ما سَـرَت فيه المدام فنيق

وقال مطير، عبد بني قريط يتشوق إلى أرضه، وإلى «صداء» مائهم

المعروف (26) :

ألا ليت شعري، هل أبيتَنَ ليلة

و«صداء» مني، و«البياض» بعيد

بـوادٍ من اللـعباء أعلاه عوسج

وأسفلـه رمث عليه جهيد

وقال آخر (27) :

ألا ليت شعري، هل أبيتَنَ ليلة

بصحراء ما بين الجثوم إلى شعر

---

(22) البطحاء : موضع بعينه قريب من ذي قار.

(23) البرؤقتين : موضع قرب الكوفة، وقد ضبطت في الكامل بفتح الباء وتشديد الراء المضمومة، وقال ياقوت : ووجدته بخط بعض أئمة الأدب بـوأوين الأولى مضمومة جعلها : البرؤقتين.

(24) الحيوان، ص : 5/158، انظر : «ضحى الإسلام» لأحمد أمين ج : 1 / ص 326.

(25) قال البكري، ص : 2/706 موضع بالحرّة.

(26) «بلوغ الأرب» للألوسي، ص 3/429.

(27) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

وهل أردنَّ العين، والشمل جامع

مقيم النوى قد حان ذاك على قدري

وانظر أيضا كيف تشتاق الإبل إلى وطنها، وماذا تتمنى منه حيث يعبر

عن إحساسها أبو العلاء المعري فيقول (28) :

تمنت قُويِّقاً، والصِراةُ حِياها

تِرابٌ لها من أينق وَجِمال

أي أن هذه الإبل تمنت قُويِّقاً، وهو نهر على باب حَلَب، وأبو العلاء يتعجب منها كيف تتمنى قُويِّقاً، وهي عند الصِراة، والصِراة مجتمع دجلة والفرات، ببغداد، يعد أطيب ماء، وأفضل من قويق... وأبو العلاء لا يجد أكثر من أن يدعو عليها لجهلها في تفضيلها ذاك على هذا... وبعد حديثه عن الإبل اللواتي طربن :

وأنشدن من شعر المطايا قصيدة

وأودَعْنَهَا في الشوق كلَّ مَقال

نرى البرق يهيجه إلى وطنه، على نحو ما هاج الإبل إلى وطنها، فيقول، وكأنه يصيح، ويفغر :

فيا برقُ ليس الكرخ داري، وإنما

رمانِي إليه الدَّهر منذ ليالي

فهل فيك من ماء المعرة قطرة

تغيث بها ظمآن ليس بسالي

وأبو العلاء هو الذي يقول أيضا في قصيدة أخرى :

وماءٌ بِلادي كان أنجَعَ مَشْرَباً

ولو أن ماء الكرخ صهباءُ جِريال

---

(28) أنظر «سقط الزند» ط : دار الكتب المصرية : 1162/2/1947.

وفي أخرى :  
يا ماء دجلة، ما أراك تَلْدُ لي  
شوقاً، كماء مَعْرَةَ النُّعْمَانِ  
هذا كله، و«ماء المعرة» لا يقرن بماء دجلة... ماء المعرة ماء آبار، وماء  
دجلة، ماء النهر العذب القراح السليل.. ولكنه ذوق الروح، لا ذوق الفم  
واللسان...

\*\*\*

إن هناك مياهاً في بلاد العرب لا تسيغه الإبل، تَكْظُمُ عليه، ثم تمجه،  
لأنها استأنست بمياه أَلْفَتْهَا واعتادتُها، فهي لا تسيغ مياهاً بعيدة عما  
دَرَجَتْ عليه، قال شاعر غطفاني في ماء المُرير :  
هذا المُرير، فاشربيه، أو ذري  
إن المُريرَ قطعةً من أخْضَرِ  
والأخضر هنا؛ ماء البحر... وقيل بأن لقمان بن عاد اختار طول عُمره،  
فكان من دعائه حين سأل طول العمر :  
اللهم، يَا رَبَّ الْبَحَارِ الْخُضِرِ والأرضِ ذَاتِ النَّبْتِ بعد الْقَطْرِ  
أَسْأَلُكَ عُمرًا فوق كُلِّ عُمرٍ (29)  
فنودي، أن أعطيتَ ما سألت... إلى آخر القصة.  
ويقول النابغة في وصف بحر :  
يُمَاشِيهِنَّ «أَخْضَرُ» ذُو ظِلَالٍ  
على حَافَاتِهِ، فَلَقَّ الدَّنَانِ  
وانظر بيت أبي القاسم الزمخشري الذي يتحدث عن نهر البَرَدَانِ الذي  
يوجد بالشام :

---

(29) ألف أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني كتاباً مستقلاً في أخبار المُعَمَّرِينَ الذين  
عاشوا مائة وعشرين فما فوق.

ألا إن في قلبي جـوًى لا يبُلُّه  
قُويِّقٌ، ولا العاصي، ولا البَرَدان (30)

وقال جرير :

وقد كان في بقعاء (31) ريَّ لَشائكم

وتلعة... والجوفاء يجري غديرها

وماء بقعة مر، وهي لبني عبس... وقد تزوجت امرأة من بني عبس في  
بني أسد، ونقلها زوجها إلى «لينة»، الماء المعروف اليوم، وماؤها عذب،  
وكان زوجها الأسدي عَنيْناً، فَفَرَّكته، واجتوت الماء، فاختلعت منه، ورجعت  
إلى بلادها، وتزوجها رجل من أهل بقعاء، فقالت :

فمن يُهدِ لي من ماء بقعاء شربةً

فإن له ماء «لينة» أربعاً

لقد زادني جداً ببقعاء، أنني

وجدتُ مطايانا «بلينة» ظلَّعا

فمن مبلغ تربيَّ بالرمْل أنني

بكيت، فلم أترك لعيني مدمعا

فلذلك كانت المياه، من مختلف منابعها وعيونها، بالنسبة لأبي العلاء  
المعري غيرَ صالحة، ولا تحمل أي مَذَاقٍ، إذا لم تكن منابِعُها من وطنه،  
ومَدْرِج عُسِّه... فمأً بلادُه كان أنجع مشرباً، وأفيدَ لصحة الجسم، رغم أن  
ماء المَعْرَة لا يُقَرَّنُ بالمياه العذبة الصافية، واسمعه يقول :

---

(30) معجم البلدان 13/2 وما بعدها — والبَرَدان : مواضع كثيرة، كما قال ياقوت، فُقُويِّقٌ والعاصي  
والبَرَدان، هذه أنهار بالشام، والبَرَدان بأعلى نخلة الشامية، وفيه أقوال كثيرة. [صحيح الأخبار،  
32/2].

(31) بقعاء المذكورة، مسماة اليوم بقيعا، وقد جهز إليها أبو بكر (ض) جيوش المسلمين لقتال أهل  
الرَّدة.

وماءً بلادي، كان أنجعَ مَشْرَباً  
ولو أن ماءَ الكرخِ صَهْبَاءُ جِرْيَالُ  
فيا وطني، إن فاتني بك سابقُ  
من الدهر، فليَنعمْ لساكنك البالُ

وقد شهر جرير الشاعر برقة حديثه أو غزله، وامتلاً شعره بالنسيب،  
والحديث عن النساء، وعراه يريد أن يتحدث عن شدة شوقه إلى الحبيبة،  
فلا يرى أكثر من أن يشبه شوقه إليها، بشوقه، وهو ظمآن، إلى الماء حيث  
يقول (32) :

منعت شفاء النفس ممن تركته  
به كالجوى مما تجن الجوانح  
تركت بنا لُوحاً، (33) ولو شئت جادنا  
بُعِيد الكرى، ثلج بكيـزان ناصح

روينا عن البخاري (34) ومسلم في صحيحيهما، والإمام مالك في الموطأ،  
عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما قدم النبي عليه السلام، وعك أبو بكر  
وبلال، فدخلت عليهما، فقلت : يا أبت؟ كيف تجدك؟ قالت : فكان أبو بكر،  
إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح في أهله  
والموت أدنى من شرك نعله  
وكان بلال يقول (35) :

ألا ليت شعري، هل أبيته ليلة  
بـوادي وحولي إدخـرٌ وجليل

(32) الديوان، ط : الصاوي، ص : 100.

(33) اللوح : العطش أو شدته.

(34) صحيح البخاري، ص 550 - 589/1.

(35) قيل إن هذين البيتين لبكر بن غالب بن عامر بن الحارث ابن مضاخ الجهمي أنشدهما عند ما  
نفثهم خزاعة من مكة، وقيل لغيره كما في عمدة القاري.

وهل أَرَدَنْ يَوْمًا مِياهَ مَجَنَّة (36)

وهل يَبْدُونُ لِي شامَةً وطفيل (37)

قالت عائشة رضي الله عنها، فجئت رسول الله ﷺ، فأخبرته فقال :  
«اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة، أو أشد، اللهم بارك لنا في صَاعِهَا  
وفي مُدَّهَا، وانْقُلْ حماها، فاجعلها إلى الجحفة..

وفي «المشعر الروي، في مناقب بني باعلوي» لسيدي محمد بن أبي  
بكر باعلوي، بعد أن ذكر بيتي سيدنا بلال بن رباح ما نصه :  
ألا ليت شعري، هل أبيتَنَّ ليلة

بواد، وحولي عشرق ونخيل  
وهل أنظرن يوما قبورا لِسَادة

وتبدو لعيني خيلةً وسحيل  
وقال الإمام أبو بكر بن العربي المعافري نزيل مراكش :  
ألا ليت شعري هل أبيتَنَّ ليلة

من الدهر، لا أخشى ولا أترقب  
وبي ظمًا بـرح إلى ورد منهل  
يطيب به صرف المياه ويعذب  
بمشرعة الكرخ التي لم تزل بها  
يلذ لنا شرخ الشباب ويعجب  
وكم شارب للماء في غير أرضه  
وقد غبت عنه ماء عيني أشرب

---

(36) قال أبو الفتح : يحتمل أن تسمى ببساتين تتصل بها، وهي الجنان.

(37) شامة وطفيل : جبلان. - وهذه كلها من معالم مكة على الخلاف بين أهل العلم في أنها جبال أو  
عيون كما يقول الخطابي في كتابه : الإعلام في شرح البخاري : كنت أظن شامة وطفيلًا  
جبلين حتى مررت بهما، ووقفت عليهما، فإذا هما عينان من ماء.



وهي قصيدة طويلة طنانة ذكر منها جملة صالحة في «بغية الملتمس»  
في تاريخ رجال الأندلس أبو العباس الضبي نزيل مراكش ..  
وقال ابن عنين (38) (ت 630 هـ) في قصيدة مدح بها سيف الإسلام الملك  
العزیز ضغتكين أخ صلاح الدين الأيوبي، وقد رحل إليه في اليمن لما نفاه  
صلاح الدين لهجوه الناس :

حَنِينٌ إِلَى الْأوطان ليس يزول  
وقلبٌ عن الأشواق ليس يحول  
ألا ليت شعري هل أبيته ليلة  
وظلك يا مُفَرِّى علي ظليل  
دمشق، فبي شوق إليك مبرح  
وإن لَجَّ واشٍ أو أَلَحَّ عَزْزُول  
بلادٌ بها الحصباءُ درٌّ، وتُرْبُها  
عَسِيرٌ وأنفاس الشمال شَمُول  
تسلسل فيها مأوها وهو مطلق  
وصح نسيْمُ الروض، وهو علي  
ولعالم أهل البيت مولاي امحمد ابن السلطان (39) المولى إسماعيل  
العلوي قصيدة يمدح بها شيخه أبا عبد الله بن أحمد القسنطيني، ويتشوق  
إلى مدينة فاس في أبيات مؤثرة على بساطتها :

---

(38) ابن عنين، أبو المحاسن محمد بن نصر الدين الأنصاري الملقب شرف الدين كوفي الأصل  
دمشقي المولد، شاعر مجيد هجاء، نفاه السلطان صلاح الدين من دمشق بسبب وقوعه في  
الناس، فتنقل في البلاد وبلغ الهند، نشر ديوانه الأستاذ خليل مردم (دمشق : 1946) «وهو  
صاحب مقراض الأعراض» [أنظر ترجمته في نفح الطيب، ص : 2/401].  
(39) ترجم له المختار السوسي في «المعسول» ص : ج/18، «وسوس العالمة» ص : 64 - 79، وابن  
زيدان في الاتحاف : ص : 78 - 79/4 وعبد الله كنون في النبوغ 1/275، وعبد السلام ابن  
سودة في دليله ص : 314. - وابن إبراهيم التعارجي في اعلامه ص 12 - 5/18، ومحمد  
الأخضر في «الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية» ص : 83 - 147 - 155.

ألا ليت شعري، هل أنزه ناظري  
وللنفس إقبالاً بوادي الجواهر  
امتع طرفي في رياض أنيقة  
وأقطف أزهاراً، بها كالزواهر  
بحيث نرى أَسَدَ العَرِينِ صريعة  
وقد فتكت فيها ظباء المقاصر  
وحيث نرى غُلَبَ الحقائق سلسلت  
حديثاً صحيحاً عن نسيم الأزاهر  
وقد نسجت كف النسيم عشيّة  
دُرُوع مياهِ بين تلك النواعر  
وأصبحت الأطيّار فوق غصونها  
فصاحاً تقصُّ فوق خُضِر المنابر  
سقى الله أدواحاً بفاسٍ عهدتها  
تُغازل أنواع الغيوث المواطر  
ولا برحت عينٌ تراها قريرةً  
وأن قَذَفَتْ بالقلب جَمرة حائر  
لك الله من إلفٍ «بِدَرعة» جسمُهُ  
وقلبٌ بفاس في قُدّامة طائر  
تُراوِحُهُ الأشواق في كل ليلة  
فما بين مزور هـواه وزائر

وفي ديوان أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي الذي جمعه ولده أبو  
عبد الله محمد نزيل مدينة مراكش، قال : وقد جرى ذكر البيتین اللذين  
ينسبان لسيدنا بلال، فهاج له إلى الأوطان اشتياق، فقال على نحو هذا  
المساق، وهو إذ ذاك بمدينة مراكش عام 1090هـ.

أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أُبَيَّتَنَ لَيْلَةً  
«بَسْهَبِ الشَّنِينِ» (40)، أَوْ بِسْهَبِ «بَنِي وَرَا»  
وهل تَعْبُرَنَ نَهَرَ الْعَبِيدِ (41) رَكَائِبِي  
وهل تَتْرُكُنَ «دَايَا» (42) وَأَدْوَاءَهَا وَرَا  
وهل أَرِدَنَ عُسْلُوجَ يَوْمًا فَأَشْرِبَنَ  
مِيَاهًا بِهِ تَحْكِي رَحِيقًا وَكُوْثِرَا  
وهل تَمْرَحَنَ خَيْلِي بِبَذْرَةِ امْنَا  
وَبَطْنَانَهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَحْفَرَ الثَّرَا  
وهل أَكْحَلَنَ يَوْمًا جَفُونِي بِنَظْرَةِ  
إِلَى الْأَرَزَاتِ (43) الْفَارَعَاتِ فَتَبْصِرَا  
وهل أَدْفَعَنَ جَيْشَ الْهَمُومِ بِبَسْطَةِ  
مَعَ الْحَيِّ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ فَتَقْصِرَا

وقال الحسن اليوسي، أيضا يصف أيام مقامه بمراكش يَحِنُّ إلى  
وطنه وذلك في عام 1094هـ.

فَأَسْأَلُهُ أَنْ يَجْمَعَ الشَّمْلَ وَالْمَنَى  
هَنَّاكَ بِمَنْ أَهْوَى سَرِيعَا كَمَا أَهْوَى  
فَقَدْ طَالَ مَا بَيْنِي، وَبَيْنَ مَعَاهِدِي  
وَمَا أُسْتَطِيعُ الصَّبْرَ عَنْهَا، وَمَا أَقْوَى  
فَلَلَهُ أَرْضٌ، لَمْ يَسْؤُنِي هَوَاؤُهَا  
وَلَا مَاؤُهَا الْأَصْفَى لَذَى الصَّدْفِي الْأَرَا

(40) سهب الشنين، وسهب بني ورا : منطقة معروفة ببلاد مراكش.

(41) نهر العبيد : هو واد العبيد.

(42) دَايَا : هي معروفة قرب الصومعة بتادلا، وكلتاها قرب قصبة تادلا.

(43) الأرزات الفارعات : شجر معروف بتلك الجبال في منطقة «قازان».

ولا عيشها الرغد المَريءُ، ولا تَقس  
 به المنّ، في ذكر النعيم، ولا السَّلوى (44)  
 وفي ديوان الوزير أبي عبد الله محمد بن إدريس الزموري الفاسي  
 نزيل مراكش، له رحمه الله يتشوق إلى مدينة مراكش :  
 ألا ليت شعري، هل أبيتنّ ليلَةً  
 بمراكش حيث الغريبُ عزيز  
 وهل أَرَدَن من وادٍ «صَبْرَة» منهلاً  
 وهل يبدون لي، «رَمَرَم» و«جليز» (45)  
 وله أيضاً، أي الوزير بن محمد إدريس العمرأوي (46) (ت 1296 هـ) قوله  
 متشوقاً لمراكشة الحمراء، وأهلها :  
 ألا ليت شعري، هل أبيتنّ ليلَةً  
 بمراكش بين الأحبة ثاويها  
 وهل أعْبُرَن أمَّ الربيع، وأتَرْكُن  
 مَهَامَة «تَامَسْنَا» هواءً ورأيا  
 وهل أَرَدَن من وادٍ «صَبْرَة» منهلاً  
 وَيَبْدُو مَنَارُ الكتبيين أَمَامِيا (47)

(44) الإعلام «للعباس بن إبراهيم ص 1/10.

(45) «رمرم»، و«جليز» جبلان قرب مدينة مراكش يطلان عليها، أنظر تحقيق اسمه في كتاب الإعلام ص : 1/14، وقال بعض الفضلاء الراحلين إلى الحجاز رأى أن جبل جليز ارتفاعه يكون قدر ارتفاع جبل عرفة.

(46) ترجمه صاحب «الاتحاف» ص 2/32، 189 - 4/239 - الإعلام للمراكشي : 5/263 - وعبد السلام بن سودة في دليله ص : 391 - محمد غريط في «فواصل الجمان»، 40 - 60 ومحمد الكتاني في «سلوة الأنفاس» : 2/363 - 363. والناصري في الاستقصا، ص : 4 - 14 - 9/15. و«النبوغ المغربي» لعبد الله كنون. وفي الحسام الشرفي، للعربي المشرقي ص : 253 - 260. و«الحياة الأدبية في المغرب، على عهد الدولة العلوية» ص : 409.

(47) الاتحاف : ص 2/36.

وقد أنشد أبو زيد في «ابتهاج القلوب» لسيدي العربي الفاسي لما  
تغرب عن وطنه :

وظمَّانُ حَرَّانُ الجوانح من أسي  
يُسَاقُ إلى الوَرْدِ الزلالِ قِيَابِي  
يُنْكَبُ عن عَذْبِ الفُراتِ لأنَّه  
يَرَى كُلَّ ما دُونَ الرُّضابِ سرابا  
وأي بلاد غير فاس تروقه  
وقد شَبَّ في أحضانِ فاسٍ وشابَا  
يرى كُلَّ تُرْبٍ دون تُربتها قذى  
ويحسب ما فوق التراب، تُرابا

ولبعضهم، كما في «رياض الورد» لقاضي مراکش أبي الفتح محمد  
الطالب ابن أبي الفيض حمدون بن الحاج (48) :

فاس لعمرى، هي الدنيا بأجمعها  
لو لم يكُ القلبُ فيها ضَيِّقاً حَرِجا  
من حلَّ ساحتَها لم ينجُ من كَدَرٍ  
كأنما هُمُّها، بمائها مُزجا  
ولله عبد السلام بن يوسف (49) إذ قال يتشوق إلى العتيق :  
ألا ليت شعري هل إلى الرمل عودة  
وهل لي بتلك البَّانَتَيْنِ لَمَّامُ  
وهل نهلةً، من «بئر عُروَة» عذبة  
أداوي بها قلباً بَرَّاهُ أوامُ (50)

---

(48) ونسبها أبو عبد الله محمد بن معطي السرخيني في فهرسته: «حدائق الأزهار، في ذكر معتمدى  
من الأخبار» لابن الخطيب السلماي، وهما أدون نفسا من شعر ابن الخطيب.  
(49) «مرأة الحرمين» للواء إبراهيم رفعت باشا ص : 1/438.  
(50) «ماء الموائد» لأبي سالم العياشي، ص : 1/271. البان : ضرب من الشجر، واحدته بانه..  
اللمام : الاجتماع في بعض الأحيان.. الاوام : حر العطش.

وقال العباس ابن إبراهيم (51) إنه أنشده بعض الأدباء للوزير ابن إدريس، أيضا، يتشوق إلى فاس :

ألا ليت شعري، هل أبيتنَّ ليلَةً  
بفاسٍ، وحولي من مُنَايَ ثَلَاثُ  
مَغَانٍ بِهَا أَغْنَى، وأهل، وَجِلَّةٌ  
أجل بهم بين الـوَرَى وأُغَاثُ  
وهل أردن «وادي الجواهر» جَهْرَةً  
وهل يَبْدُونُ لي زَالِغٌ وَتَغَاثُ  
وليوسف محمد ابن النحوي (52) :

يا فاس منك جميع الحسن مسترق  
وساكنوك، أهنهم بما رزقوا  
هَذَا نَسِيمُكَ، أَمْ رَوْحٌ لِرَاحَتِنَا،  
وماؤُكَ السلسلُ الصافي أم الـوَرَقُ  
أَرْضُ تَخْلَلَهَا الْأَنْهَارُ دَاخِلَهَا  
حتى المجالس والأسواق والطرق  
ولعبد الله بن الشَّيْنِ الديماني يتشوق إلى أوطانه وهو بمراكش :  
ألا ليت شعري، هل أبيتنَّ ليلَةً  
وللنفس بين المأمنين (53) ثُلُوجُ  
وهل لي بـذات الحي عيش أَلـذّه  
منازلنا قَدَمَا، وحيث نـرُوجُ (54)

---

(51) كتاب «الإعلام» للمراكشي، ص : 15/1.

(52) جذوة الاقتباس، ص : 553/2.

(53) المأمنين : بثرين «بنياسل وأكتنت بموريطانيا.

(54) «إخبار الأخبار، بأخبار الأبار» لأحمد بن أحمد يُورَا الدِّيماني.

### الدعاء بالسقيا :

بالنسبة لدعاء العرب لبعضهم البعض... فقد حفل الأدب العربي، في هذا الباب بالدعاء بالسقيا في أشعارٍ، هي في منتهى الرقة، وعلو النفس، ورشاقة الأسلوب، لا يأتي عليها الحصر والاستقصاء، فهم إذا أرادوا الدعاء لأحدٍ بالحياة، ولين العيش، وسُبُوغ النعمة، قالوا : «سُقِيَاله» و«سقاها الله»، كما يقولون : «طُوبَى له» و«حياه الله».

كما أدرك العربُ في أدبهم «نعمة الماء» فجعلوه في تحيتهم ودعائهم، ألا ترى أنهم قد أكثروا من قولهم «سقياً ورعياً في التحية والدعاء، وإذا كان سقيي، فلا بد أن يعقبه خصب، ترعاه إبلهم ودوابهم، ومن هذا قول النابغة:

نُبُتْ نَعْمَا عَلَى الْهَجْرَانِ عَاتِبَةً  
سَقِيّاً وَرَعِيّاً لَذَاكَ الْعَاتِبِ الزَّارِي

ويقول علقمة :

فَلَا تَعْدِلِي بَيْنِي وَبَيْنَ مُغَمَّرٍ  
سَقَتِكَ رَوَايَا الْمُزْنِ، حَيْثُ تَصُوبُ  
وَالْمُغَمَّرُ : الجاهل. - وَتَصُوبُ : بمعنى تنزل.

\*\*\*

كما رأينا العَرَبِيَّ يَقُولُ في دعائه على الإنسان : مَالَهُ، أَحَرَ الله صدره!!! أي أعطشه... وفي الدعاء : سلط الله عليه الحرة تحت القرة!! يريد العطش مع البرد؛ ورماه الله بالحرّة والقرة، أي بالعطش والبرد... وقالوا : أَحَرَ الرجل، فهو : محر، عطشت إبله. (55) وأيُّ شيء أعظم مصيبةً وخطراً على الإنسان من العطش في أرض حارة؟!!

(55) اللسان ص : 178 / 4 وما بعدها «حر».

بل إنهم في مدائحهم يشبهون الممدوح بالمطر والسحاب وبالبحر، لأن المطر سر الحياة في الصحراء، وإن كان الرجل الحضري الذي يرتوي من الأنهار، ويعيش على التجارة، لا يدرك تمام الإدراك نعمة المطر والماء، بل لعله يتوقعه بشيء غير قليل من الضيق...

فالشاعر الجاهلي في شدة لهفته على الماء، وتأمله له ولآثاره في بلاده، قد كان يعكس نفسية العربي في صحراء شبه الجزيرة العربية، ذلك الإنسان الذي كان في شوق مقيم دائم إلى الماء، فنجدده يكافح وينافح ويناضل من أجل قطرة الماء ينقُ بها الغلة، ويَبِلُّ الصَّدَى، فيلاحقها أينما وجدت، فهو في تَرْحَال دائم، عينه معلقةً بالسمااء يتتبع مواقع القطر، ويراقب حركة السحاب، وهو لا يتبعه بعينه وجسمه وحسب، وإنما يخفق له قلبه خفق المحب الولهان، وَيُسَخَّرُ له عقله من أجل استنباطه والمحافظة عليه، فكان يشعر بالغبطة والرضى والسعادة تَغْمُرُهُ عند ما يتأمل المطر نازلاً من السماء، أو متدافعاً على وجه الأرض...

فهذا ذو الرمة غيلان بن عقبة يقول في صاحبتة «مِية» ويدعو لدارها بأن تدوم لها السلامة على الزمان من طارق الحدّثان، وأن يدوم نزول الأمطار بساحتها، وكُنَى بنزول الأمطار بساحتها عن الخصب والنماء، بما يستتبع من رفاهية أهلها، فقال :

أَلَا يَا اسْلَمِي، يَا دَارَ مِيٍّ عَلَى الْبَلَى  
وَلَا زَالَ مِنْهُلَا بِجَرْعَائِكَ الْقَطْرُ(56)

لقد عجز نَقْدَةُ قُدَامَى، وقَصُرَتْ بهم خطاهم عن الحكم الصائب، والتقدير السليم، لاعتمادهم على قِيَم فنية، ومعايير أدبية، انحدرت إليهم من أممهم الأجنبية، إن كانوا من الموالى، أو من بيئة المدينة المستقرة

---

(56) «الْبَلَى» من بلي الثوب يبلى كرضي يرضى : أي خلق ورث... منهلا : مسكبا... الجرعاء : رملة مستوية لا تنبت شيئاً... القطر : المطر.



التي كانوا يضطربون فيها، ويخضعون في ظلالها إلى أعراف وتقاليد؛  
أنماط من العيش تختلف عما يضطرب فيه أبناء الصحراء اختلافاً كثيراً...  
فمن ذلك نقدهم (57) لقول ذي الرمة السابق : «ألا يا أسلمى» فاحتجوا  
بأن في قوله هذا، إفساداً للدار التي دعا لها، وهي أن تغرق من دوام  
انهلال القطر، وقالوا : الجيد في المعنى قول طرفة :  
فَسَقَى دِيَارَكَ - غَيْرَ مَفْسِدِيهَا

صَوَّبَ الرِّبْعَ، وَدِيمَةُ تَهْمِي

لأن قوله «غير مفسديها»، تتميم للمعنى، واحتراس للديار من الفساد  
بكثرة المطر. (58)

وذكر صاحب «العمدة» أن ناقد بيت ذي الرمة هو قدامة بن جعفر، ثم  
أورد ردّ بعضهم عليه : «بأن الشاعر قدم الدعاء بالسلامة للدار في أول  
البيت، (59) وعقب المؤلف بقوله : إن هذا الردّ هو الصواب. (60)

ولما كتبت ولادة بنت المستكفي بالله، إلى ابن زيدون قصيدتها : ألا،  
هل لنا من بعد هذا التفرق... إلى أن قالت :

سقى الله أرضاً، قد غدت لك منزلاً

بكل سَكُوبٍ هَاطِلٍ الْوَبْلُ مُغْدِقٍ

كتب إليها ما يلي : «...ولما كنت ربما حثثني على أن أنبهك على ما أجد  
فيه عليك نقداً... وإني انتقدتُ عليك قولك :

سقى الله، أرضاً، قد غدت لك منزلاً...

فإن ذا الرمة قد انتقد عليه قوله، مع تقدير الدعاء بالسلامة :

(57) قدامة بن جعفر، نقد الشعر» تحقيق : كمال مصطفى، مطبعة أنصار السنة المحمدية، 1949،  
ص 137 - 138، والقيرواني الحسن بن رشيد، العمدة، ط : السعادة، مصر ط : 1383 -  
1963، ص : 50 - 51/2.

(58) العمدة : ص : 50/2.

(59) المصدة السابق، ص 51/2.

(60) المصدر السابق، ج : 2 / ص 51.

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَ «مَيِّ» عَلَى الْبَلَى  
وَلَا زَالَ مُنْهَالًا بِجَرَعَائِكَ الْقَطْرُ

إذ هو أشبه بالدعاء على المحبوب من الدعاء له، وأما المستحسن فقول  
طرفة بن العبد من قصيدة يمدح بها قتادة بن مَسْلَمَةَ الْحَنْفِي، وكان قد  
أصاب قَوْمَهُ سَنَةً، فَأَتَوْهُ، فَبَذَلَ لَهُمْ :

فَسَقَى دِيَارَكَ غَيْرَ مَفْسُودِيَا

صَوَّبُ الْغَمَامِ، وَدِيْمَةُ تَهْمِي (61)

ولما كان المطر، قد يفضي بالديار إلى الفساد، تحرز على ذلك بقوله :  
«غير مفسديها»، ولم يقع فيما وقع فيه ذو الرمة. (62)

\*\*\*

وقد سأل الحافظ الحجاري صاحب «المُسَهَّب» الوزير أبا بكر بن  
عبد العزيز عن المعتمد بن عباد كيف يراه؟ فقال : «قصده، وهو مع أمير  
المسلمين يوسف بن تاشفين في غزوته للنصارى المشهورة؛ فرفع إليه  
قصيدة منها هذا البيت :

وَلَا سَقَاهُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَطَشٍ

إِلَّا بِبَعْضِ نَدَى كَفِّ ابْنِ عَبَّادٍ

قال الوزير أبو بكر بن عبد العزيز : ثم أخذ المعتمد البطاقة، وجعل  
يجيل النظر والفكر في القصيدة، وأنا مترقب لنقده، لكونه في هذا الشأن  
من أئمنته، وكثيرا ما كان الشعراء يتحامونه لذلك، إلا من عرف من نفسه  
التبريز، ووثق بها، إلى أن انتهى إلى قلبي :

وَلَا سَقَاهُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَطَشٍ

(61) نفح الطيب، ص : 207/4. «مواقف في الأدب والنقد» د. عبد الجبار المطلبي.

(62) أنظر : التلخيص في علوم البلاغة «لإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني  
الخطيب، شرح : عبد الرحمن البرقوقي، ص : 229.

فقال : «لأي شيء بخلت عليهم أن يُسَقَوْا بِكَفِّهِ؟ فقلت : إِنْ، كان يلحقني من النقد ما لحق ذا الرمة في قوله :  
 «ولا زال منهلاً، بجرعائك القصر...» وكان طوفان نوح أهونَ عليهم من ذلك، فتألقت غُرَّتُهُ، وبدت مَسْرَتُهُ، وقال : إنا لله على إن لم يُعَنَّ الزمان على مكافأةٍ مثلك. (63)

\*\*\*

وعود على بدء...  
 أو كقول الآخر يدْعُو لها بالسقيا :  
 أسقى ظلّولهم أجشُّ (64) هَزِيمُ  
 وَغَدَتْ عليهم نضرة ونعيمُ  
 أو سؤاله السقيا لها من البرق، كقوله :  
 يا برقُ، طالعُ منزلاً بالأبرق  
 وَاحِداً السحابَ لها حداء الأينقُ  
 ويقول جرير بن عطية يدعو بالسقيا للخيام :  
 متى كان الخيامُ بذِي طُلُوح  
 سقيتِ الغيثَ أَيُّثَها الخيامُ  
 [صحيح الأخبار ج : 1/ 209]

\*\*\*

ولما كانوا يتأثرون به من اليبس والجفاف، وندرة المطر، وقلة الماء، حتى إنهم كانوا يدعون لقبور موتاهم بالسقيا، والتعهد بالحيا؛ وذلك كقول الشاعر العربي أبي تمام :

(63) «نفع الطيب» ص : 3/ 571.

(64) مطر أجش : شديد الصوت، غيث هزيم : لا يستمسك.. تهزمت السحابة بالماء : تشققت مع صوت.

أرسي النسيم بواديكم، ولا بَنِرِحَتْ  
حَوَامِلُ الْمُزْنِ، في أجداثكم تَصْعُ (65)

ولا يزال بَرِيضُ النبت تُرْضِعُهُ  
على قبوركم، العَرَّاصَةُ الهَمَع

بل إنهم توسعوا في دعائهم بالماء للغير حتى خاطبوا ما لا يعقل، كقول  
لسان الدين ابن الخطيب السلماني في موشَّحِه المشهور يدعو للزمان وهو  
يذكر أيام صباه، ومراتع شبابه، حيث يدعو لها بالسقيا، ويقول :

جَـادَكَ الغَيْثُ، إذا الغَيْثُ هَمَى  
يا زمانَ الوصلِ، بالأنْدلسِ  
لم يكن وصلُك إلا حُلُمًا  
في الكَرَى، أو خِلْسَةً المختلِسِ

\* \* \*

كان العربي يضمن، على الغير، إذا امتلك مورداً للماء، باعتباره مادة  
الحياة، وأصل البركات، وعلى غزارته وجودته تتوقف صحة الأجسام،  
وَرَفَاغَةُ العيش، وطيب الإقامة...

فقد يهلك عددٌ من الناس قبل بلوغهم موضع ماء... إما من شدة الحر  
والعطش والجوع... وإما من السيف الذي لا بد لهم من استعماله لإجبار  
أهل الماء على السماح لهم بمشاركتهم لهم إياه، أو بالاستحواذ عليه،  
ونزولهم به، وطردهم أصحابه عند أماكن أخرى... أو بهروبهم من هذا  
الموضع لقوة أصحابه، ولتمكنهم من رد الطامعين عنه...

فكانت الحروب لا تنقطع بَتَاتاً، بين القبائل العربية بحكم الظروف التي  
فرضت على الجزيرة العربية القاحلة الجداء من أجل الاستيلاء على مواطن  
الماء والكلأ والعشب، ويصدق عليهم قول الشاعر :

---

(65) الجذث : القبر.

وأحيانا على بكرٍ أخينا  
إذا ما لم نجدُ إلا أخانا

فكان لكل قبيلة، نظرا لهذه الظروف، فارسٌ مغوار، به تحمي الذمار،  
وتمنع العار، وتسود الكرامة والعزة لهذه القبيلة... وتهيمن أعراف معينة،  
قسراً وعنوة، من حيث الأسرُ والمنّ والفداء، وكانت القبيلة القوية  
والمنتصرة تفتخر بأن لها الكلمة العليا، وأن القبائل الأخرى، ترهبها،  
وتخشاهـا... بل إن شاعرها عمرو بن كلثوم يقول مفتخرا على غيره من  
القبائل :

ونشربُ، إن وردنا الماء صفوا  
ويشربُ غيرُنَا كدِراً وطينا (66)

\*\*\*

ولم تعمّر مدينة من مدن البشر، أو يستبحر عمرانها، إلا لأنها كانت  
مبنية على نهر متدفق، أو ينبوع مُغدّودٍ... ولا سيما مُدُنُ العرب  
الضاربين في البوادي، فإن المناهل والغُدُران غَرَضُهم الأسمى الذي  
يطمحون إليه، ويحرصون عليه، ويكثر بينهم التحاسد والتنافس فيه؛ وكم  
من غارة شنت، ونار حرب شبت، من أجل غدير، أو اغتصاب بئر؛ فقد  
كانت الآبار ثروة ورأس مال كبير في جزيرة العرب، تحي الأرض وتميتها،  
وتفني الناس وتميتهم، فمن يملك الماء، يملك مالا بقدر سعة تلك البئر،  
ومقدار ناتجها من الماء... ولذلك كانوا إذا حفروا بئرا، أو إذا ظهرت لهم  
مياه عذبة غزيرة يقدمون إلى آلهتهم الحمد والشكر والندور...

وقد أقامت الآبار الكبيرة العميقة العذبة مدنا، وأماتت مدنا، بسبب  
نضوب مياهها وجفافها، وهي على هذه الأهمية الخطيرة إلى الآن...  
وطالما كانت الآبار مصدرَ نزاع خطيرٍ مُدمرٍ بين القبائل، وسببا في  
إثارة الحرب...

(66) المعلقة السبع، معلقة عمرو بن كلثوم، ص: 118.

فالآبار مصدرٌ مهم من مصادر الثروة لمالكيها، ولا سيما إذا كانت في الأماكن المسكونة بصورة خاصة... فقد كان أصحابها يبيعون الماء للناس... يبيعونه قَرَباً لاستعمالها في الشرب... فقد كان صاحب «بئر رومة»، وهو يهودي يبيع الماء منها للناس... فإذا غاب قَفَلَ عليها بِقُفْلٍ، فلا يستطيع أحدٌ أخذ الماء منها... فشكا المسلمون ذلك إلى الرسول، فقال : «ومن يشتريها ويمنحها للمسلمين، ويكون نصيبه كنصيب أحدهم، فله الجنة؟ فاشتراها عثمان بخمسة وثلاثين ألف درهم... فَوَقَفَهَا... وذكروا أن اليهودي كان يبيع كل قربة من الماء بدرهم.(67)

\*\*\*

والآبار أسطوانات تفجر الينابيع تحت الأرض عن طريق ثقب الطبقات التي سوف تحمل الماء... ويتراوح عمق البئر المائي بين بضع بُوصات وستة آلاف قدم... وهو أقصى عمق حالي... أما آبار النفط، فقد نقب عنها إلى عمق يزيد على ثلاثة أميال... وتتفاوت قوة تدفق الآبار بقدر ما يتفاوت عمقها... فكلما اتسعت الثقوب أو المسافات الموجودة في طبقات الأرض، ازدادت سرعة تدفق الماء في البئر...

وعند ما تكون كمية الماء في الطبقة الحاملة للماء كبيرة، ومنبعها وفيراً، وكذلك عندما تكون الظروف مواتية للتدفق، يمكن الحصول من البئر على كمية وفيرة من الماء... وأفضل الطبقات الحاملة للماء هي المكونة من الحصى...

وليكون البئر صالحاً بالمعنى الحديث، ينبغي أن يهيء مورداً كافياً من الماء اليُسَّر غير الملوث أو الكريه الطعم أو الرائحة... كما ينبغي أن لا يتوقف عن الإنتاج في الطقس الجاف... والماء المستخرج من الآبار العميقة

---

(67) عمدة القاري، ص : 11/190 وما بعدها.

يكون نظيفاً وخالياً من الجراثيم عادة، ولكنه، كثيراً، ما يكون عسراً، أو مختلطاً بمركبات الحديد أو الكبريت التي تكسبه طعماً منفراً... وفي أغلب الآبار، لا بد من جلب الماء إلى السطح بواسطة الدلاء قديماً.. أو المضخات حديثاً... ولكن «الآبار الارتوازية» تتدفق باستمرار، لأن الضغط الواقع على الطبقات الحاملة للماء يكفي لرفع الماء فوق مستوى سطح الأرض...

وللأهمية المذكورة للآبار في حياة العرب كَثُرَتْ في لغتهم المصطلحات الخاصةُ بها من أسماء لأنواع الآبار... ومن مصطلحات للحفر، ولوسائل الحفر، ومن ألفاظ للمواد التي تستعمل في بناء البئر، وفي استخراج الماء منها، ومن كلمات تشير إلى أبعاد البئر، ومقدار ما فيها من ماء، وأبعاد أفواهاها(68). كما قدمنا ذلك في موضعه...

\*\*\*

ويعبر عن البئر بألفاظ أخرى، منها الرِّكِيَّة، وتجمع على رَكِي ورَكَايا، وقد وردت اللفظة في حديث الرسول، وكان الناس يتبردون أحياناً في الركايا من شدة حر الصيف.(69) وعرفت البئر بالحجارة بالطوى، والطوية، وقد ذكر الإخباريون أن عبد شمس بن عبد مناف بنى بئراً بأعلى مكة عرفت بطوى،(70) أما الجُبِّ، فهو البئر، وذكر بعض علماء اللغة، أنه البئر

(68) «تاريخ العرب قبل الإسلام» د. جواد علي، ص : 7/183.

(69) شرح القاموس، ص : 15/155.

(70) شرح القاموس، ص : 10/239 - ذو طوى : بئر معروفة بهذا الاسم إلى هذا العهد، وموقعها الآن بين بيت الوزير العام للمالية السابق الشيخ عبد الله السليمان، وبيت أخيه وكيل وزارة المالية السابق الشيخ محمد السليمان، قال الشاعر وهو من هذيل :

إذا جئت أعلى ذي طوى، قف، ونادها  
عليك سلام الله ياربّة الخدر  
هل العين ريماً منك أم أنا راجع  
بهمّ مقيم، لا يريم من الصدر =

الكثيرة الماء ا لبعيدة القعر، (71) وقيل : الجب : الرّكية التي لم تطوّ، فإذا طويت فهي بئر، قال الأعشى :

لئن كنتَ في جبٍّ ثمانين قامَةً

ورقيت أسبابَ السماءِ بِسُلمٍ

وسُمِّيتُ جبًّا، لأنها قطعت في الأرض قطعاً. (72)

\*\*\*

والعربي، كان، لا وجود بجرعة ماء، إلا إذا جادت الصخرة بالماء الزلال، لأنه كان يعتبر البئر التي في حيازته ملكاً خالصاً له، فلا يقربها أحد، ولا يمتح منها إنسان، ولا ينقع غلته منها خَلْق، ولعل هذا ما صوره الشاعر العربي البخيل سنان ابن الفحل الطائي الذي يقول :

وقالو : جُنِنْتَ؟ فقلتُ : كـلا

وربي مــــا جننتُ، ولا انتشيتُ

ولكنني ظلمت، فكـــــــدت أبكي

من الظلم المُبِين أو بكيـت

فإن الماء ماءً أبي وجدي

وبئر «ذو حفرت»، وذو طـويت (73)

\*\*\*

---

= وقال أبو خراش الهذلي :

وقتلـت الـرجـالَ بـذي طـواء

وهـدمت القـواءـد والعـروشـا

[صحيح الأخبار، ص : 2/140].

(71) شرح القاموس، ص 10/229.

(72) ج : الجب : جباب، وجبية، وأجباب.

(73) ذو طويت : بنيت حافته بالحجارة، وقد استعمل الشاعر هنا «ذو» في المفرد المؤنث غير العاقل، إذ لا فرق بين أن يكون ما تستعمل فيه «ذو» الموصولة عاقلاً أو غير عاقل، فالشاعر يريد : وبئر التي حفرتها والتي طويتها؛ لأن البئر مؤنثة بدون علامة تأنيث. [أنظر دراسة في المؤنثات السماعية المشهورة في قصيدة لجمال الدين عثمان المعروف بابن الحاجب (ت : =



## وأشرب فأتقنح :

ولا يفهم من هذا أن العرب كانوا لا يستعملون إلا الماء لشرابهم.. فقد كانت لهم أنواع من الأشربة المختلفة كاللبن والخمر والنبيذ والسويق وسائر أنواع الشراب الذي كانوا يَسْتَحْلُونَهُ ويستعملونه...

وقد قالت أمُّ زرع بنتُ أَكْجَل بن ساعدة، وهي الزوجة الحادية عشرة التي تصف زوجها : «وَأَشْرَبُ، فَأَتَقَنَّحُ» وهي بمعنى الري بعد، أي تشرب حتى لا تجد مساعا... كذا ذكره السيوطي في تفسير «حديث أم زرع» في تعليقه على البخاري...

وقال شمر عن أبي زيد : التَّقَنَّحُ الشَّرْبُ فوق الري... قال أبو عبيد : ولا أراها قالت ذلك إلا من عزة الماء عند العرب، يعني قول أم زرع : «أشرب فأتقنح»...

وقد علّق عليه القاضي أبو الفضل عياض تعليقا طريفا وجديدا، إذ أنه يَعَجِبُ من قول صاحبه بفخر هذه المرأة بشرب الماء لكونه عزيزا عندهم، ولقلته، معتمداً على أدلة عقلية ونقلية، ذلك أن المؤلف يورد روايات وأشعاراً تبين بأن الماء لم يكن شراب العرب الوحيد، بل هو على العكس من ذلك، لم يكن عندهم مفخرة، لأنهم يشربون اللبن، ويفخرون به، والفقير المعوز منهم من يكتفي بشرب الماء... قال القاضي عياض : «عنى أبو عبيد

---

= 646هـ) للدكتور إحسان جعفر من سوريا نشرها في العدد 21 من مجلة «اللسان العربي» عام 1983، في قوله :

والقوس، ثم المنجنيق، وإرنب

والخمـر، ثم البئر، والفخـذان

وكان «لويس شيخو» مدير مجلة المشرق قد نشر هذه القصيدة بدون اعتناء عام 1908 في بيروت، وأعاد طبعها في كتاب : «البلغة، في شذور اللغة» عام 1914. كما أن عصام نور الدين نقل هذه القصيدة في كتاب : «شيخو»، وضمنها كتابه : «أبنية الفعل في شافية ابن الحاجب» الصادر في بيروت وهو عبارة عن رسالة دكتوراة.

رحمه الله أنها لا تفخر بالري من الماء، إلا وهو عزيز، والعجب منه، وما اضطره إلى هذا التأويل؟ وكأنه لا شراب إلا الماء... فأين أنواع اللبن والخمر، والنبيد، والسويق، وسائر أشربة العرب التي كانوا يَسْتَحْلُونَهَا ويستعملونها من صريف، وضريب، وصريح، ورحيق، ونبيذ، ومزر، وجعة، وبتع، وفضيخ، وطلاء، وباذق، وسُوَيْف، بل كانوا يذمون بشرب الماء، ويهجون به، كما قال بعض الهذليين :

ومن تَقَلُّ حَلُوبَتُهُ، وينكَلُ      عن الأعداء، يغبقه القراح  
أي مَنْ قل ماله، وَجَبُنْ عن الغارات، ولم يصب المغانم، رجع إلى الماء القراح، لإعوازه اللبن

وقال عروة ابن الورد :

أقسَّم جسمي، في جُسُوم كثيرةٍ  
وأحسُّو قَرَاخَ الماء.. والماءُ باردُ  
أي أوثر أضيافي وجيرتي بمطعومي وبمشروبي، وأقنع بشطف العيش وشرب الماء القراح البارد، بل الذي أرادت اللبن وشبهه...

\*\*\*

### أجمل النماذج الشعرية في وصف الماء :

وقد أنتج الشاعر الجاهلي أجمل النماذج الشعرية في وصف الماء في أحواله المختلفة، وكان أدق ملاحظة، وأكثر تنبهاً إلى أسرار الجمال في الطبيعة، ومن أهم ظواهرها الماء... فالشاعر الجاهلي كان ملتحماً مع طبيعة بلاده، دائم الملاحظة لِذِقَائِهَا... ومن هنا كان العربي البسيط يبدو تعلُّقه الواضح بالماء في لغته وأساليبه وأمثاله وقصصه الشعبية...

لقد كانت للعرب في جاهليتهم أماكن للسقاية، وهذا ما دفعهم، في جاهليتهم، وقبل أن يأتي الإسلام بتشريعاته المائية المفصلة أن يسرفوا في حدودهم الضيقة على تنظيم هذا العنصر الحيوي للحياة... فقد كانت قریش حَصْرًا، وأهل تجارة... وتجارتهم قائمٌ أكثرها على الحجاج الذين

يَرِدُونَ مَكَّةَ فِي الْمَوَاسِمِ، فَكَانَ لِمَقْتَضِيَّاتِ مَصْلَحَتِهِمْ، تَسْهِيلُ طَرِيقِ الْقُدُومِ،  
وَتَرْغِيبِ النَّاسِ فِي الْحَجِّ، وَوَقْفِ الْمِيَاهِ...

\*\*\*

وَنَظَرُوا لِعِلَاقَةِ الْكَعْبَةِ بِأَسْبَابِ مَعَاشِهِمْ، بِذَلِّ الْعَنَايَةِ بِالْقِيَامِ عَلَى  
شَوْنِهَا، وَسَهَّلُوا عَلَى أَكْثَرِ النَّاسِ الْقُدُومَ إِلَيْهَا، فَأَنْشَأُوا فِيهَا أَمَاكِنَ  
لِلسَّقَايَةِ، وَأُخْرَى لِلرَّفَادَةِ، وَأُخْرَى لِغَيْرِ ذَلِكَ... وَمَا زَالَتْ تِلْكَ الْمَنَاصِبُ  
تَتَعَدَّدُ حَتَّى أَصْبَحَتْ قَبِيلُ الْإِسْلَامِ، بِضِعَةِ عَشْرٍ مَنَصِبًا، هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ  
مَنَاصِبِ الدَّوْلَةِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ، اقْتَسَمَتْهَا قَرِيشٌ فِي بَطُونِهَا، وَصَاحِبُ  
السَّقَايَةِ يَتَوَلَّى سَقَايَةَ الْحَجَّاجِ لِقَلَّةِ الْمَاءِ فِي مَكَّةَ، فَيَنْشِئُ حِيَاضًا مِنَ الْجِلْدِ  
تَوْضِعَ فِي فَنَاءِ الْكَعْبَةِ، تَنْقُلُ إِلَيْهَا الْمِيَاهَ الْعَذْبَةَ مِنَ الْآبَارِ عَلَى الْإِبِلِ فِي  
الْقَرَبِ وَالْمَزَاوِدِ...

لَقَدْ كَانَ الْمَاءُ فِي «أُمِّ الْقُرَى»، مِنْ أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ، آبَارِ نَبْعٍ وَمَصَانِعٍ  
مِمَّا يَجْتَمِعُ مِنْ مِيَاهِ الْمَطَرِ... وَمِنْ هَذِهِ الْآبَارِ «الْيَسِيرَةُ» الَّتِي حَفَرَهَا لُؤَيُّ  
ابْنُ غَالِبٍ، «وَالرُّوَيْ» الَّتِي حَفَرَهَا مُرَّةُ بْنُ كَعْبٍ، وَ«خُمٌّ وَرُمٌّ»، وَهُمَا مِنْ حَفَرِ  
كَلَابِ بْنِ مُرَّةٍ، وَ«الْجَفَرُ» وَ«الْعَجُولُ» وَ«بَذْرُ» الَّتِي حَفَرَهَا هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ  
مَنَافٍ، وَ«سَجْلَةٌ» وَ«خُمٌّ»، وَ«قَمٌّ» أُخْرِيَانِ حَفَرَهُمَا عَبْدُ شَمْسٍ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ  
وَ«أُمُّ أَحْرَادٍ»، وَ«السُّنْبُلَةُ»، وَهِيَ مِنْ حَفَرِ بَنِي جَمَحٍ، وَ«الْغَمْرُ» لِبَنِي سَهْمٍ،  
وَالْحَفِيرُ لِبَنِي عَدِيٍّ، وَهِيَ اسْمٌ مِنْ عَشْرِينَ بئْرًا، أَوْ مَنْزَلًا فِي بِلَادِ الْعَرَبِ؛  
قَالَ الْحَفْصِيُّ : إِذَا خَرَجْتَ مِنَ الْبَصْرَةِ تَرِيدُ مَكَّةَ، فَتَأْخُذُ «بَطْنَ قُلْجٍ، فَأُولُ  
مَاءٍ تَرِدُ الْحَفِيرَ، قَالَ بَعْضُهُمْ :

وَلَقَدْ ذَهَبَتْ مُرَاغِمَا

أَرْجُو السَّلَامَةَ «بِالْحَفِيرِ»

فَرَجَعْتَ مِنْهُ سَالِمًا

وَمَعَ السَّلَامَةَ كُلَّ خَيْرٍ

وكذلك «بئر السقيا» لبني مخزوم، و«الثريا» لبني تميم، و«النقع» لبني عامر بن لؤي، وبئر «حويطب»، لحويطب بن عبد العزى من بني عامر بن لؤي، و«بئر أبي موسى الأشعري» بالمعلّاة، و«بئر شوذب»، و«بئر بكار»، و«بئر وردان»، و«سقاية سراج»، و«بئر الأسود» للأسود ابن سفيان من مخزوم، وغيرها... ومن هذه الآبار ما هو معروف إلى اليوم باسمه ومكانه، ومنها ما قد طوي اسمه أو ردم مكانه، فإذا سألت علماء مكة لم يعرفوه، والظاهر أن جميع هذه الآبار لم تكن لتكفي مكة في الجاهلية إلى أن وسّع عبد المطلب «بئر زمزم»، فكثر الماء، وارتوى الحجيج (74)..

\*\*\*

كان عبد المطلب، جدُّ الرسول عليه السلام، يُطعم الناس، وَيَسْقِيهِمْ، إذا حَجُّوا البيت، يجمع لهم الماء في أحواضٍ من الأدم، وكان يجد في جمع هذا الماء لسقاية الحجيج جَهْدًا وعُسْرًا... وهكذا كانت السقاية لبني عبد المطلب، فأقرها النبي عليه السلام في الإسلام، حتى قال لهم عليه السلام، وقد أتى على بني عبد المطلب يسقون على زمزم، «انزعوا بني عبد المطلب، فلولاً أن يغلبكم الناس، على سقايتكم لنزعت عنكم، فَنَاوَلُوهُ، فَشَرِب...»

\*\*\*

### بلد أجرد، جرد من زخارف الطبيعة ...

تحدثنا سابقاً عن آبار مكة، وأفردنا الحديث عن مياه أم القرى لِشَرَفِهَا وَمَقَامِهَا عند الله، وعند رسول الله، والناس أجمعين... وبالرغم عن طبيعة هذا البلد الأمين، الإسلامي المقدس، الذي جرد من كل زخارف الطبيعة وبهائها وزُروائها، حتى تكاد تكون أجردَ بلدة عرفها البشر، وأقحَلَ بُقعة رأتها العين... ولكنها جنةٌ للعبادة، وفردوسٌ مُقيم لِرَحَابِ الله... إنه وادٍ تحيط به جبال جرداء، صخرية صماء، قاتمة اللون، ليس في شعابها

(74) «الارتسامات اللطاف» للأمير شكيب أرسلان، ص : 16.

أشجار ولا أنهار، ولا مروجٌ تُلطف من حرارتها، وشدة وَقْدَةِ شمسها،  
وتحدث أهل الأخبار عن «سقاية» عرفت «بسقاية عدي»، زعموا أنها كانت  
بالمشعرين بين «الصفاء والمروة»، وأن مَطْرُود الخزاعي ذكرها حين قال :  
وما النيل يأتي بالسفين يكفّه  
بأجودَ سَيِّباً من عديّ بن نُوفَلٍ  
وأنبطت بين المشعرين سقاية  
لحجاج بيت الله أفضل مَنْهَلٍ  
وذكر أن هذه السقاية، كانت بسقاية اللبن والعسل(75).

\*\*\*

وموضوع السقاية موضوع غامض، فبينما نجد أهل الأخبار يفسرون  
السقاية بإسقاء المحتاجين من الحجاج بالماء مجاناً ووقفاً، نجدهم  
يتحدثون عن السقاية على أنها إسْقَاء الحجاج من الزبيب المنبوز بالماء...  
وذكر أن العباس كان يليها في الجاهلية والإسلام(76).

\*\*\*

وإذا تتبعنا مواضع المياه على خارطة الجزيرة العربية، عموماً، التي  
تبلغ مساحتها حوالي مليون وربع مليون ميل من الأميال المربعة، نجد أنها  
قليلة لا يتناسب توزيعها ووجودها مع هذه المساحة الشاسعة، ثم إنها  
مياهٌ ضيقة العين، لا يتسع صدرها لإرواء بقاع واسعة على نحو ما نجده  
في مياه الأنهار الضخمة العظيمة الكبيرة في أقطار أخرى...  
وكأن الله سبحانه وتعالى، لما قضى بأن تكون مكة(77) محلاً للعبادة،  
ومثابة للناس وأمناء، قضى، أيضاً، بتجريدها من كل زخارف الطبيعة حتى

(75) نسب قریش، ص : 179.

(76) تاج العروس، ص : 10/181 - مادة سقى.

(77) إن التسمية بمكة إنما جاءت لقلّة الماء بها، فكان المكيون يُمَكِّنون الماء : أي يمتصون.

لا يلهو فيها العابد عن ذكر الله بخضرة أو غدير، وحتى يكون قصده إلى مكة خالصا لوجه ربه الكريم، لا يشوبه تطلع إلى جنان أو رياض، ولا حنين إلى حياض أو غياض(78)...

ويبدو وفق ما ذكر هيكल أن وادي مكة كان موثلا لراحة رجال القوافل بسبب ما كان فيه من بعض العيون، ثم اتخذت فيه بعض المستودعات للتجارة، وأقيمت فيه بعض الدكاكين لا لتماس العون منها(79).

\* \* \*

إن الطبيعة غير عادلة في توزيع المطر، فالمؤسف أن توزيعه على كوكبنا ليس عادلا... فغالبا ما تمطر السماء، حيث لا ينتفع به الإنسان، ففي بعض المناطق من جبال الألب، مثلا، يصل المتوسط السنوي لغزارة الأمطار إلى أكثر من 2,500 ملم، في الوقت الذي يقل فيه نصيب الوديان «البافارية» المجاورة إلى استيراد المياه من مناطق بعيدة عَبْرَ أنابيب، يبلغ طولها أكثر من 120 كلم، لتأمين حاجتها إلى الماء...  
والرزق كالماء، بين الناس مُنْقَسِمٌ

هذا غريقٌ، وهذا يشتهي المطرا

وفي هذا المعنى أشار أبو تمام، بقوله :

وإذا تأملت البلاد رأيتها

تثري كما تثري الرجال وتُعدم

حظ تعاوره البقاع لوقته

وإِ به صِفَرٌ ، وآخر مُفْعَم

وفي العصور السالفة السابقة السحيقة كان وضع شبه الجزيرة العربية أفضل مما عليه الآن... فهناك إشارات ودراسات تبين أن أرض شبه

(78) «الارتسامات اللطاف، في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف» شكيب أرسلان : ص : 14.

(79) «حياة محمد» محمد حسين هيكل، ص : 85، مكتبة النهضة المصرية، ص : 1965.

الجزيرة العربية كانت أكثر أمطاراً، وأوفر نباتاً، وأكثر خضرة مما عليه الآن، «فديودورس» (80) الصقلي في القرن الأول قبل الميلاد، يتحدث عن بلاد العرب الواقعة شمال العربية السعيدة، والتي تمتد حتى تجاور سوريا بأنه يتخللها الكثير من الأنهار، وتهطل عليها الأمطار الغزيرة في الصيف حتى يكون لسكانها بذلك موسمان زراعيان في السنة الواحدة (81).

ولقد أتى على الإنسان العربي حيناً من الدهر، كان له مع الماء في شبه الجزيرة العربية قصةٌ وصراعٌ، وهو صراعٌ من أجل البقاء والحياة... صراع الإنسان مع الطبيعة، وصراع الإنسان مع أخيه الإنسان على موارد مائية شحيحة في بلاد تكوّن جزءاً من النطاق الصحراوي العالمي الجاف، وفي منطقة كميات الأمطار فيها عن 200 ملم سنوياً في معظم الجهات ما عدا الجنوب الغربي منها (82).

وإن فترات الجفاف التام كثيراً ما تمتد في هذه البلاد إلى أربع سنوات متتالية في الجزيرة العربية، وتصل إلى الحد الذي وصفه أمير البيان شكيب أرسلان رحمه الله بقوله : «إذا مَرَّ عليها الإنسان يوماً من أيام الصيف في هاجرة، ظنَّ نفسه يَدُوسُ بِلَاطَ فُزْن، وإن تَرَكَ على الصخور لَحْماً يُشَوَّى بِلَا نَار، أَوْ مَاءً كَادَ يَغْلِي بِلَا وَقُود...»

---

(80) ديودوروس الصقلي Diodore ولد في أجيريون، أحد الكتبة اليونان، نبغ في أيام أوغسطس، له «المكتبة التاريخية، وهي تاريخ عام من الخليقة إلى موت يوليوس قيصر (45. ق.م).

81 Diodorus Siculus 2/54.

(82) الشريف عبد الرحمن : جغرافية المملكة العربية السعودية - الرياض.. دار المريخ - 1977، ص : 82.

## الفصل الثاني :

### الوقوف للمياه في العصر الجاهلي

درج العرب في العصر الجاهلي، على إنباط المياه، واستخراجها من باطن الأرض، أو نَثَلِ الأتربة التي غطت بعض الآبار لفائدة العطشي من السابلة والمارة والمسافرين الذين يجدون في مياهها رُوحاً للأرواح، وشفاءً للمُلْتَأَح، فيشفون بها أوامهم، في بوارِح القِيْظ، ويتبردون بها بالعلِّ والنَّهْل، والغَسْل والمُجاورة...

وكانوا يملأون للحجاج حياضاً من الماء يحلون بها بشيء من الثمر والزبيب، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة. (83)

إن في العصر الجاهلي كانت توجد سقايا في المعابد، يستقى فيها الماء للشرب وللتطهر، كأن تغسل الأوجه والأيدي والأرجل بالماء ليسمح للزائر بدخول المعبد، أو لتحل له إقامة الشعائر الدينية، ويُعَدُّ الماء ماءً مقدساً، لأنه من أرض مقدسة، ولذلك يتبرد به أيضاً، ويستشفى بالشرب منه.

وقد عثر المنقبون على آثار آبار وأحواض مطمورة في حرم المعابد، كان المتعبدون يستفيدون من مياهها عند زيارتهم بيوت أربابهم، وعند أدائهم الشعائر الدينية... وبئر زمزم هي البئر الوحيدة الباقية من آبار بيوت الله التي كانت في الجاهلية...

وقد كانت سقاية الحاج من المآثر الكبيرة عند أهل مكة، وهي تسقية الحاج من الزبيب المنبوز بالماء، وكان يليها في أيام الرسول العباس بن عبد المطلب (84)... وكان بعضهم يسقى الحاج اللبن والعسل (85).

(83) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، للخضري، ص : 1/36.

(84) «اللسان» ص : 14/392 (سقى) الإصابة، ص : 2/263.

(85) «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» د. جولد علي، ص : 6/419.



وقد عُنيَ قصي بسقاية الحجاج، فاتخذ لها حياضاً من آدم، توضع بفناء الكعبة، ويسقى فيها الماء العذب من الآبار، محمولة على الإبل من أطراف مكة البعيدة، كما عُنيَ بتتبع مَظَانِّ الماء العذب في مكة، فحفر بئر العَجُول، وهي في المكان الذي يمتدُّ فيه رِواقُ المسجد اليوم بجانب مسجد الراية، وهي البئر الموجودة اليوم في «الجُودرية» في الزقاق الواقع أمام قصر «الجفالي» وسمي بئر جُبَيْر بن مُطْعَم، لأن جُبَيْراً هذا نَتَلَهُ بعد أن اندثر؛ واتخذ العناية بآبار بعد قصي سُنَّةً لأولاده، فكانوا يتتبعون مَظَانَّ المياه العذبة، ويحتفرون فيها الآبار(86)...

ويتوخى الواقف المحسان للماء السبيل، أن يكون إنباطه، وحفر آباره من مال حلال، لأن هذه الجهة تخص بأفضل الأموال وأطيبها... وقد تجنب أهل الجاهلية بناء معابدهم بمالٍ حرام، فلما أرادت قريش بنيان الكعبة نادى مناديهـم : « لا تُدْخِلُوا فِي بُنَائِهَا مِنْ كَسْبِكُمْ إِلَّا طَيِّباً، لَا تُدْخِلُوا فِيهِ مَهْرَ بَغْيٍ، وَلَا بَيْعَ رَبَا، وَلَا مَظْلَمَةَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ(87) ».

\*\*\*

وقد حفرت السيدة أم البنين فاطمة الفهرية القيروانية البئر التي في صحن جامع القرويين، فكان البنائون يسقون منها الماء لبناء الجامع المكرم، حتى فرغ من بنائه، ولم تصرف فيه سواه احتياطاً منها، وَتَحَرَّياً من الشبهة...

وقد احتاطت فاطمة في أن يكون المائل من إرث حلال طاهر، حيث أنبط البُنَاتُ البئر داخل حرمها، حتى لا يستعمل الناس في المسجد جرعة

(86) «تاريخ مكة» للعلامة الحجازي أحمد السباعي، ص : 1/50.

(87) «الروض الأنف» ص : 1/130.

ماء مجهول النبع... لأن هذه الجهة يجب أن تخص بأفضل الأموال وأطيبها(88)...

\*\*\*

### فكرة وقوف المياه، من أهم ما يعنى به العرب وسراتهم...

كانت فكرة وقف المياه، في العصر الجاهلي من أهم ما يعنى به العرب وسراتهم، ويتبارى في إنباطها كرماءهم، فقد حفر هاشم بن عبد مناف «بذراً»، وهي البئر التي عند المستنذر، حَطَمَ الخَندمة على فم شِعْبِ أبي طالب، وزعموا أنه قال حين حفرها : «لأجعلنها بلاغاً للناس» قال ابن هشام : وقال الشاعر :

سقى الله أمواهاً عرفتُ مكانها  
جُرَاباً، (89) ومَلْكَوماً، (90) وبَذَر، (91) والغَمراً (92)

(88) ذكر ابن رشد نقلاً عن : «منتقى الباجي» أنه لو حبس ذمي داراً، مثلاً، على مسجد، فإنه لا يصح، لأن هذه الجهة، يجب أن تخص بأفضل الأموال وأطيبها... وأموال الكفار أبعد الأموال من ذلك فيجب أن تنزه عنها المساجد.

(89) جُرَاب : قال البكري في معجمه ص : 273 / 2، بضم أوله، إسم ماء قد تقدم ذكره في رسم بذر : قال محمد بن عبد الله بن بَلْبِيْهُد النجدي في صحيح الأخبار، ص : 131 / 4. جُرَاب : منهل معروف يقال له : جراب، وهي في شمالي (جبل مجزل) وقد كان عنده معارك عظيمة في القرن الثاني عشر والرابع عشر، وهو يحمل هذا الإسم إلى هذا العهد ... فجراب : بئر، ويحتمل أن يكون بمعنى جريب.

ومنهم من ينطقها «جراماً»، وذلك أنه لما خَصَل المتنبي ببغداد نزل رَبَض حُميد، فركب إلى المهلبى، فأذن له، فدخل، وجلس إلى جنبه، وصاعد خليفته دونه، وأبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني، فأنشدوا هذا البيت : سقى الله أمواها... وقال المتنبي : هو جُرَاباً، وهذه أمكنة قتلتها علما وإنما الخطأ وقع من النقلة!! فأنكره أبو الفرج، قال الشيخ : هذا البيت أنشده أبو الحسن الأخفش صاحب سيبويه في كتابه جرما، بالميم، وهو الصحيح وعليه علماء اللغة. (90) وملوكوم قال ابن هشام : وأما ملوكوم، فهو عهدي مقلوب، والأصل مكمول من مكلت البئر، إذا استخرجت ماءها، والمُكَلَّة : ماء الركية، وقد قالوا بئر عميقة ومعيقة، والمكلوم في اللغة : المظلوم، إذا لم يكن مقلوباً.

(91) بذر : من التبذير، وهو التفريق، ولعل ماء كان يخرج متفرقا من غير مكان واحد، وهذا البناء في الأسماء قليلة.

(92) الغمر : حفرته بنو سهم [الروض الأنف : للسهيلى، ص 1/172].

كما أن قبيلة بني سهم وقفت بئراً، وأسمتها الغمر، واحتسبتها للحجيج،  
وقفاً في سبيل الله حتى قال بعضهم :

نحن حفرنا «الغمر للحجيج

تثج ماءً، أيما ثجيج (93)

ولا ننسى «بئر سُنْبُلَة»، وهي بئر بني جمع، بئر بني خلف بن وهب،  
والتي كان الناس تستقي منها متى أرادوا، وبدون انقطاع، ومن غير سؤال  
ولا طلب حتى قال فيها شاعرهم :

نحن حفرنا للحجيج «سُنْبُلَة»

صَوَّبَ سَحَابٍ، ذُو الْجَلالِ أَنْزَلَهُ

ثم تركناها برأس القُنْبُلَة

تصب ماءً مثل ماء المَعْبَلَة

نحن سقيننا الناس قبل المسألة (94)

هكذا، كان العربي قديماً في تاريخه ينظر إلى المياه نظرة تقديس  
وإجلال، لأنها مورد الخصب والنماء، وواهبُ البركة والخير، وقد كان  
ينشد الأراجيز في أثناء حفر الآبار، أو نثل الأتربة التي غطت بعضها،  
ويتبين من الأراجيز التي وصلت إلينا، أن نار المنافسة اشتعلت في بطون  
قريش المختلفة، كي يحفر كل بطن منها بئراً خاصة به، ويسقي منها  
حجاج مكة، ويقفها حبساً في سبيل الله... فقد حفر قصي بن كلاب أبو  
القبيلة كلها بئراً سماها العَجُول في دار أم هانئ بنت أبي طالب، وهي أول  
سقاية احتفرت بمكة، وكانت العرب إذا استقوا منها ارتجزوا، وفيها يقول  
بعض رجاز الحاج (95) :

(93) الروض الأنف، ص : 175/1.

(94) الروض الأنف، ص : 175/1.

(95) «فتوح البلدان»، للبلاذري، ص : 48.

نروي على العَجول ثم ننطلق  
قبل صدور الحاج من كل أُفُق  
إن قُصِيًّا قد وَفَى، وقد صَدَقُ  
بالشبع للناس، وَرَيِّ مُغْتَبَقُ

فلم تزل بئر العَجول قائمة حياة قصي، وبعد موته حتى كبر عبد مناف بن قصي، فسقط فيها لرجل من بني جُعيل، فعطلوا العَجول،  
واندفتت (96).

كما حفر بنو هاشم، «زمزما»، وسُجْلة»، و«بذراً، قال ابن إسحاق :  
«وقد سمعت من يحدث عن عبد المطلب أنه قيل له حين أمر بحفر  
«زمزم» (97) :

ثم ادع بالماء الروي غير الكدر  
يسقي حجيج الله في كل مَبَرٍ  
ليس يُخَافُ منه شيء ما عَمَر (98)

وهكذا أقام عبد المطلب «سقاية زمزم» للحجاج (99)، صَدَقَةً موقوفة في  
سبيل الله، لفائدة العطشى الذين يَجِدُون في شربها راحة للأرواح، من  
فرط الظمأ والصَّاخة، وجعلها مورداً غذياً قَرّاحاً مباحاً لكل وارد...

\*\*\*

### سقاية الحجاج...

كان عبد المطلب يتولى شرف سقاية الحجاج، وروي عنه، كما تقدم،  
أنه كان يخلط ماء زمزم بالزبيب حتى يُكْسِرَ غُلْظَتَهُ، إذ كانت في ذلك

(96) «الروض الأنف»، ص : 1/172.

(97) سيرة ابن هشام، ص 156-1.

(98) الماء الروي : يقال ماء روي بالكسر والقصر، وراء، بالفتح والمد، في كل مَبَرٍ، هو مفعول من  
البر، يريد : في مناسك الحج ومواضع الطاعة، وما عَمَر : أي ما عَمَر هذا الماء، فإنه لا يؤذي،  
ولا يخاف منه ما يخاف من المياه إذا أفرط في شربها، بل هو بركة على كل حال [الروض  
الأنف : 1/168].

(99) «الروض الأنف» ص : 1/171.

الوقت غليظة جداً... وظل يسقي عبد المطلب الناس حتى توفي، وتولى السقاية بعده العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وكان له كَرَمٌ بالطائف وكان يحمل زبيبه إليها، واستمر العباس في السقاية حتى بعد فتح مكة...

وقد وصف التقي الفاسي «سقاية العباس» (100) بن عبد المطلب في وقته، فقال : إنها بيت مربع في أعلاه قبة كبيرة... وفي جهاتها الأربع عدا الجنوبي منها شبابيك من حديد، وفي جانب الخالي من الخارج حوضان بينهما الباب، وفي وسط البيت بركة كبيرة تملأ بالماء من زمزم بواسطة قناة سماوية عن زمزم إلى جدار البيت، ثم يسلك قناة أرضية إلى البركة، فيخرج منها الماء على شكل فوارة... وقال : إنها عمرت في عام 809هـ. وكان العباس بن عبد المطلب يسقي فيها الحجيج، وذكر الفاسي : أن مقدار ما بين السقاية والحجر الأسود ثمانون دراعاً بالدرع الحديد.

\*\*\*

### شرف من يشرب من ماء زمزم :

وقد افتخرت بماء زمزم، بنو عبد مناف على قريش كلَّها، وعلى سائر العرب، لأنها وَقَفَتْهُ للحجاج الواردين، وحَبَسَتْهُ في سبيل الله، فهذا مُسَافِر ابن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، يفخر على قريش، بما ولوا عليهم من السقاية والرفادة، وما أقاموا الناس من ذلك حيث يقول (101) :

ورثنا المجد من آبا  
ثنا فنمى بنا صُعدا

(100) هي حجرة كبيرة شرقي الكعبة، وجنوبي زمزم، ذات نوافذ، وسقفها جمالي بارز عن جُدرها ليستظل به الناس.

لابن علان المكي البكري الصديقي الشافعي (ت : 1057هـ) «دار القلائد، فيما يتعلق بزمزم وسقاية العباس من العوائد» [هدية ج : 6 / ص : 283].

(101) «سيرة ابن هشام» ص : 1/164 - «الروض الأنف» ص 1/174.

ألم نسقي الحبيج وننحـــــــــــــــــ  
ر، الدَّلَافَةَ الرُّفُدا

وزمــــــــــــــــزم في أرومتنا  
وَنَفَقًا عَيْنَ مَنْ حَسَدَا

قال ابن إسحاق (102) : وقال حذيفة بن غانم أخو بني عدي بن كعب  
ابن لؤى :

وساقي الحبيج، ثم للخبز هاشم  
وعبد مناف ذلك السيد الفهري  
طوى زمزماً، عند المقام، فأصبحت  
سقايتُهُ فخرًا على كل ذي فخر

بل إنه قد بلغت منزلة من يشرب من بئر زمزم درجة الشرف والفخر،  
حتى قال الأعشى يهجو رجلاً ويؤنبه، ويخبره أنه مع شرفه، لم يبلغ مبلغ  
قريش الذين هم سكان حرم الله، ولهم حظُّ الشرب من زمزم :

فما أنت من أهل الحَجُون، ولا الصِّفا  
ولا لك حقُّ الشُّرب من «ماء زمزم» (103)

\*\*\*

(102) سيرة ابن هشام : 1/164، الروض الأنف : ص : 1/175.

(103) الأعشى الديوان، ص : 123، والحَجُون : الواقع في أعلى مكة مما يلي مقابرها، ولا زال معروفاً

بهذا الاسم إلى الآن... وهو الذي عناه مضاض بن عمر الجُرهمي حين قال :

كان لم يكن بين الحَجُون إلى الصِّفا

أنيس، ولم يسمُـر بمكة سامـر

بلى، نحن كننا أهلها فأزالنا

صُروف الليالي والجدود العواثر

[صحيح الأخبار، ص : 1/156] وبهذا الجبل اليوم ثنية يسلك فيها السائر بين المعايدة

وجرول، وتقع، مقابر أهل مكة القديمة والحديثة في منتصف هذا الطريق : [المصدر السابق :

ص 2/74، و ص : 2/140.

وقد طغى ماء «بئر زمزم» على آبار مكة الأخرى، فهو، أولاً ماء مقدس، لأنه في أرض مقدسة، وفي المسجد الحرام، ثم هو أغزر وأكثر كمية من مياه الآبار الأخرى، وهو لا ينضب مهما استقى أصحاب الدلاء منه، ثم إنه ألطف مذاقاً من مياه آبار مكة الأخرى... وقد استفاد عبد المطلب من هذه البئر، مادياً وأدبياً، وصارت ملكاً خالصة له، على الرغم من محاولات زعماء مكة والمنافسين له مساهمتهم له في حق هذه البئر، لأنها في أرض الحرم، والحرم حرم الله، وهو مشاع بين كل أهل مكة، وصار يسقي الحاج من هذه البئر، وترك السقي من حياض الأدم التي كانت بمكة عند موضع «بئر زمزم»، وصار يحمل الماء من زمزم إلى عرفة فيسقي الحاج (104).

وكان أبناء «قصي» قبل حفر «بئر زمزم» ياتون بالماء من خارج مكة، - كما يقول الإخباريون - ثم يملأون بها حياضاً من أدم، ويسقون الحاج، جرّوا، بذلك، على سنة قصي، فلما حفرت «بئر زمزم»، تركوا السقي بالحياض من المياه المستوردة من خارج مكة، وأخذوا يسقونهم من «ماء زمزم» (105).

\*\*\*

ولندرة الماء وشحّه في مكة، واضطرار الناس إلى جلبه من جهات بعيدة، فعل «هاشم»، ما فعله قصي حين حفر بئراً عرفت بـ : «بذر»، وهي البئر التي في حق : «المقوم بن عبد المطلب في ظهر دار الطلّوب مولاة زبيدة بالبطحاء في أصل المستنذر، وحفر بئراً أخرى، وهي البئر

(104) الروض الأنف، ص : 1/79 - السيرة الحلبية، ص : 1/37 - شرح نهج البلاغة، لابن أبي

الحديد، ص : 1/83 - سيرة ابن هشام، ص : 1/89

(105) «الطبقات» لابن سعد، ص : 1/83. الأزرق، أخبار مكة، ص : 1/67 - تابع العروس مادة بذر.

التي يقال لها بئر : «جُبَيْر بن مطعم» ودخلت في دار «القوارير» (106)،  
فَيَسَّرَ بذلك لمكة الماء، وساعد على إكثاره عندهم (107)...  
ولقد كان من آثار النبي عليه السلام مَسْجِدُهُ بأعلى مكة عند «بئر  
جُبَيْر بن مُطْعَم» بن عدي بن نوفل بن عبد مناف... وأصل هذه البئر في  
الحقيقة أنه قد وهب بنو هاشم بئرهم، وتسمى «سَجْلَة» للمطعم بن عدي  
ابن نوفل بن عبد مناف... ويزعم «بنو نوفل» أن المطعم ابتاعها من أسد  
ابن هاشم، وقد وجدتُ خالدةً بنتُ هاشم الفرصة مواتية لتجلو محاسنها،  
فذكرت أنها محفورة في أرض طيبة سهلة، وأن ماءها غزيرٌ يروي الحجيج  
دفعَةً دفعَةً. (108)

نحن وهبنا لعدي سَجْلَه  
في تربية ذاتِ غَدَاةٍ سَهْلَه  
تروي الحجيج زغلة... فزغلة (109)

ونقل القطبي في الإعلام عن الفاكهي : أن الناس كانوا لا يتجاوزون في  
منازلهم في قديم الزمان هذا البئر، وما فوق ذلك خالٍ من الناس....  
وفي ذلك يقول عمر بن أبي ربيعة :  
نزلتُ بمكةَ من قبائلِ نوفل  
ونزلتُ خلف «البئرِ أبعد منزلِ  
حَزِرًا عليها من مقالة كَاشِحٍ  
ذَرِبَ اللِّسَانُ يقول ما لم يَفْعَلْ

(106) ابن سعد - الطبقات، ص : 1/75.

(107) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د. جواد علي، ص : 4/65.

(108) «فتوح البلوان» للبلاذري، ص : 49.

(109) زغلة : جرة، وقد احتفرت كل قبيلة بئرا، واحتفر قصي «سجلة»، وقال حين حفرها :

أنا قصي، وحفرتُ سَجْلَه  
تروي الحجيج، زغلةً فزغلةً



وقديم الزمان الذي يشير إليه الفاكهي هو عهد بني أمية، وقد حقق الأستاذ عبد القدوس الأنصاري، رحمه الله، مكان البئر والمسجد، وانتهى في ذلك إلى أن مسجد الراية، هو المسجد الموجود في «الجودية» وتقع عمارة شركة الكهرباء، الآن خلفه، وبجواره مباشرة بئر جبير بن مطعم(110)....

\*\*\*

### جود العربي، وإيثاره رفيقه بالماء...

عرف عن العربي جوده وإيثاره رفيقه بالماء على نفسه، فيبذل جرعة الماء، وهو في أمس الحاجة إليها، لمن كان بحاجة إليها، ويكاد يشفى على التلف والهلاك... وقصة كعب بن مامة الإيادي(111) التي آثر فيها رفيقه النمري بالماء على نفسه، فمات عطشا، مما يدور في كتبهم، ويضرب بها المثل عندهم، وإليها يشير أبو تمام(112) في قوله :

يجودُ بالنفس، إذ ضنَّ البخيلُ بها

والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

وكعب بن مامة من النفر الذي انتهى إليهم الجود، وهم حاتم الطائي، وهريم بن سنان، ويروون عن كل منهم قصصا تقرب من الخيال(113).

(110) «تاريخ مكة»، لأحمد السباعي، ص : 1/25.

(111) «بلوغ الأرب» للألوسي، ص : 1/81 - السمط : ص : 840؛ وفصل المقال : ص : 278.

(112) الديوان، ص : 1/293.. قال أبو زبيد في رثاء ابن أخته الذي كان يوثر صديقه، ويقدمه على نفسه، وكان مات عطشا في طريق مكة :

صادياً يستغيث غير مُغاث

ولقد كان عُصرة المنجود

[تفسير القرطبي. ص : 9/205، وص : 173 - 19/174] العُصرة : الملجأ.

(113) ومن هنا زعم بعض القدماء: أن أبلغ ما قيل في الجود، قول صريع الغواني، مسلم بن الوليد:

فلو لم يكن في كَفِّهِ غير روحه

لجاء بهاء.. فليتيق الله سائله

وقد سبقه إلى مثل هذا، بكر بن النطاح، فقال مادحاً :

فلو خذلت أمواله جود كفه

لقاسم من يرجوه شطر حياته

أي لو قصر ما له عما اعتاده من الكرم، ولم يكن عنده ما يفي بحاجة السائل. لقاسمه حياته.

وكعب هذا هو الذي هلك عطشاً في بعض أسفاره ليسقي رفيقه وإليه  
يشير أبو العلاء المعري حيث قال :

وَرَدَ الْقَوْمُ، بَعْدَ مَا مَاتَ كَعْبٌ

فَارْتَوَى بِالنَّمِيرِ، وَقَدْ ظَمَاءٌ

وبقي الإيثار خلقاً إسلامياً نبيلاً، وقد حبه القرآن إلى النفوس المومنة،  
وفسح له بين الضمائر... وجعل له قنوات تمدّه بالعطاء الدائم، وترفده  
بالحياة المتجددة... وما هذه القنوات إلا الإيمان والأخوة والرحمة والمودة  
والتعارف والتآلف.

\*\*\*

وقد اشتدت الحرب، يوم اليرموك، فكسر عمر سيف عكرمة بن أبي  
جهل الذي أسلم في النهاية، وأراد أن يكفر... حارب مع المسلمين، وأوغل  
في صفوف الروم... وما انجلى غبار المعركة المظفرة إلا وعكرمة  
وصحابيان آخران طريحوا الأرض بسهام الأعداء... ويأتيهم من يسقيهم  
شربة ماء، فيدفعها كل منهم إلى صاحبه إيثاراً وصحبة... لكن تفيض  
أرواحهم، قبل أن يبلل أيُّ منهم شفتيه إلا بالشهادتين!!

\*\*\*

لقد كان يضرب، بكعب بن مامة الإيادي، المثل في الجود، ومن حديثه  
أنه خرج في ركب فيهم رجلٌ من النمر بن قاسط في شهر ناجر، (114)  
فضلوا، فتصافنوا ماءهم، (115) ففقدوا للشرب، فلما دار القعب، (116) فأنتهى  
إلى كعب، أبصر النمرِيَّ يُحدِّدُ النظر إليه، فأثره بمائه، وقال للساقي :  
«إسقي أخاك النمرِيَّ، فشرب النمرِيَّ نصيب كعب ذلك اليوم من الماء.... ثم

(114) هو رجب أو صفر، وكل شهر من شهور الصيف : «القاموس».

(115) التَّصَافُنُ : هو أن يطرح في القعب حصاة، ثم يصب فيه الماء بقدر ما يغمر الحصاة، وتلك  
الحصاة هي المَقْلَةُ، فيشرب كل إنسان بقدر واحد.

(116) القعب : إناء ضخم كالقصعة، والجمع : قعاب وأقعب.

نزلوا من غدهم، المنزل الآخر، فَتَصَافَتُوا بَقِيَّةَ مَائِهِمْ، فنظر إليه النُّمْرِي،  
كنظرة أُمسه، فقال كعب كقوله له أُمسٍ، وارتحل القوم، وقالوا : يا كعب :  
من الماء، فقل هل : رِدْ، كعبُ، إنك ورَّاد، فعجز عن الجواب، فلما يئسوا  
منه، خيلوا عليه بثوب بمنعه من السبع أن ياكله، وتركوه مكانه،  
ففاض..!!(117).

فقال أبوه مامة يرثيه :

ما كان من سوقٍ اسقى على ظمأ  
خمرًا بماء إذا نأجودها(118) برِّدا  
من ابن مامة كعب ثم عيَّ به  
زوّ(119) المنية الاحرة وقدا  
أوفى على الماء كعبُ، ثم قيل له  
زِدْه كعبُ، أنك ورَّادٌ فما وردا

وله يقول حبيب :

يجود بالنفس إذ صَنَّ الجوادُ بها  
والجودُ بالنفس، أقصى غاية الجودِ  
وله وحاتم الطائي يقول القائل :  
كعبٌ وحاتم اللذان تَقَسَّما  
خَطَطَ العُلا من طارف وتليد  
هذا الذي خَلَفَ السحابَ...وماتَ ذا  
في الجهدِ ميتةً خِضِرْمِ صِنْدِيدِ

(117) بلوغ الأرب، ص : 1/81.

(118) الناجود : أول ما يخرج من الخمر إذ بزل عنها الدن قاله الأصمعي، واحتجَّ بقول الأخطل :

كأنهـا المسك نهى بين أرجلنا

مما تضسوع من نأجودها الجاري

(119) زوّ المنية: قدرها - عيَّ به: أي عيت الأحداث إلا أن تقتله عطشا.. قال الأصمعي : زوّ المنية :

ما يحدث من هلاك المنية، ويقال : الزوّ: القدر.

أن لا يكن فيها الشهيد، فقومه  
لا يسمحون به بألف شهيد

\*\*\*

وكان العربي، أيضاً، في الجاهلية، يوتر أصحابه حتى في شرب  
الحيوان، فلا يضجر إذا وردت إبل صاحبه، حيث يزاحمه في المورد، بل  
يُخْلِيهِ ويتركه انتظاراً حتى لا يزاحمه...  
قال الأصمعي : وسميت مكة، بكة، لأن الناس يبكّ بعضهم بعضاً فيها،  
أي يدفع، وأنشد قول الراجز :

إذا الشَّريب، أَخَذْتَهُ أَكْغُهُ  
فَخَلَّاهُ حَتَّى يَبَكَّ بِكْغُهُ (120)

\*\*\*

**النساء ... يقمن بسقي الجنود والجرحى في الحرب :**

وإننا لنجد النساء في غزوات الرسول يقمن بسقي الجنود والجرحى  
وَيُعِثْنَ اللَّهَافَى والعطشى، فعن أمّ سلمة قالت : كان رسول الله ﷺ يغزو  
بنا نسوة من الأنصار نسقي الماء، ونداوي الجرحى...  
وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال : «كانت النساء تشهدن  
مع النبي عليه السلام المشاهد، ويسقين المقاتلة ويداوين الجرحى...  
وقد بَوَّب البخاري في كتابه المغازي : «بَابُ حمل النساء القرب إلى  
الناس في الغزو...»

عن أنس، لما كان يومُ أحد، انهزم الناس عن النبي ﷺ قال : «ولقد رأيت  
عائشة وأمّ سليم مشمرتين أرى خدام خلاخل سوقها، تنغزان (121) القرب

---

(120) الشريب : الذي يسقي إبله مع إبله، يقول : فَخَّلَه يورد إبله الحوض، فتباك عليه، أي تزدهم،  
فيسقي إبله سقيه - والآكة : الضيق والزحمة... والمعنى : إذا ضجر الذي يورد إبله مع إبله  
لشدة الحر، انتظارا، فخله حتى يزاحمك.. [بلوغ الأرب، ص : 1/227].

(121) تنغزان : تنقلان.

على متونهما، ثم ترجعان، فتملأنهما، ثم تجيئان، فتفرغانه في أفواه القوم...

وفي العتبية، قال مالك : كان النساء يخرجن مع رسول الله ﷺ في غزوه يسقين الماء، ويداوين الجرحى...

قالت الربيع بنت معوذ بن عمراء : كنا نغزو مع النبي عليه السلام، فكنا نسقي القوم ونخدمهم (122)...

وفي الإصابة : في ترجمة أم أيمن مولاة النبي عليه السلام وحاضنته عن الواقدي : حضرت أم أيمن أحداً، وكانت تسقي الماء.. وشهدت خبير...

وفي طبقات ابن سعد في ترجمة أم سنان الأسلمية، قالت : لما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر، جئته، قلت يا رسول الله : أخرج معك، أخرجز السقاء، وأداوي المريض والجرحى إن كانت جراح، وأبصر الرجل، فقال رسول الله ﷺ : «أخرجني على بركة الله، فإن لك صواحب قد كلفنني، وأذنت لهن من قومك ومن غيرهم، فإن شئت، فمع قومك، وإن شئت، فمعنا... قلت : «معك».. قال : فكوني مع أم سلمة زوجتي... قلت : فكنت معها...

\*\*\*

### يا قيم الماء.. فدتك نفسي..

إذا كنا نرى في الشعر السابق فخرا، وتسابقا في وقف الماء وتسبيله، فإن أشعار السقاة أو الماتحين تختلف وتتنوع، فمنهم من يفتخر بقوته وقدرته على العمل... ومنهم من يمدح صاحب البئر وحافرها (123)..  
بل إننا نجد بعض الأعراب، لندرة الماء، يتلطفون في طلبه، ويرشون مشاعر وأحاسيس صاحب البئر أو العين، بأقوال وأشعار تنم عن الشفقة

(122) أخرجه البخاري والنسائي.

(123) أمالي القالي، - ص : 2/244.

والاستجداء... فهذا شاعر آخر يقول، في توسل وضراعة، وفي تعلق سافر،  
ودغدغة للأحاسيس، وارتشاء لعاطفة صاحب الماء الذي يقدمه للواردين :

يا أيها المائح، (124) دلوي دونكا

إنني رأيتُ القوم يحمدونك

قال أبو جعفر النحاس : أصل «الجائزة» أن يعطي الرجل ما يُجيزه،  
ليذهب إلى وجهه... وكان الرجل إذا وَرَدَ ماءً، قال لقيمه : «أَجِزْنِي، أي :  
أعطني ماءً حتى أذهبَ لوجهتي، وأجوزَ عنك، فكثُر، حتى جُعِلَتِ الجائزة  
عطية.. قال الراجز :

يا قيمَ الماء، فـدتك نفسي

أحسنَ جـوازي، وأقلَّ حبسي (125)

وقد جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكو شاعرا هَجَا  
قبيلة بـقوله :

قبيلتـه لا يغـدرون بـذمة

ولا يظلمون الناس حَبّة خَرْدَل

ولا يـردون الماء إلا عـشيرة

إذا صـدر الـوُرَادُ عن كُـلِّ منهل

فقال له الفاروق : ما هجا هذا الشاعر قومك، وإنما مَدَحَهم، ولنعم  
القومُ قومُك، إذ لا يغـدرون بـذمة، ولا يظلمون الناس حَبّة خردل...  
ونعم القوم قومك إذ يتجنبون المزاحمة على الماء، وينتظرون حتى  
يخف الزحام، ويكون الوقت أبرد لهم، والماء أصفى...

---

(124) المائح : هو الذي ينزل إلى قرار البئر، إذا قَلَّ ماؤها، فيملأ الدلو.

(125) «العمدة» لابن رشيق القيرواني، ص 2/297 تحقيق محمد محي الدين عبد الصمد — «بلوغ  
الأرب» للألوسي، ص : 2/191.

«الرجز في كفاية الطالب» ص : 49، وهو في اللسان : جَوَز، برواية : يا صاحب الماء... ورواية  
اللسان : «عجل جوازي» والجواز : السقي.

وما كان الفاروق رضي الله عنه غافلاً عما في هذين البيتين من هجاء  
مر مقذع، حسب نزوات الجاهلية وتقاليدها، ولكنه رحمه الله، قاس  
مضمون البيتين بمقاييس الإسلام الداعية إلى مكارم الأخلاق، فلم ير  
فيهما إلا مدحا وثناء...

وكان الجاهلي يرى الغدر والظلم صفتين دالتين على القوة والعزة،  
ويرى التخلي عنها دليلاً على الضعف والهوان... يرى الإسلام أنهما  
رذيلتان ممجوجتان متنافيان للقيم الدينية، وأن تجنبهما مأثرة كريمة تتفق  
مع روح الإسلام، ومبادئه السمحة...

ذلك أن التقدم في ورود الماء لسقي الماشية إنما يكون لأولي القوة..  
وأما أهل الضعف، فحظهم التأخر، حتى إذا لم يبق وارد ولا صادر سواهم،  
أُورِدُوا ماشيتهم...

أنظر إلى قول الشاعر :

إِذَا اللَّهُ جَاَزَى قَوْمَ سَوْءٍ بِفَعْلِهِمْ  
فَجَاَزَى بَنِي الْعَجْلَانِ رَهْطَ بْنِ مُقْبِلٍ  
أَوَّلُكَ قَوْمٌ، لَمْ يَكُونُوا أَعِزَّةً  
وَلَا يَظْلَمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ  
وَلَا يَرُدُّونَ الْمَاءَ إِلَّا عَشِيَّةً  
إِذَا صَدَرَ الْوَرَاءُ عَنْ كُلِّ مَنْهَلٍ

يريد أنه لضعف قوتهم وذلتهم يتأخرون عن الناس في ورود الماء،  
حتى إذا صدر الوارد، ولم تبق لأحد حاجة إلى الماء، أوردوا... وإنما يطلب  
أهل القوة والعزة الورد أولاً، لأن الماء في هذه الحال يكون صافياً، والذي  
يَرِدُ آخرًا، إنما يَرِدُ بعد نُضُوبِ الماء، وحينئذٍ لا تخرج منه الدلاء إلا ما  
كُدِّر، بما خالطه من طين البئر، كما قال عمرو بن كلثوم :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا  
ويشرب غيرُنَا كَدِرًا وَطِينًا

## تقديس المياه لدى الشعوب

ارتباط الماء بالشعائر الدينية :

اعتُبر الماء، خلال عصور طويلة ينبوع الحياة، وسر الوجود، ومعجزة الطبيعة... كما ارتبط، منذ عصور، ما قبل التاريخ حتى الآن، بالشعائر الدينية، وأساطير الآلهة والأبطال...

ويحدثنا التاريخ أن الأفارقة القدماء قدسوا البحار والأنهار والآبار... والسلافيين اعتقدوا بوجود الأرواح في الينابيع والعيون، والهنود الحمر، والمتوحشين في مناطق «كلومبيا» «ماياس»، و«أكناس» وقبيلة «سيو» كانوا يقدمون قربانين لآلهة المطر والبحيرات، وما زال الهنود يتطهرون بمياه «الكانج» Gange. وهو نهر في الهند (3100 كيل) مقدس عند الهندوس، ينحدر من جبال هملايا، ويصب في خليج بنغال، يختار مدينتي «الله أباد» و«بنارس» مما يدل دلالة قطعية على رسوخ عبادة المياه في نفوسهم... فهذا النهر هو أقدس الأنهار بالنسبة إلى الهنود، وفي كل عام يذهب آلاف الحجاج منهم إلى «الله أباد» و«بناريس» لإزالة خطاياهم بالاستحمام في مياهه المقدسة...

وهذا النهر يخترق الجزء الشمالي من الهند، والجزء الشرقي من الباكستان، وهو أكثر الأنهار الهندية قداسة، خاصة في «الله أباد»، وبناريس حيث تكثر فيهما أماكن الاستحمام المقدسة...

\*\*\*

وكان الإغريق والرومان مغرمين إلى أبعد حد «بالنافورات» التي كانوا يزينونها، ويزخرفونها بالتماثيل المتقنة، والفسيفساء المبدعة، وكان



يفترض أن الماء النابع من كثير من الينابيع والعيون والبرك القديمة، مثل بركة «سيلوم» بالقرب من بيت المقدس، له تأثير خاص في شفاء كثير من الأمراض...

وكان هذا الاعتقاد واسع الانتشار، كما أثبت مقدرة عجيبة على البقاء، بل لا يزال له أنصار ومؤيدون حتى اليوم.

وقد كانت أسطورة نافورة إعادة الشباب من القوة في القرن السادس عشر، بحيث إنها أغرت «بُونْسُ دى ليون» (1) على استكشاف «فلوريدا»، Florida ولا زالت هذه الأسطورة قوية حتى اليوم، إذ تجذب إليها الألوف في كل عام ممن يلتمسون الصحة، ويسعون إلى استعادة الحيوية في الينابيع الحارة، والمياه المعدنية والعيون، وربما كان العامل الذي يساعد الكثيرين منهم أكثر من الحرارة، أو الكبريت الموجود في الماء، هو اعتقاد فطري، راسخ متغلغل في أذهانهم دون أن يشعروا به. (2)

\* \* \*

وفي الصين يزور موكب من الناس إحدى الينابيع في عيد منتصف الخريف، ويركعون حوله في دائرة، شاكرين الماء على إحيائه لمحصولهم...

ويقول صاحب «تحفة الغرائب» حسبما نقله زكريا القزويني في كتابه: «عجائب المخلوقات»: «إن هناك عينا تسمى بعين «بَادْحَانِي» إذا أراد أهل الضيعة هبوب الريح عند الدِّيَّاس لتنقية الحبوب، أخذوا خرقة الحيز، ورموها في تلك العين، فيتحرك الهواء، ومن شرب من مائها، ينتفخ بطنه، ومن حمل معه شيئا من ذلك الماء إذا فارق منبعه يصير حجرا...» (3)

---

(1) مستكشف إسباني (1460 - 1521).

(2) «الماء معجزة الطبيعة»، ص : 222 - «طومسون كينج».

(3) ص : 295.

ونجد في تاريخ العبرانيين القديم أسماء آبار عديدة نظر إليها نظر تقديس، كما كانوا يُعَمِّدُونَ الْمُنْصَمِّينَ إلى دينهم قبل ظهور المسيحية بوقت طويل، كما اتبعت كثيرٌ من الديانات الأخرى طقوسا مشابهة... وقد كان القدماء يرون في أعماق الآبار والينابيع قوى خفية مؤثرة تمنح مياه تلك المواضع قدسية خاصة.. وقد أدّت قُدرة الماء على تنظيف الأجسام البشرية والأشياء المادية منذ أقدم العصور، إلى جعله رمزا عاما، ووسيلة شائعة للتطهير، وللطقوس الدينية الخاصة بغسل الذنوب.

\*\*\*

وقد أخبرنا «تيرتوليون» (4) Tertullien إن اتباع «إيزيس» و«متراس» كانوا يبدؤون الانضمام إلى عقيدتهم بالتعميد من ينبوع، وإن الناس، في عبادات «أبولو» واليوزيس الخاصة، كانوا يعمدون، وهم يفكرون في الخلاص والتحرر من وزر الحنث في إيمانهم» ويقول أيضا : «كان أي شخص من القدماء يلطخ يديه بالقتل يذهب للبحث عن الماء الذي يمكن أن يطهره من ذنبه».

\*\*\*

والواقع أننا لانزال، نرى هذا التقديس، باقيا حتى الآن عند كثير من الشعوب من الأنهار... منها أنهار مقدسة يحج إليها ليغتسل فيها، وليتطهر أصحابها، ويدفعوا عنهم النجاسات، وليس هذا التقديس للمياه.. ولكن

---

(4) مدافع عن العقيدة النصرانية، أول كاتب مسيحي باللغة اللاتينية (155 - 222) له مكانة مهمة في علم اللاهوت، إلا أن شدة نزعه الأخلاقية حوله نحو بدعة المنطانية Montanione وهي ديانة في القرن الثاني، تريد تمثيل الكنيسة الجديدة. وتنذر بقرب نهاية العالم، وتفرض في الزهد كان له أثر كبير في تكوين وتطوير اللغة الدينية اللاتينية، «وإيزيس Izis زوجة «أوزيرس»، ومعبودة المصريين الأقدمين، نَسَبُوا إليها حراسة الموتى والطب، والعناية بالزواج وبزراعة القمح.

للقوى الخفية التي كان القوم يتصورون وجودها في هذه الحياة... والتي تظهر في بعث الحياة للأرض الميتة، وللإنسان نفسه، فلولاء الماء لمات بالطبع كل مخلوق حي... (5)

\*\*\*

وإننا لنرى كثيرا من الأماكن المقدسة قد أقيمت في جزيرة العرب عند الينابيع والأنهار، حيث تُروى الأرض بالماء، فتنمو به المزروعات ويستقي منه الناس، وقد صَوِّرَ هذا الخصبَ لسكان تلك المناطق وجود قوى خارقة كامنة في تلك الأرضين، كانت السبب في نظرهم في بعث الحياة للإنسان ولهذه الأرض. (6)

وفي الأخبار المروية عن الجاهلين وغيرهم من تقديس بعض الآبار والعيون والجداول، والتبرك بشرب الماء، دليل على نظرة التقديس التي نظرتها الشعوب السامية وغيرها إلى الماء...

ولابد أن تكون هذه النظرة التقديسية، هي التي حملت الجاهليين على تقديس «بئر زمزم» ولا يقدر أهمية البئر، حق قَدْرُهَا إلا قُطَّانُ هذا البلد الكائن في واد غير ذي زرع وماء...

وما تلك النظرة التي نظرها أهل مكة إلى السقاية إلا صفحة من صفحات ذلك التقديس الجاهلي للماء، فقد كانت «للسقاية» منزلة محترمة في مجتمع مكة...

وليس الاعتقاد في مثل «زمزم» خاصاً بالمسلمين... فإن للهنود اعتقاداً عظيماً في نهر «الكانج» وبحيرة «مادن»... والنصارى يعتقدون في ماء الأردن الذي يبعد بنحو 20 كلم، إلى شرق بيت المقدس، ويسمونه «نهر الشريعة»، لذلك ترى حجاجهم يذهبون إليه، ويتبركون بالاستحمام به (7)

(5) «تاريخ العرب قبل الإسلام» د. جواد علي ص : 167 / 5.

(6) المصدر السابق : ص : 406 / 6.

(7) لا يستحب الاغتسال من ماء زمزم «الفتاوى لابن تيمية» ص : 144 / 26.

في المكان الذي تعمد فيه المسيح، ويأخذون من مائه في أنية من الصفيح، يتهادون به عند عودتهم إلى بلادهم، وأكثر النصارى اعتقاداً في ذلك الأقباط والروسيون..

فنهر الأردن ينساب من «بحر الجليل» حتى البحر الميت مسافة طولها سبعون ميلاً، ولكن مجراه المتعرج يزيد هذه المسافة إلى حوالي المائة ميل، وهو نهر صغير جداً، ولكنه النهر الوحيد في فلسطين الذي يستحق هذا الاسم...

وقد نظر المسيحيون المخلصون إلى ماء هذا النهر، طوال قرون عديدة، على أنه يتميز بقدرة خالصة على التطهر والشِّفاء.. وذلك لأنه كان في الأراضي المقدسة، ولأنه ذكر في الإنجيل كثيراً.. وخاصة لأن السيد المسيح عمد فيه.. وقد ظل الحجاج، كما ذكرنا سابقاً، يحملون مياه الأردن في الزجاجات والقوارير إلى جميع أرجاء العالم..

\*\*\*

ويطلق الصابئة المندائيون على الماء اسم «يردنا»، إشارة إلى التعميد الأصيل بماء الأردن، ويرددون - في الوقت نفسه - ذكر الفرات، ويسمون: الفرات النوراني، أو مرات النور «فراش زيو».

وتمت ترتيلة ترددها العرُوس الصابئية، أثناء مراسم الزواج، تشير إلى أنها ؛ أصبحت عظيمة، وكبرت، لأنها شربت ماء الفرات.

\*\*\*

أما الأفرنج فاعتقادهم في ماء لورده Lourdes (8) في جنوب فرنسا لا يقل عن اعتقادهم في ماء الأردن...

---

(8) لورد Lourdes في جبال البرانس العالية Hauts Pyrenneés قرب «بو» يسكنها : 17.619، مركز مهم لحج العذراء منذ 1858 حيث كانت فتاة من «لورد» تعتقد أنها تحظى بوحى العذراء مريم؛ المدينة معروفة بكنائسها الممتازة : «بازليك» Basilique ورئيس بلدية اللورد، اليوم : وزير الثقافة الفرنسي في حكومة السيد جاك شيراك، السيد فيليب دوست بلازي.

فالماء يعد مقدسا، لاسيما، إن كانت ينباعه من أرض مقدسة، لذلك يتبرك به ويستشفى بالشرب منه...

وكانت في المعابد سقايات يستقى منها للشرب والتطهر، كانت تغسل الأوجه والأيدي بالماء ليسمح للزائر بدخول المعبد، أو لتحل له إقامة الشعائر الدينية...

وقد عثر المنقبون على آثار آبار وأحواض مطمورة في حرم المعابد، كان المتعبدون يستفيدون من مياهها عند زيارتهم بيوت أربابهم، وعند أداء الشعائر الدينية، «وبئر زمزم» هي البئر الوحيدة الباقية من آبار بيوت الله التي كانت في الجاهلية... (9)

قال الشيخ شهاب الدين الحموي في كتابه : «عجائب المخلوقات» للقطب أربعة عشر عيداً، سبعة يسمونها كباراً، وسبعة يسمونها صغاراً؛ ومن الأعياد الكبار : الغطاس، ويعمل في الحادي عشر، من طوبة من شهرهم، يقولون : إن «يوحنا»، وهو يحيى بن زكريا عليهما السلام غمس بالمعمدان، وفيه غسل عيسى عليه السلام في بحيرة الأردن... ويزعمون أنه لما خرج من الماء اتصل به روح القدس على هيئة حمامة، والنصارى يغمسون أولادهم في الماء في هذا اليوم، ووقته شديد البرد، ورأيتُ في بعض الكتب هذه الأعياد، وذكر فيه يوم ظهور المجوس، وأنهم أهدوا له دقيقاً ولَبَناً وتمرًا، وهو يوم النجم (10)...

ومن أعيادهم الصغار : «خميس العهد»، ويعمل قبل الفطر بثلاثة أيام، وسنتهم فيه أنهم يأخذون إناءً، ويملأونه ماءً، ويزمزمون عليه، ثم يغسل «البطريك» أرجل سائر الناس، ويزعمون أن المسيح عليه السلام فعل هذا بتلاميذه، في هذا اليوم، يعلمهم التواضع، وأخذ عليهم العهد أن لا يتفرقوا،

(9) «تاريخ العرب قبل الإسلام» ص : 418 - 419 / 6.

(10) «بلوغ الأرب، في معرفة أحوال العرب» السيد محمود شكري الألوسي البغدادي ص : 358 / 1.

وأن يتواضع بعضهم لبعض، والعامّة من النصارى يسمون هذا الخميس : «خميس العدس»، لأنهم يطبخون فيه العدس على ألوان شتّى، ويسميه أهل الشام : «خميس الرزوكان»، ويسميه أهل الأندلس : «خميس ابريل»، وهو اسم شهر من شهور الروم (11)...

\*\*\*

ويذكر ابن جبير احتفال الناس في مكة بليلة النصف من شعبان، فيقول: إن مراكبهم تزدهم في كل مكان في المسجد، والجهلة يعتقدون أن «زمزم» تفيض في هذه الليلة حتى تطفح، فيزدحمون على التبرك بمائها (12)...

وقد قضي على هذا التخريف الذي ظل سائداً، وسارياً في مكة، يعتقده عوامها طوال الأجيال، ولم ينفع فيه إلا إنكار جلالة الملك عبد العزيز آل سعود في العهد الأخير (13).

**أهم ما تمتاز به عيون مكة.. مياه زمزم :**

ليس في المملكة العربية السعودية، على اتساع رقعتها، نهر جار باستمرار، وإنما هناك ينابيع على شيء من الغزارة، في مواضع شتّى، وأودية في كثير من أنحاء المملكة، تسيل أحياناً، وتجف في أكثر فصول السنة، وآبار هي المصدر الأول لسقيا الناس.

وكان الحجاز، ولا سيما، مكة وجُدّة، من أقلّ المواطن المعمورة في الجزيرة ماءً، وأكثرها أزدحاماً ونماءً.

كان أهل مكة يشربون من ماء الآبار التي فيها، مثل «بئر زمزم» أو التي في ضواحيها كالزاهر، والعسقلاني، والجعرانة وغيرها، أو من

(11) نفس المصدر ص : 358/1.

(12) ص : 115.

(13) «تاريخ مكة» لأحمد السباعي ص : 247/1.

الصهاريج التي تملأ من مياه المطر، أو ماء الينابيع، أو من «عين زُبيدة» التي يجري مائها إلى المدينة في قنوات تحت الأرض، لها خزانات في شوارعها يملأ منها السقاؤون قَرَبَهُم... وهذه العين لها أهمية عظيمة تاريخية جدا، وهي من أجل الآثار التي تنسب إلى السيدة «زُبيدة» زوجة هرون الرشيد التي كانت أول من أجرى ماءها إلى مكة، كما سيأتي وبتفصيل في فصل لاحق... إلا أن معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي كان قد سبقها إلى هذه المأثرة... ففي إحدى زيارته، لمكة حاجا، لأخذ البيعة لابنه يزيد، سمع شكوى أهلها في جفاف الآبار التي كانوا يستقون منها، فأمر بالبحث عن العيون والينابيع في أعاليها، فظفر بعشر عيون أجراها إلى جوار بيت الله الحرام، فكان هذا مبدأ سقاية مكة بماء العيون...

\*\*\*

وأهم ما تمتاز به عيون مكة وآبارها «مياه زمزم» الذي يعد سيد الشراب، وأجلها وأشرفها قدرا، وأحبها إلى النفوس، وأغلاها ثمنا، وأنفسها عند الناس... وهو هزيمة جبريل، وسقيا إسماعيل... وهو طعام طعم، وشفاء سقم (14)...

و«زمزم» اسم بئر بمكة حفرها سيدنا إبراهيم لولده إسماعيل عليهما السلام، حين أسكنه مكة مع والدته هاجر...

وقد أجمعت التواريخ العربية أن مبدأ ظهور هذه العين من عهد قُذُوم هَاجَر مع ولدها إسماعيل إلى مكة، فكان سببا لإعمارها...

قال ياقوت : من الناس من يقول إن إسماعيل حفره بالمعاول والمعالجة كسائر المحفورات وفيه يقول خُوَيْلِد بن أُسْد بن عبد العزى :

أقول، وما قولي عليكم بسببة

إليك ابن سلمى أنت حافر زمزم

---

(14) رواه ابن أبي شيبة والبخاري عن أبي ذر رضي الله عنه، ورجاله رجال الصحيح.

حَفِيرَة إبراهيم يوم ابن هاجر

وركضة جبريل على عهد آدم

وفي هذا البيت ما يدل على أن زمزم أقدم من إسماعيل عليه السلام. وقد غاضت مياهها زمنا طويلا... ولذلك يسمونها «المضغوظة» وبقيت هكذا إلى زمن عبد المطلب فحفرها... واهتم بتوسيعها وتعميقها أبو جعفر المنصور والمأمون وغيرهما... ولا تزال محل عناية الملوك والسلاطين إلى الآن...

ولزمزم عند المسلمين أسماء كثيرة... فهي : طعام طعم، وشفاء سقم، ومضنونة، وهزمة (15) جبريل، وسقيا الله، وهي بركة، وسيدة، ونافعة، وعونة، وطافية، وعافية، ومؤنسة، وبرّة، وبشرى، وطيبة، وشباعة العيال، وشراب الأبرار، وحفيرة العباس، وقرية النمل (16)... وسميت «بئر زمزم» لأن هاجر زمت ماءها، أي جمعته عندا انفجارها ليلاً يسيل...

قال الحربي : سميت «زمزم» بزمزمة الماء، وهي صوته، وقيل بل من زمزمة جبريل عليه السلام، وكلامه عليها... وقيل لأن الفرس كانت تحج إليها قديما في الزمن الأول، وتزمزم عليها، أي تصلى بلغتها، ويعتقدون أن روح «هُزْمَز» حلت فيها، وكانوا يحجون إليها من زمن بعيد جدا. ويقول المؤرخون إن ملوك الفرس يزعمون أنهم من أولاد الخليل من سبي بني إسرائيل، وكانوا يحجون البيت، ويطوفون به تعظيما لجدهم...

---

(15) انظر «مستفاد الرحلة والاغتراب»، لأبي القاسم التجيبي السبتي، وياقوت، وما ذكره مؤرخو مكة، - ومن أسماء «زمزم» همزة جبريل، بتقديم الميم على الزاي، ذكر هذا الاسم السهيلي، لأنه قال : وذكر أن جبريل همز بعقبه في موضع زمزم، فنبع الماء.

(16) الهزمة : المنخفض من الأرض - والغمرة بالعقب في الأرض يقال لها هزمة.. قال شراح الحديث: أي ضرب برجله فانخفض المكان فنبع الماء، وقيل : معناه إن هزم الأرض، أي كسر وجهها عن عينها.. حتى فاضت بالماء الرّواء وبئر هزيمة إذا حسيقت وكسر جبلها ففاض الماء... والهزائم.. البثر الكثيرة الماء، وذلك لِتَطَامُنِهَا..



وكان آخر من حج منهم «أَزْدَشِير» بن بَابَك، طاف بالبيت وزمزم على البئر.

وزمزمة المجوس، قراءتهم عند صلواتهم وطعامهم (17)...

وفي ذلك يقول شاعرهم بعد الإسلام :

وما زلنا نحج البيت قِذْمًا

ونلقى بالأبطاح آميننا

وساسانُ بنُ بَابَك، سار حتى

إلى البيت العتيق يَطُوفُ جِينَا

فَطَافَ به، وزمزم عند بئر

لإسماعيل، تروي الشاربينا

فالزمزمة : صلاة المجوس، وإلى هذا المعنى أشار أبو العلاء المعري :

والخير أفضل ما اعتقدت، فَلَا تُكُنْ (18)

هَمَلًا.. وَصَلَّ لِإِقْبَلَةٍ أَوْ زَمَزِم

فأفضل ما تعتقد عمل الخير... فلا تكن هَمَلًا سَائِبًا سَائِرًا، فاعتقد

الخير وافعله، واعتنق ما شئت من الأديان، هكذا يقول أبو العلاء...

وأن الملك «سابور» لما حج البيت أشرف على «بئر زمزم» وزمزم

فيها، ف قيل لها «زمزم» (19).

وهكذا جعلوا «سابور» من المومنين الحجاج للبيت الحرام المتبركين

بماء زمزم...

وقيل الزمزمة صوت تخرجه الفرس من خياشيمها عند شرب الماء،

وبذلك كتب عمر إلى عماله : «إن أنهوا الفرس عن الزمزمة» وقال بعضهم :

(17) «عجائب المخلوقات والحيوانات، وغرائب الموجودات» لأبي زكريا محمد القزويني ص : 1/308.

(18) «اللزوميات»، ج : 2/ ص : 361.

(19) معجم البلدان ص : 3/147. - الصحاح ص 5/1945، اللسان ص 12/275 البكري - معجم ص :

2/700 - عمدة القاري ص : 19/277. ويقول ابن المقفع على لسان برزويه الطبيب :

«وكانت أُمي من بنات عظماء الزمازمة» أي علماء دين المجوس. [كليفة ودمنة] ص : 79

تحقيق نائل المرصفي.

زمزمت الفرس، على زمزم  
وذاك في سالفها الأقدم  
وقيل سميت «زمزم» لكثرة مائها، يقال : ماء زمزم، وزُمَازِم، وقيل هو  
اسم لها، وعلم مرتجل... وقيل غير ذلك...

### فضائل بئر زمزم :

وردت في ماء زمزم عدة أحاديث وكتبت في فضائله عدة كتب...  
أخرج الدارقطني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «ماء زمزم  
لما شُرب له، إن شربته تشفى به، شفاك الله، وإن شربته ليشبعك،  
أشبعك الله، وإن شربته لقطع ظمئك، قطعه الله، وهي هزمة جبريل، وسقيا  
الله إسماعيل...»

وقد تحدث ابن القيم عن (20) فضائل ماء زمزم، فقال : «وشاهدت من  
يتغذى به الأيام ذوات العدد، قريبا من نصف الشهر، أو أكثر، ولا يجد  
جوعاً، ويطوف مع الناس كأحدهم، وأخبرني : أنه ربما بقي عليه أربعين  
يوماً، وكان له قوة يجامع به أهله، ويصوم ويطوف مَراراً».  
وعن أبي جريح أنه قال : «خيرُ ماء في الأرض «ماءُ زمزم»، وشرُّ ماء  
في الأرض، ماء بَرَهوت، (21) وشر بقاع الأرض الأسواق، وخير بقاع الأرض  
المساجد».

وعن عبد الله ابن مُليكة قال : «جاء رجل إلى ابن عباس، فقال له : «من  
أين جئت ؟ قال : شربت من زمزم.. فقال ابن عباس : أشربت منها كما  
ينبغي؟، قال : «وكيف يا أبا عباس ؟ قال : «إذا شربت منها، فاستقبل  
القبلة، واذكر اسمَ الله تعالى، وتنفس، وتضلع منها، فإذا فرغت، فاحمد

(20) الطب النبوي ص : 22.

(21) برهوت : بئر عتيقة بحضرموت، شعب من شعاب حضرموت.

الله، فإن رسول الله ﷺ قال : «إن بيننا وبين الناس، أنهم لا يَتَضَلُّون من زمزم».

وقد كان رسول الله ﷺ، وهو بالمدينة يطلب ماء زمزم من مكة، ويحرض على التعجيل بإحضاره كما يفهم من «الإصابة» التي ترجمت لأتيلة الخزاعي.. فذكر عن أبي قرّة موسى ابن طارق، أن النبي عليه السلام كتب إلى سهيل بن عمرو : «إن جاءك كتابي، ليلاً، فلا تصبحن، أو نهاراً، فلا تمسين، حتى تبعثَ إلي من ماء زمزم».

قال : فاستعان سهيل بأتيلة الخزاعي حتى جعل مزادتين مألهمًا سهيل من ماء زمزم، وبعث بهما على بعيره ورواه الفضل بن محمد الجنوي... ثم ترجم في الإصابة، أيضاً، أزيهر مولى سهيل بن عمرو لهُ صحبة أرسله إلى مولاة سهيل إلى النبي ﷺ بماء زمزم.

وروى الفاكهي من طريق محمد بن سليمان عن حرام بن هشام بن أبيه عن أم معبد، قال : «مرّ بخيمتي غلام سهيل أزيهر، ومعه قربتا ماء، فقلت : ماذا ؟... فقال : إن النبي ﷺ كتب إلى مولاة سهيل يستهديه ماء زمزم، فإني أعجل السير لكيلا تَنَشِفَ القرب...» (22)

\*\*\*

وتوجد بالمدينة المنورة البئر المعروفة «بزمزم» وهي من الأماكن التي زارها أبو سالم العياشي، وتحدث عنها في رحلته «ماء الموائد» (23) وقال بأنها إحدى الآبار المتبرك بها بالمدينة المنسوبة إلى النبي عليه السلام، واشتهرت بزمزم، تشبيهاً لها بزمزم المكية المشهورة لبركتها، واستشفاء الناس بها، وكانت هذه البئر، إذ ذاك بيد رجلٍ من المغاربة، فخرج معه إليها وأطعمه من تَمَرٍ حَدِيقَتِهَا، وسقاه من مائها، وهذه البئر في غربي

(22) «الترايب الإدارية» للشيخ عبد الحي الكتاني ص : 1/101.

(23) الرحلة العياشية ص : 2/288، وص : 1/270.

المدينة مما يلي الحرّة، ومآؤها عذبٌ، وهي قريبة من بئر السقيا على يمين الطريق، حتى زعم بعضهم أنها بئر السقيا... وهي بئر مليحة في حديقة نخل حَوْلَهَا بركة وبناء...

وهكذا جرت العادة، قديماً، بنقل الناس هذا الماء إلى الجهات النائية تبركاً به، قال التقى الفاسي : «والأصل في جواز نقله ما رويناه في جامع الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنها حملت من ماء زمزم في القوارير، وقالت: حمل رسول الله ﷺ في الأدَاوي والقرب، وكان يصب على المرضى ويسقيهم ومن حمل شيئاً من ماء زمزم، جاز، فقد كان السلف يحملونه. (24)

وقد سئل عطاء عن حمله ؟... فقال : حمله النبي ﷺ والحسن والحسين. (25)

ويذكر على بعض الألسنة أن فضيلة «ماء زمزم» في محله، فإذا انتقل تغير، وهو شيء لا أصل له...

فقد بعث سهيل بن عمرو لرسول الله ﷺ بمزادتين، وكان بالمدينة، قبل أن تفتح مكة.. وهو حديث حسن لشواهده، وكذا كانت عائشة تحمله، وتخير أنه ﷺ كان يفعله ويحمله في الأدَاوي والقرب، فيصب منه على المرضى ويسقيهم... (26)

وكان ابن عباس إذا نزل به ضيفُ أتحفه من «ماء زمزم»... ومما أنشده الشيخ الإمام العالم العلامة الحافظ شمس الدين محمد الشهير بابن ناصر الدين، رحمه الله تعالى :

خَيْرُ الْمِيَاهِ بِلَا نِزَاعٍ «زَمْزَمُ»  
لَا السَّلْسَبِيلُ وَكُوْثَرًا يَتَقَدَّمُ

(24) مجموع فتاوي ابن تيمية ص : 26/154. ولا يجوز للحاج أن ينقل شيئاً معه إلى دياره غير ماء زمزم، ومن البدع أن بعض الحجاج يأخذه معه إلى دياره شيئاً من حصى الحرام وترا به. وهذا غير جائز شرعاً.

(25) «كشف الخفا» ص : 2/248.

(26) المصدر السابق ونفس الصفحة.

عَلِمَ النَّبِيُّ مِياهَ جَنَّةِ رَبِّهِ  
 وَيَقُولُ زَمْزَمُ : « خَيْرَ ماءٍ » فَأَفْهَمُوا  
 لَا يَلْتَقِي أَبَداً وَنَارَ جَهَنَّمَ  
 فِي جَوْفٍ مَنْ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُسْلِمٌ  
 يَنْفِي النِّفَاقَ « تَضَلُّعٌ » مِنْ شُرْبِهِ  
 « يَشْفِي السَّقَامَ » « طَعَامُ طَعْمٍ » يُعَلِّمُ  
 بَيْرٌ « مُبَارَكَةٌ » وَبَيْرٌ « طَيِّبَةٌ »  
 شِيَاعَةٌ أُمُّ الْعِيَالِ وَزَمْزَمُ  
 وَكَذَا الدَّوَاءُ وَهَمْزَةٌ « مَظْنُونَةٌ »  
 « وَشَرَابُ أَبْرَارٍ » بِذَاكَ تُتَرَجَّمُ  
 « وَتَضَلُّعٌ » مِنْهَا يَكُونُ عِبَادَةٌ  
 وَجَلَّ الْعُيُونِ وَلِلْخَطَايَا يَهْدِمُ  
 تَسْقِي الْحَجِيجَ وَلَا تُذَمُّ بِخَلَّةٍ  
 تَفْنَى الْمِياهُ وَمَاؤُهَا لَا يُعْدَمُ  
 وَمِنْ الْجَنَانِ اللَّهُ أَخْرَجَ مَاءَهَا  
 سُقْيَا « لِهَاجَرَ » حَيْثُ لَا هِيَ تَعْلَمُ  
 وَبِمَائِهَا جِبْرِيلُ، قَلْبُ مُحَمَّدٍ  
 غَسَّلاً أَجَادَ، فَعَادَ وَهُوَ مُكْرَمٌ  
 مَلَانَ إِيْمَاناً يُجَلُّ وَحِكْمَةً  
 يَدْعُو بِهَا، يَا سَعْدَ مَنْ يَتَقَدَّمُ  
 لِإِجَابَةِ الدَّاعِي النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ  
 خَيْرِ الْوَرَى عِنْدَ الْعَظِيمِ مُعْظَمِ  
 وَعَلَى الْأَكَارِمِ : آلِهِ وَصِحَابِهِ  
 أَرْكَى السَّلَامَ يُعَوِّدُ إِذْ هُوَ يُخْتَمُ

وقد صرَّحَ الشيخ في نظمه هذا بأن زمزم خير من الكوثر. وقد ذكر الشيخ شمس الدين ابن ناصر الدين، أيضاً، حديثاً في كتابه «الدراية» فيما جاء في زمزم من الرواية» بسنده إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال، قال رسول الله ﷺ «من طاف بالبيت سبعا، وصلى خلف المقام ركعتين، وشرب من ماء زمزم، غفر الله له ذنوبه كلها بالغاة ما بلغت.

## هل الماء غذاء ؟..

اختلف الأطباء في الماء، هل يغذي البدن ؟  
فهناك من يرى أن الماء لا يغذو، وإنما هو مَرْكَبٌ وَمِعْبَرٌ وموصل للغذاء..(27)

فهذه طائفة تنكر حصول التغذية بالماء وقد احتجت بأمر، يرجع حاصلها إلى عدم الاكتفاء به، وأنه لا يقوم مقام الطعام، وأنه لا يزيد في نمو الأعضاء، ولا يخلّف عليها بَدَلٌ ما حلتته الحرارة، ونحو ذلك مما لا ينكره أصحاب التغذية، فإنهم يجعلون تغذيته بحب جوهره ولطافته ورقته وتغذية كل شيء بِحَسَبِهِ.(28)

وهناك أحاديث شريفة تقول : «إِثْتَدِمُوا وَلَوْ بِالْمَاءِ»(29) و«اثردوا. ولو بالماء».(30)

قال مجاهد : «ماء زمزم إن شربته منه تريدُ شفاءً شفاك الله تعالى.. وإن شربته لظماً، أرواك الله، وإن شربته لجوع، أشبعك الله».(31)

(27) الحيوان للجاحظ. ص : 5/89.

(28) محمد شكري الألوسي «الماء وما ورد في شربه من الآداب» ص : 6.

(29) رواه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم، والخطيب، وتَمَام عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال ابن الجوزي، لا يصح، فيه مجهول، وآخر ضعيف، وقال البيهقي : فيه عُريك بن سنان، لم أعرفه.. وبقية رجاله ثقات..

(30) رواه الطبراني في الأوسط، وابن حبان عن أنس، ورمز السيوطي لضعفه..

(31) عجائب المخلوقات للقزويني.

ثم البركة والشفاء الذي يجده من شرب من ماء زمزم على وجه الدهر، وكثرة من يقيم عليه يجد فيه الشفاء بعد إن لم يدع في الأرض حمة إلا أتاها، وأقام عندها، وشرب منها، واستنقع فيها.. (32)

فهل الماء طعام ؟ فالطعام يطلق على ما يطعم ويشرب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾؛ وقال : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾ أي ما شربوه من الخمر...

وقد طعم يطعم فهو طاعم، إذا أكل وذاق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي من لم يذقه.. وقال رسول الله ﷺ : «إِنَّهَا طَعَامُ طَعْمٍ وَشِفَاءُ سَقَمٍ».. (33)

وأطعمته الماء، أي أذقته، ولم يقل، ومن لم يشربه، لأن في عادة العرب، إذا كرروا شيئاً، أن يكرروه بلفظ آخر، ولغة القرآن أفصح اللغات، فلا عبرة بقدر من يقول : لا يقال : طعمت الماء.. (34) وقوله تعالى : «طعموا»، أصل هذه اللفظة في الأكل، يقال : طعم الطعام، وشرب الشراب، لكن قد تجوز في ذلك، فيقال : لم أطعم خبزاً، ولا ماء، ولا نوماً.. (35)

قال الشاعر :

نَعَاماً بِوَجْرَةٍ صُغِرَ الْخَدَوِ

د، لا تطعم النوم إلا صياماً (36)

---

(32) الحيوان.. للجاحظ.. استنقع : نزل واغتسل.

(33) تفسير القرطبي ص : 1/422، ومعنى طعم : أي يشبع الإنسان إذا شرب ماءها كما يشبع من الطعام. والطعم بالضم، مايوكل، وبالفتح : ما يشتهي.

(34) المصدر السابق : ص : 3/252.

(35) المصدر السابق : ص : 3/296.

(36) وَجْرَةٌ : موضع بين مكة والبصرة - يقول الشاعر : هي صائمة منه لا تطعمه، وروي في اللسان: لا تطعم الماء، وقال : وذلك لأن النعام لا ترد الماء. ولا تطعمه، وقبله :

فأما بنو عامر بالنسار غداة لقونا فكانوا نعاماً

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمَهُ﴾ دل على أن الماء طعام، وإذا كان طعاما، كان قوتا لبقائه واقتيات الأبدان به، فوجب أن يجرى فيه الربا.. قال ابن العربي : وهو الصحيح من المذهب...

قال أبو عمر : قال مالك : «لابأس ببيع الماء على الشط بالماء، متفاضلا وإلى أجل... وهو قول أبي حنيفة وأبي يوسف..

وقال محمد بن الحسن : هو ما يُكَال ويوزن، فعلى هذا القول لا يجوز عنده التفاضل، وذلك عنده فيه ربا، لأن علته في الربا الكيل والوزن.

وقال الشافعي : لا يجوز بيع الماء متفاضلا، ولا يجوز فيه الأجل، وعلته في الربا أن يكون مأكولا جنسا. (37)

ولما أراد الله تأسيس الحال، وتمهيد المقام، وخط الموضع للبيت المكرم، والبلد المحرم، أرسل الملك، فبحث عن الماء، وأقامه مقام الغذاء.. وفي الصحيح: (38) «أن أبا ذر رضي الله عنه اجتزأ به ثلاثين، بين يوم وليلة قال أبو ذر : «ما كان لي طعام، إلا ماء زمزم، فسمنت حتى تكسرت عُنِّي، (39) وما أجد على كبدي سَخْفَة (40) جوع» وذكر الحديث..

---

(37) تفسير القرطبي : ص 252/3.

(38) رواه البخاري في كتاب المناقب في باب قصة إسلام أبي ذر الغفاري ص : 400/6، وفي باب قصة زمزم، ص : 400/6، وفي باب إسلام أبي ذر في قصة طويلة.

(39) العُكْن والأعكان : الأطواء في البطن من السَّمْن، والتثنى من كم البطن مفردة عكنة قال النابغة في خَمَص البطون من جهة ضُمِّره :

والبطن ذو عُكْنٍ خَمِيصٌ لِينٌ والنحر تنفُجُ بثدي مقعد

ونَفَجَ ثدي المرأة قَمِيصَهَا : إذا رفعه قال ابن صارة : [قلائد العقيان ص : 270]

والنهر قد رَقَّتْ غِلَالُهُ صبغه

وعليه من ذهب الأصيل طِرَارُ

تترقرق الأمواج فيه كأنها

عُكْنُ الخُصور تَصْمُهَا الأعْجَارُ

[نفح الطيب ص : 600/3]

(40) سَخْفَة الجوع : رفته وهزاله [انظر جامع البيان ص : 370/9].



وقد سئل سائل عن حديث : «ماء زمزم لما شرب له» مامدى صحته ؟

وما معناه ؟

فكان الجواب : إن الحديث له روايات مختلفة، وهذه الجملة : حديث صحيح، وما زاد عليها... قال الشيخ ناصر : إنه ضعيف.. أما معناه فليس على عموم معنى «ما» فلو شربه شيخ ليرتد شابا، أو شربه جاهل ليصير عالما بلا تعلم، أو شربه مغترب ليعود إلى بلده بغير الوسائل المعروفة، لم يحصل له ما أراده، ولكن معناه أنه إن شربه العطشان، روى، وإن شربه الجائع لذع الجوع عنه، وأغناه موقتا عن الطعام.. والذي أعرفه - ولست بطبيب - أن الجوع جوعان - أولهما اشتهاً قوياً للطعام، ورغبة شديدة فيه، وهذا ناشئ في تصوري عن إفراز المعدة لعصاراتها، وليس فيها ما تهضمه هذه العصارات، وهذا جوع ظاهري، يكون غالباً في وقت الطعام، فإن مر الوقت وجسر على الجوع أحس أنه زال، وهذا يفيد فيه شرب الماء، ولا سيما ماء زمزم.

وجوعٌ حقيقي هو نقص السكر في الدم - فإذا لم يأكل يشعر بالدوار - أو أعني عليه، وهذا لا ينفع فيه الماء وحده، بل الطعام، وأفضله المواد السكرية الطبيعية - لذلك سن للصائم أن يفطر على التمر.

### وهو لما شرب له :

لقد شرب جماعة من العلماء «ماء زمزم» لمقاصد وغايات، فحصلت بإذن الله، ومن هؤلاء العلماء الإمام الشافعي الذي شربه للرمي، فكان يصيبُ بدقة.. وشربه الحاكم، لحسن التصنيف، فكان أحسن أهل عصره تصنيفاً... (41)

(41) فتح القدير ص : 190/3.

وعن سويد بن سعيد قال : «رأيتُ عبد الله بن المبارك (42) دخل زمزم، فقال: «اللهم إن ابن المؤمل، (43) حدثني عن أبي الزبير عن جابر، أن رسول الله ﷺ، قال : «ماء زمزم لما شرب له» فإنه شربه لعطش يوم القيامة» (44) وأنا أشربه لظماً يوم القيامة.

ويحكى أن الخطيب البغدادي، (45) لما حج شرب من ماء زمزم ثلاث شربات، وسأل الله عز وجل ثلاث حاجات، أخذاً بقول النبي ﷺ : «ماء زمزم لما شرب له».

فالحاجة الأولى أن يحدث بتاريخ بغداد.

والثانية أن يملي الحديث بجامع المنصور.

والثالثة أن يدفن إذا مات عند قبر بشر الحافي (46)

ومما تحدث به القاضي أبو بكر ابن العربي عن مكة قوله : «كنت بمكة مقيماً في ذي الحجة عام 489هـ، وكنت أشرب من ماء زمزم كثيراً، وكلما شربته نويت به العلم والإيمان، ففتح الله لي ببركته في المقدار الذي يسره لي من العلم، ونسيت أن أشربه للعمل، وياليتني شربته لهما حتى يفتح الله لي فيهما، ولم يقدر، فكان صغوي أكثر منه للعمل، واسأل الله تعالى الحفظ والتوفيق برحمته...» (47)

---

(42) قال ابن الجوزي في «المدهش» : «المسمون بعبد الله ابن المبارك ستة : أحدهم مروزي والثاني خراساني، والثالث بخاري، والرابع جوهرى والباقيان بغداديان» وأشهرهم الأول، إذا أطلق اسمه انصرف القصد إليه، [الأعلام ص : 4/256، وللشيخ علي الطنطاوي رسالة فيه مطبوعة بدمشق.

(43) عبد الله بن المؤمل بن وهب الله القرشي المخزومي العابدي المدني، ويقال : المكي قالوا بأنه كان قاضياً بمكة، وليس بذلك، ومات بها سنة 50 بفتح [انظر : تهذيب التهذيب ص : 6/46].

(44) المصدر السابق ونفس الصفحة.

(45) الإرشاد، لياقوت ص : 1/246.

(46) الحضارة الإسلامية، لأدم ميتز ص : 1/322، وبشر أبو نصر الحافي (767 - 841) ولد في «مترسام» من قرى «مرو»، متصوف، عاش في بغداد، وجمع حوله جماعة من أصحاب الورع.

(47) «فهرس الفهارس». ج : 1/312.

وقد تحدث الجلال السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة»، وهو يترجم ذاته حيث قال : «وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز، واليمن والهند والمغرب والتكرور، ولما حججت شربت من «ماء زمزم» لأمر منها : أن أصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني، (48) وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر. (49)

قال ابن حجر : «ولا يحصى كم شربه من الأئمة لأمر نألوها.. قال : «وأنا شربته في بداية طلب الحديث أن يرزقني الله حالة الذهبي في حفظ الحديث... ثم حججت بعد مدة تقرب من عشرين سنة، وأنا أجد في نفسي المزيد على تلك الرتبة... فسألت رتبة أعلى منها، وأرجو الله أن أنال ذلك منه».

وقال الكمال ابن الهمام : «والعبد الضعيف - يعني نفسه - يرجو الله سبحانه وتعالى شربة الاستقامة، والوفاء على حقيقة الإسلام معها. (50)

وقد أخرج الفاكهي عن ابن الزبير قال : لما حج معاوية، حججنا معه، فلما طاف بالبيت صلى عند المقام ركعتين، ثم مرّ بزمزم، وهو خارج إلى الصفا، فقال : «انزع لي منها دلوّاً يا غلام، قال : فنزع له منها دلوّاً، فأُتي به، فَشَرِبَ وَصَبَّ عَلَى وَجْهِهِ وَرَأْسِهِ، وهو يقول : «زمزم، شفاء، وهو ماشرب له...».

وقد أفرد الحافظ بن حجر جزءاً في هذا الحديث، واستشهد له في موضع آخر بحديث أبي ذر رفعه : «إنها طعام طُعْم، وشفاء سقم» وأصله في مسلم، وهذا اللفظ عند الطيالسي... وقال : «ومرتبة هذا الحديث أنه باجتماع هذه الطرق، يصلح للاحتجاج به».

(48) للسيوطي كتاب : ترجمة البلقيني، الملتقط في الدرر الكامنة.

(49) حسن المحاضرة ج : 1 / 141.

(50) فتح القدير ج : 3 / ص : 191.

وقد جربه جماعة من الكبار، فذكروا أنه صحَّ... بل صححه من المتقدمين ابن عيينة، ومن المتأخرين المُنذري والدمياطي، وضعفه النووي وأخرجه الديلمي بسندٍ وإِ عن صفية وابن عمرو مرفوعاً : ماء زمزم... (51)

\*\*\*

وقد شوش بعض الزنادقة، ووضع أهل الطغيان والافتراء حديثاً يوهي الحديث المحكم الثابت في ماء زمزم، فقالوا : «الباذنجان، لما أكل له». وهو حديث باطل لا أصل له.. وقد لَهَجَ به العوام حتى قال قائلهم : هو أصحُّ من حديث : «ماء زمزم لما شرب له» وهذا خطأ قبيح.. وقال بعض الحفاظ : إنه من وضع الزنادقة... وقد أطال الناجي في كتابه: «قلائد المرجان، في الحديث الوارد كذباً عن الباذنجان» (52) الكلام فيه، وقال إنه باطل موضوع كذب.. وقد نبه على ذلك الذهبي وابن الجوزي وغيرهما.. (53)

قال الشيخ ابن غازي : حدثني محمد القوري اللخمي المكناسي [الإتحاف ج : 3 / ص 595] عن شيخه أبي عبد الله بن عبد العزيز، أنه قال : سمعت العالم المحدث الحافظ الرباني البلالي بمصر يقول : حديث «الباذنجان لما أكل له»، أمتن إسناداً، من حديث : «ماء زمزم لما شرب له»، قال شيخنا القوري : وهذا عكس المعروف.

---

(51) «كشف الخفا» ص : 2/248.

(52) للشيخ الحافظ إبراهيم بن محمد الناجي الشافعي (ت 900هـ) [كشف الظنون : ص 2/1350].

(53) المصدر السابق ص : 1/327.. وقد قال بعض شعراء الأندلس في الباذنجان :

ومستحسن عند الطعام مُدَحَّرَج

غذاه «نميرُ الماء» في كل بُسْتَانٍ

تطلع في أقمَاعِه، فكأنه

قلوبُ نَعَاجٍ في مَخَالِبِ عِقْبَانٍ

[النفح ص : 4/88].

ولعل النقل انقلب على ناقله سهواً، وإلا، فالذي نقل البلالي المذكور في مختصر الإحياء خلافه، بل صرح بأن حديث الباذنجان موضوع، وضعته الزنادقة، وإن حديث : «ماء زمزم» صحيح، وقد استوفى كلامه وكلام غيره، في تقييده على المختصر في كتاب الحج..

\*\*\*

### تأليف ومصنفات في بئر زمزم :

قام الدكتور «سائد بكداش» بجامعة أم القرى في مكة المكرمة بتحقيق مخطوطة للحافظ «شهاب الدين بن حجر العسقلاني» (ت: 852هـ)، ويتحدث فيها عن الحديث النبوي الشريف : «ماء زمزم لما شرب له» في جزء اقتطعه من كتابه : فضل ماء زمزم» الذي صدرَ عن دار الثقافة للطباعة في مكة المكرمة..

والمخطوطة موجودة ضمن مجموع في دار الكتب المصرية تحت رقم : 144 مجاميع في سبع ورقات مع صفحة العنوان، وفي كل صفحة 19 سطراً، ولم يكتب في آخرها تاريخ النسخ... ورغم وجود تحقيق سابق لهذه المخطوطة، فإن الدكتور البكداش شكَّك في جودة وإتقان العمل الذي قام به المحقق السابق لها، وهو : كيلاني محمد خليفة، واعتمد فيه على نسخة دار الكتب المصرية، واعتبر تحقيقه مليئاً «بالإسقاط والتحريفات الغريبة العجيبة التي بلغت 31 خطأ، ومن أعجبها وأطرفها ما جاء عنده في صفحة 30 قوله: «لأن ذلك ليس عند أئمة الحديث : علي وسفيان وأحمد، بل المدار...!!)»، وصواب العبارة، وكما هو واضح في الأصل : «أئمة الحديث على سنن واحد، بل المدار...» وقد قدم المحقق قائمة بإسقاطات سلفه الكيلاني، وقام بتصويبها، ثم أفرَدَ ست عشرة صفحة لتحقيق المخطوطة من جديد، والتي تكلم فيها العسقلاني عن طريق الحديث : «ماء زمزم لما

شرب له»، واعتبره يصلح للاحتجاج به في الفائدة العظيمة لهذا الماء، ثم أورد الدكتور سائد بكداش أدلة تثبت صحة نسبة المخطوطة إلى العسقلاني... ومما يجدر بالذكر أن سائد بكداش حصل على الدكتوراة في الفقه المقارن، بعد تحقيقه لجزء من مخطوطة شرح مختصر الطحاوي.

\*\*\*

لقد ورد ذكر «بئر زمزم» كثيراً في شعر الجاهلية والإسلام، كما صدرت عدة دراسات عن مائها قديماً وحديثاً.. وألفت عدة كتب في مائها، منها : كتاب حفر بئر زمزم» للإخباري توفي بمدينة بخارى (ت : 206هـ)، (54) وكتاب «حفر بئر زمزم» للعطار، ابن إسحاق البغدادي (ت : 372هـ)، (55) و«نشر الأنفاس، في فضائل زمزم وسقاية العباس» لخليفة ابن أبي الفرج بن محمد الزمزمي الشافعي المكي (ت : 106هـ) (56) و«دُرُ الرُّ القلائد، فيما يتعلق بزمزم، وسقاية العباس من العوائد» لابن علان المكي (ت : 1057) (57) وأخيراً صدر كتاب : «زمزم، طعام طعم، وشفاء سقم» للمهندس «يحيى حمزة كوشك»، الذي تحدث في هذا الكتاب عن علاقته الروحية الخاصة بهذه البئر المقدسة، والذي قال في مقدمة كتابه الذي صدر في جدة، وكان عبارة عن وثيقة تاريخية وعلمية فريدة مدعومة بالصور والحقائق والمعلومات الدقيقة، يقول : «إن بيته يقع أمام باب الصفا، وكان من السهل عليه رؤية البئر من نوافذ هذا المنزل، ورؤية الناس وهم يشربون منها ويتوضأون، فارتببت هذه الصورة في ذهنه طوال الوقت، وحمل عشقه لزمزم في كل مكان ذهب إليه...

(54) «هدية العارفين» ص : 196 / 5.

(55) المصدر السابق، ص : 207 / 5.

(56) المصدر السابق، ص : 350 / 5.

(57) المصدر السابق، ص 283 / 6.

وانظر : «خلاصة الأثر» «للمحبي»، ترجمة ابن علان الصديقي ج : 4 / ص : 187.

ويقول المؤلف إن والده كان أول من اقترح على وزارة الأوقاف فكرة ضخ مياه زمزم بالمضخات مما أدى إلى تحسين طعم المياه، بعد أن كانت تستخرج بالدلو الذي يأخذ الماء من السطح.

ويضيف الكاتب أنه واصل عملية الاهتمام بهذه البئر عندما جعلها موضوع رسالة ماجستير تقدم بها إلى كلية الهندسة جامعة القاهرة وكان موضوعها حول كيفية تطهير بئر زمزم، وتعقيم مياهها بالأشعة فوق البنفسجية، باعتبارها أفضل وسائل التعقيم وأنسبها للحفاظ على طعم المياه..

وقد استعرض الكاتب تاريخ «بئر زمزم» منذ ظهورها، وما طرأ عليها من طم وحفر وتحسينات على مرّ العصور، وقد تضمن البحث مكونات هذه المياه وفق التحليلات العلمية الحديثة، والعديد من الصور التي لم تظهر من قبل في أي كتاب آخر...

وخصص المؤلف فصلاً كاملاً عن إفضال ماء زمزم وبركتها وأورد أحاديث كثيرة وأخباراً متعددة أجمعها كلها على طهارة ماء زمزم وشفاء من يشربها، وكونها شراب الأبرار..

وقد صدر، قبل هذا الكتاب، للأستاذ المرحوم عبد القدوس الأنصاري كتابان جديان بعنوان : «وَأَحَاتُ عَنْ مِصَادِرِ الْمِيَاهِ فِي الْمَمْلَكَةِ» و«تاريخ العين العزيزية بجدة» نسبة إلى الملك عبد العزيز الذي أمر بعد عودته من زيارة مصر عام 1946 بجلب الماء إلى جدة من عيون : «مَرَّ الظهران» المعروف «بوادي فاطمة» وقد احتفلت جدة في يوم 20 نونبر 1947 المبارك حقاً على هذه المدينة، وشاركتها بعض سراة مكة، مع رجال الحكومة بوصول أنابيب من الماء العذب النقي إلى البلدة الضامئة المحرومة، وضوعفت فيما بعد مقادير المياه المستوردة من «مر الظهران» إلى جدة، فتحولت أطراف دُورها القاحلة، إلى حدائق غلب، وشق شوارعها بالأزهار، فعادت جدة اليوم جنة الخلد وغيرها بالأمس، والماء عنصر الحياة..



الأواني الفخارية السليمة عند حفظها بداخل الصناديق

### اعتقاد الناس في بئر زمزم :

للحجيج اعتقاد كبير في «ماء زمزم»، يتهادون به في آنية من الصفيح أو الدوارق المختومة.. وكم يلقي فيها من المواد النفيسة كالذهب الخالص والأواني الغالية، بل إن بعض المجاذيب في بعض الفترات التاريخية كانوا يلقون أنفسهم فيها ليموتوا فداء حَسَبَ تصورهم... (58) وقد وضع بأمر السلطان أحمد خان، في عام 1020هـ شبكة من الحديد بداخل البئر، ومنخفضة عن سطح الماء بمتر، حتى تقي كل من سَوَلَّتْ له نفسه الارتماء فيها..

---

58 «مرآة الحرمين» ج : 1 / ص : 257.



ويقول أهل مكة إن «ماء زمزم» نافعٌ لكل شيءٍ بدليل حديث : «ماء زمزم لما شرب له».

وكان مكتوبا على بئر زمزم في عام 1318هـ، على الشباك الشمالي من جهة الباب «ماء زمزم شفاء من كل داء» (59) «آية ما بيننا وبين المنافقين انهم لا يتصلعون من زمزم» (60) السلطان عبد الحميد خان عام 1201هـ وتجد مكتوبا على بابها ما يأتي :

سرور لسلطان البسيطة والورا  
عبد الحميد البر بحر المكارم  
ونصر له، أيضا، وفتح ورفعة  
بتعمير هذا المأثر المتقادم  
حفيرة إبراهيم يوم أبى هاجر  
وركضة جبريل على عهد آدم

\*\*\*

ولما حفر عبد المطلب زمزم وجد فيه الأشياء التي دفنها الجراهمة، حين لجأوا إلى الجلاء، أي السيوف والدروع، والغزالين من ذهب، فضرب الأسياف بابا للكعبة، وضرب في الباب الغزالين، وأقام سقاية زمزم للحجاج. (61)

وقد نقل أن التبابعة كانت تحج البيت وتعظمه، وتعتقد فيه، وأن تبعا كساها الملاء، والوصائل، وأمر بتطهيرها، وجعل لها مفتاحا.. ونقل أيضا، أن الفرس كانت تحجه، وتقرب إليه وأن غزالي الذهب اللذين وجدهما عبد المطلب حين حفر زمزم كانا من قرابينهم... (62)

59) رواه الديلمي في مسند الفردوس، وهو حديث ضعيف.

60) رواه الحاكم وابن ماجه والبخاري في تاريخه.

61) ابن هشام : ص 142 إلى : 1477. - مقدمة ابن خلدون ص : 3/842.

62) مقدمة ابن خلدون ص : 3/842. - الطبري ص : 2/251. - البداية ص : 216 - 225، 2/245 -

أخبار مكة ص : 1/282. ابن الأثير ص : 7 - 2/8 - ابن سعد، الطبقات ص : 1/85.

ومن الطريف أن بعض الكتاب خصصوا دراسة كاملة لإحصاء جميع ما تم العثور عليه في بئر زمزم من أدوات وقطع معدنية، وأواني، أثناء عملية التنظيف والتطهير، وسجل ذلك بالكلمة والصورة، ومن الملفت أن العملات المعدنية التي تم العثور عليها كانت عملات من بلدان إسلامية مختلفة على مر العصور، وبعضها نادر للغاية، ولا يوجد مثله في أي مكان آخر، كما تنوعت الأواني الفخارية، وتعددت حسب العصور والسنوات التي صنعت فيها...

\*\*\*

ومن الآبار المقدسة التي تحظى بإقبال الزوار عليها، ورمي العملات المعدنية بقصد التبرك، وفتح أبواب الآمال : «بئر السلطان منصور شاه» التي أقامها اتباع الأميرة «هونج ليم» «بمالقا» جنوب شرق آسيا بالملايو، وهي تمتاز بماء غاية في العذوبة والنقاء لا يغيض أبدا حتى في أيام الجفاف الشديد، فتوجد أسطورة مشهورة تقول: إن من يشرب من بئر السلطان لا بد أن يعود مرة أخرى إلى مالقا..(63) وتحكى الأسطورة بأن الأميرال «شينج هو» الذي شرب من ماء تلك البئر، قد عاد في أيامه الأخيرة أكثر من مرة إلى «مالقا» التي تعتبر مدينة الأساطير القديمة...

وحول البئر، اليوم، يرى الكثير من الصينيين والزوار يقفون من وراء الأسلاك، ويرمون فيه العملات المعدنية على أمل أن تتحقق رغباتهم بعد أن تحول بئر السلطان إلى بئر أسطوري لتلبية الرغبات والأمنيات...(64) وهناك خرافة من أكثر الخرافات المتعلقة بالماء انتشارا، وأكثرها تأصلا، مازالت باقية في صورة : «بئر الأماني»، ففي أيام الوثنية عندما

---

(63) مالقا : اسم لمدينتين.. تبعد كل منهما عن الأخرى عشرات الآلاف من الأميال، إحدهما في جنوب شرق آسيا، والثانية في جنوب شرق إسبانيا.. «ومالقا» ميناء هام في ماليزيا على مضيق «مالقا»، عاصمة دولة مالقا، يقطنها 86 ألف نسمة، ويفصلها عن سومطرا، مضيق «مالقا» وهي بين بحر الصين الشمالية، والمحيط الهندي يربطها بالقارة قناة «كرا»، وقد زرتها عام 69، صحبة الأستاذ المرحوم عبد الله كنون.

(64) انظر : استطلاعاً عن «مالقا» وصراع تحت الشمس، مجلة «العربي» ع : 317، أبريل عام : 1985.

كانت البئر مملوكا لحرورية أو لجنية، كانت الهدايا تقذف في داخله، أو توضع بالقرب منه، وكان مقدم الهدية يصلي لجنية الماء من أجل قضاء خدمة أو مساعدة في مقابل هديته.. ومع تناقض الإيمان بالآلهة القديمة أصبحت الهدية منحة رمزية درهما أو فلسا، وتحولت الصلاة إلى أمنية.(65)

### تنظيف بئر زمزم :

كانت البئر تنظف على مر العصور لاستخراج ما بها من أدوات وأشياء وقعت فيها، وقد جرت عملية التنظيف لهذا البئر في مطلع القرن الهجري عقب احتلال الحرم المكي من قبل الطغمة الظالمة الفاجرة الباغية، كما أن عملية التنظيف الأخيرة بدأت يوم السبت 17/5/1399هـ عندما تمت الاستعانة بغواصين من ميناء جدة أحدهما مصري والآخر باكستاني؛ وبدأت بعملية قياس البئر التي بلغ عمقها عشرين مترا...

وقد تحدثوا بأن المفاجأة الأولى في عملية التنظيف أن الغواصين مكثا في المرة الأولى نصف ساعة، وخرجا بعدها لأن البوصلة التي معهما توقفت عن العمل، رغم أنها كانت جديدة وسليمة.. ولما تم استبدالها بأخرى توقفت الأخرى أيضا... وتبين بعد ذلك أن سبب هذا التوقف وجود قطع حديد وصفيح في قاع البئر، وهذا أثر على إبرة البوصلة، وجعلها لا تلتزم مكانا واحدا، وأصبح من العسير تحديد منابع البئر.

\*\*\*

---

(65) الماء : معجزة الطبيعة، تأليف طومسون كينج. ترجمة : زكريا فهمي.



صورة قديمة لبئر زمزم

وقد كتب عن بئر زمزم الفاضل لبيب البتنوني كلمة في رحلته جاء فيها: «...ويدعي بعضهم أنه يشرب ماء زمزم اتقاء الجوع فيشبع، وأظن أن خَدَمَةَ العين يبالغون في فوائده يتجسم معها الوهم عند شاربيه، ومن ذلك يقع طعمه من أذواق الناس على شبه اعتقادهم فيه، فمَنهم من يقول : إنه لايعادله شيء في لذته، ومنهم من يرى أنه أحلى من العسل، وألذُّ من اللبن، ويرى غيرهم خلاف ذلك كما ذهب إلى ذلك أبو العلاء المعري الذي قال بأن مياه الأنهار في البلدان عذبة، وماء زمزم في أقدس البلدان مالح حيث قال :

تباركت، أنهار البلاد سوائح      بعذب، وخَصَّتْ بالملوحة زمزمُ

فقال «تباركت» لينفي قصد اللوم، ويقتصر على السؤال والاستغراب،  
ولابن علان الصديقي في ماء زمزم. (66)

وزمزم، قالوا فيه بعض ملوحة  
ومنه مياه العين أحلى وأملح  
فقلت لهم : قلبي يراها ملاحه  
فلا برحت تحلو لقلبي وتملح  
وهي كما قال الآخر :

كماء طريق الحج في كل منزل  
يذم، على ما كان منه، ويشرب

ويظهر أن ملوحة ماء زمزم كان سببها كما يقول جعفر الصادق : إنها  
كانت من أطيب المياه وأعذبها وألذها وأبردها، فبغت على المياه، فانبط الله  
فيها عينا من الصفا فأفسدتها... وقال أحمد الهمذاني كان ذرع زمزم من  
أعلاها إلى أسفلها ستين ذراعا، وفي قعرها ثلاثون : عين حذاء الركن  
الأسود، وأخرى حذاء كانت تجم، وذلك في نحو سنة : 224، لأن البئر  
أهملت، وهدم كثير من جوانبها، فأخذ رجل من أهل الطائف يقال له محمد  
بن بشير يعمل فيها ثم جر فيها محمد بن الضحاك تسعة أذرع، فزاد  
ماؤها واتسع، ثم كثرت الأمطار والسيول عام 225هـ فكثر ماؤها...

ولما ولي المنصور الخلافة عمل فيها الرخام، وفرش به أرضها، وعليه  
قبة مبنية وسط الحرام تجاه باب الكعبة..

وذكر المؤرخون أنه في عام 822هـ، أجري إصلاح كبير، بل عمارة  
جديدة في هذا البيت وأحواضه والظلة التي فوقه للمؤذنين، وإن ذلك كان  
على نفقة الشيخ علي بن محمد بن عبد الكريم الجيلاني نزيل مكة..

---

(66) له : «درر القلائد، فيما يتعلق بزمزم وسقاية العباس من الفوائد» ص: 187/4، «خلاصة الآثار»  
للمحبي.

وقد عمل السلطان الملك المظفر نخبه آل عثمان لهذه البئر خرزة من الرخام مرتفعة على الأرض نحو متر ونصف، وبجانبيها حوض يملأه الخدم للواردين، فيملأون منه الأسقية والمزاد، أما إذا قصدها أحد الخاصة، فيملأ له من العين رأسا...

\*\*\*

### تحليل ماء زمزم :

فصل العلماء الكلام عن تحليل ماء زمزم ومكوناته، وقد أورد محمد لبيب البتنوني في كتابه «الرحلة الحجازية» رأيا مفصلا عن زمزم والمعادن التي يحتويها.

وحقيقة ماء زمزم أنه ماء قلوي تكثر فيه الصودا والكلور، والجير، والحامض الكبريتي، وحمض الأزوتيك، والبوتاسا مما يجعله أشبه شيء بالمياه المعدنية الصحية في تأثيرها، ويفيد قليله، ولا تخلو الكثرة منه من الضرر، خصوصا في غير موسم الحج، حيث تكون بئرها مهجورة، لأن أهل مكة لا يشربون منها لملوحتها، وفي هذه الحالة يزيد فيها الحامض الأزوتيك بدرجة تجعل ماءها غير صالح للشرب..

وربما كانت نصيحة بعضهم بالتضلع منها بعد طواف القدوم لتأثيرها على الجهاز الهضمي بما ينظفه من المواد التي تكون قد انفرت إليه مدة هذا السفر الشاق مما يكون نتيجته رد فعل تنشط به الأعضاء، وتصح الجسم، وقد قال الأطباء : أن هذا الماء نافع للكلية والمعدة. والكبد، والأمعاء..

فهو ماء معالج ونافع لما شرب له من الأدوية التي من طبيعته شفاؤها، ويفسره بذلك حديث : «إنها شفاء سقم».

وقد جرب ابن القيم الجوزية وغيره من الاستشفاء بماء زمزم أموراً عجيبة، واستشفى به من عدة أمراض، فبرأ بإذن الله. (67)

ويقول القزويني في عجائب المخلوقات : «وماء زمزم صالح لجميع الأمراض.. قالوا : لو جمع جميع من داواه الأطباء، لايكون شطرا ممن عافاه الله تعالى بشرب ماء زمزم...»

وقد أورد مؤلف كتاب : ماء زمزم الأستاذ المهندس يحيى حمرة كوشك بحماسة وإيمان وغيره الرد على ما كتبه محمد لبيب البتنوني وغيره ممن يقول بعدم صلاحية ماء زمزم للشرب في كل المواسم، ونقل عن العالم الكردي رده على كل هذه الآراء وغيرها خاصة تلك التي تقول إن بعض الأطباء حللوا الماء فوجدوا به جراثيم..!

وقد قام الدكتور رجا حسين أبو السمن (68) بإعداد بحث عن مياه بئر مياه زمزم، حيث إنه أخذ عينات من بئر زمزم بالطريقة الصحية وبعناية لكي تمثل البئر حقيقيا من أجل هذه الدراسة، والبحث، وكانت كمية العينة المأخوذة 3 لترات في الفترة من شهر أبريل 1986م وحتى شهر يوليو 1986م وذلك عينة مقدارها لتر واحد خلال عام 1977م، وآخر عينة تم أخذها في اليوم الثاني من شهر دجنبر 1977م، أما عين زبيدة في عرفات، فكانت لترين، وبتاريخ 23/4/1976م.

(67) الطب النبوي ص : 307.

(68) أستاذ الصناعات الكيماوية، بقسم الهندسة الكيماوية بكلية هندسة البترول والتعدين، بجامعة الفاتح بطرابلس - ليبيا.



مجموعة مما وجد في البئر



أواني فخارية مختلفة بعد وضعها بداخل الصندوق لحفظها



بعض الأواني الفخارية والأخشاب التي تم حفظها...



ونورد فيما يلي التحاليل التي وردت في هذا البحث :

الرقم	كمية الأملاح الذائبة	الكلوريدات	الكربونات	الكبريتات	الكالسيوم	المغنسيوم	الحديد	الكبريتيدات	النترات
الهيدروجيني	جزء في المليون	جزء في المليون	جزء في المليون	جزء في المليون	190	365	234	1620	609
غير موجود	غير موجود	غير موجود	غير موجود	غير موجود	غير موجود	غير موجود	غير موجود	غير موجود	غير موجود

### التحليل الكيماوي لآبار مكة المكرمة

(جدول رقم 42)

البئر	الرقم	كمية الأملاح الذائبة جزء في المليون	الكلوريدات جزء في المليون	الكربونات جزء في المليون	الكبريتات الكبريتيدات النترات
زمزم	6,9	1620	234	365	190
الداودية	7,2	2000	190	450	300
المسفة	6,8	2050	140	500	350

### التحليل الكيماوي لمياه زمزم وعين زبيدة

(جدول رقم 25)

اسم التجربة	بئر زمزم	عين زبيدة
الرقم الهيدروجيني	9.6	0.7
كمية الأملاح الذائبة	1620 جزء في المليون	500 جزء في المليون
الكبريتات	234 جزء في المليون	80 جزء في المليون
الربونات	365 جزء في المليون	130 جزء في المليون
(على شكل كربونات الكالسيوم)		
الكبريتات	190 جزء في المليون	96 جزء في المليون
الكبريتات	غير موجودة	غير موجودة
النترات	غير موجودة	غير موجودة

يلاحظ التدفق الشديد للمياه...

الفرحة تبدو على وجه الغواص محمد  
يونس منذ ظهور منابع زمزم

يلاحظ تدفق المياه الشديد...

صورة قديمة لبئر زمزم من الداء  
وعليه الدلاء والشبكة المعدنية ال  
أنشئت في عهد الملك عبد العزيز  
سعود رحمه الله.

## تحاليل مخبرية :

أكدت تحاليل مخبرية خلو ماء زمزم من أي تلوث، فقد وضع الدكتور يوسف عبد المنان رئيس قسم الكيمياء بكلية التربية بمكة المكرمة بحثاً خاصاً عن ماء زمزم، مستنداً على التحاليل المخبرية التي أجراها، وأكدها خلو ماء زمزم من أي تلوث، وكانت تلك التحاليل افتراء أعداء الإسلام والمسلمين وتؤكد بلا شك نظافة ماء زمزم..

وقد نشرت جريدة «الشهاب» البيروتية (69) مقالا في تحليل ماء زمزم من طرف علماء قاموا من المغرب وباكستان، والسودان وسوريا وتركيا وأندونيسا بتحليل ماء زمزم في معمل تابع للشركة الفرنسية بجدة في شهر يونيو 1972 موافق 20 ربيع الأول عام 1392 فكانت النتيجة :

### 1 - التحليل البكتولوجي.

2 - المحتويات المعدنية.. وبه نسبة عالية من البوتاسيوم، نسبة الصوديوم منخفضة، أملاح الكلوريدات منخفضة، كما توجد به محتويات أخرى هائلة غير معروفة في المياه الأخرى.

ويقول الدكتور «لو باخ إيل استناز» من ترجمة السيدة إصلاح سهيل في كتابه : «رحلاتي إلى المشرق». "My travels to the east". hou don 1969. p. 209. «إن ماء زمزم يختلف عن جميع أنواع المياه في العالم، نحن يمكننا أن نحلله جزئياً، أي معرفة اليسير عنه، ولكننا نعجز عن تحليله كاملاً، إن معاملنا العالمية بلا شك متقدمة، ومتطورة جداً، ولكن يجب أن أعترف بأنه

---

(69) ع : 6 / س : 6 بتاريخ جمادى الأخيرة عام 1392 / 15 يوليوز عام 1972.

كما وأننا لانستطيع تحليل كُنْهِ الروح في الإنسان في معاملنا، لانستطيع تحليل ماء زمزم في هذه المعامل، وكل من يحاول ذلك فهو يهزأ ويسخر من نفسه، لأنه يوجد بهذا الماء الآلاف من المواد الأصلية التي تدخل في تركيبه، والتي هي غير معروفة لنا على الإطلاق...

فلماذا التكلم عن ماء زمزم ؟

وأعترف أنا شخصيا أنه قد قدر لي أن استعملت الآتي من مكة على بعض مرضاي ذوي الأمراض المزمنة، وكان أن تَمَّ لهم الشفاء من أمراضهم. والتي كانت تحتاج إلى إجراء العمليات الجراحية، وأنه لرائع جدا. ومشرف لي أن أتعرف على مثل هذا الماء الذي يهب الحيوية والصحة.

## الفصل الرابع :

### وقوف الآبار والعيون في المدينة المنورة...

لقد مَنَحَتْ طبيعة يثرب، وهي بركانية التربة، أراضِيَهَا خصبا زائدا... وهي ذات وديان كثيرة، تفيض بمياه السيول، فتروي أَرْضَهَا، وتسقي النخل والزرع، اشتهر منها «وادي العقيق» الذي كان منتزه المدينة، وكان يتدفق بالمياه، ويزهو بالبساتين... وكانت الأرض صالحة لحفر الآبار... وقد كَثُرَتْ في البساتين، ومنها ما هو مُسَوَّر، ويسميه أهل المدينة : «الحَاظُ».. واشتهرت آبار كثيرة بعذوبة الماء ووفرته، وكانت لهم شراج،(1) وكانوا يحولون الماء بالمساحي إلى حدائقهم...

\*\*\*

ويثرب، مثل مكة من شعاب، تسكنها بطون الأوس والخزرج : الأوسُ في شعاب، والخزرج في شعاب، واليهود في شِعَاب، وفي الشعاب حَوَاطِط، وبساتين صغيرة وفي الحَوَاطِطِ آبار يستقون منها للشرب وللسقي وللغسل.(2)

وقد احتفر اليهود آباراً، كانوا يبيعون الماء منها بالدُّلَاء، مثل «بئر أرومة» وكانت لليهودي، وقد أمر الرسول بشرائها فاشتراها عثمان...(3)

(1) الأشرج : مجاري الماء التي تهبط من الجبال، وتَصُبُّ في الحِرَار، وتشق بطون الأرض.. قال النابغة :

فمُجْتَمِع الأَشْرَاج عَفَّ رُسُومُهَا  
مَصَايِفُ مَرَّتْ بَعْدَنَا، وَمَرَابِعُ

ومنه قوله :

أَنْهَلْتُ مِنْ شَرَجٍ، فَمَنْ يَعْلِي  
يَا شَرَجُ لَا فَاءَ عَلَيْكَ الظِّل  
فِي قَعْرِ شَرَجٍ حَجَرٌ يَصِلُ

(2) الطبري : ص : 357 - اللسان : ص : 279 / 7.

(3) المعارف : ص : 83.

ومن آبار المدينة : «بئر ذروان» وهي البئر التي ذكر أن لبيدا بن الأعصم اليهودي سَحَرَ بها الرسول.(4)

\*\*\*

### في المدينة المنورة آبار وحدائق وبساتين ...

ففي المدينة آبار وحدائق وبساتين، وأهلها يشربون، اليوم، من آبار كثيرة، منها بئر الأعواف، وبئر القويم، وبئر العباسية، وبئر صفية، وبئر البديرة، وبئر فاطمة، وبئر عُرْوَة؛ وكان أهل المدينة في الماضي يهدون من ماء البئرين الأخيرتين للملوك وكبار المسلمين.

\*\*\*

في الجهة الغربية من المدينة المنورة حيث الطريق إلى مكة، ترى أطلال قصر عتيق مترامي الأطراف، يبدو للناظر كمعلم ينتظر زائراً يحكي له قصة تاريخ غابر عاشه القصر..

والحقيقة أن هذه الأطلال ليست سوى شواهد قصرٍ عامر، الذي يعرف لدى البعض باسم «قصر عُرْوَة» بن الزبير، نسبة إلى البئر التي يطل عليها القصر، والذي يعود تاريخ بنائه للقرن الأول الهجري..

«فقصر عروة» بن الزبير يقع في الطريق القديم الموصل إلى مكة المكرمة، ولعل أبرز ما يميّزُ القصر حالياً، بقاء كثير من معالمه الواضحة، بما في ذلك الأسوار المحيطة، والغرف الملحقة به، بل كذلك المنصة الكبيرة التي كانت تعد للحفلات والولائم...

ومن المعالم التي اشتهر بها القصر(5) سابقا بئرُه التي تفوق شهرتها شهرة القصر ذاته، وتقع هذه البئر في مواجهة القصر وتشتهرُ بعذوبة مائها الذي كان يهدى إلى الخليفة هرون الرشيد...

(4) نزهة الجليس : ص : 61/1.

(5) أوضح المهندس سعيد الرحيلي مدير إدارة التسمية والترقيم في الأمانة العامة بالمدينة المنورة، أن القصر الآن يقع محمل اهتمام الأمانة العامة بالتنسيق مع الجهات المختصة.

و«بئر عروة» قال فيه الزبير بن بكار : «كان يخرج من مكة وغيرها، إذا مر بالعقيق، تزود من ماء «بئر عروة»، وكانوا يهدونه إلى أهاليهم، ويشربونه في منازلهم...».

قال الزبير : ورأيت أبي يأمر به، فيغلى، ثم يجعله في القوارير ويهديه إلى الرشيد، وهو بالرقعة..

قال السري بن عبد الرحمن الأنصاري :

ولها مربع ببرقة خاخ<sup>(6)</sup>

ومَصِيف بالقصر، قصرِ قُبَاء

كفَّنُونِي، إن مِتَّ في دُرُع أُرْوَى

واجعلوا لي من «بئر عروة» مائي

سَخْنَةً في الشتاء، باردة الصيـ

ف، سراج في الليلة الظلماء

قال الأمير شقيب أرسلان : «وقد قسم الله لي النزهة، أو القيلة كما يقول أهل الحجاز، عند هذا البئر منذ خمس عشرة سنة قبل الحرب العامة بقليل، ووجدت من خفة مائها وحلاوته، ماتذكرته هذه المرة عند شربي من «بئر جِعْرَانَة» التي في ضواحي مكة...»

وهذه البئر موجودة بهذا الاسم إلى هذا العهد، وقد رأيت في بعض الكتب أنها نسبت إلى عروة ابن حزام، وقبره عندها.. وقال ياقوت : «بعقيق المدينة تنسب إلى عروة بن العوام.. قال علي بن الجهم :

هَذَا الْعَفِيفُ، فَعَدُّ أَيْدِي

الْعَيْسِ مِنْ غُلُـوَاهَا

---

(6) خاخ : روضة خاخ بقرب حمراء الأسد من المدينة، كانت من الأحماء التي حماها النبي ﷺ والخلفاء الراشدون، ويقال إنها في حدود العقيق بين «الشوطي» و«الناصفة» وقد أكثر من ذكرها الشعراء، وكانت فيها منازل لأئمة من آل البيت وغيرهم من أعيان المدينة، وانظر ما قيل عن «ماء الناصفة» صحيح الأخبار» ص : 104/3.

وَإِذَا أَطْفَتَ بَبْئَرُ عَرُورِ  
ة، فَاسْقِنِي مِنْ مَائِهَا  
إِنَّا وَعِيشُكَ مَا ذَمَمْنَا  
العِيشَ فِي أَفْنَاءِهَا

ومنذ عهد قديم جدا (7) توجد في المدينة المنورة آبار كثيرة تركز الاهتمام على الاستقاء منها، وتغذية حاجات سكانها...

وفي «الوفا» للسيد السَّمُودِي : أنه كان بالمدينة، وما حولها عيون كثيرة، تجددت بعد النبي عليه السلام، وكان لمعاوية اهتمام بهذا الباب، ولهذا كثرت في أيامه الغلال بأراضي المدينة.

ونقل الواقدي (8) أنه كان بالمدينة في زمن معاوية صوافي كثيرة، وأن معاوية كان يحرق بالمدينة وأعراسها مائة ألف وست وخمسين ألف وسق، ويحصد مائة ألف وسق حنطة. (9)

وفي فتح الباري : أصناف التمر في المدينة كثيرة جدا.. فقد ذكر الشيخ أبو محمد الجويني في الفروق، أنه كان بالمدينة، فبلغه أنهم عدوا عند أميرها صنوف التمر الأسود خاصة، فزاد على الستين، قال : والتمر الأحمر، أكثر من الأسود عندهم. (10)

\*\*\*

### شبح العطش كان يلاحق سكان شبه الجزيرة العربية :

ويظهر أن المياه في المدينة المنورة كانت تتكون من الآبار من مسيل الأودية التي تنحدر فروعها من الحرار (11) والجبال..

(7) عندما يتحدث الدارس عن حالة شبه الجزيرة، فإنه يعتمد على ما وصله من تراث مكتوب عن أهلها الأقدمين... وهذا التراث المكتوب لا يزيد عمره عن 1600 عام، على أكبر تقدير، أي منذ العصر الجاهلي الذي سبق الإسلام وإلى العصر الحاضر.

(8) كتاب الحرة، ج : 2 / ص : 152.

(9) «التراتب الإدارية» ج : 21 / 50.

(10) الحكومة النبوية للشيخ عبد الحي الكتاني، ج : 2 / ص : 35.

(11) تقع المدينة المنورة بين حرتين شهيرتين، غربية تدعى «الوبرة»، وشرقية، وتدعى «واقم»، ويعود الاسم الأخير إلى حصن كان قائما في المنطقة أيام الرسول عليه السلام.



والسيول تختلف، قوة وضعفا، باختلاف الأزمنة، ولهذا نَصَبَ كثيرٌ من الآبار القديمة، أو قل ماؤها، وكان من أقوى الأسباب في ذلك في العهود الأخيرة حفر الآبار العميقة، وتركيب مضخات آليه تمتص المياه، فتنحدر إلى أجواف الأرض، وهذا ماسبب الجهل لكثير من الآبار القديمة..(12) إن شبح العطش كان دائما يلاحق سكان شبه الجزيرة العربية، ويطاردهم حتى في الأحوال العادية،(13) لذلك فإن سقي الماء والتصدق به أصبح من أهم الأعمال الخيرية المطلوبة التي يقوم بها الأهالي فيما بينهم.. وفي سجلات الأوقاف كثير من الصكوك التي يوقف بها أصحابها عقارات وأموالا على مشاريع تقديم المياه للمصلين في المساجد، أو العابرين في الطرقات، ويحظى مسجد الرسول الأعظم عليه السلام، والمسجد المكي الشريف بأكثر هذه الوقوف.

\* \* \*

وقد وصف المدينة المنورة في حرارتها، وَحَمَارَةً قَيْظَهَا أبو سالم العياشي في رحلته التاريخية الرائعة، حينما زارها في القرن الحادي عشر،

(12) أنظر : «المغانم المطابة، في معالم طابة» لمجد الدين الفيروز آبادي، تحقيق : حمد الجاسر.. وطابة: موضع في أرض طيء [ياقوت : ج : 3/ج:6] قال زيد الخيل : سقى الله ما بين القفيل، فطابة

فما دون إرمام، فما فوق مُنَشِدِ

قال بَلْبِيْهُد : «تحمل هذا الاسم من العهد الجاهلي حتى هذا العهد، وهي من قرى الجبلين أَجَا وَسَلْمَى، وهي معروفة عند جميع أهل نجد [صحيح الأخبار. ج : 3/131].

(13) أثبتت دراسة لوزارة الكهرباء والماء في دولة الإمارات العربية المتحدة أن غالون الماء العذب، الصالح للشرب، يكلف خزينة الدولة 4 دراهم، بينما لا تتعدى تكلفة غالون البنزين سوى 7.3 دراهم فقط... وجاء في هذه الدراسة أن توصيل المياه لعشرين منزلا يكلف مجموعة 510 ألف درهم... أما تمديد شبكة ماء حديثة، فتكلف 200 ألف درهم، بينما يكلف حفر بئر ناجح 200 درهم، على حين تصل تكلفة بناء الخزان إلى 80 ألف درهم. وأوضحت الدراسة أنه نظرا للأهمية القصوى التي تتمتع بها مياه الشرب في الإمارات، فقد وضعتها الدولة على قمة أهدافها الاستراتيجية وقد قامت الوزارة بتكليف أحد المكاتب الاستثمارية المتخصصة في إجراء دراسة فنية اقتصادية، ووضع إطار عام لخطة رئيسية لأمرء دولة الإمارات بمياه الشرب لمدة ثلاثين عاما مقبلة...

وصفاً دقيقاً، يقرب إلى الوصف الذي كتبه عنها أمير البيان شقيب أرسلان، حيث أقام فيها شهوراً، وكتب في وصف حرارتها ما يأتي: «وكنّا مدة نزولنا بمحل إقامتنا في أرغد عيش، وألذه، لا يزاحمنا فيه غيرنا، لولا بُعد من المسجد، فكنا إذا خرجنا لصلاة الظهر، في أيام الحر تكاد الرمضاء تحرقنا، إنما نتقي ببقايا الظلال، ومبادئ الفَيء تحت الجدران، ومع ذلك يلفحنا الحر لفتحاً، فلا نصل إلى المسجد إلا بعد مشقة، ولا كنا نحسب في ذلك خطانا...».

وقد وصف أبو خالد البلوي في رحلته العامرة : «تاج المفرق» أيضاً حَرَّ المدينة بقوله : «وَهَجِيرُ تلك الأودية يلفح، وزفيرها لا يكف ولا يصفح...»

قال المبرد : رأيت أحمد بن المعذل بعرفات مُضْجِياً للشمس لا يستظل فقلت «ما هذا يا أبا الفضل ؟».

فقال :

ضحيت لكيما أستظل بظله  
إذا الظلُّ أضحى في القيامة قَالِصاً  
فيا أسفا إن كان أجرك حابطاً  
وياحزناً إن كان حجك ناقصاً

وحكى الدينوري قال : «كان أحمد بن المعذل إذا حج لا يستظل، فلقيه بعض أصحابه بين مكة والمدينة، وهو في يوم صائف شديد الحر، ليس له مظلة، وقد أحرقته الشمس، فقال له : لو سترت نفسك من الحر..»

فأنشأ يقول :

ضحيت له كي استظل بظله  
إذا الظلُّ أضحى في القيامة قَالِصاً

وعادت نفوس الناس عند حلوقهم  
 يريقون ريقا غائر الماء شاخصا  
 وما كنت ترجو أن ينالك حرها  
 وقد كنت من حر الظهيرة حائضا  
 لعمري لقد ضاعت أمور لأهلها  
 ليغتبطن بالسبق من كان خالسا (14)

\*\*\*

### آبار المدينة المنورة ..

تحدث الشيخ علي نور الدين السمهودي، (15) عالم المدينة، عن الآبار المباركة، والعين التي هي للنبي منسوبات إليه بتفصيل كبير، فذكر من الآبار، بئر أريس، وبئر الأعواف، أحد الصدقات النبوية، «وبئر أنا» كهنا، (16) «وبئر أنس» بن مالك بن النضر، وبئر إهاب.. قال المصري : لم يزل أهل المدينة، قديما وحديثا، يتبركون بها، وينقل إلى الآفاق من مائها، كما ينقل من زمزم، يسمونها، أيضا : «زمزم» لبركتها، وهي قريبة من

(14) ترتيب المدارك، للقاضي عياض، ص : 8 - 4/9.

(15) في كتابه : «خلاصة الوفا، بأخبار المصطفى» لنور الدين علي بن أحمد السمهودي (ت : 911هـ) [كشف الظنون، ص : 2/2016]. وهو شافعي، من سمهود، بلدة غربي نيل مصر، حسني، نزيل المدينة المنورة، مفتي بها، ولد عام 844 - وت : 911هـ، له من التصانيف : «خلاصة الوفا، بأخبار المصطفى» في تاريخ المدينة المنورة مطبوع بمصر، وله أيضا : «ذروة الوفا، بأخبار المصطفى» و «الوفا، بأخبار دار المصطفى» في تاريخه الكبير، و «وبالوفا، متخصر ذلك [هدية العارفين ص : 5/740، - وللشيخ إبراهيم بن أبي الحرم المدني قوله في تاريخ المدينة للسمهودي :

من رام يستقصي معالم طبيبة  
 ويشاهد المعهود بالموجود  
 فعليه باستقصاء تاريخ الوفا  
 تأليف عالم طبيبة السمهودي  
 [خلاصة الأثر، للمحبي، ص : 1/43].

(16) هذه البئر هي التي ضرب رسول الله عليه السلام قبته عندها حينما حاصر بني قريظة، وشرب منها، وهذه البئر غير معروفة الآن، وربما كانت في المدينة باسم آخر، غير هذا الاسم [مرآة الحرمين : ص : 1/428].

السقيا، على يمين الطريق، حتى زعم بعضهم، أنها بئر السقيا وهي بئر مليحة في حديقة نخل حولها بركة وبناء، وسميت «زمزم» تشبيها لها «ببئر زمزم» في التبرك بها، ونقل مائها للآفاق»

قال المقرئ في النفح : ثم قصدنا بعد قضاء تلك الأوطار، لطبيّة الشريفة التي لها الفضل على الأقطار، واستشعرت قول مَنْ أنشد، وَطَيْرُ عزمه عن أوكاره قد طار :

حَمِدْتُ مَرَادِي، إِذَا بَلَغْتُ مُرَادِي  
بِأَمِّ الْقُرَى مَسْتَمْسِكًا بِعَمَادِي  
وَمُنْذُ رَوَيْتُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمٍ غُلَّتِي  
فلست بمحتاج لماء ثَمَاد (17)

وقد زارها أبو سالم العياشي، وقال بأنها كانت إذذاك ملكا لبعض أصحابنا المغاربة المجاورين؛ (18) وبئر «البُصّة» وبئر بُصَاة»، و«بئر جَاسُوم» أي بئر أبي الهيثم بن التّيهان، و«بئر جَمَل»، سميت بجمل مات فيها، أو برجل اسمه جَمَل حفرها، و«بئر حاء»، و«بئر حلوة»، و«بئر ذرع» و«بئر رُومة»، و«بئر السُّقيا» و«بئر العَقبة» و«بئر أبي عنبّة»، و«بئر العَهن»، (19) و«بئر الغرس»، و«بئر القُرَاضة» و«بئر القريضة» و«بئر اليسيرة».

(17) نفح الطيب، ج : 1/41.

(18) «ماء الموائد» للعياشي، ص : 270/1. - وذكر العلامة الشيخ أحمد بن عبد الحميد بن هرون بن كرام الله العباسي السندي في كتابه : «عمدة الأخبار، في مدينة المختار» أن زمزم بئر بالمدينة على يمين السالك إلى بئر علي المحرم بعيدة عن الجادة قليلا في سند الحرة... وحوط عليها ببناء مجصص، وكان على شفيرها حوض من حجارة تكسر، ولم يزل أهل المدينة يشربون منها، وينقل ماؤها، كما ينقل من زمزم مكة، ولا يعرف فيها أثر... قال : ولعلها البئر التي احتفرتها فاطمة بنت الحسين بن علي زوج الحسن بن الحسن بن علي، حين أخرجت من بيت جدتها فاطمة الكبرى، وأمرت بحفر بئر فيها، فطلع لهم جبل، فذكروه لها، فتوضأت وصلت، ودعت، ورشت موضع البئر بفضل مائها، وأمرتهم، فحفروا، فبلغوا الماء بسرعة.. ص : 290.

(19) كانت قريبا لأولاد السيد علي بن حسن الشدقمي الحسيني المدني [عمدة الأخبار، ص : 229].

فتكون هذه الأبَار الموقوفة الماثورة تسع عشر بئراً، فحصرها في سبع مردود، ولكن الذي اشتهر، معرفة، من ذلك سبع، ولذا قال في الإحياء، وهي سبعة آبار.. قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديثها، وهي «بئر أريس»، و«بئر حاء»، و«بئر رومة»، و«بئر غرس»، و«بئر بضاعة»، و«بئر البصة» و«بئر السقيا» أو «بئر العهن»، أو بئر الجمل، (20) فجعل السابعة مترددة بين الأبَار فيها، إنما هو باسمها الآخر.. والمشهور اليوم عن أهل المدينة أن السابعة هي العهن، ولذا قال أبو اليمن الزين المراغي فيما أنشد فيه عنه أخوه الشيخ العلامة :

إذا رمت آبار النبي بطيبة  
فعدتها : سبع، مَقَالاً بلا وهن  
أريس. وُغرس. رُومة، وبُضاعة  
كذا، بُصة قل : «بير حاء» بلا وهن

\*\*\*

وفي المدينة آبار أخرى، مثل «بئر القويم»، وهي من أكبر آبار المدينة، وبئر العباسية، وبئر الصفية، وبئر البويرة، وبئر فاطمة، وكل هذه الأبَار جنوبي المدينة المنورة...

هذه الأبَار ورد أن النبي ﷺ تَفَلَّ فيها، أو شرب، أو توضأ، فاكتسبت بذلك فضلاً، فصارت مقصودة بالزيارة، والاستشفاء بمائها... (21)  
وناهيك «ببئر عروة» بوادي العقيق الذي كان أهل المدينة فيما سلف يهدون من مياهها لأمرء الشام.

فهذا عروة بن الزبير بن العوام ابن أسماء بنت أبي بكر الصديق، وأخو عبد الله بن الزبير حاكم الحجاز والعراق.. وتلميذ عائشة خالته، وحامل

(20) «عمدة الأخبار، في مدينة المختار» أحمد بن عبد الحميد العباسي، ص: 226.

(21) الرحلة العياشية، ص: 1/264.

فقه الصحابة، وقارئ القرآن، وراوي الحديث، ومرشد الناس بالمدينة، وصاحب الصَّيِّت المدَّوِّي بمكة والعراق ومصر والشام كانت مكارمه جهرية.. ومنها وقفه وبناءؤه للبئر الشهيرة «بئر عروة»، وجعلها موردا عذبا للضامئين، باذلا في ذلك ما تطلبه العمل من فضة وذهب ليجد المسلمون الظمأى ما ينقع غليلهم، ويبل عطشهم حين تغيض الينابيع، وتَشْجُ السماء، وتمتسك السقيا، ويتوقف الحيا؛ إذا أُضيفت إلى مكرمة البستان الذي كان يملكه بالمدينة حيث تَفِدُّ إليه التجار حينما يثمر في إبانهِ، فيفتح أبوابه الواسعة لمن شاء الدخول كي يجني من الخير ما يريد، دون أن يشعر بخجل واتضاع.. فإن عروة بن الزبير حري أن يذكر مع كبار الأجواد من أمثال كعب بن مامة، وحاتم، ممن ضربت بآثارهم الأمثال...

وقد اشتهرت بئر عروة (22) بالمدينة كما اشتهرت «عين زبيدة» بمكة، وتقاطر الناهلون على مائها العذب صيفا وشتاء حتى كان من أمنيات بعض الشعراء المغتربين من المدينة نهلةً من بئر عروة إذ هي كما يقول :

سخنة في الشتاء، باردة في

الصيف، تشفي حرارة الظمآن (23)

قال ياقوت (24) بعقيق المدينة تنسب إلى عروة بن الزبير بن العوام (ض).

وهي موجودة بهذا الاسم إلى هذا العهد. (25)

وذكر أن إبراهيم بن المهدي حج مع أخيه الرشيد، وورد «بئر عروة» وقد فاته الركب، وعليها عبد يستقي، فقال للعبد : «املا قربة ماء، فأبى

---

(22) قال الزبير بن بكار : رأيت أبي يأمر به، فيغلى، ويجعله في القوارير، ويهديه إلى الرشيد، وهو بالرقعة... ولا تزال هذه البئر تعرف حتى اليوم بهذا الاسم المشهور، وكذا يتزود من مائها العذب الفُرات القادمون والمسافرون، ويقال بأن له فائدة طبية في إدرار البول.

(23) أنظر ياقوت، ص : 2/5 - والرحلة العياشية، ص : 1/271.

(24) ج : 2 - ص : 5.

(25) صحيح الأخبار، ج : 3/ص : 75.

عليه، وأخذ الدلو منه، فتغنى، وهو يجذب الدلو، ويقول «كفنونى...» (26)  
 فأعجب العبد بغنائه، وأخذ الدلو منه، فقال : غن لي، وأنا أستقي، فلما ملأ  
 قربته، قال : إن أحببت أن ألحقك الحاج، فتغنى لي حتى ألحقهم، فقلت له :  
 نعم، فركبت، وأنا أغني، وهو معي على أقدامه، حتى لحقنا  
 الحاج.. (27)

وفي هذه البئر يقول عروة :  
 وبكراتٍ ليس فيهن قَلَلُ  
 بكل مجدول مُمرٍّ قد قُتِلُ  
 يغرُّفن من جَمَّاتٍ بحرٍ ذي مَقَلُ  
 حَفيرة الشيخ الذي كان اعْتَمَلُ  
 يرجو ثوابَ الله فيما قد فَعَلُ  
 إن الكريمَ للمعالي مُعْتَمِلُ  
 ولا ينال المجدَ رَخْوُ مُشْتَمِلُ  
 يَرُضِي بأدنى سَعْيِهِ وَيَعْتَزِلُ  
 إني على بنيانٍ مجدٍ لن يَضِلُ  
 بنيان أبائي، وأبني ما فَصَلُ

وقرب هذه البئر، بنى عروة قصره المشهور، قال ياقوت : هو بالعقيق  
 منسوب إلى عروة ابن الزبير بن العوام ابن خويلد... روى عروة ابن  
 الزبير، أن رسول الله ﷺ قال : «يكون في أمتي خسف وقذف» وذلك عند  
 ظهور عمل قوم لوط فيهم» قال عروة : فبلغني أنه قد ظهر ذلك، فتنحيت

(26) قال عمر بن أبي ربيعة :

كفنتُـنـي إن مُت في درع أروى  
 وامتَحَلـي من بئر عـروـة مائـي

(27) صحيح الأخبار، لابن بلبيهد النجدي، ص 3/75.

أنظر ياقوت، ص : 7/106.

عن المدينة، وخشيت أن يقع، وأنابها، فنزلت العقيق وبنى به قصره  
المشهور عند بئر.. وقال لما فرغ منه :

بَنِينَاهُ، فَأَحْسَنَّا بِنَاهُ

بِحَمْدِ اللَّهِ، فِي وَسْطِ الْعَقِيقِ  
تَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ شَزْراً

يَلُوحُ لَهُمْ، عَلَى وَضْحِ الطَّرِيقِ  
يَرَاهُ كُلُّ مُخْتَلِفٍ وَسَّارٍ

وَمُعْتَمِدٍ إِلَى الْبَيْتِ الْعَقِيقِ  
فَسَاءَ الْكَاشِحِينَ، وَكَانَ غِيظاً

لَأَعْدَائِي، وَسُوراً بِهِ صَدِيقِي

وأقام عبد الله بن عروة بالعقيق في قصر أبيه، فقليل : لَمْ تَرَكَتِ  
المدينة؟ فقال : لَأَنِّي كُنْتُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ : حَاسِدٍ عَلَى نِعْمَةٍ، وَشَامِتٍ بِنَكْبَةٍ!  
وقال عامر بن صالح في قصر عروة وبئر :

حَبَّذَا الْقَصْرَ ذُو الطَّهَارَةِ وَالْبُئْرِ

مَاءٌ مُزِنٌ لَمْ يَبِغْ عُرْوَةً فِيهَا  
غَيْرَ تَقْوَى الْإِلَهِ فِي الْمَقْطَعَاتِ

بِمَكَانٍ مِنَ الْعَقِيقِ أُنَيْسٍ  
بِبَارِدِ الظِّلِّ، طَيِّبِ الْغُدُودَاتِ

وقصر عروة معروف عند أهل المدينة، وأثاره باقية، إلى هذا العهد،  
وهو في وادي العقيق على سفحه الشمالي، ويحمل هذا الاسم إلى هذا  
العهد. (28)

\*\*\*

---

(28) «صحيح الأخبار، عما في بلاد العرب من الآثار» ص : 3/108.



إن من أشهر أودية المدينة على الإطلاق وادي العقيق، الذي قال عنه الرسول عليه السلام : «أتاني آتٍ من ربي عز وجل، فقال : صلّ في هذا الوادي المبارك، وقل عمرة في حجة».

وقد أطلق على الوادي اسمه الحالي ملك تُبّع أثناء زيارته له للمدينة، وإن كانت هناك رواية أخرى تُرجع أصل التسمية إلى عقوق الوادي في حرة المدينة حيث يقسمها من الوسط، ويمتلئ وادي العقيق بالعديد من القصور، مثل قصر المراجل، وبعض القصور الأخرى... وتشير بعض المراجع إلى أن الوادي سَكَنَهُ أيّامَ عمرو بن العاص قرابة أربعين ألف نسمة.

وينتهي الوادي بمكان يقال له الجرف : وقد أطلق عليه هذا الاسم «ملك تُبّع» أيضاً، وفي الجرف عَسْكَر جيش أسامة بن زيد الذي أخرجه الرسول عليه السلام قبل وفاته...

ويطل على الوادي بعض الجبال الشهيرة في المدينة مثل جبال : «الجّمّارات» وبعض الجبال والتلال الأخرى.

\*\*\*

### آبار موقوفة في المدينة :

هذه معلومات مختصرة عن بعض هذه الآبار الموقوفة والمسبّلة والتي كانت خاصة بالواردين وأبناء السبيل على المدينة المنورة.

### بئر أريس : (29)

وتسمى بئر الخاتم، وبئر التفلة، وهي داخل حديقة غربي مسجد قباء وماؤها غزير، ويقولون إن النبي عليه السلام تفل فيها، فَعَذَبَ ماؤها بعد أن كان أجاجا، وقد ذكر الغزالي هذا في إحيائه؛ وقال العراقي مخرج

(29) كجليس، نسبة إلى رجل من اليهود، إسمه : أريس، وهو الفلاح بلغة أهل الشام [ عمدة الأخبار، ص : 26 - 27 - 228.

أحاديثه إنه لم يقف على أصل حديث تفلّه عليه السلام في بئر أريس، قال السيد السمهودي : ومن الغريب قول الغزالي جماعة في منسكه: قد صح أن النبي عليه السلام تفل فيها.. وقد جعل لمائها نفقاً من أسفلها على وجه الماء، حتى يتصل ماؤها بالبئر التي يقال لها «العين الزرقاء» ومن هذه العين كل الوقوف المائية والتسبيلات الموقوفة بالمدينة، ومنها تملأ الدوارق التي توضع في الحرم الشريف للشرب وهي لا تكاد تحصى كثرة، قال أبو سالم العياشي: (30) «ما أعظم بركتها، وأوسع نفعها، ولقد شاهدتُ من يستشفى بمائها، فيشفى، وقد حملنا بعض مائها للاستشفاء..

وقد جدد أبو بكر بن أحمد السلامي درجا لهذه البئر ينزل منه إلى قاعها من يريد الشرب أو الوضوء، وذلك في سنة 714هـ (31).

ويسقى منها البستان المسمى «بستان النبي» عليه السلام، وقف المرحوم محمد باشا العثماني الصدر الأعظم..

### بئر غرس : (32)

هي بئر بقباء في شرقي مسجدها على نصف ميل من جهة الشمال، وقد ورد أن رباحا غلاما للنبي ﷺ كان يستقي من بئر غرس مرة، ومن بئر السقيا مرة، ولابن حبان في الثقة عن أنس أنه قال : «إيتوني بماء من بئر غرس، فإنني رأيت رسول الله ﷺ يشرب منها، ويتوضأ» ولابن ماجه بسند جيد عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا أنا متّ، فاغسلوني بسبع قرب من بئر غرس وكانت بقبا، وكان يشرب منها..

وكانت البئر لسعد بن خيثمة، وروي أنه عليه السلام توضأ منها، وأهرق بقية وضوئه فيها.. وروي، أيضا، أنه قال : رأيت الليلة أني أصبحت

(30) الرحلة العياشية، ص : 1/165.

(31).مرآة الحرمين، ج : 1/ص : 298.

(32) غرس : بضم فسكون، وقال المجد : بفتح فسكون، وضبطه بعضهم بالتحريك...

على «بئر» من الجنة، فأصبح على بئر غرس، فتوضأ منها، وبزق فيها، وأهدي له عسل فصبه فيها». وقد جعل لها درج ينزل إليها منها، وحولها حديقة، وبجانبها مسجد، وقد زارها، أيضاً، مرة أبو سالم العياشي (33)

### بئر بضاعة :

هذه البئر توجد في حديقة كبيرة ذات نخل. أقرب أبواب المدينة إليها، باب الشامي عن يمين الخارج منه قليلاً، وحولها مسجد وبركة ماء. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قيل لرسول الله ﷺ، «إنه يستقى لك من بئر بضاعة، وهي يطرح فيها مايكره من النتن. فقال : «الماء لا ينجسه شيء إلا ما غلب على طعمه وريحه ولونه. قالت أسماء بنت أبي بكر : كنا نغسل المرضى من بئر بضاعة ثلاثة أيام، فيعافون...» (34)

وبئر بضاعة واقعة معروفة في شرقي المدينة باقية إلى اليوم.. ومن قال إن بئر بضاعة جارية، فقد أخطأ، فإنه لم يكن على عهد رسول الله ﷺ بالمدينة عين جارية، بل الزرقاء وعيون حمزة، حدثا بعد موته.. (35)

وبئر بضاعة، باتفاق العلماء، وأهل العلم بها، هي بئر ليست جارية، وما يذكر عن الواقدي من أنها جارية، أمر باطل، فإن الواقدي لا يحتج به باتفاق أهل العلم، ولا ريب أنه لم يكن بالمدينة على عهد رسول الله ﷺ ماء جار.. وعيون حمزة وعين الزرقاء محدثة بعد النبي عليه السلام. (36)

(33) الرحلة العياشية، ص : 1/269، عمدة الأخبار، ص : 230.  
(34) قال أبو سالم العياشي في رحلته : «وقد كنت أيام مرضي بالمدينة أبعث إلى مائها، فأغتسل به، فأجد الراحة. - ص : 1/168 ص : 232.  
(35) فتاوي أبي تيمية، ص : 37 - 21/38.  
(36) المصدر السابق، ص : 21/41.

وقد ثبت عن أبي سعيد الخدري أن النبي عليه السلام قيل له :  
 يارسول الله : «إنك تتوضأ من بئر بضاعة، وهي بئر يلقى فيها الحيض  
 ولحوم الكلاب، والنتن، فقال : «الماء طهور، لا ينجسه شي» قال الإمام  
 أحمد: حديث بئر بضاعة صحيح، ولم يكن بالمدينة على عهد رسول  
 الله ﷺ إلا الآبار، منها يتوضأون، ويغتسلون، ويشربون، مثل بئر «أريس»  
 التي بقباء، أو البئر التي «ببئر حاء» (حديقة طلحة) والبئر التي اشتراها  
 عثمان، وحبسها على المسلمين، وغير هذه الآبار.  
 وكان سقيهم للنخل والزرع من الآبار بالنواضح والسواني ونحو ذلك أو  
 بماء السماء، وما يأتي من السيول، فأما عين جارية فلم تكن لهم(37)...

#### بئر البُصة (38) :

هذه البئر قريبة من البقيع على طريق «قُبا» في حديقة نخلٍ على طرف  
 بطحان، وماؤها أخضر... واتخذ لهذه البئر درج ينزل بها إليها...  
 وقد روى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان رسول  
 الله ﷺ يأتي الشهداء وأبناءهم، ويتعاهد عيالهم، فقال : فجاءني يوما، فقال:  
 «هل عندك من سدر، أغسل به رأسي، فأني اليوم الجمعة»، قلت : نعم،  
 فأخرجت له سِدْرًا، وخرجت معه إلى البُصة، فغسل رسول الله ﷺ رأسه،  
 وصَبَّ غَسَّالَةً رأسه، ومراقبة شعره في البصة.  
 قال أبو سالم العياشي في رحلته (39) : وقد شربنا من مائها مراراً،  
 وتوضأنا واغتسلنا...

(37) المصدر السابق، ص : 60 - 21/61.

(38) البصة : بضم الموحدة، وتخفيف الصاد المهملة، كما هو الدائر على السنة أهل البلد... وفي  
 القاموس : إنه بالتشديد... كأنه من بص الماء بصا : رشح، وقد أوقفها شيخ الخدم بالحضرة  
 الشريفة النبوية ربحان البدي الشهابي قبل وفاته بعامين أو ثلاثة في سنة 697هـ. [عمدة  
 الأخبار، ص : 231].

(39) الرحلة العياشية، ص : 1/267.

بئر حاء (40) :

كان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، وهي شمالي المدينة يعد سورها شرقي بئر بضاعة ولكن يفصل بينها بئر بضيجة...

قال المطري : تعرف هذه البئر، الآن، بالنويرة، اشتراها بعض النساء النويريين، أي خطباء مكة.

وكان رسول الله ﷺ يستعذب ماءها، وكانت في بستان لأبي طلحة، وقفه على أقاربه وبني عمه كما دل على ذلك حديث البخاري في كتاب الأشربة في باب : «استعذاب الماء»، روي عن أنس بن مالك أنه قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا، وكان أحبّ ماله إليه «بئر حاء»، وكانت مستقبله المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها فيشرب ماءً فيها طيباً، قال أنس : فلما نزلت هذه الآية : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ (41) قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ : وقال : «يا رسول الله، إن الله يقول : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ «بئر حاء»، وإنها صدقة لله أرجو برّها وذخّرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله»، فقال رسول الله ﷺ : بخ... ذلك مال رابح، أو رايح، - شك من الراوي - قد قبلناه منك، ورددناه عليك، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين، فقال أبو طلحة : «إفعل يا رسول

(40) بفتح الموحدة وكسرهما، وفتح الراء وضمهما، وبالمدة فيهما، وبفتحهما وقيصر فيعلّى من البراح، وهي الأرض المنكشفة، وقيل : بئر أضيف إلى «حاء» من حروف الهجاء، وهو اسم رجل أو امرأة أو مكان...

(41) سورة آل عمران، رقم الآية : 92، قال أبو طلحة : إن ربنا ليسأ لنا عن أموالنا، فأشهدك يا رسول الله أنني جعلت أرضي لله... فقال رسول الله ﷺ : «إجعلها في قرابتك، في حسان بن ثابت، وأبي بن كعب... وكذا فعل زيد بن حارثة عمد مما يحب إلى فرس، يقال له «سَبَل» وقال: «اللهم إنك تعلم أنه ليس لي مال أحب إليّ من فرسي هذه، فجاء بها إلى النبي ﷺ فقال : هذه في سبيل الله... فقال لأسامة بن زيد : «إقبضه فكأن زيدا وجد من ذلك في نفسه، فقال رسول الله ﷺ : «إن الله قد قبلها منك، ذكره أسد بن موسى [تفسير القرطبي، ج : 4 / ص : 132].

الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه، وفي بني عمه، وكان منهم أبي وحسان.(42)

وكانت هذه البئر حديقة يدخلها رسول الله ﷺ، ويتظلل بها، ويشرب من مائها، وكانت في عهد أبي سالم العياشي حديقة صغيرة من سور المدينة شمالية، بينهما الطريق، وأقرب أبواب المدينة إليها باب البقيع، وهي بينه وبين باب الشامي.(43)

قال السيد السمهودي في «وفاء الوفا» : «والظاهر أن بعضها اليوم داخل السور، وقد دخلتها، والحمد لله، مراراً واستصبحنا شيئاً من زرع تلك الحديقة المسقى بمائها»...

#### بئر اليسيرة(44) :

وهي في عوالي المدينة قريب من مسجد بني قريظة، وعلى بابها حديقة حسنة ملك لبعض المغاربة...

وقد روي أن رسول الله ﷺ، جاء بني أمية ابن زيد، فوقف على بئر لهم، فقال : «ما اسمها؟» فقالوا : عسيرة، فقال : «لا، ولكن اسمها اليسيرة، وبصق فيها وبرك فيها...» وروى ابن سعد في طبقاته عن عمر بن أبي سلمة أن النبي ﷺ سَمَّاهَا، اليسيرة، وأن أباه أبا سلمة غسل بعد موته بين قرنيها...

وقد زارها أبو سالم العياشي وذكرها في رحلته،(45) وشرب من مائها...

---

(42) مرآة الحرمين، ج : 1/ ص : 429.

(43) الرحلة العياشية، ص : 1/268.

(44) اليسيرة من اليسر ضد العسر، وتعرف الآن ببئر العين بكسر فسكون، وهو لغتاً : الصوف الملون، وهي معروفة بالعوالي مليحة جداً، منقورة في الجبل، وعندها سِدرة،

(45) ص : 1/269.

## بئر رومة :

عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، قال : «من حفر بئرا، فله أربعون ذراعا عطناً لماشيته».

وترجم صاحب «الإصابة» رومة الغفاري، صاحب «بئر رومة» فذكر أنه روى عبد الله بن عمر، وابن أبان أنه لما قدم المهاجرون المدينة، أنكروا الماء، وكان لرجل من بني غفار، عين يقال لها : «رومة» فكان يبيع القرية منها بالمد... فاشترى عثمان بن عفان بئر رومة، وتصدق بها على المسلمين... وكان ركية، (46) يملكها يهودي يبيع للمسلمين ماءها، فقال رسول الله ﷺ : «من يشتري بئر رومة، فيجعلها للمسلمين، يضرب بدلوه في دلائهم، وله مشرب في الجنة، فأتى عثمان اليهودي، فساومه بها، فأبى أن يبيعا كلها، فاشترى عثمان، نصفها باثني عشر ألف درهم، فجعله وقفاً خالصاً للمسلمين، متفقاً مع اليهودي على أن يستغل المسلمون البئر يوماً، ويستغلها اليهودي يوماً آخر، ثم جاء اليهودي بعد مدة عند عثمان، واقترح عليه شراء النصف الآخر، فاشتراه عثمان بثمانية آلاف درهم، وجعل تلك البئر خالصة للمسلمين، فكان رشاؤه كرشاء واحدٍ منهم... وقد قال رسول الله ﷺ : «من حفر بئر رومة فله الجنة».

قال ابن جابر من قصيدة في فضائل الصحابة العشرة، وأهل البيت :

وقال رسولُ الله في بئر رومةٍ

أما مشترٍ يبغي بها الأجرَ في غدٍ

له الجنة العليا بذلك فاشترى

وتجهيز جيش العسرة اذكر وعدّ

[النفح : ج : 7 / ص : 262]

(46) أي بئر ذات ماء...

### بئر فاطمة (47) :

فاطمة بنت الحسين رضي الله عنها، احتفرتها بالحرّة القريبة عند انتقالها من بيت جدتها، فاطمة الكبرى عليها السلام، لإدخالها في المسجد، حفرتها بيدها حين عجز الحفار، فصلت في موضع بئرها ركعتين، ثم دعت الله، وأخذت المسحاة، فحفرت بيدها، وأمرت العمال، وهذه البئر مشهورة، اليوم، عند أهل المدينة باسم بئر زمزم...

### بئر بَيْسَان (48) :

موضع في جهة خير، قريب من المدينة، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ نزل في غزوة ذي قرد، على ماء، يقال له : بَيْسَان، فسأل عن اسمه، فقالوا: إسمه بَيْسَان، وهو ملح، فقال رسول الله ﷺ، بل هو نعمان، وهو طيب، فغير رسول الله ﷺ، الاسمَ وَغَيَّرَ الله الماء، فاشتراه طلحة، وتصدق به، وجاء إلى رسول الله ﷺ، فأخبره به، فقال رسول الله ﷺ : ما أنت يا طلحة إلا فياض، تسمى طلحة الفياض». (49)

ولابن شبة (50) عن عبيد الملك بن جابر بن عتيك أن النبي ﷺ توضأ من العُيْنَةِ التي عند كهف بني حرام، قال : وسمعت بعض مشيختنا يقول : «قد دخل النبي ﷺ ذلك الكهف... ولابن زبالة، قال : كانوا أيام الخندق، يخرجون برسول الله ﷺ ويخافون البيات فيه، خلوته كهف بني حرام، فبييت فيه حتى أصبح هبط. قال : وبقر رسول الله ﷺ العيينة التي عند الكهف، فلم تزل تجري حتى اليوم...

(47) عمدة الأخبار، في مدينة المختار «للعلامة الشيخ أحمد عبد الحميد العباسي» ص : 236.

(48) بالفتح وسكون المثناة تحت، ثم سين مهملمه، وألف ونون.

(49) «عمدة الأخبار» ص : 244.

(50) عمر بن شبة يزيد بن عبيدة بن رابطة النميري البغدادي الأديب الإخباري الشهير بابن شبة (ت: 262 «بِسْرٍ مَنْ رَأَى» له من التصانيف : «أخبار المدينة» و «أخبار أمراء المدينة»، و «أخبار أمراء

مكة» - [هدية، ج : 5/ ص : 780].



قال ابن النجاري، وهذه العين في ظاهر المدينة، وعليها بناء، وهي مقابلة المصلى..

وهذا سيدنا الحسين، يثقله الدِّين، وهو يملك «عين أبي نيزر» فلا يبيعها.. لأن فقراء المسلمين يستقون منها، فهي وقف عليهم، وليحتمل ثقله الدين، وهو الكريم بن الكرام من ذرية بني هاشم...

### بئر السُّقيا :

قال الأسدي (51) : وبالسقيا مسجد لرسول الله ﷺ إلى الجبل، وبه عين عذبة... ذكر السيد السمهودي في تاريخه : «وفاء الوفا» : أن بالسقيا أزيد من عشرة آبار، وإن عند بعضها بركة... ثم قال : وفيها عين غزيرة الماء، ومصبها في بركة المنزل، وهي تجري إلى صدقات الحسن بن زيد، عليها نخلٌ وشجر كثير، وكانت قد انقطعت، ثم عادت في عام 253...، قال : وعلى ميل من المنزل موضع فيه نخل وزرع وصدقات للحسين بن زيد، فيها من الآبار التي يزرع عليها ثلاثون بئرا، وفيها مما أحدث في أيام المتوكل خمسون بئرا، وماؤها عذب، وطول رشائهن قامة وبسطة، وأقل وأكثر، ثم وصف ما بعد السقيا، فقال : وعلى ثلاثة أميال من السقيا عين يقال لها : «تعهن» (52).

قال السيد ابن حسين الشدقي المدني مؤرخ المدينة في تاريخه : السقيا بئر بدار مالك بن النضر والد أنس رضي الله عنه، ويقال لها : «سبيل قاسم» كان يستعذب له عليه السلام، الماء...

(51) عمدة الأخبار، ص : 190.

(52) تعهن : مضمومة التاء، مفتوحة العين، مكسورة الهاء... وفي «وفاء» تُعَاهِن بالضم وكسر الهاء، ويقال فيه تُعَهِن بكسرهما، وقيل مثلثة... وقيل: تعهن كان اسم «عين ماء»، ثم سمي به الموضع، وقيل عين بالقاحه والسقيا... قال السهيلي : وتعهن : صخرة يقال لها : أم عفى، روى أن امرأة كانت تسكن تعهن، يقال لها أم عفى، فحين مر رسول الله ﷺ استسقاها ماء في سفر الهجرة! فلم تسقه! فدعا عليها، فمسخت صخرة فهي تلك الصخرة [ عمدة الأخبار، ص : 246.

وقد عمّر المرحوم قاسم أغا، شيخ الحرم الشريف على هذه البئر المشار إليها في حدود سنّة عمارة حسنة وسبيل، وبركة، وحوض، وديوان لطيف لنفع الصادرين والواردين لزيارة سيد المرسلين، وجعل لعمارته، والقيام عليه غلة حوش بابين بخط ذروان، وواجهة الدكانين الكائنين بسوق الحدرّة، على يمين الخارج من باب الميضاة، وقد أصبح بعد ذلك تحت نظر السيد زين العابدين الأزهري... وقد خربت تلك العمارة، وتعطلت، ولم يبق ما ينتفع به...

قال السيد أحمد عبد الحيمد العباسي السندي معلقاً (53) : واليوم في زماننا عليها عمارة وبركة كبيرة، وحوض وسبيل (54) للواردين من فضل الله، ثم من فضل أبي القاسم عليه السلام... وماؤها عذب فُرات سائغ للشاربين، سقانا الله من حوضه يوم الدين، وكان ناظر هذه البئر مجد الدين سنان محتسب المدينة المنورة مهاجر سيد المرسلين...

### العين الزرقاء (55) :

عيون المدينة... وعيون حمزة بها... وكذلك عين الزرقاء محدثة وإنما أحدثها معاوية، وأمر الناس بنقل الشهداء من موضعها فصاروا ينبشونهم، وهم رضاب لم ينتنوا، حتى أصابت المسحاة رجُل أحدهم، فانبعثت دماً!! ويقول ابن تيمية في فتاوية : لا أدري متى حدثت؟ (56) وفي القرب من مسجد قُبا، رحبة فيها بئر، وهي منبع «عين الأزرق» التي تسميها العامة

---

(53) «عمدة الأخبار» ص : 218.

(54) تطلق كلمة السبيل، ويراد بها للعموم مجانا، وبدون مقابل، وأهل المغرب يضيفون كلمة السبيل لكل مرفق من المرافق العامة، أو لكل شيء معد للعموم، يقال : «ماء السبيل» أو «جنان السبيل» للحديقة العمومة.

(55) للأستاذ عبيد المدني، بحث في : «العين الزرقاء» نشرته جريدة : «المدينة المنورة» في : 1379/1/4، يرجع إليه.

(56) الفتاوى، لابن تيمية، ص : 21/61.

«العين الزرقاء»، وعليها حديقة أنيقة، وإلى جانبها على مقدار رمية بحجر «بئر أريس» التي تفل فيها رسول الله عليه السلام، فعُذِّبَ بعد أن كان ماؤها أجاجا (57)...

والعين الزرقاء بئر في المدينة، في حديقة قريبة من بئر أريس، وهي بئر كبيرة، قد أمدت بمياه آبار متعددة، فيها ميزابان عظيمان من مياه غيرها من الآبار، فاتخذت لها أسراب تحت الأرض إلى أن خرجت إلى بطحان، ثم إلى غربي المدينة، فقسمت جداول، فأدخل منها إلى المدينة ما احتيج إليه، فأظهرت داخل المدينة في مناهل متعددة، وبنى لها بناء متقن يهبط إليها في نحو ثلاثين درجة محكمة البناء، متقنة الوصف، واسعة الممشى، منها يستقي أهل المدينة كلهم لشربهم...

وهذه العين المباركة تحدث عنها أبو سالم العياشي المغربي في رحلته، فقال : «والذي رأيتُ منها ثلاثة مواضع : أحدها : شرقي المسجد بينه، وبين باب البقيع في المكان المسمى الآن بالحرّة... والثاني : خارج باب السلام في الناحية الغربية عند سوق المدينة بالبلاط...»

والثالث : شامي المسجد بعيدا منه إلى ناحية باب الشامي وأما خارج المدينة، فأخرجت في محال متعددة، أيضا، ثم لم تزل تقرب من وجه الأرض قليلا، كلما انحدرت في أرض المدينة إلى أن خرجت على وجه الأرض قريبا من الغابة شرقي مسجد رومة — بينه وبين أحد، وعليها هنالك مزارع...

قال أبو سالم العياشي في رحلته : «وقد رأيت جدولا منها قريبا من مسجد الراية، في طرق ذباب، يهبط إليه في نحو ثلاث درج...»

---

(57) عمد الأخبار، ص : 138.

هذه العين المباركة من أغزر العيون، وأحلاها ماءً وألذها، بها جل انتفاع أهل المدينة... ومنها كل التسييلات الموقوفة بالمدينة، ومنها تملأ الدَّوَارِق التي توضع في الحرم الشريف للشرب، وهي لا تكاد تحصى كثرة... فما أعظم بركتها، وأوسع نفعها...

وقال أبو سالم العياشي أيضاً، هذه العين المباركة، لقد شاهدت من يشتهي بمائها، وقد حملنا بعض مائها للاستشفاء...  
ولله در القائل :

لئن قيل في زُرْقِ العيونِ شَامَةٌ

فعندي أن اليُمنَ في عَيْنِهَا الزرقا (58)

وفي قصيدة نبوية خماسية للمقري يشير إلى أنه لولا تعلق حقوقه ببلاد المغرب لأقام في رحاب النبي ﷺ حتى يتاح له أن يموت هناك، ويدفن في أرض البقيع الطاهرة :

ومن هذه الخماسية يقول المقري (59) :

لولا حقوقُ عُنِيتَ بمغاربِ

لمكثتُ عندك كي تُتاحَ مآربي

ويكون في «الزرقاء» عذبُ مشاربي

حتى أحلي من ثراك تـرأبي

وأنال دفناً في بقيع الغرقـد

ولكن أمنية المقري لم يكتب الله تحقيقها، فقد مات بالقاهرة ودفن

فيها. (60)

\* \* \*

---

(58) الرحلة العياشية، ص : 1/265.

(59) «نفح الطيب» للمقري، ص : 1/53، تحقيق إحسان عباس.

(60) المقري صاحب «نفح الطيب» سلسلة «اعلام العرب» للأستاذ المرحوم محمد عبد الغني حسن، ص : 132.

دخل أبو القاسم ابن عبد المنعم، وكان أزرق وسيماً، ومعه أبو عبد الله الشاطبي، وأبو عثمان سعيد بن قوشترة، على صاحب كتاب : «مشاهد الأفكار، في مآخذ النظر»، فقال ابن قوشترة :  
عابوه بالزَّرَق الذي بجفونه  
والماء أزرق، والسَّنان كذلك

فقال الشاطبي :

والماء يُهدي للنفوس حياتها  
والرمحُ يشرعُ للمنون مسالكاً  
فقال أبو بكر بن طاهر صاحب كتاب «المشاهد» :  
وكذاك في أجفانه سببُ الردى  
لكن أرى طيب الحياة هنالك

وهذا من بارع الإجازة؛ وكم لأهل الأندلس من مثل هذا الديباج  
الخُسْرَوَانِي، رحمهم الله تعالى وسامحهم.(61)

### سبب تسميتها بالعين الزرقاء...

إن سبب تسميتها بالعين الزرقاء هو من لحن العامة، وصوابه «عين الأزرق» لأن مروان الذي أجراها لمعاوية بن أبي سفيان، كان أزرق العينين، فلُقِب بالأزرق...

وكان إجراؤه لهذه العين بأمر معاوية لما ولاه المدينة، وكان لمعاوية رضي الله عنه اهتمام بذلك، فأجرى بالمدينة، وما حولها عيوناً كثيرة، دثرت كلها، ولم يبق إلا هذه العين المباركة، وقد أضيفت إليها الزيادات والتحسينات عبر العصور الإسلامية، وقد اعتنى بهذه العين من قبل الملوك، فلها أوقاف معلومة، وجرايات تأتي من عند السلطان، ولها أمير

---

(61) النفح، ج : 4 ص : 22.

معلوم، وله خدام يتفقدون أحوالها على ممر الأزمنة، ويصلحون ما وهى منها، حيث قام بعمارتها(62) وتعهدا بالإصلاح من بعد، خلفاء وسلاطين وحكام كثيرون(63) ولولا ذلك لدثرت كغيرها من العيون... حتى إذا ما أطل العصر الحديث، أخذت المدينة تشرب من عيونها المستصلحة، وآبارها الحديثة العميقة، إلى جانب مصدر تحلية المياه التي ترد إلى المدينة من مدينة «ينبع» على بُعد حوالي مائتي كيل، وبذلك حُلَّت مشكلة المياه في المدينة المنورة حلا جذريا.(64)

وقد مدح العين الزرقاء يوسف النبهاني في قصيدة يعارض بها قصيدة كعب بن زهير :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول  
مُتِّمٌ، إثرها لم يُفدَ مكبول

فقال :

هواي «طيبة» لا بيضاء عُطْبُولُ  
ومُنيتي عينها «الزرقاء» لا النيل  
قال الجزيري : «كان للمدينة أربعة أودية، تجتمع مياهها في موضع يُقال له : «الغابة» وتخرج إلى وادي : «إضم»(65).

(62) العباسي، ج : 1/ ص : 266.

(63) شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، ج : 4/ ص : 946، للمرحوم خير الدين الزركلي.

(64) أحمد الضبيب، بحث مقدم إلى الأكاديمية الملكية المغربية في دورتها حول المياه والتغذية والإنسان.

(65) «درر الفوائد» ص : 260/ عمدة الأخبار : للمباسي : ص : 207 - وإضم : هذا الاسم يطلق على مواضع يسمى كل واحد منها بهذا الاسم... يطلق هذا الاسم على موضع بالعراق معروف بهذا الاسم. والموضع الثاني: بطن كبير من الأرض في جهة النجاف، وهو حنيظل وأبو الدود، وبه قصور ونخيل ومزارع، وهو من قرى الاسياح... والموضع الثالث، وهو الذي يهمننا في هذه الدراسة... إضم : واد يصب من الجبال المجاورة للمدينة حتى ينتهي إلى البحر، يقال له : إضم: وهو الذي عناه سلامة بن جندل : [معجم البلدان 1/ 281].

يا دار أسماء بالعلياء من إضم  
من الدُّكَّارِك من قُؤُ قمعصوب  
كانت لها مرة داراً، فغَيرَهَا  
مُرَّ الرِّياح بساقى التَّرب مجلوب

[صحيح الأخبار، لابن بلبيهد. ج/ 2، ص : 48].

وقال ابن رسته : «لما عمرت العين الزرقاء، صار شرب أهل المدينة، واستعمالهم منها.(66)

وقد جعل ابن أبي الهيجاء مصرفاً للعين الزرقاء يبتدىء من المنهل الذي دون باب السلام، ويسري في مكان يعرف، الآن، بسوق الخراز... وقد أنشأ لها في المدينة مناهل أخرى، منها منهلان بالساحة عند القلعة يواجهان بابها، ومنهلان داخلها... ومنها بحارة «الأغوات» شرقي المسجد النبوي في مكان يقال له : الحرة... وكل المساقى الموقوفة بالمدينة تستمد مياهها من هذه العين... وتسقى منها بساتين عدة في داخل المدينة... منها بُستان العينية، وقف الإمام العيني شارح الإمام البخاري، وهو في شارع باب السلام...

ومن هذه العين تملأ الدوارق التي بالمسجد، والتي لا تحصى كثرة، ويشرب منها الناس، ويطوف ببعضها طائفون.(67)

وهذه العين موضع عناية كل الملوك والولاطين والرؤساء، ويقوم بتعميرها أمراء المسلمين، وقد تخربت في أوائل الحكم العثماني، ومكث أهل المدينة زمنا طويلا، وهم في ضيق شديد حتى عمرها السلطان سليمان عام 932هـ؛ ثم جرفها السيل عام 990هـ. فأمر السلطان مراد خان بتعميرها، واشترى «بئر الغربالي»، وألحقها بها، وفي عام 1111هـ أمر السلطان مصطفى عثمان، فاشترى «بئر العقد» والحق بها، أيضا، وما زالت حتى بناها السلطان سليم عام 1212هـ... ولما حاصر الوهابيون المدينة ضاعت! فأصلحها محمد علي باشا، ثم جدها السلطان عبد الحميد بما صارت معه عزيمة الفائدة كبيرة المنفعة... وهناك كتاب مجهول

---

(66) «الأعلاق النفسية» لابن رسته، تحقيق دى خوية ط : ليدن : 1892. وفيات الأعيان.

(67) مرآة الحرمين، ص : 432 / 1.

في وصف ما كان في 1152هـ على عهد المنصور حسين من الشدة ونضوب آبار الروضة. (68)

\*\*\*

### لعين الزرقاء، إدارة خاصة :

وقد تم في عهد العزيز تبليط مجرى العين من المنبع في قُباء، حتى «منهل خرز عيسى» في داخل البلدة، إلا مواضع صخرية تركت كما هي، لأنها في غنى عن التبليط...

وأحدثت في عهده عدة ممرات لماء العين في الأرض، وظهر الماء في أماكن صخرية في كهف طبيعي مساحته، ستة عشر مترا مربعا، وارتفاعه سبعة أمتار، فضم إلى مجرى العين؛ ومستوى الماء فيه ينخفض في زمن الصيف عن مستوى مجرى العين، فيرفع بآلة، ويعرف هذا الكهف الآن بالبدع الجديد.

و«لعين الزرقاء» إدارة خاصة، نيط بأعضائها تعهدها والتجديد فيها. (69)

لقد وضع عبد العزيز الأساس، وأرسى الدعائم، وجاء أولاده الأمراء، يعلون الجدران، ويقومون الأركان، ويحملون البنيان، مهتدين بإذن الله بهدي القرآن. فالمملكة العربية السعودية التي كانت خفيفة الوزن في ميزان الدول، صارت من أثقلها وزنا، وأعلاها صوتا، وأرجحها رأيا... كما صارت مثابة العظماء من الأمم من الشرق ومن الغرب، كل يزورها ليتلقى - كما قال نيكسون في كلمة له ألقاها في تلفزة المملكة - الحكمة والمال، أما ريالات ودولارات، وأما ذهباً أسود إسمه النفط : كما قال الأول :

نَشُدُّ أَحْمَالَنَا إِلَى مَالِكٍ

نَأْخُذُ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ أَدْبِهِ

(68) مجلة المورد، ص : 262 / عام 1979.

(69) «شبة الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز»، ص : 947.



وفي ضواحي المدينة، عدا العين الزرقاء، عين كهف، غربي جبل سلع، وعين الخيف، وتجري من حوالي المدينة، وعين الوادي، بجوار قبر حمزة، ثم عين السلطان وهي مالحة، وتجري من قباء إلى المدينة، فتظهر بالوعاتها ومجاريها ثم تسير إلى بساتين المدينة من خارجها...

\*\*\*

### إدارة الأوقاف في المدينة المنورة :

تقوم الأوقاف، في المدينة المنورة بدور كبير ومهم في توفير (70) السكن وإبقاء الأراضي الخضراء في المدينة، وتشرف إدارة الأوقاف في المدينة المنورة على مساحات كبيرة من الأراضي والمباني الموقوفة على المؤسسات الدينية كالحرم والمساجد....

ويدخل، ضمن الأوقاف الخيرية عدة أنواع من الأوقاف، فهناك ما يسمى بأوقاف الخدمات مثل الأوقاف المخصصة لخدمة العين الزرقاء، وأوقاف الرؤساء المؤذنين، وأوقاف القلعية. (71)

وقد انتهت نشاطات بعض هذه الخدمات في المدينة مثل خدمة العين الزرقاء والقلعية بعد ذهاب أسبابها بسبب انتشار شبكات المياه إلى داخل المنازل، وانتشار الأمن في المنطقة، وهدم القلاع القديمة، فعمدت السلطات إلى تنفيذ شروط مثل هذه الأوقاف في ذرية آخر طائفة من منسوبي هذه الخدمات. (72)

---

(70) قد عرفت إدارة الأوقاف في العهد التركي باسم الخزينة الجلييلة النبوية. وقد تحول اسمها في العهد السعودي إلى «مديرية الأوقاف»، ثم إلى وزارة الحج والأوقاف.

(71) أي العاملين في قلاع المدينة المنورة.

(72) الأراضي الوقف في المدينة المنورة. د. محمد شوقي إبراهيم، مجلة : «الدارة» ع : 2/ص : 10/ محرم 1405 - سبتمبر 1984.

## عمل إنساني نبيل...

عين زبيدة زوجة هرون الرشيد :

ما برحت الأوقاف في بلاد المسلمين تنمو بنمو الثروة، والتَّبَسُّط في مناحي المُلْك، واستبحار العمران، وامتداد السلطة، بامتداد الفتوح، حتى تكاملت أجزاؤها، وتنوعت أنماطها، وتكاثرت مواردها في صدر الدولة العباسية، ولا سيما في عهد الخليفَتين... هرون الرشيد، وابنه المامون الذي وقف الأوقاف الكثيرة في العراق وغيرها على الطلبة ودور العلم، والمَبَرَّات العامة والمؤسسات الخيرية، كي تبقى دائمة الانتفاع على مر الدهور، وتكفي العلماء مؤونة قرع أبواب ذوي الجاه والنفوذ، وتكفي، أيضاً، الماويج والزمنى والمعاتية، وذوي العاهات من التكفف والاستجداء!..

\*\*\*

ونسوق بين يدي نجوى هذه الدراسة، قصة رائعة للعمل الإنساني النبيل الذي قامت به امرأة عربية شريفة هي السيدة زبيدة بنت جعفر بن عبد الله بن أبي جعفر المنصور زوجة هرون الرشيد، عندما وجدت هدفها عظيماً، وهو وقفُ المياه لفائدة المسافرين والحجاج الفقراء، فقد أخذ هذا الوقف كل اهتمامها، في عصر امتاز بقوة ونضج الحضارة العربية، وفي مرحلة تاريخية مزدهرة بالمعرفة والثقافة، وقد كنا إنداك نحمل مشكاة التقدم والحضارة، ونترقب على رَابِيَةِ المجد وقَمَّة الشَّرَف.

\*\*\*

يقول الأمير فهد بن خالد نائب رئيس مجلس الآثار السعودي : «إن دربَ «زبيدة» بالغ الأهمية ليس بوصفه أثراً قيماً فحسب، بل كعلم، وفق

معماري وهندسي يكشف عن براعة الأساليب المستخدمة في نقل المياه وتوزيعها...».

ولاشك بأن «درب زبيدة» يحكي الدور الذي قام به الصحابة رضي الله عنهم في ميدان وقف المياه لتوفيرها بواسطة حفر الآبار والقنوات، ورصدها على المحاويع وأبناء السبيل...

إن عمل «زبيدة» لإجراء هذه المياه، ووقفها في سبيل الله، يعد عملاً عظيماً جداً، استنطق الألسن بالترحم عليها كلما روى حاجٌ ظمأه، ونقع غلته، أو أسبغ وضوءه..

ويحدثنا التاريخ، أن السيدة «زبيدة» أنفقت على هذه العين مليون دينار، وأنها لما انتهت من العمل، جيء إليها بِدَفَاتِرِ الحسابات لمراجعتها، فَأَمَرَتْ بِطَيِّهَا، وبإلغاء السَّجَلِ في نهر دجلة، وقالت : «إنما عملنا ما عملناه، في سبيل الله، فلا فرق بين أن تكون النفقة أكثر، أو أقل، ولقد تركنا الحِسَابَ، ليوم الحِسَابِ، فمن بقي عنده شيء من بقية المال، فهوَ لَهُ، ومن بقي له عندنا شيء أعطيناه».

وهذه القصة الفريدة تشبه موقف أبي الحسن المريني المسمى بأبي الحَسَنَات، لما بنى بمدينة مكناس مرافق كثيرة من جملتها السقايات والقناطر، والمدرسة الجديدة التي كانت تعرف بمدرسة العطارين، والمنسوبة خطأً إلى السلطان أبي عنان، قدم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكور أبا محمد عبد الله بن أبي الغمر، قال ابن غازي: (1) لقد حدثني والدي رحمه الله أنه كان يسمع ممن أدرك من الشيوخ أن السلطان أبا الحسن رحمه الله تعالى، لما أخبر بتمام بنائها، جاء إليها ليراها، فقعده على كرسي من كراسي الوضوء حول صهريجها، وجيء بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها، فغرقها في الصهريج قبل أن يطالع ما فيها، وأنشد :

(1) «الروض الهمداني»، في أخبار مكناسة الزيتون» ص : 35 - والاتحاف، ص : 118/1.

لا بأس بالغالي، إذا قيل حسن  
ليس لما قُرت به العين ثمن

\*\*\*

لقد كانت «زبيدة» زوجة هرون الرشيد مصلحة اجتماعية، يقول  
المسعودي: (2) وكان أحسن فعلا، في أيام الرشيد، أم جعفر بنت المنصور  
لما أحدثته من بناء دُور السبيل بمكة، واتخاذ المصانع بها، وما أحدثته من  
دور للتسبيل بالثغر الشامي وطرسوس، وما أوقفته على ذلك من  
الوقوف..

ومن أروع آثارها الخالدة حفرها العينَ المعروفة بعين المشاش  
بالحجاز، وقصة ذلك أنها حجت عام 186هـ، فأدركت ما يعانيه أهل مكة  
من المشاق في الحصول على ماء الشرب، فدعت خازن أموالها، وأمرته أن  
يدعو المهندسين والعمال ليبدأ الحفر، وليشق الطريق للماء في كل خفض  
ورفع، وسهل وجبل، مسافة اثني عشر ميلا حتى يوصل الماء إلى مكة،  
وقد ظهر التردد على خازن الأموال لما تصوره من كثرة التكاليف، فأدركت  
زبيدة سبب تردده، فقالت له بحزم : «اعمل، ولو كلفتك ضربة الفأس  
دينارا، (3) وعمل العمال، وتم المشروع، وقوبلت تكاليفه مليوناً وسبعمائة  
ألف دينار.

\*\*\*

إن الماء في البلاد الحارة، أحياء وأعذب وأبرد على الأكباد، وأطيب  
أضعافاً مضاعفة منه في البلاد الباردة، فقد كان أعظم ما يرزق به الإنسان  
من الصواب والثواب، وما ترتفع به درجته في المبدأ والمآب، هو تفجير  
الينابيع، وإسالة الجداول، وتقريب المشاريع في بلاد مثل الحجاز يقصد

(2) مروج الذهب. ج : 2 / 516 ط : البهية : 1346هـ.

(3) ابن خلكان، «وفيات الأعيان»، ج : 2 / 314، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1971،  
أنظر: أبا العباس الشريشي في شرحه للمقامة الأربعون التبريزية للحريري، ج : 4 / ص : 38.

إليها الحجاج من الحار والبارد، والرطب واليابس، بالآلوف وعشرات الآلوف ومآت الآلوف، إلى ما يقرب المليون، بله الذين فيها من السكان.

\*\*\*

## مومنات ساهمن بقسط عظيم في تأسيس صرح الحضارة الإسلامية ...

عمل «زبيدة» ومشروعها مشروع عظيم وخطير، كان لها به دور بارز في تحريك الأحداث التاريخية، فتحت لضيوف الرحمن، ولجيران بيت الله، ولقُصَّاده من جميع بلاد الإسلام، فلقد كانت السيدة «زبيدة» من بُناة الحضارة والمدنية، ومؤسسي الأمجاد والمفاخر، ومن الصالحات اللواتي قُمنَ بإعمال لفائدة الإسلام، والمومنات اللواتي ساهمن بقسط عظيم في تأسيس صرح الحضارة العربية والإسلامية...

ويعجبني أن أنشد، هنا، قول ابن سعيد الغرناطي :

جَمَالَ ذِي الْأَرْض - كَانُوا فِي الْحَيَاة، وَهُمْ  
بَعْدَ الْمَمَات، جَمَالُ الْكُتُبِ وَالسَّيَرِ

وقول الآخر :

أَحَادِيثُ لَوْ صِيغَتْ لِأَلْهَتْ بِحُسْنِهَا  
عَنِ الدُّرِّ، أَوْ شُمْتُ، لِأَغْنَتْ عَنِ الْمِسْكِ

وقول الآخر :

تَعْرِفُ لِأَهْلِ الْفَضْلِ، وَاحْفَظْ رِسُومَهُمْ  
وَدَاوِ بِهِمَا إِعْلَالَ قُلُوبٍ تَأْتُرَا  
فَرَبِ طَبِيبٍ عَارِفٍ بِمَسَالِكِ،  
تَحَارُّ لَهُ الْأَفْكَارُ فِيمَا تَسْتُرَا

وقول أبي بكر بن الأنباري، وقد ذكر الخليل بن أحمد في مجلسه :  
ما مات من كان مذكوراً روايته  
قد مات قومٌ، وهم في الناس أحياء

وعاش قَوْمٌ، ولم تذكر مآثرهم  
فمات ذكرهم، والقوم أحياء  
قال عبد الله بن جبير : سمعت محمد ابن يونس يقول : «ما رأيت  
للقلوب أنفع من ذكر الصالحين».

ولله در القائل :

وما الناسُ إلا الصالحون حقيقةً  
وسواهم مُنْطَفَلٌ في الناس  
كم بين أموات زمان حياتهم  
معنى وأحياء مع الأنفاس  
فإذا ظفرت بصالح، فاشدُّ به  
كَفَّيْكَ، تشدد بالطبيب الآس

#### من هي السيدة زبيدة :

يقول ابن خلكان : «أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور  
عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن  
هاشم، هي أم الأمين محمد بن هارون الرشيد، فهي أم ملك، وزوجة ملك،  
وحفيدة ملك، وفي هذه الصفات تشاركها والددة الخُدَيُّوي عباس التي  
مدحها شوقي بأنها في الركب هالة من العز في أترابها خَفِرَات، فقال :

مَوَاكِبٌ لم تُعْهَد لِغَيْرِ زُبَيْدَةٍ

(ببغداد) في الأعياد والجمعات

وكان لها معروف كثير، وفعل خير، وقصتها في حجبها، وما اعتمدته  
في طريقها مشهورة، فلا حاجة إلى شرحها...

قال الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب «الألقاب» : إنها لما سقت  
أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار، وانها أسالت الماء عشرة

أُمَيَّال بَخَطِ الْجِبَالِ، وَتَحْتَ الصَّخْرِ حَتَّى غَلْغَلَتْهُ مِنَ الْحَلِّ إِلَى الْحَرَمِ، وَعَمَلَتْ عَقِبَةَ الْبَسْتَانِ، فَقَالَ لَهَا وَكَيْلَهَا : «يَلْزَمُكَ نَفَقَةٌ كَثِيرَةٌ» فَقَالَتْ : اْعْمَلْهَا، وَلَوْ كَانَتْ ضَرْبَةً فَاسَ بَدِينَارٍ، وَكَانَتْ وَفَاتُهَا سَنَةً سِتْ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ فِي جَمَادَى الْأُولَى بِبَغْدَادَ رَحِمَهَا اللَّهُ تَعَالَى.(4)

وَتَرْجَمَهَا الشَّيْخُ خَيْرُ الدِّينِ الزَّرْكَلِيُّ(5) فَقَالَ : «زَبِيدَةُ بِنْتُ جَعْفَرِ بْنِ الْمَنْصُورِ الْهَاشِمِيَّةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، أُمُّ جَعْفَرٍ، زَوْجَةُ هَرُونَ الرَّشِيدِ، وَبِنْتُ عَمِّهِ، مِنْ فَضْلِيَّاتِ النِّسَاءِ، وَشَهِيرَاتِهِنَّ، وَهِيَ أُمُّ الْأَمِينِ الْعَبَّاسِيِّ «أُمَّةُ الْعَزِيزِ» وَغَلَبَ عَلَيْهَا لَقَبُ «زَبِيدَةَ»، قِيلَ : كَانَ جَدُّهَا الْمَنْصُورُ يَرْقُصُهَا فِي طُفُولَتِهَا، وَيَقُولُ : يَا زَبِيدَةُ... أَنْتِ زَبِيدَةُ، فَغَلَبَ ذَلِكَ عَلَى اسْمِهَا، وَإِلَيْهَا تَنْسَبُ «عَيْنُ زَبِيدَةَ» فِي مَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ، تَزَوَّجَ بِهَا هَرُونَ الرَّشِيدُ عَامَ 165هـ، وَلَمَّا مَاتَ، وَقَتَلَ ابْنُهَا الْخَلِيفَةُ الْأَمِينُ، اضْطَهَدَهَا رِجَالُ الْمَأمُونِ، فَكَتَبَتْ إِلَيْهِ تَشْكُو حَالَهَا، وَهِيَ الْمُتَقَفَّةُ، رِسَالَةً اسْتَعْظَافِيَّةً، تَقُولُ فِيهَا : «كُلُّ ذَنْبٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ عَظُمَ، صَغِيرٌ فِي جَنْبِ عَفْوِكَ، وَكُلُّ إِسَاءَةٍ وَإِنْ جَلَّتْ، يَسِيرَةٌ لَدَى جِلْمِكَ، وَذَلِكَ الَّذِي عَوَّدَكَ اللَّهُ - أَطَالَ مَدَّتَكَ، وَتَمَّمَ نِعْمَتَكَ، وَأَدَامَ بِكَ الْخَيْرَ، وَدَفَعَ عَنْكَ الشَّرَّ وَالضَّرَّ، وَبَعْدُ؛ فَهَذِهِ رُقْعَةٌ الْوَلَهَى الَّتِي تَرْجُوكَ فِي الْحَيَاةِ لِنَوَائِبِ الدَّهْرِ، وَفِي الْمَمَاتِ لَجَمِيلِ الذِّكْرِ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَرْحَمَ ضُعْفِي وَاسْتِكَانَتِي وَقَلَّةَ حِيلَتِي، وَأَنْ تَصِلَ رَحْمِي، وَتَحْتَسِبَ فِيمَا جَعَلَكَ اللَّهُ لَهُ طَالِبًا، وَفِيهِ رَاغِبًا، فَافْعَلْ، وَتَذَكَّرْ مَنْ لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ شَفِيعِي إِلَيْكَ...»

\*\*\*

وَعِنْدَمَا قُتِلَ الْأَمِينُ، دَخَلَ عَلَيْهَا بَعْضُ خَدَمِهَا، فَقَالَ لَهَا : مَا يُجْلِسُكَ، وَقَدْ قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَتْ : وَيْلَكَ! وَمَا أَصْنَعُ؟، قَالَ : تَخْرُجِينَ، وَتَأْخُذِينَ بِدَمِهِ، كَمَا خَرَجْتَ عَائِشَةُ تَطْلُبُ بَدَمَ عُثْمَانَ، فَقَالَتْ : اخْسَأْ، لَا أُمَّ

(4) الخطيب : 433/14. وانظر ص : 279 : «كتاب المناسك ومعالم الجزيرة» تحقيق : حمد الجاسر.

(5) الاعلام : ص : 42/ج : 3. ط : الجديدة.

لك! ما للنساء، وطلب الدماء، ثم أمرت بثيابها، فَسُودَتْ، ودعت بدواة،  
فكتبت إلى المامون القصيدة التالية تشكو له حالها، وما فعله بها طاهر  
ابن الحسين الذي قتل الأمين، ومنها :

لخير إمام، قام من خير عنصر  
وأفضل سام فوق أعواد منبر  
لسوارث علم الأولين وفهمهم  
ولملك المامون من أم جعفر  
كتبت، وعيني مستهل دموعها،  
إليك ابن عمي من جفوني ومحجري  
وقد مسني ضرر، وذُلُّ كآبة  
وأرق، عيني يابن عمي، تفكّري  
وهمت لما لاقيت بعد مصابة  
فأمرني عظيم منكر جد منكر  
سأشكو الذي لا قيته بعد فقده  
إليك شكاة المستهام المقهر  
وأرجو لما قد مرّ بي مذ فقدته  
فأنت لبثي خير رب مغير  
أتى طاهر لا طهر الله طاهرا  
فما طاهر فيما أتى بمطهر  
فاخرجني مكشوفة الوجه حاسرا  
وأذهب أموالي وأحرق أدري  
يعز علي هارون ما قد لقيته  
وما مرّ بي من ناقص الخلق أعور



فإن كان ما أسدى بأمرٍ أمرته  
صبرتُ، لأمر من قديرٍ مقدر  
وإن كان ما قد كان منه تعدّيًا  
علي، أمير المومنين، فغير  
تذكر أمير المومنين قرابتي  
فديتك من ذي حرمة متذكر

فلما قرأ المامون شعرها بكى بكاءً شديداً، ثم قال : اللهم، إنني أقول كما  
قال أمير المومنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لما بلغه قتل عثمان،  
رضي الله عنه، «والله ما أمرت وما رَضِيتُ» اللهم جَلِّ قلب طاهر حزناً» (6)  
ثم أجابها معذراً : «وصلت رقعَتُك يا أماء، أحاطك الله، وتولاك بالرعاية،  
ووقفت عليها، وساءني - شهد الله - جميع ما أوضحت فيها، لكن الأقدار  
نافذة، والأحكام جارية، والمخلوقون في قبضتها لا يقدرُونَ على دفاعها،  
والدنيا كلها إلى شتات، وكل حي إلى ممات، وقد أمرت برد جميع ما أخذ  
لك، ولم تفقدني ممن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه وأنا بعد ذلك على  
أكثر مما تختارين والسلام...» فعطف عليها، وجعل لها قصراً في دار  
الخلافة، وأقام لها الوصائف والخدم، وكانت لها ثروة واسعة.  
وتحدثنا الروايات، أيضاً، أن «زبيدة» عندما قتل ابنها الخليفة الأمين  
قالت ترثيه :

رزئته حين باهيتُ الرجال به  
وقد بنيت به للدهر أساسا  
فليس من مات مردوداً لنا أبدا  
حتى يرد علينا قبله ناسا

(6) «المسلمون» ع : 19، للأستاذ جاسر أبو صفية، - شرح مقامات الحريري، للشريشي،  
ج : 4/39.

ولما دخل عليها المامون بعد قتل ابنها الأمين، قالت له : «أهنتك بخلافة، قد هنت نفسي بها عنك قبل أن أراك، ولئن كنت قد فقدت ابنا خليفة، لقد عوضت ابنا خليفة لم ألدّه، وما خسر من اعتاض مثلك، ولا تكلث أم ملأت يدها منك، وأنا أسأل الله أجرا على ما أخذ، وإمتاعا بما عوض...»

ويزيد الصابىء : إن المامون أقام وتغذى عندها، فأخرجت إليه من جوارى الأمين من يغنيه، وسألته أن يأخذ منهن من يرتضيه، فأوماً إلى واحدة منهن، فغنت، وضربت الباقيات عليها :  
هم قتلوه، كي يكونوا مكانه  
كما فعلت يوما بكسرى مَرَارِبُهُ  
فإلا يكونوا قاتليه، فإنه  
سواء علينا ممسكاه، وضاربه

فوثب المامون مغضبا !! فقالت له زبيدة : يا أمير المؤمنين، حرمني الله أجره، إن كنت علمتها، أو دسست إليها به، فصدقها وعجب من ذلك...

ويورد الصابىء، أيضا، وحدث أبو نواس قال : جاء شاعر إلى زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، فامتدحها بقصيدة قال فيها :  
أزبيدة بنّة جعفر  
طُوبَى لَزَائِرِكَ الْمَثَابِ  
تعطين من رجليك مـ  
تُعْطِي الْأَكْفُ من الرغاب!!

فهّم الخادم، به، فمنعتهم، وقالت : إنما أراد الخير، فأخطأ... ومن أراد الخير، فأخطأ أحب إليّ ممن أراد الشر، فأصاب!! أعطوه ما أُمِّل وَعَرَّفُوهُ، ما جهل... قال أبو نواس : إنما أراد الشاعران يزيد على قول

الآخر : «شمالك أُنْدَى من يمين غيرك» فظن أنه إذا ذكر الرَّجلين، كان أبلغ في المديح.(7)

\*\*\*

لما مات قرد زبيدة بنت جعفر، ساءها ذلك ونالها من الغم ما عرفه الصغير والكبير من خاصتها، فكتب إليها أبو هارون العبدى : «أيتها السيدة الخطيرة، إن موقع الخطب بذهاب الصغير المعجب، كموقع السرور بنيل الكثير المُفرح، ومَن جهل قَدْر التعزية عن التافه الخفي، عَمِي عن التهنئة بالجليل السني، فلا نقصك الله الزائد في سرورك، ولا حرمك أجر الذاهب من صغيرك.(8)

\*\*\*

لقد كانت زبيدة تَلَاءَةً لكتاب الله، ومما يدل على مدى اهتمامها بالقرآن الكريم، أنه كان لها مائة جارية يحفظن القرآن، وكان يسمع لهن في القصر دَوِيٌّ كدوي النحل، وكان وِرْدٌ كل واحدة عشر القرآن...

\*\*\*

وأما آثارها الملوكية، فإنها أول من اتخذت الآلات من الذهب والفضة : المكحلة بالجواهر، وبلغ وشيُّ اتخذ للباسها ألف دينار، وهي أول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس، وكلا ليها من الذهب، ملبسة بالوشى والديباج وأنواع الحرير الملون، وهي أول من اتخذ الخفاف المرصعة بالجواهر، وشماع العنبر، ولما أفضى الأمر إلى ابنها الأمين، رفع منازل الخدم ككوثر وغيره، فلما رأت حَبَّه فيهم، اتخذت له الجواري المقدودات الحسان الوجوه، وعممت رؤوسهن، وجعلت لهن الطُّرر والأصداغ والأقفية، والبستهن الأقبية

(7) «الهُفَات البادرة من المعقلين الملحوظين، والسقطات الباردة من المغفلين المحظوظين» ص : 13

- و 37، تأليف غرس النعمة ابن الحسن محمد بن هلال الصابئ (ت : 480هـ) وانظر أيضا :

زهر الآداب للخصري ص : 2/404. - كشف، ج : 2/ص : 2045.

(8) زهر الآداب، وثمرات الألباب، ج : 4/ص : 1032.

والقراطق والمناطق، فبانت قدودهن، وبرزت خصوصهن، وبعثت بهن إليه، فاستحسنهن وأبرزهن للناس، فسموهن الغلاميات، ومن هذا نستطيع أن نؤكد ما ذهب إليه بعض الفتيات حديثاً في العصر الحاضر، من لباسهن الذي يشبه لباس الغلمان، كان مسبقاً به، فالغلاميات هي الترجمة للكلمة الفرنسية Les Garçonnes، اللواتي يتشبهن بالغلمان...

\*\*\*

قال الخطيب : كانت معروفة بالخير والإفضال على أهل العلم والبر للفقراء والمساكين... ولها آثار كثيرة في طريق مكة، من مصانع حفرتها وبرك أحدثتها، وكذا بمكة والمدينة... وليس في بنات هاشم عباسية ولدت خليفة إلهي... يقول أبو القاسم الحريري(9) في إحدى مقاماته : «ولو حببتك شيرين(10) بجمالها، وزبيدة(11) بمالها، وبوران(12) بفرشها...» قال ابن تغري بردي في وصفها : «أعظم نساء عصرها ديناً وإصلاحاً، وجمالاً، وصيانة ومعروفاً...»

\*\*\*

ونقرأ قصيدة للشاعر الرقيق المصري المرحوم «صالح جودت» بعنوان «لَيْلَى» ألَّفَها في مهرجان الشعر السادس ببغداد حيث يقول مستعيداً أيام الرشيد وليالي الرشيد :

(9) المقامة الأربعون التبريزية، ص : 442.

(10) شيرين : امرأة كسرى، وكانت في غاية الجمال، وغاية في الحس والكمال، فاقت نساء زمانها صيانة وظرفاً، وبهرتهن ملاحه ولطفاً، وخلفت في العراق آثاراً، منها قصر شيرين، ولها قصة مشهورة منظومة بالعجمية [شرح مقامات الحريري، ص : 2/166].

(11) قال إبراهيم الجوني : رأيتها في المنام، فقلت لها : ما فعل الله بك؟ فقالت : غفر لي... فقلت : بما أنفقت في طريق مكة.. فقالت : أما النفقات، فرجعت أجورها إلى أربابها، وغفر لي بنيتي.

(12) بوران : ابنة الحسن بن سهل، وكانت من أجمل أهل عصرها، تزوجها المأمون بن الزبير في أيام خلافته؛ أنظر قصتها الطويلة في ج : 4/ ص : 39 مقامات الحريري تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي.

وأين «زبيدة» فوق البساطِ  
تَجَرَّرُ أذيالَها الفَاخرة

وأين «دنانير» في سحرها  
كأني بها «سُومة» القاهرة

وانظر إلى «صالح جودت» كيف كان يتمادى في شعره الرقيق العذب،  
ويفتن في اقتباس لغة الجماهير الدارجة، وإدخالها في شعره الجاد، وكأنه  
يبالغ في إطراف مستمعيه وقرائه بها...  
و«سومة» في البيت الأخير، هي اسم التلميح الدارج لعبقرية الغناء  
العربي الحديث أم كلثوم...

\*\*\*

### آثار زبيدة بين مكة والمدينة :

قال ابن جبير الأندلسي في كلامه على طريق مكة، وقد كانت حجته في  
عام 579هـ، «وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد إلى  
مكة هي من آثار «زبيدة» ابنة جعفر، انتدبت لذلك مدة حياتها، فأبقت في  
هذه الطريق مرابع ومنافع تعم وفد الله كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن،  
ولولا آثارها الكريمة في ذلك لما سلكت هذه الطريق، وتوفيت ببغداد عام  
216هـ، وقد خلفت آثاراً عديدة غير العين...»

وقال ابن جبير أيضاً : «فاجتمع بعرفات من البشر جمع لا يحصى  
عده إلا الله عز وجل، ومزدلفة بين منى وعرفات، من منى إليها ما من  
مكة إلى منى، وذلك نحو خمسة أميال، ومنها إلى عرفات، مثل ذلك أو أشق  
قليلاً، وتسمى المشعر الحرام : «جمعاً».

قال الحريري في مقاماته :

وقلت لعاذلي : مهلاً، فإنني  
سأختار المقام على المقام  
وأنفق ما جمعت بأرض جمع  
وأسلوا بالحطيم عن الحطام

فلها ثلاثة أسماء... وقبلها بنحو الميل وادي محسر، ومضت السنة بالهرولة فيه، وهو حدّ بين المزدلفة ومنى لأنه معترض بينهما، والمزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين، وحوله مصانع وصهاريج، كانت للماء في زمان زبيدة رحمها الله...

### أين تقع عين زبيدة :

في الطريق المؤدي إلى جبل عرفة، تقع «عين زبيدة» التي جمعت كل مصادر المياه المحيطة بمكة، (13) وأوصلتها إلى «أم القرى» لتوفير المياه للحجاج، ولسكان البلدة المقدسة...

يقول الشيخ غازي فيصل مدير عين زبيدة : «لقد كانت مكة قبل أن تقوم السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد... العين تسقى من بعض الآبار والعيون داخلها، وكانت الآبار كثيرا ما تنضب، وكان معاوية بن أبي سفيان، قد أجرى الماء إلى مكة من العيون والآبار في قنوات، وسرعان ما تقوضت، وأصاب الناس جهد شديد، حتى أمرت زبيدة بإجراء «عين حنين» بوادي نخلة - المعروفة الآن بالشرائع - بعد أن اشترت الأراضي التي كانت مياه العين ترويه، وأمرت بإجراء عين من «وادي نعمان» في قناة محفورة إلى عرفة، فمزدلفة، فالبئر الكبيرة، «بئر زبيدة» المعروف مكانها «بحبس الجن» على أربعة أكيال من مكة، وطول القناة 28 كيل، وتنبع عين نعمان من جبل حراء الذي يصل بين عرفة والطائف، وأجريت مياه، «وادي النعمان» حتى بلغت منى، وعندما اشتدت أزمة الماء، لا سيما في عرفة ومنى، أيام الحج، انتدبت زبيدة لهذا الأمر، وأسالت العين المسماة باسمها من مسافة نحو

---

(13) يراجع في موضوع مكة المكرمة : رحلة صادق باشا، ص : 61، «وشفاء الغرام» ص : 259، وإلى «رسالة» السيد محمد صالح الزواوي مفتي المالكية بمكة المكرمة، و«مرآة الحرمين» للواء إبراهيم رفعت، ص : 207 - 224/ج : 1، و«تاريخ مكة»، لأحمد السباعي، وغير ذلك من كتب الرحلات شرقية ومغربية.

أربعين كيل، وقد قدم كل من الخلفاء والأمراء، إضافة إلى الطريق، ولكن أطلق عليه إسم «السيدة زبيدة» للدور البارز الذي قامت به... والذي كان هدفها هو تسهيل الحج والسفر على الفقراء الذين كانوا يؤدون فريضة الحج أحيانا، سيرا على الأقدام، ويظهر ذلك من المسافات بين المحطات. قال ابن رسته (ت 300هـ) وشرب أهل مكة من القنوات التي حفرتها أم جعفر في خلافة الرشيد، وأجرتها من موضع يقال له «المُشاش» في قنوات رصاص (14)...

\* \* \*

ومن المفيد الإشارة، إلى أن بعضها قد اقتضى العمل فيه أن تشق له الأنفاق على مسافات طويلة، وأن تنحت له الجبال، وأن تستخدم فيه كل الإمكانيات الفنية والبشرية، وأن يدوم السنوات الطوال، وقد أشبع المؤرخون في ذلك إشباعا، وأوقفونا على سر من أسرار القدر، وعَمَل من أجل الأعمال، ربما شق مثله في عصرنا عصر الاختراعات والكشوف، والتقدم الباهر في تقنية الصناعات، ولكنها الهم لا يقف دونها شيء، ولا يصدها عن تنفيذ عزماتها صاد، ولا سيما إذا صفت النية، وخلصت السريرة... وقد أتمت السيدة التركية فاطمة هانم كريمة السلطان سليمان العثماني ما بدأته السيدة «زبيدة»، وجددت أعمالها بمحاولة إسالة الماء من عين عرفات إلى مكة عام 969هـ/1561م واستخدمت في هذا العمل الخبراء والمهندسين، وأنواع العمال المهرة من الشام ومصر واليمن والأستانة، غير أن العملية صادفت مانعا صخريا صلدا طويل المسافة، فكان لا بد من نقر الحجر لمسافة ألفي ذراع، أي ما يوازي كيلا ونصف كيل، وكانت الطريقة الوحيدة التي استخدمت في هذا الجزء هي إيقاد النيران حول الجزء من الحجر مدة طويلة، ثم نقر هذا الجزء... وتكرار هذه العملية، وقد دامت حوالي عشر

---

(14) الأعلام النفسية»، ص : 316، تحقيق دي خوية / طبع ليدن عام 1892.

سنوات إذ وصلت المياه إلى مكة عام 979هـ/1571م، وكان يوم وصولها يوماً مشهوداً مدت فيه الموائد، وتصدق على الفقراء، واحتفلت الأستانة به احتفالاً كبيراً. (15) إذ كمل إجراءه على يد السيدة «مهروماه» بنت السلطان سليم إلى حيث يردُّ الناس اليوم «عين زبيدة».

\*\*\*

يقول أبو الوليد محمد الأزرقى في كتابه : «تاريخ مكة» : «كان الناس بعدُ في شدة من الماء، وكان أهل مكة والحجاج يلقون من ذلك المشقة حتى إن الراوية لتبلغ في الموسم عشرة دراهيم، وأكثر، أو أقل، فبلغ أم جعفر، فأمرت بحفر بركتها التي بمكة، فأجرت بها عينا من الحرم، فجرت بماء قليل، لم يكن فيه ري لأهل مكة، وقد عذمت في ذلك عزمًا عظيمًا، فأمرت جماعة من المهندسين أن يجروا لها عيوناً من الحل — أي خارج أرض الحرم، وكان الناس يقولون : «إن ماء الحل لا يدخل الحرم، لأنه يمر على عقاب وجبال، فأرسلت بأموال عظام، ثم رأت من يزن عينها الأولى، فوجدت فيها فساداً، فأنشأت عينا أخرى إلى جانبها، وأبطلت تلك العيون، فعملت عينها هذه بأحكام ما يكون العمل، وعظمت في ذلك رغبتها، وحسنت نيتها، فلم تزل تعمل فيها حتى بلغت ثنية «خل» فإذا الماء لا يظهر في ذلك الجبل، فأمرت بالجبل فضرب فيه، وأنفقت في ذلك من الأموال ما لم تكن تطيب به نفس كثير من الناس، حتى أجراها الله، وأجرت عيوناً فيها من الحل، منها عين «المُشاش»، — بين عرفات والطائف — واتخذت بركاً، تجتمع فيها السيول، إذا جاءت، ثم أجرت لها عيوناً من «حنين»، واشترت حائط حنين، فصرفت عينه إلى البركة، وجعلت حائطه سداً يجتمع فيه السَّيل، فصارت لها مكرمة لم تكن لأحد مثلاً، وطابت نفسها بالنفقة فيها...»

---

(15) «مرآة الحرمين» : ص 219 - 220/1.



ويقول ابن خلكان : «إنها سقت أهل مكة الماء، بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار، وأنها أسالت الماء عشرة أميال بخط الجبال، وتحت الصخر، حتى غلفته من «الحل» إلى الحرم، وعملت عقبة البستان، فقال لها وكيلها يلزمك نفقة كثيرة، فقالت : اعملها، ولو كانت ضربة فأس بدينار...»

\* \* \*

وقد شهد الدربُ منافسة طريفة بين زوجة هرون الرشيد وجاريتها، فقد ساهمت السيدة «خالصة» جارية هارون الرشيد في عمارة الدرب، وأقامت بركاً ومَصانِع، وحفرت آباراً، وبنت خانات، وفي البستان بركة سميت «بركة الخالصة» على بعد ثلاثة أميال منها...

### درب زبيدة :

أقيم الدرب في العصر العباسي ليصل بين بغداد عاصمة الدولة الإسلامية، والأرض المقدسة.

وقد ذكر الطبري أنه في عصر العباس 134هـ : «ضرب المنار من الكوفة إلى مكة والأميال»... وتم توفير ما يحتاجه المسافرون في الصحراء المياه على رأس هذه الاحتياجات، فحفرت الآبار، وأقيمت البرك والخانات، وأقيمت الخانات، وفقاً لإقامة وراحة المسافرين، ووضعت العلامات لتهدي المسافرين، وأخيراً تم تأمين الطريق من هجمات القبائل وقطاع الطرق.

وعندما تولى هارون الرشيد الخلافة عام 170هـ أدى فريضة الحج سبع سنوات مرات، وفي كل مرة ينفق الأموال بسخاء على تعمير الطريق، وكان يخرج عاماً لقتال أعدائه، والعام الذي يليه يقضيه في التأمل، ويؤدي خلاله فريضة الحج، وكما روى المقرئزي : انتعش الطريق في عصره وأقيمت عليه الخانات، فكان يصحب معه خلال رحلته مائة من العلماء،

وفي إحدى المرات، اختار أن يؤدي الفريضة سائرا على أقدامه إلى مكة، وانعكس ازدهار الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد وانعكس على درب زبيدة بصفة خاصة فشهد أزهى أيامه...

وعندما خلف الأمين والده هرون الرشيد عام 193هـ، انعكست الحرب الأهلية التي نشبت بين الأمين والمأمون على الدرب، فلم يشهد أي عمارة جديدة حتى وجه المأمون من ذرع الطريق فوجده بالأميال 712.

\*\*\*

### معاناة الحجاج في عهد المعتصم :

يتولى المعتصم الخلافة، ومن بعده الواثق، ويعاني الحجاج في عهده، وينقل إلينا الطبري وابن الأثير، كيف كانت كسرة خبز تساوي درهما، وشربة ماء تبلغ 40 درهما، وكيف مات عدد كبير من الحجاج عطشا في عام 232هـ عندما «بلغت الشربة عدة دنائير ذهبية» فأعاد جعفر حفر عشرين بئرا قديمة على الطريق الذي يبدأ من زباله إلى لينة على الطريق أعلاما وبني مواقد.

وفي عام 232هـ، بعد المتوكل عادت القبائل تهاجم القوافل على الطريق، ويقتلون الرجال ويسبون النساء وفي هذه الفترة قامت حركة الزنج، وتبعته حركة القرامطة، الذين أقاموا دولتهم شرق الجزيرة العربية، وكانت الأحساء عاصمة لها، وهدموا كل ما أقيم على الطريق من خانات ومصانع وعلامات، وأخذت القوافل تسير في مواكب في جماعة الجنود المسلمين، ووصل الحال إلى توقيف الحجاج تماما، بسبب غياب الأمن، ونقص المياه، وفضل الكثير من الحجاج الانصراف عن هذه الطريق، وتجنب مناطق الاضطراب، وأخذوا يسلكون طريق الشام أو البحر الأحمر، ويروي ابن الأثير أنه في عام 406هـ مات 1400 من عشرين ألفا من الحجاج على الطريق عطشا!!

لقد كان فقراء الحجاج لا يطلبون يوم عرفة غير الماء لعزته وكان بعض الأقوياء يستحضره من الأماكن النائية لبيعه، فيربح فيه الأموال الطائلة. (16)

قال العلامة قطب الدين الحنفي : «وكنتم يومئذ مراهقا في خدمة والدي رحمه الله، وفرغ الماء الذي حملنا من مكة، واشترت قربة صغيرة جداً يحملها الإنسان بأصبعيه بدينار ذهباً» والفقراء يضجون من العطش، يطلبون من الماء ما يبلون به حلوقهم في ذلك اليوم الشريف، فشرب أهلنا منها، وتصدقوا بباقي القربة على من كان مضطراً إليها من الفقراء، ثم عطشنا جميعاً عقب ذلك، وجاء وقت الوقوف، والناس في شدة الظمأ يلهفون، فأمطرت السماء، وسالت السيول من فضل الله ورحمته، والناس إذ ذاك واقفون تحت جبل الرحمة، فصاروا يشربون من السيل تحت أرجلهم، ويسقون دوابهم، وحصل البكاء الشديد من الحجاج لما رأوا من رحمة الله بهم، وإحسانه إليهم.

\*\*\*

وفي عام 1295هـ/1878م أنشئت في مكة هيئة «عين زبيدة»، وكان عملها، وما يزال تعهد موارد الماء ومساربه، بالإصلاح والبناء، تنفق الهيئة على ذلك من «صندوق خاص بها، له أملاك وأوقاف وأحباس، وتأتيه تبرعات وهبات، ودخل عبد العزيز الحجاز، «وعين زبيدة» التي يستقي منها سكان مكة والحجيج، تستقي الناس من اثني عشر مورداً... وانصرفت العناية إليها، فضوعفت مواردها

\*\*\*

يقول الأستاذ الشاعر الكبير خير الدين الزركلي رحمه الله في كتابه (17): «وغذاها الملك عبد العزيز بعد دخوله الحجاز، بالمال، وأمر

(16) مرآة الحرمين : ص : 1/218.

(17) «شبة الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز» ص : 943.

بزيادة الموارد للجهات»، فزيدت عشرة أضعاف، كبيرة متينة البنيان، واستعيض عن مجاريها القديمة - في داخل البلدة - بأنايب، وعمَّ الماء في عرفات، فكثرت «الكبّاسات» في الشارع العام، والشوارع الفرعية، وفي طريق الحجيج، وتوفر في مزدلفة واتخذت الأسباب لتوفيره في منى...

وعلى بعد كيل واحد من عرفات يتفرع من مجرى «عين زبيدة»، مجرى صغير، يملأ، «بركة الجاوي» وسعتها 500 متر مكعب... وبعد كيل ونصف، يتفرع مجرى الأحواض «المحمل الشامي» وسعتها تقارب بركة الجاوي، وفي أسفل «جبل الرحمة» حوض عام سعته ألف متر مكعب... وفي «منى» عند الكيلو متر 25، وضعت آلة بخارية لرفع الماء من مجرى «عين زبيدة» إلى منى، تملأ خزانات منه سنوياً قبل الحج بشهر، وهناك صهاريج يملأها أصحابها من «عين زبيدة» مباشرة، وصهاريج يملأها المطر، ولا تستعمل للشرب».

ويقول السيد وزير المعارف السابق السيد عبد العزيز الخويطر : «إن هناك العديد من الدراسات حول «درب زبيدة»، ويتم الآن ترميم أجزاء من الدرب بصورة تعيد له طرازه القديم، وشكله التاريخي، ويعاد الغرض الأساسي منه كمصدر للمياه؛ وصدر قرار يجعل «درب زبيدة» بدءاً من الحدود العراقية، إلى مكة من الممتلكات الأثرية، وأقامت إدارة الآثار بتسجيل، وترميم البرك التي يمكن ترميمها...

\*\*\*

### رسالة جامعية حول درب زبيدة...

في مكتبة جامعة الرياض توجد رسالة جامعية حول «درب زبيدة» قدمت إلى جامعة «ليدن» البريطانية للدكتور سعد الراشد... وقد تحدث الأستاذ السيد مصطفى نبيل الذي قام باستطلاع قيم في مجلة «العربي» عن هذه الرسالة، فقال : «أهم ما تناوله البحث، دراسة ميدانية قيمة، إذ زار المؤلف خلالها مواقع الطريق، وتوصل إلى بعض

الآثار الهامة التي لم تكن معروفة من قبل، وقام الباحث بدراسة مقارنة لطراز بناء البرك، مع كل من تونس والأردن وسيناء وجنوب النقب، وسوريا وإيران، وغرب الجزيرة العربية وجنوبها، وبَيَّن كيف استخدم الطريق في فجر الإسلام لجنود المسلمين الذين فتحوا العراق وفارس، وبدأ دراسته الميدانية من العقبة، وانتهى إلى بركة الخرابة، وتوقف عند 40 موقعا، وقدم وصفا لما يأتي :

- خزانات مياه وآبار وخانات في حالات مختلفة.
- تحديد الطريق القديم حيث زالت بعض أجزائه آثار الدرب التاريخي.
- الأعلام التي توضح الطريق التي كانت قائمة على طوله.
- جمع الآثار الفخارية والزجاجية والكتابات الأثرية، وقام بالدراسات الأثرية اللازمة عليها، وعثر على بعض العلامات القديمة في عصور مختلفة.
- وتنتهي الدراسة بالمطالبة بالحفاظ على درب زبيدة لقيمته الثقافية، ولمنفعة السكان، واستفادتهم من بركه وآثاره...
- وفي منطقة الشميسي اليوم مصنع لتعبئة مياه «عين زبيدة» في قوارير على أسس علمية حديثة...
- وهكذا نالت مكة الكثير من الخير على أيدي حكام المسلمين وأثريائهم في مختلف الحقب والعصور، ومن ثم كثرت فيها المدارس والسقايات والربط والزوايا والمساجد. مع وقوفٍ لكل هذه الآثار...

## وقوف المياه في العهد الإسلامي

### سقي الماء من أعظم القربات :

يرتبط نشاط المسلم حول الماء، بالدين الإسلامي بمبادئه وقيمه ومُثله، سواء من حيث اتخاذُ هذا المصدر الحيوي سبيلاً إلى التقرب إلى الله بإغاثة اللّهافى، وتيسير سُبُلِهِ لهم، أو اتخاذ الماء مصدراً من مصادر التفكير العقلي في قدرة الباري، واتصال ذلك بالإيمان بإلاهٍ عظيم يدبر الكون، ويسخر مصادر الطبيعة، أو في النظم والقواعد الشرعية التي سنتها الشريعة الإسلامية من أجل المحافظة على الماء، وجعل ملكيته عامة يشترك فيها الجميع...

ويلاحظ بأن الديانات السماوية أنها تعطي الماء أهمية كبيرة... وقد أثابت الأشخاص الذين يتقربون إلى آلهتهم بتقديم الماء إلى العطاشى، وفرضت عليهم تقديم الماء إلى الظمآن لإغاثته وإنقاذه من الثبور والهلاك... وفي الأسفار القديمة أمثلة عديدة على ذلك، كما أشادت تلك الأديان بقيمة الماء في الحياة...

ولقد ألقى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب مسؤولية الموتى بالعطش على الذين يقصرون في إرواء المحتاجين.(1)

ويروي ابن القيم أن عمر أتى بامرأة جهدها العطش، فمرت على راع، فاستسقت، فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها، ففعلت، فشاور الناس في رجمها، فقال علي : «هذه مضطرة، أرى أن يخلى سبيلها، فمن اضطر غير باغ ولا عاد، فلا إثم عليه... فخلى عمر سبيلها.(2)

(1) الأحكام السلطانية - ص : 203.

(2) «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية»، لابن القيم (ت : 751هـ) ص : 53. وطبعة الآداب بمصر 1317 - المبسوط : لشمس الدين السرخسي (ت : 490هـ ط : السعادة بمصر : 1324 ثلاثون جزءاً، ص 581/9.

وفي شرح قول الله تعالى : ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ،  
أَن أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ، أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ (3) يقول الأمام  
القرطبي(4): فيه ثلاث مسائل :

الثانية : في هذه الآية دليل على أن سقي الماء من أفضل الأعمال...  
وقد سئل ابن عباس : «أي الصدقة أفضل؟ فقال : «الماء، أو لم تروا إلى  
أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة» : ﴿أَن أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ، أَوْ  
مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

وروى أبو داود أن سعداً أتى النبي ﷺ، فقال : أي الصدقة أعجب إليك؟  
قال : «الماء».. وفي رواية.. فحفر بئراً.. وقال : هذه لأم سعد...  
وعن أنس قال : قال سعد : يا رسول الله، إن أم سعد كانت تحب  
الصدقة، أفينفعها أن أتصدق عنها؟ قال : نعم؛ وعليك بالماء.

وفي رواية أن النبي عليه السلام أمر سعد بن عبادة أن يستقي عنها  
الماء، فدلّ على أن سقي الماء من أعظم القربات عند الله تعالى...  
وقد قسم عمر بن الخطاب مُروطاً بين نساء من نساء المدينة، فبقي  
مِرْطٌ جَيِّدٌ.. فقال له بعضهم : يا أمير المؤمنين... إعطِ هذا بنتَ رسول  
الله ﷺ التي عندك... يريدون أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، فقال عمر :  
«أم سليط أحق، أم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ.. قال  
عمر، فإنها كانت تزفر(5) لنا القرب يوم أحد.(6)

وكان سعد بن عبادة يسقي الناس في جرار الماء بعد موت أمه، وهذه  
الجرار كانت في جدة من جهة الشام قرب ثنية الوداع.(7)

(3) سورة الأعراف، رقم الآية : 5.

(4) الجامع لأحكام القرآن، ص : 7/215.

(5) في المشارق : تزفرُ لنا القُربَ : أي تحملها على ظهرها تستقي الناس منها.

(6) في صحيح البخاري عن ثعلبة بن أبي مالك [التراتب الإدارية ص : 1/103.

(7) «عمدة الأخبار، في مدينة المختار» للشيخ أحمد بن عبد الحميد العباسي السندي، ص : 115.

وقال بعض التابعين : من كثرت ذنوبه، فعليه بسقي الماء، وقد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب، فكيف بمن سقى رجلاً مومناً موحّداً وأحياه... وعن أبي هريرة رضي الله عنه، كما في رواية البخاري، أن رسول الله ﷺ قال : «بيننا رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فنزل بئراً، فشرب منها ثم خرج، فإذا كلب يأكل الثري من العطش، فقال : لقد بلغ هذا الكلب مثل الذي بلغ بي... فملاً حُفّه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له. (8)

وعكس هذا مارواه مسلم عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال : «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها، وسقتها، إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض. (9)

قالوا : يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً؟ قال : «في كل ذات كبد رطبة أجر». (10)

وفي طبقات ابن سعد (11) : «واتخذ عمر دار الرقيق، وقال بعضهم : الدقيق، فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب، وما يحتاج إليه، يعين به المنقطع والضيف ينزل بعمر.. ووضع عمر في طريق السبل ما بين مكة والمدينة ما يصلح به من ينقطع به، ويحمل من ماء إلى ماء...

وفيهما أيضاً (12) : أن عمر استأذنه أهل الطريق بينون ما بين مكة والمدينة، فأذن لهم، وقال : «ابن السبيل أحق بالماء والظل»...

وقد اصطنع هشام بن إسماعيل بالعقيق بالمدينة المنورة، «جَرَّ هشام» (13) وكان يوضع فيها جِرارٌ كبار يستقي منها الناس، مرَّ هشام بن

(8) أي أثنى عليه، أو قبل عمله ذلك، أو أظهر ما جازاه به عند ملائحته، عن القسطلاني.

(9) خشاش الأرض : مثلثة الخاء، هَوَامُّهَا وحشراتُهَا.

(10) رواية البخاري وأحمد وابن ماجه : «في كل ذات كبد حراء أجر».

(11) ص : 203 - 1/204، وتاريخ أبي الفداء : ص : 1/174، وابن الجوزي، ص : 52 - 53.

(12) ص : 220/3.

(13) بالفتح وتشديد الراء.



عبد الملك عليها، فقليل له : «يا أمير المؤمنين، هذه جرّ جدك هشام، فأمر بمصلحتها، وما يقيمها من بيت المال، فكانت توضع هناك جرار يسقي منها الناس». (14)

وعن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه : أن النبي ﷺ، قال : «من حفر بئراً، فله أربعون ذراعاً عطناً لماشيته» كما رواه ابن ماجه بإسناد ضعيف. (15)

\*\*\*

### ابن السبيل أحق بالماء والظل :

وأول من قام بإصلاح وتوسيع المسجد الحرام سيدنا عمر بن الخطاب، وقد استأذنه أهل المياه في أن يبنوا منازل بين مكة والمدينة فأذن لهم، وشرط عليهم أن ابن السبيل أحق بالماء والظل. (16)

ولقد كان عثمان رضي الله عنه أبرّ الناس بالناس، وأرفق المسلمين بالمسلمين، وأنداهم كفاً، وأسأخاهم يداً، وأسمحهم نفساً، وكان سخياً بماله، ينفق منه بغير حساب في بَرِّ الأصدقاء والأوْدَاء...

فقد كان رضي الله عنه سخي النفس واليد بماله في سبيل الله، فهو اشترى، كما هو معلوم في محله، «بئر رومة» من ماله بألوف كثيرة، وجعلها للمسلمين يدلي فيها كما يدلون، ووعد النبي ﷺ بخير ما فيها في الجنة... وإليه يشير البوصيري في همزيته حيث يقول :

حَفَرَ البئرَ، جهزَ الجيشَ، أهدى الهـ

ـدي، لما أن صده الأعداء

\*\*\*

(14) «عمدة الأخبار» ص : 254.

(15) «بلوغ المرام من أدلة الأحكام» للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت: 852هـ) في باب : إحياء الموات.

(16) المقرئزي : «الذهب المسبوك، بذكر من حج من الخلفاء والملوك»، ص : 43 - 44، طبقات ابن سعد، ص : 3/220.

وهذا على كرم الله وجهه يقف بثراً، يتصدق بها، ويقي بها وجهه حرّ النار يوم التناد، فقد قال أبو نيزر (17) : جاءني علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنا أقوم بالضيعتين : عين أبي نيزر، والبغيفة.. فقال «هل عندكم من طعام؟ فقلت : طعام لا أرضاه لأمير المؤمنين، قرع من قرع الضيعة، صنّعت به إهالة سَنَخَه» (18) فقال : عليّ به، فقام إلى الربيع، (19) فغسل يديه بالرمال حتى أنقاهما، ثم ضم يديه، كل واحدة منهما إلى أختها، وشرب حُساً من الربيع... ثم قال : يا أبا نيزر : إن الأكف أنظف الآنية، ثم مسح كفيه على بطنه، وقال : «من أدخله بطنه النار، فأبعده الله... ثم أخذ المِعُول، وانحدر في العين، وجعل يضرب، وأبطأ عليه الماء، فخرج، وقد تنضح جبينه عرقاً، فانتكت العرق عن جبينه، ثم أخذ المِعُول، ودعا إلى العين، فأقبل يضرب فيها، وجعل يهملهم، فانثالت كأنها عُتْق جَزُور، فخرج مسرعاً، فقال: أشهد الله، أنها صدقة علي بدواة وصحيفة، فعجلت بهما إليه، فكتب : «بسم الله الرحمن الرحيم؛ هذا ما تصدق به علي أمير المؤمنين، تصدق بالضيعتين المعروفتين «بعين أبي نيزر»، «والبغيفة» (20) على فقراء أهل المدينة وابن السبيل ليقى بها وجهه حرّ النار يوم القيامة، ولا تباعا، ولا تورثا حتى يرثها الله، وهو خير الوارثين، إلا أن يحتاج إليهما الحسن والحسين، فهما طلق لهما، ليس لأحد غيرهما... فركب الحسن دين» فحمل إليه معاوية بعين أبي نيزر مائتي ألف دينار، فأبى أن يبيع، وقال : إنما تصدق بهما أبي ليقى الله وجهه حرّ النار يوم القيامة...

\* \* \*

(17) «الكامل» للمبرّد، ص : 2/141.

(18) الإهالة : الودك.. سنخة : متغيرة.

(19) جدول ماء.

(20) البغيفة : بضم أوله على لفظ التصغير، وهي البئر القريبة الرشا؛ صارت لعلي بن أبي طالب يبيع [معجم ما استعجم، ص : 1/262، «عمدة الأخبار» للعباسي، ص : 241.

وكان أهل مكة يقتصرون على شرب ماء الآبار التي بداخل البلدة وخارجها، فلما كانت خلافة معاوية أجرى إلى مكة عيونا عشرة، في قنوات عملها لذلك. (21) ثم تنافس الأمويون في مكة في حفر الآبار ووقفها، واتسعت إقطاعيتهم الزراعية في الطائف وضواحيها...

ففي إحدى زيارات معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي الأول لمكة حاجا، أو لأخذ البيعة لابنه يزيد، سمع شكوى أهلها من جفاف الآبار التي كانوا يستقون منها، فأمر بالبحث عن العيون والينابيع في أعاليها، فظفر بعشر عيون أجراها إلى جوار بيت الله الحرام، فكان هذا مبدأ سقاية مكة بماء العيون...

وهكذا عُني معاوية بأمر الشرب في مكة، فأنشأ لها عشر عيون، ذكرها الأزرقى، (22) وعين مواقعها، وقال : أنه اتخذ لها أخيافاً، فكانت بساتين، وفيها النخل والزرع، منها عيون في المعلاة، والحجون، والشهداء، وبعضها في ضواحي مكة، وكان لبعضها مشاريع يردها الناس، ومنها عين في أسفل مكة، تمر في بطن واديها تحت الأرض، ولها مشروع يستقي منه الناس...

\*\*\*

واحتفل ابن الزبير بهذه العيون في عهده، واحتفر بعض الآبار، وبذل جهوداً طيبة في تنمية الزراعة، فأنشأ البساتين من ماله الخاص في مواضع من النقا والسليمانية مكان الحلقة اليوم التي في المعلاة، وقد تغيرت اليوم، ونقلت إلى جوار ذي طوى بجرول، ولو دام ابن الزبير، ولم تشغله الفتن والحروب لنهض بشؤون مكة، فقد كانت نظرته إلى حياتها تختلف عن نظرة الذين أرادوها لتكون مستودعا للعجزة والعاطلين...

(21) مرآة الحرمين، ص : 210/1.

(22) أخبار مكة، ص : 183/2.

ولما حج عبد الله بن عامر جمع العيون، وصرفها في عين واحدة، واتخذ حياضاً بميدان عرفة، أجرى إليها ماء العين، فبقي الناس في راحة من جهة الماء بمكة وعرفة. (23)

\*\*\*

### أعمال خالد بن عبد الله القسري :

من أعمال خالد بن عبد الله القسري، أنه حفر بئراً ساق منها الماء حتى أخرجه في المسجد عند زمزم. (24)، وكان هذا الماء يجري في قصب من رصاص، (25) ثم يظهر في فوارة تسكب في فسقية من رخام بين زمزم والركن والمقام، وتفرغ الفسقية في سرب من رصاص يخرج منه الماء إلى بركة كانت في السوق عند باب الصفا يتوضأ منها الناس، (26) وكان باب الصفا أقرب إلى صحن المسجد منه اليوم، ويكاد يجمع المؤرخون أن خالد ساق ذلك الماء إلى المسجد ليضاهي به زمزم، (27) وقد استبعد الأستاذ أحمد السباعي في كتابه : «تاريخ مكة»، (28) أن يكون بعضهم قد أشاع هذه القصة انتقاماً منه أو من بني أمية، لأن أعمال خالد في مكة مالا يتفق مع هذه الجرأة على الدين... ويكفي ما نقله المسعودي من غضب خالد بن عبد الله القسري عندما بلغه قول بعض الشعراء :

يا حبذا الموسم من موفد

وحبذا الكعبة من مشهد

---

(23) «مرآة الحرمين»، ص : 1/210.

(24) «تاريخ مكة»، لأحمد السباعي، ص : 1/131.

(25) جلب الماء العذب فيما بين زمزم والحجر الأسود من أصل جبل ثبير، وكان ينادي مناديه : «هلموا إلى الماء العذب، وارتكوا أم الخنافس، يعني «زمزم» [الروض المعطار للحميري، ص 293].

(26) المصدر السابق.

(27) أخبار مكة، للأزرقي، ص : 2/85. وقد نظم «تاريخ مكة» للأزرقي في أرجوزة، تقي الدين عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك الأزمنتي (ت : 722هـ) [طبقات الشافعية. ص : 6/130].

(28) من مطبوعات نادي مكة الثقافي عام 1981 تناول فيه دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران.

## وحبذا اللاتي يزاحمننا

عند استلام الحجر الأسود

وأنه قال : أما أنهن لا يزاحمنك بعد هذا... ثم أمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف، وأجلس عند كل ركن حرساً معهم السياط، ولا أعتقد أن رجلاً يغضب لاختلاط النساء، يستطيع أن يجراً على محاربة ماء زمزم.... بيد أن خالداً كان يمتاز بشيء من الشدة في معاملته، ولعل لذلك، أو لمقت بعضهم، حكم بني أمية شيئاً من الأثر فيما أشاعه الموتورون عنه.

ومن أدلة شدة خالد ما روي عنه أنه أرسل إلى عبد الله بن شيبه ليفتح له الكعبة، في وقت لم ير عبد الله أن يفتحها فيه، فلما رأى خالد امتناعه، أمر به، فضرب مائة سوط، فرحل ابن شيبه حتى أتى سليمان بن عبد الملك في الشام، فشكا له منه، فكتب سليمان إلى خالد في مكة محمد بن هشام أن يضرب خالداً مائة سوط، ففعل...

\*\*\*

ويأخذ الحجاج العراقيون مؤنتهم الماء استعداداً لدخول مناطق الصحراء.(29)

وفي عام 104هـ أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك عامله على الكوفة عمر بن هُبيرة بأن يقوم بتعبيد طريق الكوفة - مكة، وأن ينشئ فيها المحطات، وأن يقوم بحفر الآبار حيث إن حجاج الركب العراقي كانوا يجدون عناء وصعوبة في حصولهم على الماء.(30)

ولهذا يعتبر يزيد ابن عبد الملك أول خليفة أموي يهتم بطريق الركب العراقي، ولم تذكر المصادر التاريخية أية خدمات أخرى كبيرة قدمت من قبل خلفاء الدولة الأموية في هذا الطريق...

(29) «درر الفوائد» : الجزيري، القاهرة، ص : 466.

(30) «الكامل»، لابن الأثير، ص : 5/500.

ويمكننا أن نفترض أن موارد المياه كانت كافية لسد حاجة الحجاج في هذا الطريق من بعدما عمله يزيد بن عبد الملك.

وفي آخر دولة بني أمية 132، تخربت العيون التي كانت تمتد العين الكبيرة، فانقطعت المياه عن أهل مكة، وأصابهم كما أصاب الحجاج من جراء ذلك جهد شديد، حتى كانت القرية تباع بعشرة دراهم وأكثر، ورجع الناس إلى مياه الآبار، كما بدأوا، واستمروا على ذلك إلى خلافة أمير المؤمنين هارون الرشيد (170 - 193) فأمر بإصلاح ما تخرب من العيون، ولكن ما لبث أن تقطع ماؤها، وأصاب الناس من جراء ذلك شدة شديدة...

\*\*\*

وفي العهد العباسي، أمر داوود بن علي بن عبد الله بن العباس، والي مكة، في عام 132هـ، بإزالة بعض آثار بني أمية في مكة، فأزال الفسقية التي جعلها خالد القسري بين زمزم والمقام، والبركة التي كان الناس يتوضؤون منها عند باب الصفا، وصرف ماءها إلى بركة أخرى بالقرب من المسجد في جهة أخرى. (31)

ولم يكن والي مكة خالد بن عبد الله القسري إلا ممثلاً، في الحقيقة، لسليمان بن عبد الملك، فهذا هو الذي كتب إليه بأن أجر عينا يخرج من مائها العذب الزلال حتى تنبسط بين زمزم والمقام، فعمل خالد بركة باصل «ثبير» ثم شق من البركة عينا تخرج إلى المسجد الحرام، تجري في قصب من رصاص، حتى أظهره من فؤارة تسكب في فسقية من رخام بين زمزم والمقام، فلم تزل هذه العين حتى هدمها داوود بن علي بن عبد الله بن عباس في خلافة أبي العباس السفاح، وصرف العين إلى بركة بباب المسجد. (32)

---

(31) «تاريخ مكة»، ص : 136 / 1.

(32) المقرئزي، ص : 32 - 34.

وقد تحدث القاسم بن يوسف التجيبي السبتي (33) عن مياه الحرم الشريف، ولا سيما في شهر رمضان فقال : «وطوال شهر رمضان الشريف يسبّل أهل اليسار، ومن يبتغي الأجر، الماء، بالحرم الشريف، فتراهم يضعون بالمسجد الحرام، قبيل المغرب، قللا بيضاء، يسمونها «الدوارق» فيملأونها من «ماء زمزم» المباركة، ومن غيرها من الآبار، ويبردون ذلك، ويجمّرون تلك الأواني بالعود الهندي، وتعم هذه الدوارق سائر جهات الحرم الشريف، ويضعون حولها كيزانا بيضاء يسمونها «الغراريف» فإذا أذن بالمغرب، بادر الصائمون لشراب الماء من تلك الكيزان، سواء في ذلك غنيهم وفقيرهم... والشراب منها لجميع الناس مباح...

\*\*\*

### الدوارق :

في سيرة ابن إسحاق من قصة لأبي رافع : «وكننت أعمل الأقداح أنحتها في حفرة زمزم!! ونحوه في ترجمته من طبقات ابن سعد. (34) ويطلق المكيون عامة - والزمامة منهم خاصة على الأنية التي تحمل ماء زمزم الدورق وجمعها دوارق، وهي كلمة أعجمية معربة، ويوجد نص يرجع إلى ما قبل ثلاثمائة سنة خلّت يقول : «إن الدورق كان في ذلك الحين يتخذ لاستيعاب وحفظ المياه، بل إن نص التجيبي قبله بكثير استعمل كلمة الدوارق...

فقد أورد شهاب الدين الخفاجي المصري (977 - 1069هـ) في كتابه : «شفاء الغليل» : أن أهل مكة يُطلقون الدورق على جرة الماء، فاستعماله

(33) «مستفاد الرحلة والاعتراق» ص : 63/1، لأبي القاسم التجيبي السبتي محدث، ناقد للأسانيد، يقول الشعر، حج وألف في حجه رحلة كان السلطان أبو سعيد المريني يعظمه، ويجله، وخرج له من مروياته أربعين حديثا، في فضل الجهاد والحث عليه (ت : بسبّنة عام 730هـ) أنظر ترجمته في : «بلغة الأمنية، ومقصد اللبيب»، و«اختصار الأخبار، عما كان بسبّنة من سني الآثار» لمحمد بن القاسم الأنصاري السبتي، ص : 18، ط : الملكية.

(34) التراتيب الإدارية، ج : 2 / ص : 63.

بهذا المعنى واللفظ قديم.. وهناك أوان أخرى كانت تستعمل بمكة، ولها مصانع في عواليها، منها : الربيعي، والغلاية، والبرادة... وكانت كلها بمثابة الثلاجات الطبيعية ويعتني بها الجميع في فصل الصيف وزمن الحرور، ويتأنقون في زخرفتها وتلوينها، ومنها الصغير والكبير، وقد انقرضت أو كادت بعدما كان لها من مظهر جميل على أطناف الأسطحة، ورفارف الدور والمناور، كما كانت تطيب بالتبخير أو التجمير إما بالمصطكى، وإما بغيرها من أنواع الطيب، وقد توارت، بعدما أُرُوْتُ.

وقد تحدث عن الدوارق التي كانت تقدم فيها مياه زمزم بمناسبة شهر رمضان المعظم كل من ابن بطوطة، وابن جبير في وصفهما لبئر زمزم، حيث كان هذا الوصف مرتبطاً بذكر هذه الآنية المستعملة لسقاية الحاج أو المعتمرين، فابن جبير يقول في رحلته (579هـ) بعد وصفه لبئر زمزم وسقاية العباس : «...ويخرج مع الليل لسقي الحاج في قلال يسمونها الدوارق، كل دورق منها ذو مقبض واحد»...

ويذكر ابن بطوطة، في رحلته، «قبة زمزم»، في عهد المماليك الأتراك والشراكسة، وما يجاورها من القباب، فيقول : إن قبة زمزم مفروشة بالرخام، وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر، وعمقها مثل ذلك، وارتفاعها عم الأرض نحو خمسة أمتار، تملأ ماء للوضوء، وحولها مصطبة دائرة يقعد عليها الناس للوضوء، ثم وصف قبة العباس بما وصفها ابن جبير في عهد الأيوبيين، وذكر الدوارق التي كان يبرد فيها الماء، وقال : وفيها تخزن الكتب والمصاحف، ومنها مصحف بخط زيد بن ثابت عام 18.

\*\*\*

وكان أمير مكة، هو الذي يرشح السقاة أو الزمازمة لسقي الحاج في المسجد من ماء زمزم، بل إننا نرى اليوم في الشبيكة، أحد أحياء مكة سبيلاً خارجاً من دار الوزير السابق زكي عبده اليماني يرتوي منها العموم



والحجاج طَرَفِي النهار وَزُلْفَى من الليل، بل إننا نجد، وإلى اليوم طائفة من هؤلاء السقاة يوزعون مياه زمزم في الشوارع، وقد يتكلفون بإيصالها إلى بعض البيوت...

وهكذا عرفت قديما، وإلى اليوم، بعض البيوتات التي ترصد أهبتها في شهر رمضان لتولي مسؤولية العمل في المسجد الحرام، وتوزيعه في ساحاته وباحاته، ويعرفون بالزمازمة نسبة إلى ماء زمزم.

واليوم تحظى هذه المهنة الشريفة بدعم من جلالة الملك فهد.

وهناك كتاب بعنوان «صور وذكريات عن المدينة المنورة» يتحدث فيه الأستاذ عثمان حافظ عن دوارق الماء المبرد في الحرم النبوي قديما.. حيث كتب :

وكان عن يمين الداخل لباب السلام (زقاق الخياطين) وهذا الزقاق نافذ إلى (ذروان) وفيه معظم سبل الدوارق التي يأتي بها سقاء المسجد النبوي في أوقات الصلاة، وكان لمعظم أسر المدينة مكان مخصص بالمسجد النبوي يجلسون إليه ويضعون الكاسات النظيفة على الدوارق لسقيا الناس، وكنا نخرج من الكتاب في الظهيرة نبحت عن دوارق الماء المبرد فلا نجدها إلا عند دكة الأغوات (خلف المقصورة النبوية).

ولا يؤتى بهذه الدوارق بكثرة إلا في أوقات الصلاة، وكان من أكبر السبل من هذه الدوارق سبيل الشيخ (حسين جباد) بقرب باب الرحمة، وكان يضع أمامه عدة صناديق من الصناديق المصفحة بالزنك لحفظ الدوارق وجميع الصناديق التي توضع بها الدوارق داخل المسجد مصفحة بالزنك لئلا تلوث بقايا المياه المسجد.

وقد تحدث محمود سليمان بيطار عن مهنة الزمازمة، فقال :

في الحقيقة نحن ورثنا هذه المهنة من والدنا الذي كان أحد كبار مشايخ الزمازمة. وقد أحببنا أنا وإخوتي هذه المهنة التي شرفنا الله بها.

ونعتبر مهمة الزمازمة وساما على صدورنا، وأضاف قائلاً : منذ وفاة الوالد ونحن نواصل أعماله التي كان يقوم بها في شهر رمضان المبارك، ونحن الآن نستعد في كل عام لشهر رمضان منذ وقت مبكر حيث يوجد لدينا أزيار نقوم بتعبئتها بماء زمزم وتبخيرها بالمستكة، وهي الطريقة المعروفة والمتبعة لدى الزمازمة في مكة المكرمة.

ويضيف البيطار قائلاً : إن الذكريات الجميلة في رمضان لا تنسى، فقد كان في الماضي أكثر الزمازمة يمارسون مهنتهم في رمضان، حيث يجهز الزمزمي الفرشة والدوارق والشراب داخل المسجد الحرام، وعندما يؤذن المؤذن للمغرب لا يفكر في الإفطار، بل يقف لسقاية العمار والصائمين.

ورغم ذلك فإنك تجد كل زمزمي سعيدا وفخورا بهذه الخدمة التي يقدمها للصائمين، والحقيقة نحن الآن نمارس المهنة استمرارا لإحيائها حيث كادت تندثر بسبب التكنولوجيا الحديثة وابتعاد الكثير من الناس عن التراث والاهتمام بصناعة الآباء والأجداد.

ويواصل الزمزمي محمود بيطار قائلاً : إن مستقبل الزمازمة حاليا يبشر بالخير، فالمهنة تحظى بدعم من خادم الحرمين الشريفين حفظه الله وكذلك هناك تطور في طريقة توزيع ماء زمزم عن طريق مكتب الزمازمة، والحقيقة نحن نجد التشجيع المستمر من المواطنين والمسؤولين، ونقوم بالمشاركة في المناسبات التي تقام في مكة المكرمة وجدة، وكما قلت نحظى بتشجيع دائم.

وعن المناسبات التي يشارك فيها قال البيطار : لقد شاركنا في وضع حجر الأساس لمشروع جامعة أم القرى تحت رعاية خادم الحرمين الشريفين، وسنويا نشارك في معرض الصناعات الوطنية، وكذلك لدينا مشاركات أسبوعية في نادي مكة المكرمة للفروسية، بالإضافة إلى الدعوات التي وجهت لنا للمشاركة في معرض المملكة بين الأمس واليوم،

ولم تتح لنا الفرصة لظروف خاصة، وسوف نشارك في المستقبل إن شاء الله. (35)

كما تحدث السيد جعفر بن السيد إسماعيل المدني البرزنجي في القرن الثالث عشر عن وضع السقائين للدوارق بالمسجد الشريف. (36) قال :  
«وأما وضع السقائين الدوارق بالمسجد الشريف فالذي يظهر لي من كلام ابن فرحون أنه قديم، فقد قال وكان ممن أدركته من السقائين بالحرم الشريف الشيخ محمد السقا المعروف بأبي حسن هو جد أولاد الشيخ محمد الكازروني لأهمهم، كان رحمه الله يملأ المسجد الشريف بالدوارق يضعها من باب الرحمة إلى باب النساء ويجعل في أعناق الدوارق مقطا يقيدها به حتى لا تسرق ولا تغير من مكانها وما علمته يأخذ على ذلك أجرة».

\*\*\*

قال ابن عبد الحكم رحمه الله : «سمعت مالكا يسأل عن الماء يسقى به المسجد الحرام، أترى أن يشرب منه؟ قال : «نعم» وإنما جعل للعطشان، ولم يرد به أهل المسكنة، فلا يترك شربه...

وقال ابن حبيب : «رأيت القرب بالماء العذب معلقة بمسجد رسول الله ﷺ، على الحصباء، وتحتها أقداح نضار، فمن أحب شرب...

وقال ابن القاسم : «رأيت مالكا يشرب الماء في المسجد الحرام، ورأيت ابن الماجشون وغيره من علماء المدينة يشربون الماء في المسجد، وسمعت من ينادي على الدوارق المذكورة : «الماء للسبيل، سبيل فلان بن فلان، ويسمي الذي سبَّله، والله ينفع الجميع بنياتهم بمنه وكرمه...

\*\*\*

(35) صحيفة «المدينة المنورة» عدد : 9074.

(36) «نزهة الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين»، وانظر مجلة العربي، ع : 407.

## الخلفاء.. والمصانع :

كان الخلفاء يقفون أموالا طائلة لبناء المصانع في طريق ركب الحاج، ويرصدون نفقات هائلة قبل مسيرة الركب حيث ترسل الحكومة العربية المسلمة إلى الآبار التي في طريق الحج من يصلحها وينقيها...

فاهتم خلفاء بني أمية والعباسيين بطريق الحج الموصل بين مكة والعراق عبر الجزيرة العربية، وأمروا ببناء منازل للحجاج ينزلون فيها لشرب الماء والراحة من وعثاء السفر، والتزود بالماء لمواصلة السير...

ولما تولى أبو جعفر المنصور عام 136هـ أمر ببناء منازل أخرى على هذه الطريق، ويذكر لأبي جعفر في طريق الحج هذا بركة بأسفل المسلح على مقربة من المدينة كان الحجاج يروون بها، وكانت تعرف ببركة أمير المؤمنين...

وعندما حج أبو جعفر المنصور بالناس عام 136هـ، وزع أعطيات على الأعراب القاطنين في طريق الركب العراقي، كما قدم لهم الأطعمة، وأمر بحفر الآبار، وتعبيد الطرق، واهتم بالسقاية على امتداد طريق الركب... وفي عام 148هـ حج بالناس للمرة الثالثة، وأمر بإصلاح الآبار في طريق الركب العراقي. (37)

ومن القصور التي كانت لأبي جعفر المنصور في طريق الحج لراحته قصر يعرف بالعتيق، كان أبو جعفر قد بناه، وفيه بركة مربعة سعتها تسعون ذراعا إلى خمس وأربعين، وفيه حوض أيضا...

وقد بنى الخليفة المهدي المصانع، وهي أحواض لجمع ماء المطر، وحفر الآبار والبرك، تحمل اسم المهدي بعد وفاته، وكان المهدي يشجع على حفر الآبار، ويعوض المساهمين في ذلك.

وفي عام 160هـ حج بالناس الخليفة المهدي، وقد حمل محمد بن سليمان الثلج معه على طول الطريق إكراما للخليفة. (38)

(37) «الكامل» لابن الأثير، ص : 6/49.

(38) المصدر السابق، ص : 6/56.

ويعتبر الخليفة المهدي أول خليفة يحمل الثلج من طرق الحج، ويبدو أن وقت الحج في هذه السنة كان قانئاً...

وفي سنة 164هـ لحق حجاج الركب العراقي عطش شديد حتى كادوا يهلكون، وحينما علم الخليفة المهدي بذلك غضب غضباً شديداً. (39)

وقد أمر المهدي في السنة التالية بإنشاء محطات للبريد في طريق الركب العراقي والطرق الأخرى... ولعله بعمله هذا أراد أن يكون على علم بأحوال الحجاج في ركب الحج وما يجدونه من صعوبات إذ أنه أمر في نفس الوقت بزيادة عدد الآبار في طريق الحج العراقي...

والمنازل والبرك التي كان للرشد فضل في بنائها أو حفرها، فهي قصر الخلفاء الذي كان ينزل فيه، ويقع على بعد ميل ونصف من الخزيمية بموضع يعرف «بالمندصة» وفيه بئر يعرف «بالبرود»، وبركة مربعة في : «ذات عرق» على بعد ميلين ونصف من مسجد الرسول. (40)

وفي عام 180هـ لما بويع لهرون الرشيد بالخلافة، وحج بالناس، قام بتعمير طريق الركب العراقي وغيره، وأمر بحفر الآبار، وتوزيع المال على الأعراب القاطنين على هذه الطرق. (41)

\*\*\*

فهرن الرشيد العباسي عني بالعيون التي طمرت في مكة بعد عهد معاوية، فأحياها، وصرف مياهها، في عين واحدة يقال لها «الرشا» واتخذ البرك لها في أعلى مكة وأسفلها تصب فيها الماء، فيستقي منها الناس، وتلك كانت عاداتهم قبل إنشاء موارد الماء في القرون المتأخرة...

وممن عني بأمر الحج من خلفاء بني العباس في عهدهم الأول الخليفة المتوكل على الله، فقد حفر آباراً، وبنى قصوراً على طريق الحج، بل إنه

(39) «درر الفوائد» : الجزيري : القاهرة، ص : 217 - 219.

(40) الحربي أبو إسحاق (ت : 285هـ) : «كتاب المناسك، وأماكن طرق الحج، ومعالم الجزيرة» نشر : حمد الجاسر - أنظر : «هدية العارفين» ص : 4 / ج : 5.

(41) «درر الفوائد» الجزيري، ص 221.

كان لأحد موالي هرون الرشيد واسمه حسين الخصي آثار، أيضاً، على هذه الطريق طريق الحاج، وحفر عدة آبار...

\*\*\*

### سيدات تركن آثاراً كبيرة في طريق الحج :

هناك سيدات عرفن باهتمامهن بأمر الحج، مثل «خالصة» جارية الخيزران، أم الخليفتين الهادي والرشيد، التي تركت آثاراً كثيرة على طريق الحج تشهد لها باهتمامها بأمر الحج...

وأم المتوكل السيدة شجاع، وسيدة أخرى كانت لها شهرة في دولة بني العباس هي السيدة شغب أم الخليفة المقتدر بالله المتوفاة عام 321هـ، وكانت تملك أموالاً عظيمة تفوق الإحصاء كما يقول ابن الجوزي، (42) وكانت تواظب على مصالح الحاج، وتبعث خزانة الشراب والأطباء معهم، وتأمر بإصلاح الحياض الواقعة في طريق الحج.

ولقد نالت زوجة الرشيد زبيدة أم الخليفة، واسمها أمة العزيز بنت جعفر بن المنصور، شهرة واسعة بسبب اهتمامها بأمر الحج وبذلها أموالاً في سبيل توفير المياه في الصحراء على طريق الحج ما بين الكوفة ومكة، وكذلك بين مكة والمدينة، حتى قيل إن ما أنفقته من مال خلال حجها 54.000.000 مليون كما ذكر ذلك الخطيب البغدادي (43) كما قدمنا ذلك فيما سبق.

\*\*\*

ويبدو أن برك وآبار زبيدة كانت ذات طابع معماري واحد، وهي أن تكون مدورة، لهذا يكفي أن يذكر أن البئر زبيدية، فيفهم أنها مدورة...

(42) المنتظم، ص : 253 / 6.

(43) تاريخ بغداد، ص : 433 / 14.

ولما كانت الماء بمكة مُرّة، حتى كان لا يستطيع الإنسان أن يشرب منها، فسرعان ما أصبح إمداد هذه المدينة المقدسة بالماء بابا من أكبر أبواب البر. (44)

وكانت القناة المعقودة تحت الأرض، والتي أمرت بإنشائها السيدة زبيدة كثيرا ما تتعطل، ففي عام 245هـ غار الماء بمكة حتى بلغ ثمن القرية ثمانين درهما، فبعثت أم المتوكل أمرة بإصلاح القناة والإنفاق عليها. (45)

وقد أمر المامون بإنشاء خمس برك في مكة تتسلط عليها «عين زبيدة» فجعل إحداها عند شعب ابن يوسف (شعب علي)، والثانية عند الصفا، والثالثة عند الخياطين بجوار ما نسميه «باب إبراهيم» عند فوهة سكة الثنية (درب الشبيكة) والرابعة عند سوق الحطب، في «الهجلة»، والخامسة في «مَاجِلْ أبى صلابة»، وجعل المسارب بين البرك يجري فيها الماء من بركة زبيدة. (46)

### أسبلة الحرم القدسي :

حظي القدس الشريف بعناية الخيرين من الواقفين المحسنين، وحكام المسلمين، وخاصة أن مدينة بيت المقدس قليلة المياه تجلب إليها عن طريق «عَيْنِ العروب» ولذا كثر إنشاء الأسبلة فيها لتوفير ماء الشرب لأهلها من ناحية، وللوافدين على المسجد الأقصى من ناحية أخرى، سواء في المدينة، أو داخل الحرم القدسي نفسه، ومن أشهر تلك الأسبلة : سبيل

(44) آدم ميتز، ص : 267/2.

(45) الطبري، ص : 1440/3.

(46) «تاريخ مكة» أحمد السباعي، ص 156/1.

قايتباي،(47) سبيل شعلان، سبيل البديري، سبيل باب الحبس، سبيل قاسم باشا،(48) سبيل سعد وسعيد، سبيل الشوربجي.

جاء في : «إتحاف إلا خصا، بفضائل المسجد الأقصى» (49) عن أم عيدة بنت خالد بن معدان عن أبيها، أنه قال : «زمزم، وعين سلوان التي ببيت المقدس، من عيون الجنة، وفي رواية عنها، قال : «من عيون الجنة في الدنيا : زمزم، وعين سلوان، وعنها أيضا عن أبيها، أنه قال : «من أتى بيت المقدس، فليأت مخراب داود المشرف، وليصل فيه، ويسبح في عين سلوان، فإنها من الجنة...»

ويقال عن بركة «سلوان» أن السيد المسيح عليه السلام تفل على الأرض، وصنع من التفل طينا، وطلّى به عين الرجل المولود أعمى وقال له : «إذهب واغتسل في بركة سلوان، فمضى واغتسل، فعاد إليه بصره»...

عين سلوان، ذكرها الأستاذ عبد الله مخلص،(50) بقوله : عين سلوان عند العرب، هي «بركة سلوان»، عند العبريين، وكانت حولها جنيّة الملك، وقد جاء ذكرها في الأصحاح الثالث من سفر «نحميا» (51) في التوراة، والأصحاح العاشر، من إنجيل يوحنا، وكان بقربها برج، ذكر في الأصحاح الثالث عشر من إنجيل «لوقا» باسم «البرج في سلوام» وكان الماء، وما

---

(47) يقع إلى اليسار من باب القطنين، أنشئ في زمن الأشرف إينال عام 816هـ، ثم جدده الملك الأشرف قايتباي عام 877هـ فعرف باسمه، ثم جدده الخليفة الغازي عبد الحميد خان بن السلطان من آل عثمان عام 1300.

(48) يقع غرب الحرم القدسي بالقرب من باب السلسلة، أنشأه ثاني سليمان عام 933هـ.

(49) للسيد كمال الدين محمد بن محمد بن أبي الشريف الشافعي المصري (ت : 906هـ) ألفه في مجاورته بالقدس عام 875هـ، ورتب على سبعة عشر بابا، وقد حققه الدكتور أحمد رمضان أحمد.

(50) في كتابه : تراث فلسطين.

(51) «نحميا» زعيم من زعماء اليهود، نال من «ارتحششنا» - السماح بترميم أو رشيلهم مع عزرا نحو 444 (ق.م).



زال، يجري إلى «عين سلوان» من «عين حزقيا»، التي سميت بعد ذلك «بعين العذراء»، وتعرف اليوم «بعين أم الدرج» أو أم الدراج بقناة اصطناعية طولها 120 ذراع، وعلوها أربعة أذرع، وربما قارب طعم هذا الماء، طعم ماء زمزم في مكة المكرمة، ولعل هذا، هو الذي حمل المقدسي وغيره على الزعم، بأن ماء زمزم، يزور ماء سلوان ليلة عرفة.

ويصف «عين سلوان» الشيخ عبد الغني النابلسي بقوله : «ثم مررنا على العين المشهورة» بعين سلوان «ذات الماء العذب اللذيذ الطعم للظمان...»

وذكر السيد كمال الدين الشافعي المصري هذه العين : «روينا بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن الله عز وجل اختار من المدائن أربعة : مكة، وهي البلدة، والمدينة، وهي النخلة، وبيت المقدس، وهي الزيتونة، ودمشق وهي التينة، واختار من الثغور أربعة : إسكندرية مصر، وقزوين خراسان، وعبّادان العراق، وعسقلان الشام، واختار من العيون أربعة، يقول في محكم كتابه العزيز : «فيهما عيانان تجريان»، (52) و«فيهما عيانان نضاختان» (53)، أما اللتان تجريان، فعين بيسان، وعين سلوان، وأما النضاختان، فعين زمزم، وعين عكا... في القدس آبار وعيون كثيرة سواء في الحرم القدسي أو في المدينة ذاتها...»

\*\*\*

وقد ذكر مؤرخ الدولة العلوية أبو القاسم الزياتي (54) أن في بيت المقدس اثنا عشر جباً ليس فيها أطيب ولا أبرد ولا أعذب من هذا الجب، وهو يسمى «بئر الورقة».

(52) سورة الرحمن، الآية : 50.

(53) سورة الرحمن، الآية : 66.

(54) «الترجمة الكبرى»، لأبي القاسم الزياتي، ص : 269.

وهذا الصحن المبارك فيه ساقية ماء، تأتي من مسافة شاقة، ومَهْوَى بعيد من الأرض، قطعت لها الجبال قطعاً، وصدعت لها الصخور صدعا بالمال الجسيم، والأيدي الشديدة، حتى انصبت منها المياه على المسجد الأقصى، فأروت وأغرقت وفاضت إلى خصة من الرخام كبيرة أمام المسجد الأعظم، في وسطها فَوَارة يجري فيها الماء، وفي وسط هذا الصحن صَحْنٌ آخر، مرتفع عال يصعد إليه بأدراج عالية كبيرة من جهات ثمانية، وهو مفرش بالرخام الأبيض»...

والملاحظ على معظم الأسبلة المقامة في ساحة الحرم القدسي أنها أقيمت على آبار تتجمع فيها مياه الأمطار، ومن أشهر هذه الأسبلة، ذلك الذي أقامه سلطان المماليك «إينال» (55) (857 - 865) وهو السبيل الذي قام بإصلاحه وتجديد عمارته فيما بعد، كل من السلطان «قايتباي» (56) ثم السلطان عبد الحميد الثاني.

\* \* \*

### في المسجد الأقصى عدة آبار ...

وقد ذكر أن في المسجد الأقصى عدة آبار تربو على الثلاثين بئراً، منها بئر الأسود، وبئر البحيرة، وبئر الجنة، وبئر أبي السعود، وبئر الخضر، وبئر الزيتونة، وبئر الشيخ الخليلي، وبئر قايتباي، وبئر القبة... ويقصد الناس «الكأس» للتوضؤ، وهو يقع بين المسجد الأقصى المبارك، وقبة الصخرة المشرفة...

ومنذ عام 589هـ - 1193م جلب العادل أبو بكر ماء «العَرُوب» إلى القدس، ويقول الباحث يحيى فرحان : إن هذا العمل الذي قام به الملك

---

(55) «إينال» الملك الأشرف، سلطان مصر والشام (1453 - 1461) أصله مملوك، اشتراه السلطان برقوق، كان حاكماً، لين الجانب، عادلاً رؤوفاً.

(56) «قايتباي» الملك الأشرف (1410 - 1496) ملك مصر، (468 - 1496) من المماليك البرجيين، جركسي الأصل، أحسن السياسة مع الرعية، ومع أترك الأناضول، ترك البنايات العديدة في القاهرة وحلب والمدينة.

العادل يعتبر الأول من نوعه لتموين القدس بالماء من الخارج في مدة الحكم الإسلامي، مما يدل على ازدهار العمران، وكثرة السكان.

ويسجل للمماليك أنهم عملوا على سحب المياه من عين العروب إلى الحرم الشريف.

في عام 589هـ، جلب العادل أبو بكر «ماء العروب» إلى القدس، كما بنى سقاية لحفظ الماء في الجهة الجنوبية بالقرب من باب المتوضأ بباب المطهرة أحد أبواب الحرم الشريف، وهذا العمل الذي قام به الملك العادل يعتبر الأول من نوعه، لتموين القدس بالماء من الخارج في مدة الحكم الإسلامي.

\*\*\*

في القدس العديد من الآبار، من أشهرها «بئر أيوب» الوافرة المياه ويقال بأن حافرها، هو النبي أيوب، ومنه اسمها، ويبلغ عمقها مائة وخمسة وعشرين قدماً، وذكر صاحب «الأنس الجليل»، قوله : «أنه عندما احتاج أهل القدس للماء، ذهبوا لهذه البئر، و«عين سلوان»، ونزل هو، وبعض الرجال إلى قرار البئر، فكانوا ينوون ثقبها حتى يخرج منها الماء، فدهشوا حين رأوا حجراً قدره ذراعان يخرج منه الماء، وفيه مغارة فتحت بابها في مساحة ثلاثة أذرع، في ذراع ونصف، تخرج منها رياح شديدة البرد، فلم يثبت لهم الضوء لشدة الرياح... ووصف ماءها ووفرته بقوله : «بارد خفيف، ويستقى منه طول السنة، ثم يذكر أنها البئر التي قال الله تعالى لنبيه أيوب، «اركض برجلك، هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وشراب».

وقد ذكروا، أنه في فترة انتداب الإنجليز على فلسطين، جلبوا مياه «العروب» إلى القدس في أنابيب، وظلت القدس تستقي الماء عن طريق برك سليمان حتى عام 1926، وبعدها سحب الماء من عين قارة، على بعد 14 كيل إلى الشمال الشرقي من القدس.. وفي عام 1931، أخذت المدينة تتزود بمياه «عين الفوار»، و«عين القلط»، وفي عام 1935 تحولت المياه إلى التزود بالمياه من «زبع ريش»، وقد أغلق الأنبوب الذي يزود القدس بهذا الماء عام 1948.\*

---

\*) انظر مصادر المياه بمدينة القدس الشريف، في كتاب : «القدس الشريف»، لمؤلفه الباحث الدكتور شوقي شعت الذي أصدرته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة الذي يعرض لتاريخ القدس منذ أقدم العصور حتى اليوم.

## توفير الماء، ووقوفه في طريق الحاج

يظهر مما سبق من الدراسة للمياه الوقفية أن الخلفاء كانوا يعينون بأنفسهم أمراء رُكَبِ الحاج... كما كان أمير الركب يعين المكلفين بالسبيل... ومهمتهم حمل الماء أثناء مسيرة الركب وتوفيره، إذا نزلوا منزلاً للراحة، أو مبيتاً للنوم ومَقِيلاً، خاصة إذا علمنا بأن طريق الحج هو عبر الصحراء المُجْدِبَة القاحلة، ابتداء من موطن الحاج إلى مكة أو المدينة...

\*\*\*

وقد جاء في سنة 640هـ أنه كان مع الركب في تلك السنة، وأكثر من سبيل، حتى اقتضى ذلك تعيين جملة من السبّالين، كان منهم أبو القاسم بن كلاله التاجر في «سبيل الخليفة» المستعصم بالله، ويعرف «سبيل الفقير»، وجعل السراج عمر بن بركة الهزقلي مشرفاً عليه، ورتب في «سبيل» الخليفة المستنصر بالله الشيخ عماد الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين محمد السَّهروردي... وجعل أحمد الحربوي مشرفاً، وعلى «سبيل» الخليفة الظاهر بأمر الله، و«سبيل» ابنه الخليفة الناصر لدين الله من يتولاها.<sup>(1)</sup>

---

<sup>(1)</sup> «مجهول الحوادث الجامعة» ص : 155.

وكان عضد الدولة (ت : 372 - 982) قد أقام للحجاج السواقي (2) في الطريق، واحتفر لهم الآبار، واستفاض الينابيع، وأدار السور على مدينة الرسول (3).

وكانت توضع جِبَابُ الماء في الشوارع والطرق بخوزستان على مراحل في الطريق، وربما حُمِلَ إليها الماء من بعيد (4).

وحوالي عام 300هـ كان أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرهم لنقل الماء من جدة إلى مكة، وكان الوزير علي بن عيسى في ذلك الوقت بمكة مغضوبا عليه من السلطان ببغداد، ورأى ضيق الماء على أهل مكة، ورأى تلك السخرة، فابتاع كثيرا من الجمال والحمير، ووقفها على حمل الماء، وأقام لها العلوفة الراتبة، ومنع السخرة، وحظرها، وحفر بئرا عظيمة في الحنَّاطين، فخرجت عذبة شَرُوباً، وسماها : «الجرَّاحية»، وابتاع عينا غزيرة بألف دينار، ووسَّعها، حتى كثر واتسع الماء بمكة (5).

\*\*\*

---

(2) الساقية لغة : نهر صغير، كما في القاموس، وفي المصباح : ويقال للقناة الصغيرة ساقية، لأنها تسقي الأرض» ويقول أبو الطيب المتنبي في مدحه الكافور الأخشيدي :  
قواصد كافور، توارك غيره

وَمَنْ قصد البحر استقل السواقيا

وفي سجمات الأساس : «من لقي جالينوس، استجمل الرواقي، ومن قصد البحر استقل السواقي»، واشتهرت الساقية في عرف الناس في أداة يرفع بها الماء يديرها الحيوان ليستقي الأرض، ويقال لها في العربية الناعورة والدولاب، وجاء في تاج العروس بعد عبارة القاموس التي سبق التنويه بها : «والآن، يطلقونها على ما يستقى عليها بالسواقي» والسواقي : جمع الساقية، وهو البعير ونحوه يسني عليه أي يستقي من البئر ونحوها. أنظر ما جاء في الساقية «نقح الطيب» ص : 7/166، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد؛ و«حسن المحاضرة» للسيوطي، ص : 2/205، في الكلام على بركة الحبش...

(3) «المنتظم، في تاريخ الأمم» لابن الجوزي، ص : 119.

(4) المقدسي، ص : 416، «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري»، ص : 2/407.

(5) كتاب الوزراء، ص : 286.

وكان الحجاج في أوقات السلام والأمن يعانون الشدائد المخيفة بسبب  
قلة الماء في الصحراء حتى بالنسبة لمن كان يجاور جزيرة العرب.  
ويشبه ابن المعتز، صاحب السُّوء الذي لا بد منه، بماء طريق الحج،  
فيقول (6) :

وصاحبُ سوء، وجْههُ لي أوجه  
وفي فمه طَبْلٌ بِسِرِّي يَضْرِبُ  
إذا ما قلا الإخوان كان مرارةً  
يعرض في حلقي مراراً وينشب  
ولا بد لي منه، فحيناً يغصني  
وينساغ لي حيناً، ووجهي مُقْطَب  
كماء طريق الحج في كل منهلٍ  
يُذْمُ على ما كان منه ويُشْرَبُ

\*\*\*

وقد هاجت ريح سوداء على الحجاج، في عام 204هـ 1011م، وهم في  
بعض الطريق، فَفَقَدُوا الماء، وهلك منهم خلق كثير، وبلغ ثمن القربة من  
الماء مائة درهم. (7)

وكان الثَّوار الذين يؤسرون، وسلاحهم في أيديهم يعاملون بحسب  
جُرمهم، وعلى قدر ما أثاره من سَخَط ورعب، وكان الأسرى الأجانب  
يعاملون بغير معاملة الخوارج من أهل البلاد. (8) ويحكى أن الأعراب الذين  
سبقوا الحجاج إلى مواضع الماء فنزحوها، وألقوا فيها الحنظل، حتى بلغ  
العطش من الحجاج مبلغاً كبيراً، وهلك منهم خمسة عشر ألفاً، عوقبوا بأن

(6) ديوان ابن المعتز، ص : 5 / جزء : 2.

(7) المنتظم، ص : 158.

(8) آدم ميتز، ص : 187 / 2.

أشهرُوا وحُبِسُوا؛ وأُجِيعَ منهم جماعة، وأطعموا المالح، ثم تركوا على دجلة حتى ماتوا عطشا وحسرة، وهم يشاهدون الماء.(9)!!

وقيل إنه هلك في هذه الحادثة نحو خمسة عشر ألفاً أو يزيدون، ولم يفلت إلا عدد يسير، وكتب عامل الكوفة — وكان عليه أن يحفظ طريق الحاج،(10) بأن ينهض لطلب الأعراب الذين فعلوا هذا الفعل، ويوقع بهم بما يشفي الصدر منهم، فلاحق بهم في البرية، وأوقع بهم، وأسر خمسة عشر من وجوههم، وأرسلهم إلى بغداد، فشهرُوا هناك، وأودعوا السجن، وأُجِيعَ منهم جماعة.(11)

وفي عام 295هـ - 907م، أصاب الحجاج في مُنْصَرَفِهِم ببعض الطريق عطشاً، حتى مات منهم جماعة!! والسبب يعود إلى موسم الجفاف الذي عم أنحاء الجزيرة العربية، ولقد مات عدد كبير منهم، ويذكر الطبري أن العطش لحقهم في منطقة الحاجر.(12) قال الطبري : «سمعت بعض من يحكي أن الرجل كان يبول في كفه ثم يشربها».(13)

وفي عام 357، هلك حجاج الركب العراقي بسبب قلة الماء في طريق الحج، ولم يدركوا الحج في هذه السنة.(14)

وفي سنة 395هـ — لحق بحجاج الركب العراقي، أيضاً، عطش شديد، وأصابتهم رياح شديدة أدت إلى عرقلة سير الركب إلى مكة فلم يدركوا الحج.(15)

\*\*\*

(9) المنتظم : 158.

(10) مسكويه، ص : 247 / 5.

(11) آدم ميتز، ص : 89 / 2.

(12) مجلة «الدارة» ع : 2 / س : 9 / 10، 1983.

(13) عريب، ابن سعيد الغرناطي، ص : 24 - 2 / 88 - عن الحضارة الإسلامية.

(14) تاريخ الطبري، ص : 85 / 10.

(15) الجزيري : «درر الفوائد»، ص : 244.



وقد أورد ابن جزي أبياتا قيلت في «عَبَّادان» التي تحتوي اليوم على مصافي النفط :

من مُبلغٍ أنـدلساً أنني  
حللت «عبادان» أقصى الثرى!  
أوحش ما أبصرتُ، لكنني  
قصدت فيها ذكرها في الورى  
الخبز فيها يتهادونه  
وشربة الماء بها تُشترى!!

وقد هجا الشاعر الجياني ابن عبد الله محمد بن يربوع ابن أحلى أمير «لورقة»، إذ يقول :

قصدتُ ابن أحلى فأوجدته  
أشد مراراً من العلقم  
على الماء في داره زحمة  
وفيهما على الخبز سفك الدم  
وضمنه شاعر آخر فقال (17) :

على الماء في دراه زحمة  
وفيهما على الخبز سفك الدما  
أضاف أناساً إلى داره  
فنزهم في نجوم السما  
وبالجوع قطع أمعاءهم  
وأن يستغيثوا : يُغاثوا بما (18)

---

(16) عَبَّادان : مدينة على الخليج الفارسي مركز مهم لتكرير النفط الإيراني ومرفأ تصديره.

(17) محاضرات اليوسي، ص : 210.

(18) يشير إلى قوله تعالى : ﴿وَأَنْ يَسْتَغِيثُوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾.

وللفقيه عمر المالقي من قصيدة (19) :

فجودك فينا الغيث في رمل عالج (20)

وفضلك فينا : الخبزُ في دار عثمان

يشير إلى قول الشاعر القاسم (21) ابن الأمير عبد الرحمن الأوسط في

عثمان أخيه :

الماء في دار عثمان له ثمن

والخبز شيء له شأن من الشأن (22)

... على كل عثمان مررت به

غير الخليفة عثمان بن عفان

وسببُ هذا البيت، أن القاسم نظم في عثمان أخيه، وقد زاره، فاستسقاها

ماءً، فأبطأ عليه غلامُه لعله لم يقبلها القاسم. (23)

\*\*\*

وفي عام 405هـ - 1014م هلك من الحاج كثيرون، وكانوا عشرين ألفاً،

فسلم ستة آلاف، وقد اشتد الأمر بهم، حتى شربوا أبوال الجمال، وأكلوا

لحومها. (24)

وفي سنة 651هـ واجه حجاج الركب العراقي عطش شديد، وقيل إن

شربة الماء بيعت بدرهم. (25)

---

(19) «نفح الطيب» ص : 5/40.

(20) عالج : موضع بالبادية يصل إلى الدهناء فيما بين اليمامة والبصرة.

(21) ترجمة القاسم في «الحلة» ص : 1/127. - و«المقتبس» ص : 200، (تحقيق مكي).

(22) قال ابن الأبار بعد أن ذكر البيتين : كذا قال ابن حيان (المقتبس، ص : 201)، وهو غلط لاختفاء

به... وإنما البيتان من قطعة لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي أنشدها ابن عبد البر في

كتاب : «بهجة المجالس»، كذا ذكر إحسان عباس.

(23) نفح الطيب، ص : 3/580، «أزهار الرياض» للقاضي عياض، ص : 1/117، النفح، ص : 3/580.

(24) المنتظم، ص : 162، الحضارة الإسلامية لأدم ميتز، ص : 2/89.

(25) الجزيري : «درر الفوائد»، ص : 250.

وفي عام 272هـ عطش الحاج بعجروود، (26) حتى بلغت القرية مائة درهم فضية. (27)  
وقد بيعت القرية من الماء في عام 1321هـ بثلاثة قروش ونصف صحيحة...

ويتغنى الأعراب الذين يبيعون الماء بالنشيد الآتي :  
رَأَيْتَ الْمَاءَ  
فِي سَمَاءٍ مَوْقٍ مِنْ  
بَيْعٍ... وَشَرٍّ  
حَتَّى أَنْ الْفَلَّاحِ  
مَا يَرْدُ الْمَاءَ (28)

\*\*\*

لقد كان التسابق على إنباط الماء وتقديمه لعابري السبيل مظهرا بارزا وكبيرا جدا بين المحسنين، حتى إن الوزير يحتفر بئرا في طريق الحج، فيطلبه منه الخليفة فيرفض أن يعطيه إياه طمعاً في ثواب الله، كما حدث بين يَقْطِين بن موسى، والخليفة المهدي في قصة يرويه أبو إسحاق الحربي في كتابه «المناسك»، (29) وفي قصة أخرى يطلب الخليفة من عيسى بن علي بركة بناها في أسفل المسلح، فيقول له الوزير : «يا أمير المؤمنين : تصدقت بها على الحاج». (30)

(26) عجروود : «قلعة تقع إلى جنوب السويس، وقد عمرها السلطان سليم الأول لما دخل مصر.

(27) «حسن المحاضرة» للسيوطي، ص : 2/164.

(28) «مرآة الحرمين» للواء إبراهيم رفعت، ص : 1/330.

(29) أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق البغدادي الحربي (ت : 285هـ) «كتاب المناسك، وأماكن طرق

الحج، ومعالج الجزيرة» نشر حمد الجاسر، ببيروت ص : 333، ط : عام 1389 - 1969.

(30) المصدر السابق، ص : 344.

وقد كان الخلفاء والسلاطين كلما بلغهم حدوث خراب في عيون المياه أو قنواتها يرسلون من يعمرها، ومن أولئك جعفر بن المعتصم المتوكل على الله أرسل مائة ألف دينار ذهباً إلى مكة لإجراء ماء عين عرفات إليها، وكان ذلك لما أن حصلت زلازل في عام 241هـ غارت منها عيون مكة... ومنهم إبراهيم بن خلكان عمّر عين زبيدة في سنة 500هـ...

وقد عمل الأميرال ملك «الجوكندار» المنصوري أحد أمراء المشورة في الدولة الناصرية ابن قلاوون، في طريق الحاج بركاً، واتخذ لها مصانع. (31)

وقد صنع الأمير «أرغون» الناصري قرب «خليص» (32) بالمدينة بركة للحاج. (33)

وفي «الأزلم»، (34) خان بناه الأميرال ملك الجو كندار، وعمل فيه بئراً أيضاً، لأن ماء تلك الجهة، من أقبح المياه. (35)

وقد سجل اللواء إبراهيم رفعت باشا في كتابه «مرآة الحرمين» (36) عدة نقوش وجدّها في لوحة «بجبل الرحمة» بعرفات على يمين الصاعد إليه، وفي غيره وكلها تشير إلى إسهامات رجال الدولة الإسلامية حتى عصر الدولة العثمانية في إسالة الماء إلى المشاعر المقدسة.

---

(31) «حسن المحاضرة» للسيوطي، ج : 2 / ص : 165.

(32) خليص : قرية مياهها غزيرة، وتسكنها قبائل زبيد، وكان بالقرب منها واحة بها مياه جارية، وبها بساتين ونخيل.

(33) «حسن المحاضرة»، ج : 2 / ص : 165.

(34) الأزلم : إحدى المحطات العامة، وكانت قلعة بها جنود لحراستها، ومياهها غير صالحة للشرب، وكانت تتم بها عمليات البيع والشراء بين العرب والحجاج.

(35) حسن المحاضرة، ص : 2 / 165.

(36) مرآة الحرمين، ج : 1 / ص : 214 - 220.

وقد ملك السيد محمد كبريت ابن عبد الله بن محمد بن شمس الدين  
المدني الحسيني (37) (ت : 1070 هـ) صاحب : «الجواهر الثمينة، في محاسن  
المدينة» (38) بِئْرَ سُمَيْحَة، (39) وحديقته، وأوقفها، وجعل هذه البئر موردا  
مباحا لكل وارد....

(37) كان رمضان بن موسى بن عطيف الدمشقي الحنفي كتب من الشام لمحمد المحبي وهو  
بالمدينة يطلب منه ترجمة السيد محمد جمال الدين المشهور بكبريت المدني :

يَا خَطِيْباً بِأَرْض طَيْبَةٍ أَضْحَى  
أَفْصَحُ الْعَرَبِ عَنْده سَكَيْتَا  
جَد عَلَى الْعَبْدِ سَيْدِي بِمَنَاهِ  
وَهُوَ مَا تَرْجَمُوا بِهِ كَبْرِيْتَا  
فَأَجَبْتَهُ وَقَدْ رَقَمْتُ لَهُ مِنْ تَرْجَمَتِهِ مَا سَمَحَ بِهِ الْخَاطِرُ :  
عَيْنُ أَهْلِ الشَّامِ يَا وَاحِدَ  
العصر، ومن حاز في المعالي صيتا  
دمت فينبأ، زناد فضلك وار  
لست تحتاج للذكاء كبريتا  
[خلاصة الأثر، ص : 2/169]

(38) إيضاح المكنون، في الذيل على كشف الظنون» ص : 3/376.  
(39) سميحة، بئر بالمدينة، وقيل بناحية قديد، وفي «فا الوفا» للسمهودي، قال كثير :

كَأَنَّ الْأَكْغَفَ، وَقَدْ أَمْنَعَتْ  
بِهَا مِنْ سَمِيحَةٍ عَذْبَا زَلَالَا  
وقال يعقوب : سميحة : بئر بالمدينة عليها نخل لعبد الله بن موسى، وقال كثير :  
[الببتان في معجم البلدان، ص : 5/134، وديوان كثير، ص : 1/241].  
كَانَ دَمْعُ الْعَيْنِ لَمَّا تَخَلَّتْ  
مَخَارِمَ بَيْضاً مِنْ تَمَنَّى جَمَالِهَا  
قَبْلُنْ غُرُوباً مِنْ سُمَيْحَةٍ أَتَرَعَتْ  
بِهِنَّ السَّوَانِي وَاسْتَدَارَ مَحَالُهَا  
وماء هذه البئر من أحسن مياه ذلك الجزع، وإن لم يكن بالعذب الخالص، وقد أنشدوا :  
وَفِي مَائِهَا، قَدْ قِيلَ بَعْضُ مَلُوحَةٍ  
وَمِنْهَا مِيَاهُ الْعَيْنِ أَهْلَى وَأَمْلَحُ  
فَقُلْتُ لَهُمْ : قَلْبِي يَرَاهَا مَلَا حَةٍ  
فَلَا بَرَحَتْ تَحْلُو لِقَلْبِي وَتَمْلَحُ

[«عمدة الأخبار» ص : 296] وَقَدِيد، كزبير، موضع بين الحرمين، وقيل وادي القديد أيضا : المسيح  
الصغير : قرية جامعة بين مكة والمدينة، كثرة المياه، به كانت مناة الطاغية مشرفة عليه،  
ويضاف إليه طرف قديد بطريق مكة [عمدة الأخبار، ص : 343].  
وفيها أيضا يقول امرؤ القيس في وصف فرسه :  
وَأَسْحَمَ رِيَانُ الْعَسِيبِ كَأَنَّهُ  
عَثَا كَيْلَ قَنْوٍ مِنْ سَمِيحَةٍ مُرْطَبٍ

وحكى الشيخ شهاب الدين بن عبد الرحمن في كتابه : أن من أعظم الأعمال التي عملها وزير الموصل جمال الدين بن أبي منصور الجواد (40) إجراء الماء في بطن نعمان، إلى عرفة تحت الجبل مبنية بالكس، فوجد الناس بذلك يوم الوقوف راحة عظيمة. (41)

ومن هذا يظهر كيف أن الخلفاء كانوا يوقفون الوقوف، ويجعلون عليها الوكلاء كي يخرجوا الماء مع الركب تسهيلا لأمر الحج، بل ويستمر هذا حتى بعد وفاتهم، هذا ما حصل في العام المذكور 460هـ، حيث كانت خلافة المستعصم بالله.

\* \* \*

وفي العهد الفاطمي، كان في جوانب حجرة «زمزم» أربعة أحواض يصب فيها الماء، ويتوضأ الناس به، وأمام بئر «زمزم» من ناحية الشرق بناء آخر عليه قبة يسمى : «سقاية الحاج» وضع به أزيار يشرب منها الحاج. (42)

ويصف الرحالة ابن جبير في كتابه (43) لما زار المقام الشريف بمكة ذلك بقوله : ويتلخص : «ذلك في أن باب «قبة زمزم» يتجه إلى الشرق، وباب قبة العباس، وقبة اليهودية، يتجهان إلى الشمال، وهاتان القبتان مخزنان لأوقاف البيت من مصاحف وكتب وشمع وغير ذلك، والقبة العباسية كانت سقاية الحاج، وهي حتى الآن «في عهده» يبرد فيها ماء زمزم، ويخرج مع الليل ليسقي الحاج في قلال يسمونها الدوارق، كل دورق منها ذو مقبض واحد. (44)

---

(40) كان وزيرا لوالد الملك العادل زنكي، ثم استوزره بعد زنكي، غازي بن زنكي أخو الملك العادل.

(41) «عمدة الأخبار، في مدينة المختار» لأحمد بن عبد الحميد العباسي السندي، ص : 99.

(42) «تاريخ مكة»، ص : 1/220.

(43) ابن جبير، ص : 72.

(44) «تاريخ مكة»، لأحمد السباعي، ص : 1/252.

ومن أعمال الشريف محمد بن بركات (ت : 913هـ) أنه بنى رباطا للفقراء في مكة، وسبيلا للماء في النوارية، ومثله في طريق جدة، ووقف على ذلك أوقافا عديدة. (45)

وإذا كان طريق الحاج قد استأثر ببعض العناية من الخلفاء والملوك والرؤساء والمحسنين والواقفين، فإن المدينتين، كما رأينا، مكة والمدينة كانتا بما يجري فيهما من أعمال خيرية مثالا رائعا على تسابق المومنين إلى الخيرات، وكتابة أسمائهم في سجل المحسنين، (46)، فوجدنا الاهتمام بإنباط الماء في مكة منذ أيام معاوية بن أبي سفيان، ثم نجد تلك العناية الضخمة بمشاريع المياه، فيما بعد في أيام الخلفاء العباسيين (47) وإلى العصر الحاضر...

\*\*\*

وفي عهد السلطان «قايتباي» ندب سلطان البنغال غياث الدين مندوبا يحمل أموالا كثيرة، ووزع بعضها على الفقراء، وبنى رباطا ومدرسة لتدريس المذاهب الأربعة، وقد بناها بجوار دار أم هانئ، وأجرى إصلاحات في «عين زبيدة»، كما أصلح البركتين اللتين في «المعلاة» إلى أن جرت «عين بازان» فيهما. (48) وكانت العين من نعمان إلى عرفات خربة، انقطع ماؤها من عهد المماليك الأتراك فأصلحوا مجراها في عام 748هـ إلى أن عاد ماؤها يروي الحجيح. (49)

\*\*\*

---

(45) المصدر السابق، ص : 1/309، وقد تولى إمارة مكة عام 931هـ وقد أشركه السلطان الغوري مع أبيه في ولاية مكة من عام 918هـ، ولم تعد سن أبي نمي محمد بركات سبع سنوات، وبعد وفاة أبيه استقل بالولاية، وقد أفردته مع أبيه السلطان سليم لما فتح مصر عام 922هـ.

(46) أنظر موضوعا مفصلا عن أوقاف الحرمين، مخطوط، للمؤلف محمد بن عبد الله.

(47) لقد أفردنا فصلا خاصا عن عين «السيدة زبيدة»، في الفصول السابقة.

(48) «أتحاف الوري، بأخبار أم القرى»، مخطوط، للشيخ نجم الدين عمر بن فهد المكي (ت: 885هـ).

(49) الأعلام، للقطني، على هامش خلاصة الكلام ص : 151، و«تاريخ مكة» للسباعي، ص : 331.

ويذكر ابن بطوطة في رحلته، «قبة زمزم» في عهد المماليك الأتراك والشراكسة، وما يجاورها من القباب، فيقول : «إن قبة زمزم مفروشة بالرخام، وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر، وعمقها مثل ذلك، وارتفاعها عم الأرض نحو خمسة أشبار تملأ ماء للوضوء، وحولها مصطبة دائرة يقعد الناس عليها للوضوء، ثم وصف قبة العباس بما وصفها ابن جبير في عهد الأيوبيين، وذكر الدوارق التي كان يبرد فيها الماء، وقال : «وفيها تخزن الكتب والمصاحف، ومنها مصحف بخط زيد ابن ثابت نسخ سنة 18هـ من وفاة الرسول عليه السلام، وقد تبرك به، كما فعل ابن جبير قبله.

\*\*\*

وفي هذا العهد من عام 807هـ سد باب الخلوة إلى جانب زمزم، والتي كان فيها مجلس ابن عباس، وجعل في موضع الخلوة بركة مقبوة، وفي جدرانها الذي يلي باب الصفا «بزابيز» (50) وصنابير يصب منها الماء من نحاس يتوضأ الناس منها على أحجار نصبت للجلوس، وفوق البركة المقبوة خلوة فيها شبك إلى الكعبة، وشباك إلى الصفا. (51)

وفي عام 817هـ عمر الغوري في زيادة باب إبراهيم، وبنى فوقه قصرا مرتقعا مع مرافقه، وجعل حول القصر من خارج المسجد معازل ومساكن، وبنى خارج ذلك متوضأة تشتمل على مراحيض وبركة ماء، ووقف القصر والمساكن على بعض أعمال الخير... وجعل في الجانب اليماني حاصلا يشتمل على «سبيل ماء»، وصهريج كبير من ماء المطر من سطح المسجد...

\*\*\*

---

(50) بزابيز : صنابير يصب منها الماء، ويقولون اليوم لها حنفيات، والمسميات تتغير دائما، ولعل كلمة «بزبون» أخذت من بزب الماء أو الحليب، إذا تدفق بقوة، وله وجه في اللغة.  
(51) «تاريخ مكة»، ص : 1/334.



## حرص المماليك على توفير الماء :

حرص المماليك على توفير الماء طوال الطريق إلى الحجاز، والعمل على حفر الآبار وصيانتها، وجعلها صالحة لخدمة المسلمين خاصة تلك التي كانت تصادف ركب الحاج في أماكن ومحطات استراحة الحجاج للتزود منها بما يلزمهم من الماء العذب...

وكان أول ما يقاله ركب الحج من تلك الآبار في عقبة «آيلة» بعد مسيرة ستة أيام من القاهرة حيث يستريح الركب بها يومين أو ثلاثة، والموقع الثاني لحط الرحال، وأخذ قسط من الراحة في «عيون القصب» بعد مسيرة خمسة أيام حيث يتوافر بها «ماء» جار عذب، وبعد مسيرة خمسة أيام أخرى يتوقف الركب في الوجه للتزود منها «بمائها» العذب الطيب، كما يتوقف ركب الحاج للتزود «بالماء» في «الحوراء»، بعد مسيرة ثلاثة أيام، وفيها يتلقى أهل ينبع ركب الحاج بالتمر، وتستمر القافلة في السير والتزود «بالمياه» في «المغيرة» على مسافة يومين، ثم «ينبع» على مسافة يومين، ومنها إلى «الدهناء» مسيرة نصف يوم، وبها «ماء» طيب ثم تصل القافلة إلى «بدر» بعد مسيرة يومين، وبها «ماء» عذب، ومنها إلى «رابع» مسيرة ثلاثة أيام ليبدأ الحجاج في الإحرام. (52)

وحظيت الآبار الموجودة في هذه الأماكن بالاهتمام والصيانة من جانب سلاطين المماليك، حرصاً منهم على توفير «المياه» لركب الحاج... كما حرص المماليك، أيضاً، على إصلاح آبار المياه الواقعة بين القاهرة ومكة المكرمة، حيث أرسلوا إلى الحجاز عام 884هـ الأمير شاهين الطويل، ومعه كثير من المشاة والحجارين والأزواد والأمتع لإصلاح المياه والآبار، وحفر آبار جديدة في الأماكن العطشة، وقاموا بحفر بئرين، أحدهما في «راغم»، والآخر في «قبقاب»، كما استجد القاضي زين الدين عبد الباسط

(52) «رحلة العبدري»، ص : 157 - 165.

في طريق الحجاز بئرا أخرى عند «عيون القصب» مما عاد على الحجاج بالنفع الكثير نتيجة لحفر تلك الآبار. (53)

\*\*\*

وقد عرف المسلك البري بين مصر والحجاز، تاريخيا - منذ الفتح الإسلامي باسم «طريق الحجاج» أو «الدرب المصري»، وقد كان يسلك هذا الطريق الحجاج والتجار حيث وفّرت في محطاته بعض وسائل الراحة الضرورية لقافلة الحاج، وللقوافل التجارية، وأهمها الماء اللازم لتزويد القوافل به. (54)

وكان حجاج المغاربة، وحجاج بلاد التكرور والسودان الغربي الذين يشكلون جزءا من قافلة الحاج المصري (55) يبدأ طريقهم من «بركة الحاج» (56) ظاهر القاهرة، ثم عجرو، ثم يتحرك الركب إلى «السويس»، ثم يتجه إلى نخل بسيناء، ثم يتحول إلى العقبة، (57) ثم تظل القافلة تنتقل من محطة إلى أخرى من المحطات، التي رصدتها لنا المصادر التي تحدثت عن قوافل الحاج، ومن أشهرها عند العقبة : حقل، مدين، «عيون القصب»،

---

(53) ابن بطوطة - الرحلة، ص : 1/32، وانظر الإصلاحات المملوكية في الأراضي الحجازية، للأستاذ محمد محمد التهامي، مجلة : «الدارة»، ع : 1/1 : س : 11 يونيه : 1985.

(54) مالكي سليمان بن عبد الغني : «طريق حجاج الشام ومصر منذ الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن السابع الهجري»؛ أنظر : مجلة «الدارة» ع : 1/1 : س : 10 شوال، 1404 - 1984، ص : 8 - 21، وعدد : 1/1 : س : 11، شوال، 1415 يونيه 1985، ص : 143.

(55) العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، بين الولايات العربية في العصر العثماني للأستاذ عبد الرحيم عبد الرحمن.

(56) قرية توجد بمحافظة القليوبية، وعرفت بهذا الاسم لتجمع الحجاج بها حيث كانت قافلة الحج بعد خروجها من القاهرة تتخذها نقطة البداية لهذه الرحلة الدينية وكانت عامرة بالمياه والنخيل...

(57) بها أشجار ونخيل، وماؤها عذب سائح فرات، وكانت في القديم مركزاً للتجارة بين مصر وبلاد العرب، والعراق وفارس، وكان أمير الحاج يقوم فيها بعزل الذين لا يستطيعون مواصلة السفر لمرضهم أو فقرهم، ويعطيهم ما يكفيهم...

المويلحة، الأزل، أكرى، الحوراء، نبطة، «ينبع» (58)، بدر، رابغ، (59) خليص، «عسفان» (60) «بطن مر»، مكة المكرمة، ثم يسلكون بعد ذلك الطريق الداخلي الذي يربط مكة بالمدينة المنورة.

\*\*\*

### في عهود العثمانيين :

عني العثمانيون في عهودهم بالحجاز ببعض الإصلاحات في شتى المرافق، ومن أهم ما عنوا به «عين حنين»، و«عين نعمان» فقد كانت «عين حنين» تجري إلى مكة من «عين زبيدة»، كما كانت «عين نعمان» تجري إلى عرفة، وهي تنبع من ذيل «جبل كرا» فتمضي إلى عرفة، ثم مزدلفة، ثم إلى بئر بقرب مكة في أوائل عهد العثمانيين انقطعت العيون عن مكة، وجعل أهل مكة يأخذون مياههم من الآبار في ضواحي مكة إلى عرفات، يقول القطبي (61) : «وكان التجار يتاجرون في يوم عرفات في عام 922هـ فيبيعونه بأعلى الأثمان، ثم قال : «وحججت في بعض السنين في خدمة والدي، وأنا في سن المراهقة، ففرغ الماء الذي كنا نحمله، فاشتريت قربة صغيرة يحملها الرجل بأصبعه بدينار ذهباً!!!» فأمر سليمان باشا بإصلاح «عين حنين» حتى جرى الماء، ودخل مكة، وانتهى إلى بركة ماجل (62) في

(58) ينبع : تنقسم قسمين : «ينبع النخل»، و«ينبع البحر»، وعندما يطلق عليهما إسم ينبع فقط، يقصد به، «ينبع النخل»، وسكان ينبع النخل من عرب جبهة وحرب وهي الآن إمارة من إمارات المدينة [ الدارة ع : 1/س : 11/ يونيو 1985 ].

(59) رابغ : مأوها من الحفر والآبار، وهي قرية على البحر الأحمر، وأهلها من زبيد.

(60) عسفان : محطة كان مأوها قليلا، وفي طريقها عقبة لا تسع إلا جملا جملا.

(61) «الإعلام، بأعلام بيت الله الحرام» ص : 338، من تواريخ مكة المكرمة للشيخ الإمام قطب الدين محمد بن أحمد المكي الحنفي (ت : 988هـ) مرتبا على مقدمة، وعشرة أبواب، وأهداه للسلطان مراد خان.

(62) الماجل في اللغة : مجمع المياه. والأزرقى يقول في أسفل مكة ماجلان والمفهوم أن أحدهما كان مكان البركة التي توجد بمكة...

والماجل، جمعه مآجل، لأشباه الحياض الواسعة، تؤجل أي تجمع فيها المياه إذا كانت قليلة، ثم تفجر إلى المزروعات والآبار.

المسفلة، كما أصلح «عين نعمان» إلى عرفة عام 931هـ وقد أنشئت في عرفة بساتين ظلت تسقى بذلك الماء حتى صارت أرضها مرجة خضراء...

وتذكر المصادر العثمانية المبكرة أن محمد الثاني (سابع حاكم عثماني 1432م 1481) الملقب بالسلطان محمد الفاتح كان يريد إصلاح وتعمير أحواض الماء التي كانت تقع في طريق الحجاج العثمانيين، فلم يوافق المماليك، وكانوا أصحاب السيطرة على أراضي الشام والحجاز ومصر وقتئذٍ، على رغبة الفاتح، مما ولد عنده الحزن البالغ لحرمانه، من هذا العمل. (63)

\*\*\*

ولما نضبت عين زبيدة أمر السلطان سليمان في عام 970هـ بتنظيف المجاري وإصلاحها، وقد بذلوا في ذلك أموالاً موقوفة طائلة، ولما انتهوا إلى بئر زبيدة دون مكة، وجدوا أن الأرض الصخرية تحول دون الاستمرار في بناء المجاري، فحفروا حفرة هائلة العمق حول الأرض الصخرية، وأوقدوا فيها الحطب بصورة أفنت جميع الحطب في الحجاز حتى تفتتت الصخر، واستطاعوا بناء المجاري، التي أوصلت الماء إلى بطن مكة، وقد استغرق العمل نحو تسع سنوات كما نقله الأستاذ أحمد السباعي. (64)

\*\*\*

### ملوك وأمراء تحروا الأماكن التي تغزر فيها المياه..

. كان المسافرون الذين يتوجهون إلى الحجاز يتسقطون مواقع القطر، ويتحرون الأماكن التي تغزر فيها الأمواه، وقد آمن لهم ذلك ملوك وأمراء تعاقبوا على الحكم في هذه البلاد.

(63) د. محمد حرب، مجلة : العربي، ع : 300، نوفمبر 1983.

(64) «تاريخ مكة» : للسباعي أحمد.

وقد عمّر الوزير الأعظم سنان باشا صاحب الآثار العظيمة «سبيل التنعيم»، أنشأه، وأمر بإجراء الماء إليه، من بئر بعيدة يجري الماء منها إلى السبيل في ساقية مبنية فيما بينهما بالحصى والنورة، وعيّن لها خادماً يستقي من البئر، ويصب في الساقية، فيصل الماء إلى السبيل، ليشرب منه، ويتوضأ المعتمرون، وعين لمصارف ذلك من ريع أوقاف له بمصر، ومن أعماله ومآثره آبار حفرها بقرب المدينة المنورة لقوافل الزوار في وادي مُفَرَّع، وغيرها كثيرة النفع جداً. (65)

وقد خرجت بمدينة العلا في طريق المدينة، من الشام «عين ماء» قريبة من البلدة، فخرج إليها حسين بن قاسم بن أحمد بن محمد الملقب حسام الدين المغربي الجوزي المالكي العتيقي الدرعي، فوجدها ممكنة الوصول إلى مدينة العلا، فساعدته أهلها حتى أجروها إلى أرض هناك، وخصوه بها، ورأوا أن ذلك من بركته، قال النجم الغزي : ولما حججت في سنة سبع بعد الألف (1007هـ) زارني وحدثني بحديث العين، وسألتها عنها، فأخبرني أنها تبلغ مجرى من الماء بحيث تستغل وتغنى، وأنه أحيا بها أراضي كثيرة. (66)

وأرسل السلطان أحمد بن محمد بن مراد العثماني ميزاباً من الفضة مموّها بالذهب، ووضع موضع الميزاب العتيق، وتسلم أمير الحاج ميزاب العتيق، وأرسله إلى السلطان، ووضع في الخزانة العامرة تبركاً، وعمل سحابة بطريق الحاج المصري، يحمل بها الماء للفقراء والمساكين، ووقف عليها أوقافاً وهي مستمرة إلى الآن، وبها النفع العام. (67)

(65) «خلاصة الآثار» للمحبي، ص : 215 - 2/216.

(66) المصدر السابق، ص : 103/2.

(67) المصدر السابق، ص : 290/1.

وقد عمّر الشريف زيد بن محسن ابن أبي نُمي شريف مكة الحسني  
(ت: 1077هـ) عمائر مستحسنة من جملة سبيل وحنفية بمكة، وفي تاريخه  
يقول القاضي تاج الدين المالكي :

لله تاسيسٌ نما خيرُه  
وَفَازَ بالتطهير من أمّ لَه  
بـه سبيلٌ وحنيفيَّةُ  
وسلسبيلٌ فارتشف سلسلَه  
لَه نَبَا في الفيضِ مهما «رَوَى»  
«حديثه» «أروى» بما «سَلَسَلَه»  
سَالَتْ عَطَاياه لُجَيْنًا فَمَنْ  
رَامَ نَدَاهُ نَالَ مَا أَمَلَه  
وحيث لم يكتف سـؤاله  
فلا يكفّ البذل إن أُرْسَلَه  
لأن من أسس بنيانَه  
غيث الـورى في السنة المُمجَلَه  
من نفسه يوم عطاه ترى  
أن وهب الدنيا فقد قلَّ له  
توجّه الله بتاج زها  
بجوهر المجد الذي كَلَّ له  
والله من وافر إحسانه  
أَجْرَى لَه الأجر الذي أَجْزَلَه  
فإن تسل عن ضبط تاريخه  
فخذُ جَوَاباً يُوضِحُ المسأله

أَسَّسَهُ سُلْطَانُ أُمِّ الْقُرَى  
«زيد» يدوم العِزُّ والسعدُ لَهُ (68)

وقد رآه بعض الصالحين الثقات في المنام بعد وفاته، وهو قائم على بعض آبار مكة، وببيده دَلْوٌ عظيم يملؤه من تلك البئر، ويصُبُّه في الأرض، فقال له يا سيدي، ما هذا؟ أنا أحق به منك، فقال له : ما تقدر على ذلك، أما ترى إلى هذه النار، وأنا أطفئها. (69)

\*\*\*

### وقفية الخديوي السلطان عباس باسا :

يوجد سَنَدٌ وقفٍ مرتبات من «الرزنامة» العامرة عن الوظائف الآتية، مرتبة لقراءة القرآن العظيم، ولتلاوة البخاري، والشفاء، ودلائل الخيرات، وبعض السور الشريفة داخل الحرم الشريف النبوي على صاحبه أفضل الصلاة، وأزكى السلام، ولتسبيل مائتين وخمسين دُورَقَ ماءً بالحرم النبوي حسب ما كان مقيدا باسم صاحب السمو الدستور الوقور أفندي الخديوي الأكرم الحاج عباس باشا حامي حمى الإسلام بالديار المصرية في دفتر مرتبات الخزينة التابعة لسموه بالرزنامة العامرة بموجب السند الديواني المحرر منها على الأصول، فقد أوقف وأرصد الوظائف المذكورة بحسن إرادته أبد الأبدین، ودهر الداهرين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، وقفا مؤبدا مؤكدا، مستمرا، لا يبذل ولا يغير ولا ينقص، بمقتضى المنصوص عنه بصورة الوقفية المشرفة بالختم الكريم رقم شوال عام 1268هـ، والمحفوظة بالرزنامة العامرة، وهو برسم تسبيل 250 دورق يسقى بها زوار الحرم الشريف النبوي مدة ستة أشهر في زمن

(68) «خلاصة الأثر»، ص : 2/178.

(69) المصدر السابق، ص : 2/186.

الصيف، وللساقي مع ثمن الدوارق المذكورة مرتب سنوي 120 ريال فرنسي...

وقد أسند نظارة هذه الوقفية إلى السيد محمد منتظر النقشبندی وأولاده. (70)

\*\*\*

وقد بلغت نفقات «السبيل الخيري» في حجة عام 1307 - 1899، تحت إمرة أمير الحج المصري اللواء إبراهيم رفعت، نحو 324 جنيه لمن يقوم بملء مائتي دُورَقٍ بالماء لشرب الناس، وكل ذلك بالمسجد النبوي، وذلك تنفيذ الشروط الوقفية الصادر بها أمر عباس باشا الأول في عام 1268هـ، والتي بلغها نائب الخديوي للمالية في غرة ذي القعدة عام 1268هـ. (71)

ومن تلك النفقات ستون جنيهاً، منها ثلاثون جنيهاً للسقائين بشرط أن يطوفوا بخمسين على المصلين بالمسجد النبوي، وقت كل صلاة بحساب يومي 250 هـ، والثلاثون الأخرى يشتري بها بدل ما يكسر من «الدُّوَارِق» وترتيب ذلك حسب الوقفية الصادر بها أمر عباس باشا الأول في 20 صفر عام 1270هـ، وبلغتها المالية للرزنامة في : 21 منه. (72)

ومن تلك المرتبات مرتبة لمائتين وخمسين «دُورَقاً» يسقى منه المصلون بالمسجد النبوي، منها مائة باسم إبراهيم إلهامي باشا، ومائة باسم محمد صديق بك، وخمسون باسم راغب أفندي الخازن، وكلها من خيرات عباس باشا الأول الصادر بِوَقْفِيَّتِهَا أمره في 25 ربيع الأول عام 1270هـ. (73)

\*\*\*

(70) «مرآة الحرمين»، ص : 2/246.

(71) المصدر السابق، ص : 2/351.

(72) نفس المصدر، ص : 2/352.

(73) نفس المصدر، ص : 2/352، وانظر نص الوقفية لسقي ماء عذب بالمسجد النبوي بنفس الصفحة والرقم.



وكان بمكة عشرون مسقى - سبيل - وعشرون صهريجاً مملوءة بمياه «زبيدة» ويختلف طولها وعرضها من خمسة أمتار إلى عشرة؛ والعمق من مترين ونصف إلى ثلاثة عشر متراً، وفم الصهريج سعته ثمانون سنتماً ولبعضها فتحتان وثلاث إلى ست فتحات على خط واحد، وتنزح المياه منها بواسطة السقائين الذين أكثرهم من العبيد... وببيوت الأمراء أنابيب مائية ذات حنفيات. (74)

وقد أحضر أحد الأغنياء من الهند آلة بخارية بمجرى قناة «عين زبيدة» «بالمفجر بمنى». (75) وقوة هذه الآلة ثمان خيول لتوصيل الماء في أثابغيه إلى ميدان منى، إذ يحول الجبل بين المجرى والميدان، وبواسطة الأنابيب يصعد الماء إلى الجبل، ثم ينزل فيها وادي منى، ويصبُّ في أحواض أعدت له هناك ليشرب منها الحجاج...

وقد رتب هذا الواقف المحسان المسلم الغيور الهندي لهذه الآلة ما يكفيها من الفحم والشحم والزيت وأجور العمال. (76)

\*\*\*

### المغاربة ووقفهم للمياه في طريق الحج :

لقد كان الملوك المغاربة يعتنون بمشكل الماء في طريق الحجاج القاصدين إلى الديار المقدسة، ومن أجل ذلك توجد عدة آبار في طريق الحج يوفرها سلاطين البلاد، ولما مرَّ المولى الرشيد بن السلطان المولى الشريف العلوي الحسني بالوضع المسمى «بالشط» من بلاد الظهراء

(74) المصدر السابق، ص : 183 - 184 / 1.

(75) مكان خلف الجبل المقابل «لثبير» سمي بذلك لما فجر فيه من الدماء عند ما دارت رحى الحرب بين قصي وشيعته، وبي بني الغوث بن أد بن طايخة، ويقال لهم : صوفة، وذلك بسبب تقدم الأولين إلى رمي جمرة العقبة قبل بني الغوث..

(76) اللواء إبراهيم رفعت، ص : 330 / 1.

بالصحراء، أمر بحفر آبار شتى، وهي تدعى الآن بآبار السلطان، فهي مضافة له، يسقي منها ركب الحجيج في مروره وإيابه، فهي من مآثره، تقبل الله منه، وكان على يده هذا الفتح العظيم لضعفة المسلمين بل لجميعهم. (77) بل إن هناك عدة طرق إلى الحج يتجنبها الحجاج، لانعدام أو ندرة المياه بها كطريق الفقهاء التي لا توجد بها مياه، وهي الطريق التي سلكها ابن مليح الشهير بالسراج حينما خرج مع الركب من مصر، فكانوا لا يطرقونها إلا إذا أمطرت لكونها ليس بها آبار. (78)

وقد تنسد السبل أمام وفد الجيـح، فيبحثون عن الماء، فلا يجدون، فيشفون على الهلاك، لكن سرعان ما تنفـرجُ الكُـربُ، وتَنحَلُّ العُقـدُ، كما نجد في الحكاية التي ذكرها (79) في رحلته ونقلها أيضا القادري في نشر المثنائي (80) : أخبرني الشيخ الأجل قاضي مدينة القدس محمد الحنفي النفاتي التونسي أيام لقائي له بالقدس الشريف، أنه حج في صغره مع أخيه أبي الحسن النفاتي، وكان أمير الركب، فمروا بهذا المكان وهو «وادي ينوت» بقرب طرابلس في زمان الصيف، فألجأهم العطش إلى بئر «واد ينوت»، فنزلوا عليها قائلة، ووافتهم هنالك قفول قدمت من فرآن، حاجتهم مثل حاجتهم، فذهب الناس إلى البئر، فنزحوا ما فيها من الماء، فلم يَشْفِ بعضُ أوامهم، ورجع الناس مغمومين، فمن قائل : نرتحل هذا الوقت لنذكر الماء قبل حلول الهلاك ومن قائل : نؤخر إلى آخر النهار...

قال لي الشيخ : فدخلت على أخي، وأخبرته بذلك، وقلت له : إن الناس قد أشرفوا على الهلاك، واضطرب أمرهم في الرحيل، فمرهم بالرحيل ليلاً

(77) «نشر المثنائي» للقادري، ص : 2/192.

الأعلام، ص : 4/276 - ط : الجديدة بطالعة فاس.

الرحلة العياشية «ماء الموائد» ص : 1/90.

(78) «نشر المثنائي»، ص : 2/373.

يَهْلِكُوا، قال : فاغتر لذلك، واسترخى في خبائه كالنائم، فلما أفاق، قال لي : ناد في الناس بالإقامة، وقل لهم يذهبون إلى الماء، فقلت : أبك جنون؟ أنا أخبرك أنه لا قطرة في البئر، والناس قد أشرفوا على الهلاك... فقال : إفعل ما أمرتك، فقلت له : لست بأحمق، أنادي بالإقامة والذهاب لسقي الماء، ونحن على غير ماء، فلما أبیت، نادى بديهة الغلام، وقال له : «ناد في الناس بالإقامة، والذهاب لسقي الماء، فلما سمعته اسْتَحْيَيْتُ، وتغيبت عن الناس، وذهبوا إلى البئر، فوجدوها قد امتلأت بالماء حتى كادت تفيض من جوانبها، فاستقى الحجاج وجميع القوافل حاجتهم، والماء كما هو، قال لي الشيخ : فلما رأيت ذلك ذهبت إليه، وقصصت عليه الخبر، فقال لي : إنني لما أغفيت عندما أخبرتني بخبر الناس، رأيت النبي ﷺ في النوم، فقال لي : «مُرِ النَّاسَ بِالْإِقَامَةِ، فَعَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ فَرَجًا... قلت : ولا يستبعد ذلك في حق رئيس وفدِ الله، وَزُورِ نَبِيَّهُ ﷺ، فَإِنَّ لِلَّهِ بِهِمْ عَنَانِيَةً، وَلَهُمْ مِنْهُ أَعْظَمُ وَقَايَةٍ.

\*\*\*

### الطرق التي توجد بها أماكن للسقيا :

وهكذا اعتاد المسافرون، وفي كل حين، وإلى كل مكان أن يحتاطوا لتأمين حياتهم، لأخذ الطرق التي توجد بها أماكن للسقيا تضمن وجود الماء الذي يطفىء الظمأ، وينقع الغلة، وَيَبْلُ الصَّدَى... ولنأخذ على ذلك مثلا واحدا هو سفر الحجاج قديما وحديثا، من مكة إلى المدينة.

فإن قوافل الحجاج في الماضي كانت تقوم من مكة إلى المدينة المنورة، فيسيرون، طلباً للماء، في واحدٍ من أربع طرق على حسب تبعية المقدم والجمالية إليها في الماضي :

وهذه الطرق هي : السلطاني - والفرعي - والغاير - والشرقي.  
ويقولون بأن الطريق السلطاني هو أحسنها سيرا، وأكثر ماء، فإذا  
قامت القافلة منه خرجت من باب العُمرة، وسارت إلى الشمال الغربي،  
وتمر على المحطات الآتية :

**وادي فاطمة :** ويجري فيه ماء عذب يأتي من السيول التي تنزل من  
جبال الطائف، وبه مزارع كثيرة، ويسكن فيه عرب الأشراف من ذوي  
حسين، وذوي غالب، ويسكن في المنطقة التي بينه وبين مكة إلى بحرة  
«بنو لحيان».

**عسفان :** مأوَّها قليل، وفي طريقها عقبة لا تسع إلا جملا، والعرب التي  
تسكن في هذه الجهة (بُشْر بَشْر) وحرمان.

**خليص :** بها بئر التقلّة، ومأوَّها غزير، وتسكنها قبائل زبيد، وتقرب  
منها واحة بها مياه جارية، وفيها بساتين ونخيل...

**القضيمة :** قرية على البحر، ومساكنها أكواخ صغيرة، ومأوَّها من  
الحُفَر التي يخزنون فيها ماء الأمطار، وأهلها من زبيد، ويشتغلون في  
الغالب بصيد البحر، ومنها يتجه الطريق إلى الشمال.

**رابع :** وهي قرية على البحر الأحمر، ومأوَّها من الحفر والآبار، وأهلها  
من زبيد، وتأتي إلى مياهها بعض السفن الصغيرة، لتشتري ما يصيده  
أهلها من الأهداف وغيرها...

**مستورة :** مأوَّها غرض، ومنها طريق إلى بدر، ويسكن هذا الطريق قبائل  
صبح والحوازم.

**الحمراء :** وهي قرية بها نهرٌ عذب، وفيها بساتين ونخيل ويكثر فيها  
البرتقال والليمون والموز، والحناء...

**الجديدة :** وهي قرية، أيضا، مأوَّها عذب، وبها قبر ولي الله سيدي عبد  
الرحيم البُرعي المصري الذي دَهَمه المرض في طريق المدينة، فمات ودفن

بهذا المكان، وله ديوان شعر مطبوع، كله مدائح في الرسول عليه السلام،  
ومسكن «الجديدة» قبائل الحوازم والأحامدة.  
بئر عباس : ويسكنها قبائل عوف وعمر، وماؤها عذب، وهي على  
مسافة خمسة كيل من المدينة المنورة...

\*\*\*

كتب الدكتور محمد-حسين هيكـل «باشا» مقالا عن الملك  
عبد العزيز آل سعود، نشر في «البلاد» السعودية، (81) جاء فيه : «وكانت  
المناهل في صحاري الجزيرة «محتكرة» لبعض القبائل، ولما حكم  
عبد العزيز كفَّ عنها أيدي المحتكرين، وجعلها مشاعا لمن يَرُدُّهَا. (82)  
قال محمد بن عبد الله بن بُلبيهد النجدي (83) عندما ذكر «المُجَزَّل»  
الجبل المعلوم : «كان في صدر الإسلام لبني تميم، وفي العهد الأخير يعد

(81) بتاريخ 10 - 4 - 1369.

(82) ويمكن الاعتماد على المصادر التالية بخصوص قافلة الحجاج والطريق البري الذي كان يسلكه  
الحجاج والتجار، والتي يمكن الرجوع إليها لمزيد من التفصيل :

1 - «المعجم الجغرافي» ثلاث مجلدات، للأستاذ حَمْد الجاسر، دار اليمامة، الرياض : «بلاد  
ينبع»، لمحة تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة.. دار اليمامة الرياض...

2 - «إمارة الحاج في العصر العثماني»، للأستاذة سميرة علي فهمي، رسالة ماجستير من  
قسم التاريخ أدب إسكندرية [غير منشور].

3 - «الرحلة الحجازية» لمحمد السنوسي، تحقيق علي الشنوجي، تونس: 1981.

4 - «حسن الصفا والابتهاج، بذكر من ولي إمارة الحاج» لأحمد الرشيد، تحقيق ليلى عبد  
اللطيف، القاهرة : 1980.

5 - «كتاب المناسك، وأماكن طرق الحج، ومعالم الجزيرة» للإمام ابن إسحاق الحربي تحقيق :  
حمد الجاسر.. دار اليمامة : الرياض.

6 - «العلاقات الحجازية المصرية، زمن سلاطين المماليك» لعللي بن حسين السلطان : القاهرة :  
1972.

7 - «الحجازيون في مصر، في القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي» بقلم د. عبد  
الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم - مجلة : «الدراة» ع : 1/س/11/ عام 1985 يونيو، ص :  
141.

8 - «الإدارة في مصر، في العصر العثماني» : ليلى عبد اللطيف - القاهرة : 1978.

(83) «صحيح الأخبار»، ص : 90 / 5.

من مناهل مطير، وفي عهد جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ليس لأحد ملك، بل لوأردها...

وقد أمر جلالة الملك عبد العزيز آل سعود أن يُعمل على حسابه الخاص سبيلان : أحدهما بالجهة الشرقية مما يلي «قبة زمزم» على الجناح الجنوبي... والثاني، بجوار حجرة الأغوات من الجهة الجنوبية لبית زمزم بجانب السبيل القديم على نحو السبيلين اللذين سيعملان باسمه الخاص... فعمل السبيل الذي بجوار قبة زمزم بالحجر الرخام المرمر، وجعل له ستة فوهات... وعمل السبيل الثاني بجوار حجرة الأغوات، وجعل له ثلاث فوهات... وحدد عمارة السبيل القديم، وقد كتب على السبيل الأول : «هذا السبيل أنشأه الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود» وكتب على الثاني: أنشأ هذا السبيل الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود، وكتب على الذي يليه : «جدد هذا السبيل الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود» وتم إنشاء السبيل الذي يلي حجرة الأغوات سنة 1345هـ، وتم عمل السبيل الذي يلي قبة زمزم سنة 1334هـ.

كما جعلت للحجاج في عهد الملك عبد العزيز آل سعود في كل موسم ترتيبات خاصة بين مكة وعرفات، حيث تقام «مراكز» في «المنحى» ومحجر الكبش» و«المجزرة» والأخشبي» و«وادي النار» و«بين الأخشبين» و«مزدلفة» و«برك عرفات» و«البازان» و«تقاطع الأسفلت» و«مسجد نمرة»...

وأقيمت في كل مركز مما تقدم مظلة مبنية بالأسمنت لاستراحة الحجاج مزودة بما يكفي من الماء... (84)

وهكذا عمل الملك عبد العزيز ما استطاع لتوفير المياه في مكة، ووقفها لفائدة الحجاج، بل حتى تعم أطراف مملكته الصحراوية في أكثر أجزائها...

---

(84) «شبه الجزيرة، في عهد الملك عبد العزيز» ص : 106/1، لخير الدين الزركلي.

لقد أصبح سقي الماء، وتيسير سبله في بلاد العرب عموماً، وفي البلاد المقدسة على وجه الخصوص، وفي مختلف العصور الإسلامية، من أكثر الأعمال شيوعاً لدى الخلفاء والملوك والواقفين الموسرين، يتقربون بذلك إلى الله تعالى، ولهذا رأينا الخلفاء في عصور الدولة الإسلامية كما أجمعنا سابقاً، ينفقون الأموال الطائلة على إسالة الماء في صحراء جزيرة العرب، وخاصة تلك المناطق التي كانت تمر بها طريق الحج، والتي كانت تربط بين مراكز الخلافة، وبين المدينتين المقدستين مكة والمدينة، وعلى طول هذه الطرق، كانت الآبار تحفر، والبرك تنشأ، والخانات توضع لراحة الحجاج، ولقد كان للأمويين، كما أسلفنا، نشاط ملحوظ في الطريق الذي يربط بين دمشق والحجاز، غير أن الأعمال التي قامت بها شخصيات دولة بني العباس في سبيل استنباط المياه، وإسالة العيون ووضع البرك وأماكن الراحة كانت من أضخم الأعمال الخيرية التي حرص عليها هؤلاء المحسنون... ولم يكن الخلفاء وحدهم هم الذي يقومون بهذه الأعمال، بل كانت أعمالاً مشاعة بين رجالهم ونسائهم ووزرائهم وأصحاب الشأن في الدولة والموسرين من الأغنياء. (85)

\*\*\*

### إعداد خطة شاملة لتوفير مياه الشرب لضيوف الرحمن...

وقد تم اليوم، وبتوجيه من الملك فهد بن عبد العزيز، إعداد خطة شاملة لتوفير مياه الشرب، وبكميات وفيرة للحجاج، في إطار توفير الخدمات الشاملة لضيوف الرحمن خاصة... وضمن إطار تلك الخطة أعدت مصلحة المياه والمجاري في المنطقة الغربية ما يزيد عن مليوني قارورة مياه مثلجة صالحة للشرب تقدم هدية للحجاج من الملك فهد، تم إنتاجها في المصنع الخاص بذلك... والذي أمر بإقامته على حسابه الخاص، وقد تم توزيع هذه الكميات الضخمة عبر خمسة وعشرين حاوية

(85) «الإنسان والماء، في جزيرة العرب» للأستاذ أحمد الضبيب.

ثلاجة تتسع الواحدة لما يزيد عن 35000 عبوة موزعة في المشاعر المقدسة...

وقد قال المهندس فهد سليمان مدير عام المصلحة : إن خطة توفير المياه الصالحة للشرب لضيوف الرحمن أعدت بصورة علمية متكاملة بحيث تغطي كل الاحتياجات... وقال في حديثه لجريدة «الشرق الأوسط» (86) : أن كميات المياه الصالحة للشرب في المشاعر المقدسة تصل إلى 730 ألف متر مكعب، أي حوالي 17 مليون جالون مياه... وقد زادت عن الأعوام السابقة بنحو 420 متر<sup>3</sup>، وهذه الكميات موزعة كالتالي في مناطق المشاعر المقدسة في خزانات مليئة تماما وجاهزة للاستخدام :

- 1 - خزان عرفة : يزود منطقة عرفة بـ : 50 ألف متر<sup>3</sup>.
- 2 - خزان مزدلفة : يزود مزدلفة بـ : 50 ألف متر<sup>3</sup>.
- وفي منطقة «منى» تمتد خزانات المياه، وهي كالتالي :
- خزان الأربعين وسعته : 40 ألف متر<sup>3</sup>.
- خزان القصور، وسعته : 20 ألف متر<sup>3</sup>.
- خزان البيعة العلوي، وسعته : 10 آلاف متر<sup>3</sup>.
- خزان البيعة السفلى، وسعته 10 آلاف معر<sup>3</sup>.
- خزان المعصم الكبير، وسعته : 90 ألف متر<sup>3</sup>.
- ثمانية خزانات جديدة أنشئت في منى سعتها 24 ألف متر<sup>3</sup>...
- ثلاثة ثلاجات بالشرائع سعتها : 140 ألف متر<sup>3</sup>.
- خزان جمانة، وسعته : 600 ألف متر<sup>3</sup>.. وقد ملئ منه حوالي 350 ألف متر<sup>3</sup>.

\* \* \*



## شبكة متكاملة للمياه في عرفات :

إن هذه الكميات الوفيرة من المياه قامت بتلبية كل احتياجات حجاج بيت الله الحرام... بل إن الخطة الشاملة في توفير المياه قد شملت أيضا، تعزيز الصنابير والبوابز حيث تم تنفيذ 1615 صنوبر جديد في عام 1984، بالإضافة إلى ما يزيد عن ثلاثة آلاف حنفية مياه جديدة في الربوة، والشعبين والمعيصم ومنطقة القصور...

كما تم تنفيذ شبكة متكاملة للمياه في عرفات باطوال تصل إلى 65 كلم، وأنشئت في جميع شوارع عرفات ما يزيد عن 2500 حنفية ماء بحيث أصبح عدد حنفيات المياه في هذه المنطقة أربعة آلاف حنفية...

ونصف هذا العدد يعمل بطريقة الكترونية، ومن هذا أصبحت المياه خاصة في جبل الرحمة، وحول مسجد نمرة متوفرة وبوفرة... هذا بالإضافة لتنفيذ خمسة آلاف «دورة مياه» في منطقة بين الجسرين تعمل إلى جانب دورات المياه في المناطق الأخرى...

كما تم الانتهاء من مشروع بناء محطة لتبريد ماء «زمزم» وتكييف منطقة «بئر زمزم» بالهواء البارد... وبلغت التكاليف الاجمالية لهذا المشروع: 940.429.32 ريالاً، وتم التبريد للمياه بطاقة 60 متراً مكعباً للمناهل المخصصة للرجال، و : 469 متراً مكعباً للمناهل المخصصة للنساء في الساعة الواحدة.

كما زود مبنى تبريد مياه زمزم بجهاز «كمبيوتر» يوضح للعاملين حاجة كل منهل، ودرجة برودة المياه، وقد ربط المبنى بشبكة للتيار الكهربائي عن طريق محطة خاصة بالمبنى قدرتها : 500.2 «كيلوفولت».

ويتم توزيع مياه زمزم بعد تبريدها بالحرم عن طريق صنابير للشرب تغذى من مياه زمزم المبردة والموزعة في جميع أرجاء الحرم المكي الشريف، ويبلغ عددها : 721 صنوبراً بالإضافة إلى مجمعات لمياه زمزم

المؤقتة خلال موسم الحج، إضافة إلى 5.000 ترمس سعة كل ترمس أربعون لترا موزعة في جميع أرجاء الحرم.

وما يقال عن مكة المكرمة، يقال عن جدة ميناء الحجاج العظيم الذي كان يعيش على مياه «الصهاريج»، وهي مخازن تجمع فيها مياه الأمطار، وتستعمل خلال العام، وكانت جدة تقاسي كثيرا من ندرة المياه وعدم وجودها، إلى أن أسال الماء إليها السلطان «قانسوه» الغوزي أحد سلاطين المماليك في مصر في القرن العاشر الهجري حيث جلب إليها الماء من الرغامة على بعد اثني عشر كيل، (87) ولكن متاعب جدة لم تنته إذ لم تلبث هذه العين أن خربت في القرن الحادي عشر الهجري، ثم أجريت، ثم خربت مرة أخرى في القرن الثالث عشر... وظلت جدة، التي يقبل عليها الحجاج، من كل حذب وصوب خلال، تاريخها مهددة بنقص المياه، وفي سنة 1325هـ/1907م، أحضرت الدولة العثمانية آلة مقطرة لتحلية ماء البحر، وظلت هذه الوحدة عاملة إلى أن دخلت الحجاز تحت الحكم السعودي. (88)

\*\*\*

### انتهاء متاعب جدة المائية :

في ظل الدولة السعودية انتهت متاعب جدة المائية إلى الأبد، وذلك بإسالة «العين العزيزية» إليها في عهد الملك عبد العزيز آل سعود عام 1367هـ/1948م ، ثم بالتطوير الهائل لتحلية المياه المالحة التي أصبحت تغطي حاجة مدينة جدة، وتزيد حتى اتسعت المدينة اتساعا كبيرا لم يكن لها عهد به.

ولقد حاز الطريق بين مكة وجدة عناية المغفور له جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود... ومن ملامح ذلك إنشاء الأسبلة على

---

(87) «مرآة الحرمين»، ص : 1/218، و«موسوعة تاريخ جدة»، للأستاذ عبد القدوس الأنصاري، ص:

2 - جدة، مطابع الروضة، 1401 - 1980 - ص: 1/451.

(88) «الإنسان والماء» في جزيرة العرب، للأستاذ أحمد الضبيب.

الطريق، بما يسهل للحجاج والزوار حصولهم على المياه المبردة في يسر وسهولة... ويحقق لهم أحد مطالب الحياة...

وقد تم العثور على ثلاثة أسبلة بنيت في مواقع متفرقة على الطريق بين مكة وجدة صمم كل منها على شكل حوض مستطيل له فتحات للسقيا.. ويعلو واجهته الغربية لوح تأسيسي مؤرخ بعام 1361هـ/1942م؛ وجاء تصميم الأسبلة يسيرا في تكوينه، ومتفقا مع إمكانات البيئة من حيث المناخ، والمواد الخام المتوفرة في المنطقة... وهذا يتفق مع أسلوب بناء وتصميم الأسبلة العثمانية على الطريق بين مكة وجدة.

وهذه الأسبلة هي : سبيل بئر أم القرون...

وسبيل حداء...

وسبيل بئر المقتلة...

فنظرا لحاجة الطريق بين مكة إلى وجود أسبلة لإرواء ظمأ المارين، فقد تكفل الملك عبد العزيز بإنشائها، وأيد ذلك الكشف عن ثلاثة أسبلة.

**فسبيل بئر أم القرون :** يقع موقعه ملاصقا لبئر أم القرون من الجهة الغربية على الطريق بين مكة وجدة... وقد كان هذا الموقع معروفاً ترده الأعراب، وعابرو السبيل لوجود بئر به تعرف ببئر أم القرون، وصفها اللواء إبراهيم رفعت عام 1900م بما يلي : بئر أم القرون... على اليسار، يقصد يسار المتجه لمكة مبنية بالحجارة وعمقها عشرة أمتار لها أربعة أعمدة، تدور عليها أقطاب البكر التي ترفع بها الدلاء، وماء هذا البئر عذب فرات.(89)

**سبيل حداء :** يقع موقعه ملاصقا للبئر من الجهة الغربية على الطريق بين مكة وجدة، ويعرف أهل حداء هذا السبيل، بسبيل حداء، ولعل تسميته

(89) «مرآة الحرمين» ج : 1 / ص : 27.

جاءت نسبة لموقعه الذي درج المتأخرون من الرحالة على تسميته (حدة)، وهو تعريف لاسمها، (90) ذكرها اللواء إبراهيم رفعت عام 1900، بما يلي : «هي بلدة صغيرة على اليسار يقصد يسار المتجه لمكة بها حصن ومسجد ذو مؤذنة وعين ماء حلوة، وبئران على يسار الطريق، وبها نحو 600 نخلة يملكها «عون الرفيق» باشا شريف مكة... وكان المحمل يبيت بجدة، ثم عدل عنها إلى بحرة لما أن تعدى أهلها عليه». (91)

**سبيل بئر المقتلة :** يقع موقعه ملاصقا للبئر من الجهة الغربية على الطريق بين مكة وجدة، شرق أعلام حدود حرم مكة الغربية بنحو 10، كيل.. وقد كان هذا الموقع معروفا لعابري السبيل بين مكة وجدة، أشار إليه اللواء إبراهيم رفعت بما يلي : «ومررنا... بقلعة المقتلة، وهي على اليمين... وتحتها بئر مطوية بالحجر عمقها حوالي 20 مترا، وعليها دعامتان لوضع محور البكرة عليها، ولها ثلاث درجات يقف عليها من يُخرج الماء منها، وماؤها عذب غزير». (92)

\* \* \*

### كان يريد الماء.. فأتاه النفط :

لقد كان جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله يبحث عن الماء، جادا في استخراجهِ، فاكتشف البترول، فخرج له ولبلاده النفط... فلقد كان يريد الماء... فأتاه النفط...

---

(90) عاتق بن غيث البلادي - «معالم مكة التاريخية والأثرية»، ط (1) (مكة المكرمة - دار مكة - 1980، ص : 81.

(91) «مرآة الحرمين» ج : 1، ص : 27.

(92) المصدر السابق ج : 1/ ص : 28. - وانظر بحثا كاملا في الموضوع للدكتور عادل محمد نور عبد الله غباشي - مجلة الدارة.

وقصة ذلك أنه زار الثري الأمريكي المستر «كراين» المعروف برياسته لبعثة الرئيس «ولسن» في سورية وفلسطين عقب الحرب الأولى، بلاد اليمن، وعاد بعد رحلته إليها يقول : «إن سكان بلاد العرب أقرب الناس إلى الله، لإيمانهم بأن رزقهم في السماء، ومنها يهبط الماء، فهم يكثرّون التطلع إليها، كلما جفت مراعيهم، يسألون ربهم الغوث بالغيث» وأضاف «كراين» الذي كان يلقب بهارون الرشيد، بأن هذه البلاد القريبة من الله التي خرج منها جميع الأنبياء، فقد طال عهدها بعصر النبوة، فهي تتمخض عن ولادة «مبعوث إلهي» جديد في خلال مآت قليلة من السنين، كما حكاها الشيخ خير الدين الزركلي، وقد زار المستر «كراين» البلاد السعودية، ورحب به الملك عبد العزيز وجاءه سنة 1931 يصحبه ويترجم له «جورج أنطونيوس» مؤلف كتاب : «يقظة العرب» وكان الملك قد عرف أنطونيوس يوم جاءه مع الجنرال «كلايتون» لعقد معاهدة «جدة» عام 1927... وفي خلال الحديث بين الملك و«كراين» سأله «كراين» عما يمكنه أن يقوم به من مساعدة لبلاده، فحدثه الملك بما تعانيه البلاد، ولا سيما الصحراوية منها، من الجفاف في أكثر السنين، وود لو يحضر لها خبير جيولوجي يبحث عن «آبار إرتوازية» تسقي الناس الماء في طريق الحج...

قال «كراين» : سأبعث إليكم بخبير، ولا تكلف حكومتكم أن تنفق عليه أكثر من تأمين إقامته وتنقلاته.

ووصل إلى جدة عام 1931 المهندس الجيولوجي الأمريكي «تويتشل» فقال : كنت في اليمن، ووصفت خدماتي، بواسطة المستر «كراين» لمصلحة الإمام يحيى وبلاده، وها أنا بين أيديكم لفحص الأراضي، بحثاً عن الماء، وعلى الأخص في مناطق طرق الحج، فبدأ البحث، ولم يجد ما يبعث على الأمل في تدفق آبار إرتوازية، فقدم تقريراً، لا يبشر بالخير عن وجود الماء، بيد أنه لاحظ مستنقعات زيتية جافة قديمة العهد...

فقد كان الملك يريد الماء، وقد يؤس «تويتشل» من وجود الينابيع الكافية منه في أراضي الحجاز، وتحول الجهد إلى استخراج البترول. (93) ورغم ذلك، فقد أعان الملك عبد العزيز على الإكثار من حفر الآبار الارتوازية، وجلب الآلات التقنية لها، والإيعاز إلى رجال المالية بتقسيط أثمانها، وأول ما استبشرت به البلاد من تحقيق «الفكرة» الارتوازية كان ما نشر أواخر نوفمبر 1939 من نجاح التجربة في حفر بعض الآبار في جهتي الدمام والقطيف حيث تدفقت المياه من بئر في الأولى بمعدل 64 ألف «كالون» في اليوم، ثم من بئر في الثانية بمعدل 166 ألف «كالون» يوميا. وهكذا عمل الملك عبد العزيز رحمه الله ما استطاع لتوفير المياه في مملكته الصحراوية فجزاه خيرا ورحمه الله.

\* \* \*

ولما عاد اللواء إبراهيم رفعت باشا الذي كان رئيسا للمحمل المصري في عام 1901، وأميراً للحج عام 1902 - 1904 - 1907، من حجته عام 1320، قابل سمو الخديوي، حدّثه عن الفقراء الذين يحجون ويزورون مشيا على الأقدام، وعن الصعاب التي يلاقونها في سبيلهم، فتطرح بهم في الفيافي والقفار بلا ماء، ولا زاد، أصدر أمره الكريم في 26 ديسمبر عام 1903 لمدير الأوقاف بعمل مسقى خيري يرافق المحمل حتى يكفي الفقراء الماء، وكان الإنفاق على المسقى موكولا إلى اللواء أمير الركب في عامين 1321 - 1325. وهذا هو الكتاب الذي بعث به إلى أمير الحج اللواء إبراهيم رفعت مدير الأوقاف في 29 ديسمبر 1903.

سعادة أمير الحج المصري : وافقت المكارم السنوية على صرف مائتي جنيه لسعادتكم... من ذلك مائة وخمسون جنيها مسقى متنقل يسير مع ركب المحمل... والباقي، وهو خمسون جنيها يشتري به سجادات تفرش

---

(93) المصدر السابق، ص : 2/695.

للصلاة في المسجد الحرام؛ كما ورد بذلك كتاب من سعادة رئيس الديوان الخديوي مؤرخ في 26 دسمبر عام 1903، رقم : 26، وقد أذننا، اليوم، بصرف هذا المبلغ لسعادتكم لتنفقوا منه في هذين المشروعين، وتقدموا لنا تفصيل المنفق بعد عودتكم مع مستندات الصرف.

مدير الأوقاف  
عبد الحليم عاصم

ولقد كان في هذا المسقى الخيري الوقفي إنقاذ كثيرين من عوادي الجوع، ومخالب العطش الذي كثيرا، ما أودى بحياة أناس لم يقصدوا بسفرهم إلا وجه الله، وابتغاء مرضاته...

## مؤسسة السقايات، أنظمة اقتضتها فلسفة المدينة الإسلامية...

### I

لقد بلغ من اهتمام الواقفين بتحبيس الأسبلة والسقايات حداً بالغاً ما عليه من مزيد... يبتغون بذلك من الله، فضلاً ورضواناً، ويقصدون بوقفها إغاثة اللهفان، وري الظمآن، لا سيما إذا كان مأوها عذبا فراتاً، وبارداً قراحاً... سائغاً للشاربين... لأن الماء الشبم يولع به الخلق في بوارح القيظ، يشفون به أوامهم، ويتبردون به بالعلّ والنهل، والغسل والمجاورة، فهو في حَمَارَةِ القيظ، ووقدة الضحى، روح للأرواح وشفاء للملتاح.

وقد حفل المجتمع الإسلامي بمؤسسات إجتماعية كالسبل والسقايات لتوفير ماء الشرب لعابري السبيل والمارين والواردين، وهي مؤسسات وأنظمة راقية حضارية اقتضتها فلسفة المدينة الإسلامية لتوفير مياه الشرب للمارة والسابلة في الطريق...

وقد انتشرت الأسبلة (1) في مدن العالم الإسلامي جميعاً، وكانت عناية أهل البر بماء الشرب في مدينة سمرقند، أعظم مما يتصور... فمن ذلك ما قاله ابن حوقل (2) : «وقلما رأيت خاناً، أو طرف سكة، أو محلة، أو مجمع ناس إلى حائط بسمرقند يخلو من ماء مجمد مسبّل... وذكر لي من يرجع إلى خبره أن سمرقند في المدينة، وحيطانها فيما يشتمل عليه السور

(1) كلمة «تسبيل» : مشتقة من أسبل الماء، أي صبه صبا. - وتستعمل كلمة تسبيل للدلالة على عين الماء التي تقام ليشرب منها عامة الناس، ومن المحتمل أن تكون الكلمة مأخوذة من عبارة «سبيل الله» التي جرى المسلمون على إطلاقها على أي فعل يقصد به وجه الله تعالى : ويقول المؤرخ علي مبارك : السبيل : هو الموضع الموقوف المعدّ لوضع الماء المسبّل فيه، تارة بخصوص الشرب، وتارة للنفع العام حلى حسب شرط الواقف.

(2) ابن حوقل : صورة الأرض، - ص : 386، ط. بيروت، الأصطخري، ص : 290.



الخارج زيادة على ألفي مكان يسقي فيه ماء الجمد مسبلاً عليه الوقوف من بين سقاية مبنية، وجباب نحاس منصوبة؛ وقلال خزف في الحيطان مبنية...

ولهذه المدينة مياه جارية تدخل في نهر كان أصله خندقاً قديماً، وقد بنيت له في بعض المواضع مُسْنَأَةً عالية عن الأرض يجري عليها الماء، ووجه هذا النهر رصاص كله، وهو نهر قديم جاهلي يشق سمرقند، وهو من أعمر المواضع بها، وله غلات موقوفة لمرمته ومصالحه، وعليه حفظة من المجوس شتاءً وصيفاً في شرط عليهم بذلك، ولا تؤخذ منهم الجزية لبيت المال لهذا السبب. (3)

\*\*\*

### السقايات في الشام :

وقد عدد الحافظ ابن عساكر - صاحب تاريخ دمشق - السقايات الموجودة على أيامه في دمشق، ولكن يبدو أن أعظم نماذج للأسبلة في المدن الإسلامية كان في القاهرة بالذات حيث أخذت ظاهرة إنشائها تنتشر منذ القرن السادس الهجري، وأقبل السلاطين والأمراء ونسائهم في عصر الأيوبيين والمماليك على إقامتها على الطريق العامة المطروقة، لتعم فائدتها، ويتضاعف ثوابها، ويتيسر تسبيل الماء وشرب المارين والواردين. وقد ذكروا بأن السبيل عموماً، يتكون من طابقين : الأول يضم الصهريج، وكانت تغطيه قباب تقوم على أكتاف وعقود، في حين تغطي فوهة الصهريج «غرزة» من الرخام.

أما الطابق الثاني فيحوي تجري التسبيل، وهي وسيط بين الصهريج والجمهور، وتوجد بها نوافد، وبداخلها، أحواض الشرب التي يصل إليها

(3) الأصبخري : ص : 216، وابن حوقل، ص : 366.

الماء، بواسطة مَجَارٍ من الرصاص، وتوجد مصطفة، لوقوف المارة عليها،  
أثناء الشرب، بهدف توفير مزيد من الراحة لعابري السبيل...

\*\*\*

وقد ثبت أن الوقف للماء المعد للسبيل يُهيئُوه الله وييسره لعباده،  
ويذل صعا به، رغم ما يتعرض الوقف المحسن من صعوبات ومعوقات.  
وقد ظهرت لأحمد بن أبي بكر بن علوي الجمال الشلي (ت : 1004هـ)  
كرامات منها أن السيد الجليل عمر بن أحمد مَقَر لما حفر بئر المشهور  
تحت «تريم» (4) اعترضت دون الماء صخرة عظيمة، فتعب لذلك، فلما علم  
ابن الأستاذ الشلي بأنه قصد بها وجه الله، وأن فيها نفعا للمسلمين، كتب  
في حجارة صغيرة، ورمى بها على تلك الصخرة الكبيرة فانهارت كالتراب  
ونبع الماء. (5)

ومن كراماته، أيضا، أنه لما سافر إلى الحج في طريق الشط حصل  
للركب الذي هو فيه عطش شديد، ومحل الماء بعيد عنهم، فأخذ قرية،  
وتوارى في جبل صغير، ورجع والقرية مملوءة ماء فرائاً.. وكان يقال إنه  
يعلم الاسم الأعظم. (6)

وأنشأ الشيخ أحمد بن سليمان القادري الدمشقي (ت : 1005هـ) سبيلا  
بجوار مدرسة القلجية، وكان ذلك في عام 982هـ، وقال مامية الرومي  
مؤرخا بناء السبيل :

هَذَا السَّبِيلُ الْأَحْمَدِيُّ

لِلَّهِ مَا فِيهِ خَفَا

---

(4) مدينة في حضرموت شمالا على الجانب الأيسر من وادي حضرموت مركز للحياكة والصناعات،  
الشالات المطرزة، بخيطان الفضة.

(5) «خلاصة الأثر» للمحبي، ص : 1/159.

(6) المصدر السابق، ص : 1/159.

وقد أتى تاريخه :

إشرب هنيئاً بل شفا(7)

وقد قرأ المحبي بخط عبد الكريم الطاراني : «ومما أنشدني لطفي البصير الكاتب الدمشقي (ت : 1005هـ) من محفوظة بيتين من شعر العلامة العماد الحنفي، كان نظمها مؤرخا بهما قناة مائية بناها والد لطفي محمد بالقرب من داره باطن دمشق بمحلة بين الطوالع بالقرب من مدرسة العادل بن أيوب، وأتم بناءها في عام 972هـ، ونقشهما في بلاطة من الرخام، وركبها في أعلى القناة، وهي يومئذ موجودة؛ وهما :

محمد قد بنى سبيلا

للخير يرجو به سبيلا

فجاء تاريخه : شرابي

حلا، طهورا وسلسبيلا(8)

وكان الوزير الكبير أحمد باشا المعروف «بكوجك» أحمد الأرناؤدي (ت: 1046هـ) عمّر بدمشق تكية خارج «باب الله» بالقرب من قربة القدم، ووقف عليها قرى من ضواحي صيدا وبعبك، وبنى «سبيلا» بالقرب من عمارته، عظيم النفع، وقيل في تاريخه :

أنشأ الوزير للوفود منهدلا

لوجه مولاه إذا وافى، غدا

وأنشد الوارد في تاريخه

هذا السبيل الأحمدى قد بدا(9)

وهذا الشيخ أحمد - المعروف بالزريابى الدمشقي قاضي المالكية، وفقههم بدمشق (ت : 1050هـ) قد شرع في عمارة الشيخ أرسلان،

(7) المصدر السابق، ص : 1/207.

(8) المصدر السابق، ص : 3/307.

(9) المصدر السابق، ص : 1/207.

قدس الله سره العزيز، وانقطع هناك، وصرف مالا جزيلا، وكان صاحب ثروة، وأجرى ماءً للشبّاك، قبالة الضريح... ومن شعره قوله لما عمّر العمارة المذكورة :

قد شاده خُوِيْدُمُ الأعتاب  
أحمد ذاك المالكي بالباب  
في راس خمسين وألف تتلو  
من هجرة النبي والأصحاب (10)

وكان أبو بكر الكردي العمادي الشافعي، نزيل دمشق، قد جاور المدرسة الكلاسة في جانب الجامع الأموي، وكان يسقي الماء بالجامع المذكور، ويتقوت بما يدفعه الناس. (11)

\*\*\*

### وفي مصر :

أنشأ الأمير عبد الرحمن «كتخدا» (12) مستحفظان ابن المرحوم حسن «كتخدا» القازغلي في عام 1157هـ، سبيلا وكتاباً بين القصرين في مصر.. ويعلو السبيل كتاب تحيطه مظلات وحواجز خشبية جميلة الصنع...

(10) المصدر السابق، ص : 1/317.

(11) المصدر السابق، ص : 1/111. - وما من شك بأن سُقاة العالم، قديما وحديثا، يحسدون رفيقهم في الأمم المتحدة عندما يعلمون أنه يتقاضى ما يصل إلى : 21 ألف دولار في العام دون حسومات أو ضريبة دخل من أي نوع، وبل ويحق «للسقاء» الدولي بعد ستة أشهر من عمله أن يتمتع بكل ميزات صندوق معاش التقاعد والتأمينات المكفولة للموظفين الدوليين بمن فيهم السكرتير العام الدولي شخصيا...

فلأن وظيفة المندوبين في الأمم المتحدة ووكالاتها المختلفة هي الكلام، والكلام، فالمؤكد أن هؤلاء المتكلمين بحاجة إلى مدد متواصل من الماء القراح، وذلك لمقاومة بحة الصوت... لكن السقاء يشعر بضغط العمل أيضا، ولا يسلم الأمر من أن يعبر عن بعض التبرم، لأن المنظمة الدولية تطلب منه حمل أقذاح الماء الفارغة إلى السير الذي ينقلها لوحدة التنظيف الآلي.

(12) معنى «كتخدا» وزير الأمور الداخلية كما جاء في «تخليص الإبريز» لرفاعة الطهطاوي، ص : 72. - أنظر ترجمة في تاريخ الجبرتي، ج : 2، ص : 5.

وداخل السبيل نرى الجدار مزينا ببلاطات القيشاني المزخرفة، وفي الوسط صورة الكعبة الشريفة على البلاطات المربعة... وقد تم تنظيف هذا السبيل، والعناية به، أثناء احتفالات القاهرة بعيدها الألفي عام 1969، ولقد لفت هذا السبيل أنظار الفنانين الأروبيين، فرسمه أكثر من فنان، رسمه المهندس «أوين كارتر» عام 1830، تم سجل رسم آخر له في كتاب : «جورج إيبيرس» عام 1879، والتقطت أول صورة فتوغرافية له عام 1900. (13)

\* \* \*

وفي شارع المعز لدين الله يوجد سبيل بناه، أيضا، الأمير عبد الرحمن «كتخذا» عام 1744م بجوار ضريح الشيخ مظهر.. ويعرف السبيل الآن في مصر «سبيل الشيخ مظهر».

وهو الذي أنشأ جامع المغاربة، وعمل عند بابه سبيلا وكتاباً وميضأة تفتح بطول النهار، كما أنشأ بالقرب من تربة الأزبكية سقايا وحوضا لسقي الدواب، ويعلوه كتاب كما أنشأ باباً عظيماً جهة حارة كتامة وبنى بأعلاه مكتبا بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن، وبداخله رحبة متسعة، وصهريج عظيم، وسقاية لشرب العطاش المارين، (14) وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب جامعا وصهريجا وحوضا وسقاية ومكتبا، ورتب فيه تدريسا وكذلك جهة الأزبكية بالقرب من كوم الشيخ سلامة جامع ومكتب وحوض وميضأة وساقية ومنارة...

وقد أنشأ السلطان الظاهر بيبرس إلى جانب مدرسته الظاهرية بالقاهرة مكتبا لتعليم الأيتام، و«أجرى عليهم الخبز في كل يوم، وكسوة الفصلين، وسقاية تعين على الطهارة». (15)

(13) مجلة : «العربي» ع : 305 / س : يوليو : 1954 / جمال الغيطاني.

(14) «عجائب الآثار»، للجبرتي، ج : 2 / ص : 6.

(15) أبو المحاسن : «النجوم الزاهرة»، ص : 121 / 7.

قال أبو عمر أشهب المالكي : «أمرني أبي أن أتخذ سقاية بموضع سماه، فبنيتها مرات، ويهدمها علي جيران حسدوني فيها، فأدركني يوماً غم لذلك، فقعدت عنها باكيا مفكراً!.. فسمعت صوتاً من الصحراء يقول : «ونريد أن نمّن على الذين استضعفوا في الأرض...» فحركت دابتي نحو الصوت، فلم أرَ أحداً، فعدت إلى موضعي، فسمعت الصوت، فقمّت، فلم أرَ أحداً، فعدت إلى القعود، فعاد الصوت ثالثة، فعلمت أنني المراد، فحمدت الله، وقامت لي نية في طلب العلم، وبنيتها، وولكت من يحرسها بأجرة، فلم يعد أحد إلى خرابها..(16)

وكان الشيخ الإمام العارف الرباني الولي الصالح سيدي أبي إسحاق إبراهيم بن الحاج السلمي البلفيقي المري دفين مراكش،(17) يواصل الصوم أربعين يوماً، وأنه بنى ثمانية عشر جباً، في مواضع متفرقة، ونحو عشرين مسجداً، كل ذلك من ماله.(18)

\*\*\*

ولا تسئل عن العامة، من أبناء الشعب، فكل من جاد الله عليه بالمال، وأفاء عليه بالخير، ووسع عليه في الرزق، وحباه نعمة الهداية ليكون أداة للخير، وطريقاً إلى العُرف، وسبيلاً إلى تحقيق الرغائب، فقد كان يوقف السقايات يبتغي بها وجه الله، لينقع بها غلة الصادي سواء في داخل المدينة، أو في أرض معطشة يحتاج فيها إلى جرعة ماء... والأمثلة في هذا الصدد لا يأتي عليها الحصر والعدد...

(16) كما في ترجمته في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض، ص : 3/266.

(17) أنظر ترجمته في التكملة، ص : 1/166، ط. مصر، «ونيل الابتهاج»، والإعلام لعباس بن إبراهيم،

ص : 1/154، نشر، ط : الملكية، الرباط، والاستقصا، ص : 2/235، والإحاطة : 2/101.

المرقبة العليا : 164؛ والتعريف بابن خلدون : 61.

(18) «أزهار الرياض»، ص : 4/109، والنفج، ص : 5/477 - تحقيق إحسان عباس.

ويكفي أن نشير إلى واحدة منها... فلقد كان سيدي عبد الله ابن سعيد التهالي (955/1051 هـ) يحظى باحترام كبير في بلدة «إلغ»، وأنه ما نال ذلك بجاه أو غيره، بل أدركه بتفانيه في منافع الأمة، فيسعى في إصلاح ذات البين بين المتخاصمين، ويجري في الأمور العامة التي لا يأبه بها إلا من جعل الإخلاص رائده في كل ما يزاوله، والمصلحة ونفع العباد، أيا كانوا، نصب عينيه، فيقبل على المعاطش، فيؤسس فيها نطفيات تنقع غلات أبناء السبيل، وقد جعل جل همه في أمثال ذلك... حتى أن اثنتي عشرة نطفية أسسها في محلات معلومة بين الفيافي والقفار، وكان يسميها بناته، فكان مما أوصى به بنيه، أن يحافظوا على «بناته» هذه بالترميم والتعهد حيناً بعد حين، فكان أولاده عند هذه الوصية...

فهذه ثلاثة قرون مضت، ولا تزال هذه «البنات» موضع عناية لهؤلاء البررة. (19)

ويقولون أن من حكايات سيدي عبد الله بن سعيد أن له نطفية في : «دراووغ» فمر به هناك بعض الملوك بجيش كثير، فأضربهم العطش في ذلك المحل، وهي معطشة الآن - فقال الملك لمن حضر : «من يقدر أن يسقيني أنا وجيشي؟» فلم ينتدب أحد... فكرر ذلك، فمثل بين يديه عبد الله ابن سعيد، وهو مشتمل برداء؛ فقال له : «أنا أسقي الجميع» فقال له : «أو تقدر على ذلك يا صاحب الشملة؟» فقال له : «ستري؟»، فمال بالجيش إلى نطفية له، كان قبل بناها هناك... فصار الجند يمرُّ بها، فيصْدِر رِيًّا، وهو يُناول لكل من شرب خبزة يتناولها من تحت إبطه حتى روى الجيش.. (20)

ثم تحدث الأستاذ محمد المختار السوسي بأنهم كانوا يذكرون أن عادة الشيخ أن يدور مع تلاميذه في القفار، فيؤسس النطفيات، حتى إنه أوصى

(19) المعسول، للأستاذ العلامة محمد المختار السوسي، ص : 94/1.

(20) المعسول، للأستاذ العلامة محمد المختار السوسي، ص : 80/1.

أولاده، كما تقدم، فيما أوصاهم به أن يقوموا على نطفياته، فقام بنوه على ذلك إلى الآن... «آل أكادير إيزري» هم القائمون بهذه المهمة لا يفرطون فيها، يعدون تلك النطفيات، اثنتى عشرة، وكانت تسمى «بنات الشيخ» عند المتحدثين، وذكر الأستاذ المختار السوسي رحمه الله بكاملها في كتابه الأنف الذكر، وعدد مواقعها وجهاتها في منطقة سوس المومنة العالمية...

هذا قل من كثر، وغيض من فيض، وبعض ما خلفه الأسلاف في هذا الميدان الخصب الرحيب، وهم كانوا، في ذلك، يترسمون خطى السلف الصالح، ويتأسون بما فعله الرسول عليه السلام والصحابة الذين كانوا يقفون المياه للظمأى والعطشى، ولمن أراد أن يسبغ وضوءه، سواء بحفر الآبار، أو جرها في قنوات...



## الإشراف على السقائين.. من اختصاص المحتسب :

ما زال كثير من السقايات، والمباني الأثرية قائما في المدن الإسلامية يسترعي النظر بغيرها وجمالها وعمارتها، (1) وعلى واجهتها آيات قرآنية بخط جميل تتفق وسيقاق المعنى، مثل قوله تعالى : ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (2) أو ﴿يَسْقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خَتَامُهُ مِسْكٌ، وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (3) أو ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (4).

وكان يتم تزويد مساكن المدينة بالماء العذب على يد السقائين وأصحاب الروايا والقرب ممن يحملون على ظهورهم أو على الدواب... وكان من اختصاص المحتسب الإشراف على السقائين فيأمرهم بالدخول في النهر حتى يبعدوا عن الشط، ومواضع الأوساخ، ولا يسقون من موضع النهر بقرب سقاية الدواب، أو مستخدم، أو مجرى عام، بل يصعدون عنه، أو يبعدون من تحته...

وفي سبيل المحافظة على المارة من البلل، فقد كان المحتسب يأمر السقائين بربط أفواه القرب، وأن يشدوا بأعناق دوابهم الأجراس،

---

(1) تحتفظ القاهرة مثلا، بعدد كبير من السقايات والأسبله التي تنتمي إلى عصور تاريخية مختلفة، في الزمن المملوكي كان يوجد في القاهرة أكثر من ثلاثمائة سبيل، وعندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر، أحصى علماءها 266 سبيلا، وعندما وضع علي باشا مبارك كتابه الموسوعي : «الخطط التوفيقية» في منتصف القرن التاسع عشر أحصى 145 سبيلا، أما المرحوم العلامة الدكتور عبد الرحمن زكي، فقد أحصى أسبله القاهرة الباقية حتى يومنا هذا، وبلغ عددها 65 سبيلا... [أسبله القاهرة] جمال الغيطاني

(2) سورة الإنسان، رقم الآية : 21.

(3) سورة التطفيف، رقم الآية : 26.

(4) سورة الإنسان، رقم الآية : 6.

وصفاقات النحاس والحديد لتعلو جلبة الدابة إذا عبرت في سوق أو في محلة. (5)

وفي عام 382هـ نودي بالسقائين في مصر أن يغطوا الروايا التي تحملها الجمال والبغال مملوءة بالماء ليلا يصيب الماء الذي يتساقط منها ثياب المارة. (6)

وقد بلغ عدد سقائي القاهرة في بعض الفترات، نحو ثلاثة آلاف؛ (7) وقد رأى الحسن بن محمد الوزان في القاهرة ضرباً من البراعة قام به أحد السقائين الذين يتجولون حاملين قرباً معلقة برقابهم... فقد راهن هذا السقاء آخر بأنه سيحمل قربة من جلد عجل، مليئة بالماء، ومر بوطه بسلسلة من حديد عدة أيام، وفي أثناء سبعة أيام متتاليات من الصباح إلى المساء، ظل يحمل هذه القربة المعلقة بسلسلة تمر فوق كتفه العاري إلى أن ربح الرهان... وقد تلقى تكريمات النصر الباهر، مع مركبته بمختلف الموسيقيين، وبكل سقائي القاهرة الذين يقارب عددهم ثلاثة آلاف. (8)

---

(5) الشيزري، ص : 177، ابن الإخوة، ص : 240، «جغرافية المدن عند العرب» عبد العالي عبد المنعم الشامي.

(6) الخطط : للمقريزي، ص : 2/108 - لقد وضعت شروط عديدة لمن يتولى وظيفة تزويد الناس بالماء، وقد نصت عليها كتب الحسبة، وكذلك وثائق الأوقاف، منها : أن يكون المزملاطي - وهو الشخص الذي يزود بالماء - نظيفاً، جميل الهيئة، سليم البدن من العلل، والأمراض المعدية، خال من العاهات، وموضع ثقة، وأن يعامل الناس بالحسنى والرفق، ليكون سبباً في إدخال الراحة على الواردين والقاصدين السبيل، كذلك يتولى نظافة السبيل، والعناية بالأدوات اللازمة له مثل الأقداح والكيزان، وأوعية الشراب، وأدوات التنظيف، نفس العناية الموجهة لتسهيل الماء، وكان المكان الذي تحفظ الأدوات، من أبريق، وقلل الفخار، يعرف باسم الخوستان أو الخرستان، أي الخزانة الخشبية...

(7) في العصر المملوكي بالقاهرة كان يوجد في القاهرة أكثر من ثلاثمائة سبيل فهم أول من اهتم ببناء السقايات، وأولوها عنايتهم، ووقفوا عليها الأوقاف الواسعة، وعند ما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر أحصى علماءها 266 سبيلاً...

(8) «وصف إفريقيا» لمحمد الحسن الوزان الفاسي، ص : 593، ط : المملكة العربية السعودية...

وكانت طريقة إمداد الناس بالماء في قسبة القطر المصري طريقة لا أثر فيها للرقى قط؛ فكان أهل مصر يشربون ماء النيل، يحملهم الحمالون في الروايا، ويصعدون الدور، كل طبقة بنصف دانق. (9)

ويحكي ناصر خسرو في عام 440هـ أنه كان بمصر والقاهرة اثنتان، وخمسون ألف جمل لحمل قرب ماء الشرب في هاتين المدينتين. (10)

وقد نصت وثائق الأوقاف المصرية، في معظمها على أن يكون الماء عذبا ومن النيل... وأن يتوفر الماء طوال العام صيفا وشتاء، خاصة في الصيف حتى يتزايد استهلاك المياه...

بل أن بعض الوثائق تؤكد أنه إذا رأى «الناظر» أن القدر المعين صرفه في كل شهر لثمن ماء السبيل يفضل منه شيء في أيام الشتاء لقلّة شرب الناس فيه، فيدخر الفاضل من أيام الشتاء لأيام الصيف، ويزيده في ثمن الماء المسبل في أيام الصيف، فيصرف الناظر في ذلك بما يرى فيه الحظ والمصلحة بحيث لا يفرط في ذلك، ولا يخرج في سلوكه عن السنن المتوسط». (11)

وتنص وقفية السلطان الغوري على تسبيل الماء في جميع أوقات النهار من شروق الشمس إلى غروبها، وحتى نزول الليل، وإيواء الناس في بيوتهم.. وانقطاع الرجل عن الطرقات.. يسري هذا في جميع الأيام عدا شهر رمضان، حيث نصت الوثيقة على ضرورة بدء تسبيل المياه أول وقت الغروب إلى أن يأوي الناس إلى مساكنهم...

(9) المقدسي، ص : 207.

(10) «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري»، لآدم ميتز، ص : 275/2.

(11) من وثيقة السلطان الغوري..

وقد وجد في الشام وقف لسقيا الماء المثلوج في الصيف لعابري السبيل، وقد يسقونه بماء الخروب أو غيره من الأشربة. (12) وفي مدينة مراكش يوجد وقف لسقي الماء المثلوج في أيام القيظ. (13)

\* \* \*

### الخدمات الصحية والسكن في مدن العصر الوسيط :

قدم جورج سكانيون «Georges Scanion» ورقة إلى ندوة المدينة الإسلامية في إكسفورد، (14) وموضوعها : «الخدمات الصحية والسكن في مدن العصر الوسيط»، تناول فيها عدة مواضيع طريفة، إذ أشار إلى اهتمام العرب في نظافة المدن، وأوضح أن كل مدينة لها نظام خاص بها، وأن السلطة هي التي تجهز الفرد بالماء، وأن هناك مراقبة يومية يقوم بها المحتسب لمتابعة تطبيق المبادئ الصحية، ووجود تزويد الشوارع بالماء يوميا... ومراقبة الباعة في ضرورة تنظيفهم الأجزاء المواجهة لحوانيتهم، وتجهيز محلاتهم بالماء. (15)

وهكذا ظهر السبيل كمبنى مدني ديني حيوي، وكعنصر من عناصر الرحمة التي تميز المدينة الإسلامية، بل يعتبر السبيل أبرز عنصر من عناصر الرحمة في المجتمع الإسلامي، حتى قال أحد الرحالة الأوروبيين في

---

(12) «حاضر العالم الإسلامي»، لأمير البيان شكيب أرسلان، ص : 3/8.

(13) المصدر السابق، ص : 3/10.

(14) لقد طرأ تحول على اهتمام المؤرخين الإنجليز نحو حقل التمدن الإسلامي، ففي حوالي عام 1965 عقدت جامعة إكسفورد أول ندوة من نوعها حتى هذه الفترة موضوعا : «المدينة الإسلامية» وقد جمع الأوراق التي قدمت إلى هذه الندوة، وحققها كل من البروفيسور «البرت حوراني» A.H Hourani والبروفيسور ستيرن S.M. Sretn، ثم طبع الكتاب بالتعاون مع معهد الدراسات «الشرق أوسطية» في جامعة بنسلفانيا في أمريكا عام 1970، والأوراق التي قدمت إلى هذه الندوة تتعلق بالمدينة الإسلامية من وجوه متعددة.

(15) «المدينة العربية الإسلامية في الدراسات الأجنبية» دراسة نقدية مقارنة د. عبد الجبار ناجي «المورد» العراقية مج : 9/ع : 4/1981.

القرن الخامس عشر : «أن ما نراه من الأسبلة الكثيرة في أي مدينة إسلامية، دليل على سمو خلق هذه المدينة...»

### نماذج كتابية لوقف السقايات :

وضع العلماء عدة نماذج كتابية لوقف السقايات وتحبيسها، من ذلك ما كتبه العالم الشيخ حسن العطار(16) في صورة الوقف على السقاية، فقال : «الحمد لله، الذي خص برحمته من شاء، وعم بنعمته من أحسن وأساء، وأنزل من السماء الماء، فسقى به العطشى والظمأى، وأجزل به على الحيوان النعماء، وصلى الله على من ختم به الأنبياء، المبعوث من أشرف بطحاء، محمد بن عبد الله الذي منحه الله الأصطفاء، وخص آله وأصحابه النجباء، بالرحمة والرضوان صباحا ومساء، وبعد؛ فإن «فلانا» لما تحقق أن الدنيا مؤذنة بالفناء والزوال، ومشيرة إلى أهلها بالارتحال والانتقال، وأنها مزرعة للدار الآخرة، وأن الآخرة خير وأبقى، استيقظ من نوم الغفلة، فنظر في يومه لغده، من قبل أن يخرج الأمر بيده، فرأى أفضل الأعمال، وأكثرها ثوابا يوم المآل، حسنة تتجدد مع الأيام، ومسيرة مقرونة بوصف

---

(16) في كتابه : «إنشاء العلامة الشيخ حسن العطار» ص : 104، طبع بمصر مرارا وحسن العطار شيخ الأزهر، (ت : 1250هـ) له تأليف عديدة منها حاشية على «جمع الجوامع» في الأصول، و«حاشية على الأزهرية» في النحو، و«حاشية على مقولات السجاعي» وحاشية على «السمرقندية»، في البلاغة، ط : بمصر عام 1288هـ، و«رسالة في كيفية العمل بالاسطرلاب»، والربعين : المقنطر والمجيب والسائط... وله رسائل في الطب والتشريح، و«ديوان ابن سهل الإسرائيلي» جمعه ويّبه، و«مذهب التقديس، بذهاب دولة الأفرنسييس» وغير ذلك [كنز الجواهر، في تاريخ الأزهر] لسليمان الزيتاني الحنفي، ص 118، «تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر» لشيخو، ص : 51 - 53/1].

وتوجد مكاتبات بين العربي الدمناتي الفاسي وحسن العطار المصري في هذا الكتاب : «إنشاء الشيخ حسن العطار»، ط : المطبعة العامرة العثمانية بمصر عام 1315، ص : 43/46/55/59... وللشيخ المكي البيطاروري الرباطي «منح الاوطار، من نفح العطار» شرح على رائية الشيخ حسن العطار [معجم الشيوخ، ص : 57، عبد الحفيظ الفاسي].

الدوام، يشفي بها غلة الصادي، وينتابها الحاضر والبادي، من الله بها على عباده أحياء وأمواتا، فقال عز من قائل : ﴿وَأَسْقِينَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا﴾ فوقف جميع الملك «الفلاني» على مصالح السقاية، الموضوعة داخل مدينة «كذا» في موضع «كذا» وقفاً صحيحاً يبدأ من أجرته بعمارتها، وما يفضل عن ذلك يصرف إلى مصرف السقاية ولوازمها من السطل والحبل والقوارير، وغير ذلك مما هو لازم، لتستقي منها أصناف المارين المجتازين عليها، فإذا انهدمت تلك السقاية، وتعدرت إعادتها، يكون ذلك وقفاً على السقاية : الفلانية «أو المسجد الفلاني»، أو غير ذلك، فإن تعذر ذلك كان وقفاً للفقراء والمساكين... ثم يكمل.. ويؤرخ.

\*\*\*

ولا بد أن نشير إلى الملك الكامل الذي أنشأ دار الحديث بالقاهرة وأجرى الماء من بركة الحبش إلى حوض السبيل، والسقاية على باب القبة المذكورة، ووقف غير ذلك من الوقوف على أنواع البر. (17)

### حتى الحيوان له نصيب من الوقف :

لم يكن الاهتمام بتقديم المياه العذبة إلى الناس فقط، بل وجد نوع آخر من المنشآت شمل أيضاً الحيوانات، قصد به الخيرون توفير ماء الشرب للدواب، مما يدل على اتساع أفق النظرة الاجتماعية للحضارة الإسلامية... وقد تعددت أحواض المياه التي أقيمت في المدن الإسلامية، وخاصة قرب أطرافها وأبوابها، لسقي الدواب، وحبست عليها هي الأخرى الأوقاف لتمكينها من تحقيق أهدافها...

من ذلك ما جاء في وثيقة وقف السلطان «قايتباي» من سلاطين المماليك الذين يعدون أول من اهتم ببناء الأسبلة، وأوقفوا عليها الأوقاف

---

(17) «حسن المحاضرة» للسيوطي، ص : 2/33.

الدّارة : «ووقف حوض السبيل المذكور، أعلاه، بالقرب من الجامع المذكور فيه... وفسقية الحوض المذكور المجاور له لاستقرار الماء الذي يجري إليها من غير الساقية المذكورة المعلقة، بذلك، لينتفع به في سقي الدواب المارين على ذلك والمترددین إليه، وفي غير ذلك من الانتفاعات الشرعية على العادة في ذلك، وجعله سبيلا لله»...

\*\*\*

وكان المصريون القدماء يعتنون بحيواناتهم، ويهتمون بها أيما اهتمام، ويشرفون بأنفسهم على تزويد ماشيتهم بالماء، ويتقربون إلى ألتههم بإروائها، فيحضرون جرار الماء النقي، ويضعونها أمام الماشية، ويرتبون عليها، ويلطفونها، ثم يستحثونها على الشرب...

\*\*\*

وكتب الفقه الإسلامي طافحة بالأحكام والشرائع المتعلقة بالحفاظ على حقوق الحيوان، وهي كثيرة، لا يتسع المجال لذكرها، ولا سيما في ميدان الإرواء...

من ذلك، مثلاً، ما قرره الفقهاء من وجوب القيام على سقي الدابة وإطعامها، وإذا قصر مالك الحيوان في ذلك، أجبره القضاء عليه... فإن لم يقم للدابة بما يجب عليه من حسن تغذيتها وسقيها باعها القاضي، ولم يتركها تحت يد صاحبها تكابد وتقاسي وتعاني من الآلام والأتعاب...

وقد غفر لامرأة مومِس مرت بكلب على رأس ركي، (18) يلهث، كاد يقتله العطش!! فنزعت خفها، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغفر لها بذلك، أي غفر الله لهذه البغي ذنوبها بسبب ما فعلته من سقي هذا الكلب... وعن عبد الله بن عمر أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إني أنزع في حوضين، حتى إذا ملأته لا بلي، ورد علي البعير لغيري فسقيته، فهل

---

(18) ركي : بئر.

لي من ذلك من أجر؟ فقال رسول الله ﷺ : «في كل ذات كبد حراء، أجر». (19)

وعن محمود بن الربيع أن سراقه بن جعشم قال : يا رسول الله، إن الضالة ترد على حوضي، فهل لي فيها من أجر إن سقيتها؟ قال : اسقها، فإن في كل ذات كبد أجرا. (20)

\*\*\*

لقد أوصى الشارع ﷺ بالهرة لكونها تطوف بالليل في البيوت، وحول النائمين، فتقتل الحشرات المؤذية، وتلتقط الفضلات المنتنة، وقد أصغى وأمال يوما بيده الشريفة الإناء إلى هرة بيته يسقيها، ويروي عطشها... فدل بذلك على أن سنورها طاهر، وإن كانت تأكل النجاسات أحيانا... لذلك نهى الشارع عليه السلام، عن إيذاء هذه العجماوات، وتوعد عليه في جملة أحاديث في وجوب الرفق بالحيوان قوله عليه السلام : «في كل كبد رطبة أجر»، ورطوبة الكبد، كناية عن رطوبته بدم الحياة.

\*\*\*

### الحيوانات يواسي بعضها بعضا :

وليس للإنسان الرحيم أن يفخر على الحيوان بخلق الرحمة والشفقة، فإن الحيوانات، أيضا، تتراحم، ويواسي بعضها بعضا... وقد روى الشيخ عبد القادر المغربي أن طائفة من علماء الأزهر، كانوا يفطرون في مساء رمضان على سطح بعض أروقة الجامع، فغشيهم هُرٌّ، فكانوا يلقون إليه من طعامهم المرة بعد المرة، وهو في كل مرة يغيب، لا يلبث أن يعود، فراهم أمره، وتبعوه، وإذا به يُلقى ما يأخذه من الطعام بين يدي سنور كبير أعمى لا يد في بعض الخرب، فوقف الشيوخ حيارى، ومجدوا الربّ تعالى الذي رحم العالمين بإيجاد عاطفة الرحمة في

(19) رواه أحمد، ورواته ثقات مشهورون.

(20) رواه ابن حبان في صحيحه، ورواه ابن ماجة، هذا الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة مرفوعا. وفي رواية : «في كل ذات كبد رطبة أجر» وفي الباب عن سراقه عند البيهقي بلفظ : «في الكبد الحارة أجر [كشف الخفاء، ومزيل الإلباس، ص : 2/134].



نفوسهم، ولولاها لأصبح الكون خراباً يَبَاباً، ولكانت الحياة فيه عذاباً...

وفي «البداية والنهاية» لابن الأثير : حكى عن الشيخ الصالح عز الدين عبد العزيز بن عبد المنعم بن الصقيل الحراني (594 - 686 هـ) أنه قال : كنت مرة بِقُلُوبٍ من (قُرَى مصر) وبين يدي صَبْرَةٌ قمح، فجاء زنبور، فأخذ حبة واحدة، ثم ذهب بها، ثم جاء، فأخذ أخرى، ثم ذهب بها، ثم جاء بأخذ أخرى أربع مرات، فاتبعته، فإذا هو يضع الحبة في فم عصفور أعمى بين تلك الأشجار التي هناك...

\*\*\*

ويعترضنا في هذا الباب حديث شريف يقول : «ما من امرئ يحي أرضاً، فيشرب منها ذو كبد حَرَى، أو تصيب منه عافية إلا كتب الله له بها أجراً» والعافية هنا كل طالب رزقٍ من إنسان أو بهيمة أو طائر، فالشارع عليه السلام يقول للزارع : إن لك من وراء منفعتك الخاصة الحاصلة من إحياء الأرض، منفعة أخرى عامة خفية عنك، وهي الأجر والثواب على ما تتناوله الطيور والدواب من ماء أرضك وثمارها، وإن كنت، أنت، أحياناً تكره ذلك، ولا تريده، على حد ما ورد في الأثر : «يؤجر المرء رغماً عن أنفه».

\*\*\*

وحديث «كل ذي كبد رطب أجر» رأيتُ أبا عمر، قال : يلزم عليه أن الإساءة إليه فيها وزر، والوزر، والمنكر يجب تغييره، كما أشار إليه ابن عرفة، ولو كان الناس يزجرون بقول الأمام لهم : إتقوا الله في كذا، ما شرعت الزواجر، والقتل، والسجون، والتعزيرات.(21)

---

(21) من كلام علي بن رحال، شارح مختصر خليل، فانظره لدى قول خليل : «إنما تجب رقيقه ودابته، ما لم يكن مرعى، وإلا بيع كتكليفه من العمل مالا يطيق...

وقد علق الشيخ محمد عبد الحميد الكتاني على قول أبي علي بن رجال الذي أتى وجلب من الأنقال في المسألة ما يسوغ لنا أن نجعله في طليعة جمعيات الرفق بالحيوان العجم يتخذونه قدوة، ونعم الأسوة. (22)

\*\*\*

ومن السقايات المعدة لسقي الدواب من الخيل وغيرها، بمدينة سبتة المغربية سقاية : «حي الميناء» العظيم الهيكل المشهور الذي ابتناه الفقيه الرئيس أبو القاسم العزفي، وخلده أثرا غريبا بعده رحمه الله. (23)

وقد تحدث ابن مرزق في «المسند الصحيح الحسن» عن السقايات التي يتيسر فيها تناول الماء للشرب والطهارة والانتفاع... فقال معلقا على كلام الفقيه الإمام نور الدين أبي الحسن علي بن محمد بن فرحون اليعمري : «... وصدق، فإن أكثر السقايات المعدة للاستسقاء وسقي الدواب بفاس...».

وأنشأ السلطان السعودي الغالب بالله جامع الأشراف لحومة المواسين من مراكش، والسقاية المتصلة به التي عليها مدار المدينة، فهذه السقاية مخصصة لسكان الحي الذين يأتون للتزويد بالماء على اليسار، وهي مفصولة بجذع شجرة لمنع الحيوانات من تلويث الماء، ويوجد حوض مائي لسقي البهائم. (24)

\*\*\*

---

(22) نظام الحكومة النبوية، ص 154/2.

(23) «اختصار الأخبار، عما بثغر سبتة من سني الآثار» لمحمد بن القاسم الأنصاري السبتي، ص : 43.

(24) أنظر الإعلام، للمراكشي، ص : 89/1 والمؤسسات الخيرية لجوزيف لوسيون، ص : 74 - 75. ط: الملكية بالفرنسية.

قال الإمام القرطبي في شرح قوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ، أَنِ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ، أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾. (25) فيه ثلاث مسائل :

الثانية : في هذه الآية دليل على أن سقي الماء من أفضل الأعمال... وقد سئل ابن عباس : أي الصدقة أفضل؟ فقال الماء.. أو لم تروا إلى أهل النار حين استعاثوا، بأهل الجنة : ﴿أَنِ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ، أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، وروى أبو داود، أن سعداً أتى النبي ﷺ، فقال : «أي الصدقة أعجب إليك» قال : «الماء.. وفي رواية، فحفر بئراً، وقال : «هذه لأم سعد، وعن أنس : قال سعد : يا رسول الله، إن أم سعد، كانت تحب الصدقة، أفينفعها أن أتصدق عنها؟ قال : «نعم»، وعليك بالماء...

وفي رواية أن النبي ﷺ أمر سعد بن عبادة أن يسقي عنها الماء.... فدلَّ على أن سقي الماء من أعظم القربات عند الله تعالى...

وقد قال بعض التابعين : من كثرت ذنوبه، فعليه بسقي الماء، وقد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب، فكيف بمن سقى رجلاً مومناً موحداً وأحياه... وفي حديث عائشة عن النبي ﷺ : «ومن سقى مسلماً شربة ماء حيث يوجد الماء، فكأنما أعتق رقبة، ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث لا يوجد الماء، فكأنما أحياه، (26) أي أثنى عليه، أو قبل عمله ذلك، أو أظهر مما جازاه به عند ملائكته...

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : «بينما رجل، يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فنزل بئراً، فشرب منها، ثم خرج، فإذا كلب يأكل الثرى من العطش، فقال : «لقد بلغ هذا الكلب، مثلاً الذي بلغ بي، فملاً خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي، فسقى الكلب، فشكر الله

(25) «الجامع لأحكام القرآن»، ج : 7 / ص : 215.

(26) خرَّجه ابن ماجه في السنن.

له، فغفر له» قالوا يارسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً ( قال : «في كل ذات كبد رطبة أجر».(27)

وعكس هذا ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله عليه السلام، قال : عُذِبَت امرأة في هِرَّةٍ، فسجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها ال النار، لا هي أطعمتها وسقته، إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش(28) الأرض....

ورحم الله أبا العلاء المعري الذي كان يرى بأن نحسن إلى الطير بشربة ماء، ونوفر عليها الورود إلى السواقي، فهي أجدر بالإحسان من أفراد الناس، لأن ليس في طبعها من الأذى ما في طبعهم؛ فقال :

تصدق على الطير الغواصي بشربة  
من الماء، واعددها أحق من الإنس  
فما جنسها جان عليك أذية  
بحال، إذا ما خفت من ذلك الجنس

---

(27) رواية البخاري وأحمد وابن ماجه : «في كل ذات كبد حرّاء أجر».

(28) خشاش الأرض (مثلثة الخاء)، هوامها وحشرات.

(29) «اللزوميات»، ج 1/ 563.

## مؤسسة السقايات في المملكة المغربية

لقد بالغ المغاربة في وقف السقايات، وتحبب أحواض الماء، كما بالغوا في تجميلها بألوان معجبة من الفنون الزخرفية، وأنواع البناء الجميل، والزليج الرفيع تقديراً منهم للماء، وأهميته في المجتمع البشري، والذي يعتبر عنصراً من عناصر الحياة، وقواماً للمدنية والحضارة، وقد أصبح فنُّ زخرف السقايات كما قال : «تيراس» فناً قائماً بذاته بالمغرب، حينما تكلم عن الفن المغربي في عصر بني مرين، بل إن موضوع السقايات، ولا سيما في العصر المرابطي والموحدي، بحاجة إلى دراسة؛ وتمتاز السقايات المرينية بهندسة خاصة، وطابع ممتاز، يميزها عن نظيراتها المرابطية والموحدية، حيث تُبنى وتشيد في شكل صهاريج صغيرة نسبياً، مستطيلة، وقليلة العرض، وتُزين واجهتها بالفسيفساء الدقيقة، فضلاً عن زخرفتها بالنقش المحفور - أحياناً، في الجبس والخشب..

ومما يجدر ذكره أن المغرب منح هذه السنة منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة - اليونسكو - نافورتين من فاس، بمناسبة الاحتفالات بالذكرى الخمسين لإنشاء هذه المنظمة.

وقد تم إنجاز هاتين النافورتين اللتين أشرف على تدشينهما السيدان «فيدريكو مايور» المدير العام لمنظمة اليونسكو، وسفير المغرب بفرنسا، وفق التقاليد الأصلية لفن الزليج المغربي...

وتُذكرُ هاتان النافورتان اللتان بتوسطان أحد صحن مقرر المنظمة بباريس بنافورات مدينة فاس الشهيرة التي تم ترميمها في إطار الحملة التي تشرف عليها منظمة «اليونسكو» لحماية تراث المدينة التي تعتبرها المنظمة جوهر الحضارة الإسلامية.

ولقد نشر العلامة «ألفريد بل» A. Bcl ذلك في عام 1918 بحثاً بعنوان :

.Les industries de la céramique à Fés : Alger - Paris 1918

ويشتمل هذا الكتاب على مقدمة وخمسة أبواب، حيث تناولت المقدمة أن الزليج كان متطوراً ورَاقياً بالمغرب أيام المرينيين، ومن حيث المنتجات من الفخار المموه مثل الجرّار والأطباق والأوعية، وقناديل الزيت، فبدون شك تكون فاس قد عرفتها منذ وقت طويل مثل مصانع إسبانيا وتلمسان وقلعة بني حماد».(1)

\*\*\*

والمغرب يمتاز بعدة أسبلّة للمياه، وكانت النطفيات منتشرة في أنحاء البلاد، وفي سائر المدن، ولا سيما بدكالة وما إليها، حيث أثارت انتباه ابن الخطيب، وهو يمر بهذه المنطقة فيقول : ... ومن الغد سلكننا وطن بني شاكر، وهو كثير العمران، فنَعَدُّ الديار والأشجار، سقية من نطفة عذبة، تختزن بها بركات الأمطار، فيقع به أمنهم، والاجتزاء إلى زمن المطر...». ويقول، أيضاً، الوزير لسان الدين ابن الخطيب في «معيار الاختيار، في ذكر المعاهد والديار : (2) «... ماؤه معين، وحُوره عين، وخلوته - على النُّسك وسواه - تعين، وبه الحَمّام، والنطف، الجَمّام، (3) ولأهله بالصيداه اهتمام...».

\*\*\*

---

(1) «دراسات جديدة في الفنون الإسلامية، والنقوش العربية بالمغرب الأقصى» لأخينا الدكتور عثمان عثمان إسماعيل.

(2) دراسة وترجمة إسبانية للنص العربي، للدكتور محمد كمال شبانة.

(3) النطف الجمّام، وتجمع النطفة على نطاف، وهي ما يجتمع من ماء المطر في موضوع: قال تأبط شرا يصف غدراناً تجمعت من سيل عظيم خلع الصخر من مواضعه: [الأصمعي: الأصمعيات ص: 135].

وشعب كشل الشوب شكس طريقه

مجامع صُوحيه نطاف مفاصر

به من سيول الصيف بيض أقرها

جبار لصم الصخر فيه قراقر

[الصُّوحان : بضم الصاد وفتحها، جانباً الجبل، أو حائطاً الوادي...]

وقد تحدث ابن مرزوق في «المسند» عن السقايات التي يتيسر فيها تناول الماء للشرب والطهارة والانتفاع، وفضل الماء وسقيه وإغاثة اللهفان به، والتي أنشأها أبو الحسن المريني، فقال في الفصل الأول من الباب الرابع والأربعون : «أخبرني الفقيه الإمام نور الدين أبو الحسن علي بن محمد بن فرحون اليعمري بالمدينة شرفها الله، قال : «ممررت في بلاد المغرب بسقاية ولا مصنع من المصانع التي يعسر فيها تناول المياه للشرب والوضوء.. فسألت عنها إلا وجدتها من إنشاء السلطان أبي الحسن رحمه الله..» وقد علق محمد بن مرزوق التلمساني على هذه المقولة فقال: «وصدق، فإن أكثر السقايات المعدة للاستسقاء وسقي الدواب بفاس، وبلاد المغرب معظمها من بنائه رضي الله عنه..»

ثم قال : وأما عمله في جلب الماء لداخل مدينة سلا، وإنفاقه في ذلك، الأموال الطائلة حتى أوصله من الموضع المعروف بمرج حمام إلى الجامع الأعظم بداخل المدينة، وذلك أميال (فاله يكتب له أجره)..

وكذلك عمل في تلمسان في «منشر الجلد» «وسويقة إسماعيل» وغيرها بتلمسان وغيرها.. في مواضع لم يعد فيها جري الماء والانتفاع به، ولما دخل مدينة تونس، لم يكن عنده أهم من النظر في ردمائها الجاري في القديم إلى الجامع الأعظم جامع الزيتونة، فأمر بجمع الرصاص وعمله، وعين الصيפור الذي ينتقل لوسط الجامع وموضع الميضأة.(4)

\*\*\*

### وقف الماء لسيدي إبراهيم التازي :

المغاربة شغفوا بوقف السقايات حتى في خارج القطر، ويكفي أن نشير إلى أن الماء الذي وجد بمدينة وهران بالقطر الجزائري كان من وقف

---

(4) «المسند الصحيح الحسن» ص : 417 - 418، لمحمد بن مرزوق تحقيق. د. ماريّا خيسوس بيغرا...

سيدي إبراهيم التازي،(5) تلميذ السيد محمد الهواري؛ فقد أدخل الماء إلى مدينة وهران سيدي إبراهيم التازي، وهو وقف من غُرر الدهر، وحسنات الزمان، فأعظم بها صدقة جارية، مثلها يعد للمعاد، وآية من آيات ولايته إلى يوم التَّناد، وقد رامه قديما من نزل وهران من الملوك، وأهل جباية الأموال، فلم يهتدوا إليه، وأعوزهم سبيله، وأخر ذلك إلى زمانه، لتثقل به كفة ميزانه، وكيفية وصوله مما يحار فيه أهل النظر والاعتبار، ويضيق عن غاية إبداعه ذوو الأيدي والأبصار..

### آثاره تنبيك عن أخباره

حتى كأنك بالعيان تراه

قال أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي(6): ومن تأمل هذا الكلام علم أنه أتى بهذا الماء من مكان بعيد خلافا لما يعتقد الناس من أن أصله بين أبراج البلد، وربما أرشد إلى ما قلناه قول سيدي الحسن ابن مخلوف، وقد ذكر عنده الماء المذكور بحضرة بعض حفدة سيدي محمد الهواري لو شاء جر هذا لأتى به من «تأسالة»، فهذا الكلام يومي إلى بعد مقر الماء عن البلد، وقد عينه «سيد الزعيم» حيث قال من الملحون :

---

(5) إبراهيم التازي من قبيلة بني لنت، قرب بني مقورة، بإقليم تازة، ولد، ونشأ وشهر بها، ارتحل إلى الحج، والتقى بجماعة من العلماء، ثم قدم تونس، فأجاره علماؤها، ثم ورد تلمسان، فأخذ عن ابن مرزوق، وأجازه، ثم أتى وهران لزيارة سيدي محمد الهواري، فمنعه من مفارقتها لعلمه أنه وارث سره، وكان يقرئ مختصر الشيخ خليل بغير مطالعة شرح، قبل أن تكثر عليه الشروح (ت866هـ) بوهران، ويعتقد الناس أنه مدفون بالقلعة [الثغر الجماني ص: 191] انظر: «روضة النسرين، في مناقب الأربعة الصالحين» تأليف ابن سعد: محمد بن أحمد بن أبي الفضل سعيد الأنصاري التلمساني (ت بمصر: 901هـ - 1496م)، فتوجد ضمن الأربعة: ترجمة لأبي إسحاق إبراهيم التازي والأشياخ الباقية الأربعة هم: أحمد بن الحسن الغماري، والحسن أبركان، ومحمد الهواري - [روضة النسرين مخطوطة في: خ.ع، حرف: ك، 1006، ثانية مجموع]. انظر: نموذجاً للتبادل الثقافي بين المغربين : دراسة حول «إبراهيم التازي»، للأستاذ محمد المنوني مجلة «دعوة الحق»، ع : 270 / يوليو 1988.

(6) «الثغر الجماني، في ابتسام الثغر الوهراني» تأليف الراشدي تحقيق وتقديم الأستاذ المهدي البوعبدلي ص 190.



غاست الأشراف وأين هو زيان  
وإبراهيم الظريف التازي يذكر  
كانت دار القرار له وهران  
جمع رأس العيون من يفرى للحر

قال الراشدي : حدثني المشيخة من أهل وهران، أن سيدي إبراهيم لما  
أدخل الماء وهران، سُرَّ به أهلها أشد السرور، لأنهم كانوا في مشقة عظيمة  
من قلة الماء، ومكابدة السقيا من العيون من الصباح إلى المساء، فوقاهم  
المشاق الصعبة، وسقاهم الماء الذي جعله الله حياة كل ذي كبد..  
وقد قالوا : وما بنى سيدي إبراهيم التازي شيئا إلا وأشهد بوقفه لله  
تعالى، ولم يترك لولده منه، ولا قلامة ظفر...(7)

\* \* \*

وقد اشترى الباي أبو عثمان السيد محمد بن عثمان التركي ما كان  
مملوكا من المواطن التي حفر له فيها، وجعل من هذا الماء سقايات  
للسبيل، فروى بها أهم تلك الناحية بعد الظمأ الملازم، والتعب، وحيى  
مواتهم وتباشر بنيتهم ونباتهم.(8)

\* \* \*

### سقايات مدينة سبتة :

أما عدد السقايات الموجودة بمدينة سبتة، فخمسة وعشرون سقاية،  
أبدعها صنعة ووضعها، السقاية التي بطرف العطارين، وأول سماط العدول،  
وبإزاء باب الشواشين من أبواب الجامع ذات العنابيب النحاسية والألواح  
الرخامية والزخرفة والتنميق.

---

(7) المصدر السابق ص : 185 - 190 - 191.

(8) المصدر السابق : ص : 128.

ومن آثار الحاج محمد بن الحاج عمر لُوقَش من قواد مدينة تطوان  
البارزين (تـ1776م) سقاية باب العقلة، وسقاية باب التوت، وكلتاهما من  
المعالم الحضارية الجميلة بمدينة تطوان.(9)

\* \* \*

### وقف السبيل لسقي الدواب :

ولم يكن الاهتمام بتقديم المياه العذبة إلى الناس فقط، بل شمل ذلك  
أيضا الحيوانات، وهي علامة من علامات الرحمة والرفقة والإحسان، وقد  
عرفت الساحة الإسلامية في مسيرتها الحضارية الرائعة كثيرا من أحواض  
المياه الموقوفة سبيلا لله، لسقي الدواب... فكانت البغال والحمير  
والأحصنة تصطف حول هذه الأحواض لتعَبَّ الماء بينما يتناثر فوق مياهها  
ذرات التبن...

\* \* \*

ومن السقايات المغربية المعدة لسقي الدواب، بمدينة سبتة، من الخيل  
والحمير والجمال وغيرها سقاية «جب الماء» العظيم الهيكل، المشهور الذي  
ابتناه الفقيه الرئيس أبو القاسم العزفي، وولد أثرا غريبا بعده رحمه الله  
تعالى، صهريجان مشتركان كان يمد أحدهما الآخر. قد أحكم الأسفل  
والأعلى منهما، فرش بألواح الصخر المنجور أتم إحكام وأعمله...  
ومن ذلك سقاية القبة بالربض البراني صهريج مستطيل متصل ببئر  
معينة قريبة التناول طيبة الماء... وعليها قبة على أربعة أعمدة، وإلى  
جانباها آبار متعددة للسبيل، وربما تبلغ الثمانين...(10)

---

(9) «إشارات حول الإشعاع الفكري والحضاري لمدينة تطوان» للأستاذ المرحوم المجاهد محمد  
العربي الشاوش، دعوة الحق. ع: 229 ص: 70، ماي / يونيو : 1983.  
(10) اختصار الأخبار، عما كان بسبتة من سنى الآثار» لمحمد بن القاسم الأنصاري السبتي  
ص : 43.

## سقايات مدينة فاس :

وقد بنى أبو الحسن بن أبي سعيد المريني، وهو ولي عهد في حياة أبيه حول مدرسة الصهريج بفاس سقاية، ودار وضوء، وفندقا لسكنى طلبة العلم، وجلب الماء إلى ذلك كله من عين خارج باب الجديد أحد أبواب فاس، وأنفق على ذلك أموالا جلية تزيد على مائة ألف دينار، وحبس عليها رباعا كثيرة.(11)

وأجرى أبو الحسن المريني لهذا الجامع الأعظم بفاس نهرا يشق من أصل المدينة إلى الجامع المذكور في سقاية تمر، وتجرى منها سقايات متعددة...

وهذه سقاية «ابن حيون»، بفاس، أول حي المخفية، ثم سقاية سوق العطارين جوار موضع مستشفى فرج، وهذه تتوجهها كتابة تذكر أن الأمر بإنشائها هو عبد الحق آخر سلاطين بني مرين، على يد وزيره أبي زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي، وكمل تشييدها، وفجر مأوها أول جمادى الأولى عام 1436/840، ثم تلاشت، وجددت عام 1090.

\*\*\*

فتأسيس السقايات العمومية هي ليست، فقط، عملا للصالح العام، ولكنه عمل وقف مهم جدا. سواء في قارعة الطريق، أو داخل المسجد لأجل إسباغ الوضوء.(12) من طرف الواقفين المحسنين، أجزل الله ثوابهم... وقد قدم لعمل البيلة والخصلة اللتين بالصحن بجامع القرويين رجل من سجلماسة يعرف بالفقيه أبي الحسن بن عبد الله السجلماسي، وكان من أهل اليسار والدين والإيثار، صنعهما له موسى بن حسن بن أبي شامة...

(11) الأنيس المطرب، لابن أبي زرع ص : 280.

(12) لزين الدين ابن نجيم المصري الحنفي : «الخير الباقي، في جواز الوضوء من الفساق» [كشف الظنون. ج: 1/ص: 960].

وكان من أهل المعرفة بالبناء والهندسة بعد أن استشار في ذلك الفقيه الصالح يسكر الجورائي، فأسعد بذلك مواده، وعمل البيلة وما حولها من الرخام الأبيض، جعل طولها اثني عشر شبراً، وارتفاعها ستة أشبار، وعمقها كذلك، وجعل مما يقابل الواقف شباكاً من الرخام الأبيض من أربعة وعشرين ومائة خاتم مسدسة الإحكام، وكتب تحته في حجر منقوش بخط بارع: (13) «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم: «وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منهنَّ لما يَشَقُّ فيخرج منه الماء، وإن منها لما يَهْبِطُ من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون»». (14)

وأما السقاية والبيلة (15) المستطيلة التي بباب الحُفَاة، وعن يسار الخارج منها، فالباني لذلك هو المظفر بن المنصور ابن أبي عامر حاجب هشام المؤيد، وجلب الماء إليها من وادي حسن الذي بأعلى المدينة من ناحية باب الحديد. (16)

قال البكري في مسالكة : إن جامع الأندلس بفاس كان من ست بلاطات... وساقية غزيرة كانت به تعرف بساقية مصمودة. (17)

ويكفي أن نعلم أن مدينة فاس وحدها، أحصى زمن المنصور والناصر الموحيين ثمانون سقاية عمومية... كما في «زهرة الآس...»

\* \* \*

(13) جذوة الاقتباس، لابن القاضي ص : 1/72.

(14) سورة البقرة، آية 74.

(15) البيلة : حوض النافورة، وترادفها في الاستعمال أحياناً لفظة - خصّة - وهي بالإسبانية والإيطالية Pila [نفج الطيب، تحقيق إحسان عباس ص 1/206 وقال القاضي المزدي يمدح مدينة فاس من قصيدته:

وَأَشْرَبَ بِتِلْكَ الْبِيلَةِ الْحَسَنًا بِهِ  
وَكَرَعَ بِهَا، عَنِّي، فَدَيْتُكَ، وَأَنْهَلَ

[نفج الطيب ج : 129/7]

(16) جذوة الاقتباس ج : 1/ ص : 56.

(17) وما تزال، جذوة الاقتباس ص : 78.

وهناك وثيقة عن توزيع مياه فاس العتيقة، كتبها ابن إبراهيم الدكالي: محمد العربي بن عبد السلام الفاسي، كان بقيد الحياة عام 1127هـ - 1715م. «قدم لها، ونشرها - عن مخطوطتين خاصتين الأستاذ عبد القادر زمامة في مجلة «البحث العلمي» عدد: 31 - ص 141 - 150. (18)

\* \* \*

### سقايات تتحدث عن نفسها :

من مآثر أحمد المنصور الذهبي، بناء القبة على الخصة بصحن جامع القرويين، وقد رأى أبو العباس أحمد المقرئ صاحب «روضة الآس» هذه القبة، وقد أكملت صنعتها إلى الغاية، وجعل على خارجها وداخلها الذهب الأحمر، فهي عبرة لمن اعتبر، وجعل مكان خصتها القديمة، خصة عظيمة سيق رخامها من بلاد فرنسا بناها في عام 996هـ... وفي ذلك قال الشيخ الإمام العلامة القاضي أبو العباس أحمد بن القاضي المكناسي، مما يكتب داخل القبة المذكورة المزركشة بأنواع الألوان والنقوش والمقربس، وغير ذلك من أنواع الصناعات هذه الأبيات مضمنة التاريخ وهي تتحدث عن نفسها :

كُهِفَ الملوک أبو العباس أنشاني  
بحر المکارم من معد بن عدنان  
عين السلاطين من أبناء فاطمة  
إنسان عين غدا في عين إنسان  
حزت المفاز بالمنصور أجمعها  
ومن علاه سنام المجد أوطاني  
من جاء يشكو الظما يوما وقبلي  
أغناه ما قد هما، من صوب أجفاني

(18) ولها ترجمة فرنسية قام المستعرب الفرنسي، أ. س. علوش، ثم نشرها في مجلة هسبريس، مج: 18، عام 1934 - ص : 49 - 63.

لا تنكرن وجود الدمع من فرح  
 فالعين تدمع من إفراط سلوان  
 واشرب هنيئاً من السلسال، لا حرج  
 معين دمع جرى من بيض خلجان  
 فخر الخلائف والأقيال من مضر  
 أشاع صيتي في أطراف عمان  
 ومن جرت مقلتي حكّت سحائبها  
 كف الخليفة من أبناء زيدان  
 لازال للدين والدنيا يسوسهما  
 ما هيحت عاشقاً ورق بأفنان  
 أنشاني زمن التاريخ وافقه  
 (للدين) والأجر بحر الجود أجراني  
 وقد كتب في خارج هذه السقاية الأديب الكاتب أبو العباس أحمد بن  
 محمد الغرديسي التغلبي هذه الأبيات:  
 حسن سنا منظري يستوقف النظرا  
 وفائق الصنع مني طرز الطررا  
 حباب ماء، من الدر النثير غدا  
 وصوب وردي من ذوب اللجين جرى  
 لا ينثني راشف ثغري من ظمأ  
 إلا ويحمد مني الورد والصّدرأ  
 من أمّ قربي بفرض أو بنافلة  
 يجد معيني، مُعيناً للطهور سرا(19)

\*\*\*

(19) «روضة الآس، العاطرة الانفاس، في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس» لأبي العباس أحمد المقرئ ص : 21 - 22.

وقد أنشأ المولى إسماعيل، أيضا، في عام 1126هـ، بالضريح الإدريسي سقاية أنيقة أبدعت اليد الصناع المغربية في وشيها ما شاءت، ونمقت بأنواع الزخرفة والنقش البديع والألوان المتناسقة الجذابة، وأجرى الماء بأنابيبها الوهاجة، يدل لذلك ما هو مكتوب في الرخامة التي هي الآن بين سقايتي العين بالحائط المواجه للصحن عن يمين الخارج من باب الحفة أحد أبواب الضريح الإدريسي، ولفظه: «الحمد لله، من سعادة الدولة المولوية الهاشمية العلوية الشريفة الإسماعيلية، ويمن طلعتها واعتنائها من المآثر الحميدة بفرضيتها وسنيتها ورغبتها، أسس هذه السقاية البديعة، وما انضاف إليها من الأعمال الجديدة الرفيعة، بعد استنباط مائها الجاري من مكانه الخفية، وإيصاله لها بطرق غريبة، وأعمال هندسية، إذ بوجوده، أطال الله بقاءه، تهيأت هذه الأمور، ومن بركته ظهر منها ما لم يكن له قبل ظهور، وكان المنتدب لذلك، والقائم عليه، خديم دولته، وربيب نعمته القائد أبو علي ابن القائد عبد الخالق ابن القائد عبد الله ابن القائد حمدون الروسي، فبذل، فيما يبيض وجه مولانا نصره الله، من هذه الفائدة المجهود، وخدم هذا المقام الإدريسي بما يُرجى له بلوغ المقصود، وحاز هذه المنقبة بزمان الإقبال، وفاز بصالح الدعاء من المنتفعين بمائها على مرّ الليال، وكان البدء لما ذكر والتمام في النصف الأول من عام 1126هـ والسلام. (20)

وفي هذه السقاية يقول أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الدلائي:

لئن كان هذا الماء جاء مسيرا

لإدريس، نبعا، من خفي مواضعه

فلا عجب، في ابن الرسول، الذي غدا

وفيض نмир الماء شأن أصابعه (21)

والبيتان مما كان نقش بأعلى السقاية (22)

(20) «الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين الزاهرة» للنقيب ابن زيدان ص : 44.

(21) المصدر السابق، ص : 45.

(22) المصدر السابق ص : 45.

قال في عقد الحبس لهذا الماء: «... وقد شرط هذا الحبس أن لا يبدل هذا الماء عن حاله، ولا يغير عن سبيله، ولا يخرج عن قراره، ولا يحول شيء منه عن مجراه، ولا يهدى ولا يعطى، ولا يقتنى ولا يعار، ولا تعقد في كثيره ولا قليله معاوضة ولا استيجار، ولا تتطال إليه الأبصار، من قريب ولا من بعيد ولا من جار، ومن اختلس منه بخلسة، أو دس فيه بدسة، أو تحيل بحيلة أو غيلة، فالله تعالى حسيبه، وهو عليه وكيل يوم يقف بين يديه.

وكان الإشهاد عليه بتحبيس ماء مسجد الشرفاء في أواخر محرم 1126هـ. (23)

وفي عام 1127هـ أنشأ المولى إسماعيل سقاية لطيفة بالجدار الجنوبي من المدرسة الرشيدية من جهة نهج الشراطين، نقش في زليجة أعلاها شعر يتضمن تاريخ البناء، وشكر الباني، يقول فيه على لسان السقاية :

انظُرْ بـدائعِ صُنْعي  
هل البديع نظيرُهُ (24)  
بأمر مولاي اسما  
عيل (جاء غزيرُهُ، 1127)

أشار بلفظتي : «جاء غزيرة» للتاريخ المشار إليه...  
وحبس ماءها الجاري بها، وشرط فيه نفس ما شرطه في تحبيس ماء سقاية الضريح الإدريسي بتاريخ أواسط 3 ذى القعدة عام 1127هـ، وجمع الحبسين معا في عقد واحد، قال شهوده: وتاخر كتبهما معا هنا في أواخر

(23) نفس الصفحة والرقم.

(24) المصدر السابق.



القعدة المذكورة، وقد نقل صاحب «الأزهار العاطرة الأنفاس» نص عقد هذا التحبب برمته...

\* \* \*

ومن تأسيس المولى إسماعيل سقاية جامع «عقبة بن صوال» التي أسسها عام 1125هـ يدل لذلك ما هو مكتوب بأعلى سقاية كنف جامع العقبة المذكورة وعليها هذه الأبيات على لسان السقاية :

يا ناظرأ قد سره  
حسن صنعي الظاهر  
متّع لحاظك هنا  
في ذا الجمال الباهر  
هذي مآثر بني المو  
لى الشريف الطاهر  
هم أبدعوها نزهة  
وسلوة للخطاظر  
عوننا لطالب الهدى  
من وارد وصاادر  
جزاهم إلهنا  
خيراً ليوم زاهر  
ومن أعوانهم على  
أمرٍ بأجر وافر  
وان تر تاريخه  
(أجاده للناظر 1125)(25)

---

(25) المصدر السابق ص : 52.

وذكر مولاي عبد الرحمن بن زيدان، أيضاً، في كتابه «الدرر الفاخرة»  
أن المولى محمد بن عبد الله أسس سقاية «عين البغل» من حومة العيون  
عام 1196، وقد نقش شعراً في زليج أخضر على صورة البيضة ولفظه:

شاد حسني وجمالي  
نزهة للناظرينا  
..... عبد السلام  
أشرف الحكام فينا  
ماء وادٍ من ندهاه  
به قد زان العيوننا  
نزه الألحاظ واشرب  
واغترف ماء معيننا  
وادعُ لاسمي (الجعيدي)  
وأمير المومنيننا  
نقش تاريخي (ويغفر 1196)  
للذي قال آميننا (26)

ومن مآثر السلطان أبي زيد عبد الرحمن بن هشام، إنشاءه لسقاية  
السبيل «بحومة النجارين» يدل لذلك ما هو منقوش في زليج أعلى قوسها  
ولفظه:

خليلي مُرُ بالسبيل لترتوي  
بعذب مَعِين من رحيق معتق  
وتُحي نفوساً من زلال سقاية  
قد اربت بنشره على كل مرتق

---

(26) المصدر السابق ص : 58.

هنيئاً مريئاً، بالفرات شربته  
بثغر عروس بالعقيق مطوق  
وبالسّري المفضال تاج ملوكنا  
ونجل (هشام) ذو الصنيع المرونق  
حليف النّدَى والعدل والفضل والتقى  
وطود الهدى والحلم كنز الموفق  
بطلعته طابت نفوس بطيب  
سليل حماة الدين من بيت متق  
كريم عفيف فاضل ذي مهابة  
فَعُول لأنواع الخيور مُصدق(27)

ومن مآثر المولى سليمان أبي الربيع بن محمد بن عبد الله «سقاية  
الرصيف» التي أسسها عام 1208 يدل لذلك ما هو منقوش في زليج أعلاها  
ولفظه:

تأمل سبيلاً فاق كل نهاية  
واضحى به في غربنا يضرب المثل  
وحاز فخارا إذ تشيد للورى  
بدولة من ساد الملوك ومن عدل  
سليمان أبقى الله رايّة ملكه  
فلولاه نجم الدين كان لنا أفل  
فإن جئتّه ظمآن حَرٌّ، ونلت من  
زلالٍ أَلَذٍّ، بل، وأحلى من العسل  
فقل : يرحم الرحمن ناظر عصرنا  
(محمدًا الفندوشي) حبذا ما فعل

---

(27) المصدر السابق ص : 84.

وتاريخه ما قد حواه (شرابه)  
فَرِدْ مشربا تحظى به غاية الأمل (28)

\* \* \*

ومن مآثره، أيضا، أي المولى سليمان كما ذكر ذلك أيضا مولاي عبد  
الرحمن بن زيدان في كتابه المذكور «سقاية مسجد الشرايليين» يدل لذلك  
ما هو منقوش بأعلاها ولفظه:

تأمل في بـديع حسن صـنـعي  
تـرى حـسـنا يـسر الناظـرينا  
أزـيل صـدى، وأطـفى حـر صدر  
وامنـح مـاءـي كل الواردينـا  
فما أسنى سقاية قد سقتنا  
شـرابـا لـذة للشاربينـا (29)

\* \* \*

ومن تأسيسات السلطان المولى سليمان، أيضا، السقايات التي على  
يمين ويسار الداخل من الباب المقابل لباب المعراض الشهير بالحرم  
الإدريسي بالزاوية، وكان تأسيسه لها عام ثمانية وعشرين ومائتين وألف،  
ويدل لذلك ما هو منقوش في زليج مثبت بالجدار الذي به السقايتان اللتان  
عن يمين الداخل، ودونك لفظه:

تأمل بهجتي وبـديع حـسـني  
وما ألبست من حلل البهاء  
تجد عـزي، ومجـدي وارتـفـاعي  
يـفـوق البـدر في أفـق السـماء

---

(28) المصادر السابق ص : 68.

(29) المصدر السابق ص : 88.

جمعت من المحاسن كل فرد  
وأعظمها جوار أبي العلاء  
إمام الغرب إدريس ذي المعالي  
سليل الأكرمين ذوي الوفاء  
وقمت بباب روضته بجد  
اطهر زائريه بطيب ماء  
بإذن إمامنا الأسمى بنوني  
وتاريخي (تجلت بالسناء)  
أشار للتاريخ المذكور بحروف : «تجلت بالسناء».(30)

\* \* \*

ومن مآثر المولى الحسن بن محمد بن عبد الرحمن تأسيسه بالجانب الجنوبي من القصر الملكي بفاس صرحاً أنيقاً، وبجانبه الشمالي سقايتان أجرى بهما الماء...  
وتوجد وثيقتان من مدينة فاس القديمة: «نتيجة المقدمات المحمودة، في الرد على زاعم ملكية واد مصمودة»(31) «تحدثت عن مجاري مياه المدينة وسقاياتها.  
فالسقايات توجد في كل المدن المغربية. في فاس - الرباط، مراكش. تطوان، سلا... مكناس. بيد أن السقايات في فاس، هي نسبياً أقل عدداً، نظراً لأنه، قديماً، كان قسم من الدور تزود مباشرة بعدد كبير من السقايات الخاصة أو عن طريق واد فاس المنظم، كما هو معلوم بشبكة قنوات تغطي مجموع المدينة، ومن السقايات التي كانت لها شهرة بهذه

(30) الاتحاف ص : 205 / 1.

(31) لأبي السعود عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي الفهري (ت : 1091 - 1680م) خ.ع.ك: 1202، ضمن مجموع خزانة تمكروت : 2572، ثانية مجموع.

المدينة تلك التي توجد بساحة فندق النجارين، المسمى عين سيدي افرج، وساحة الصفارين، وتشكل هذه السقاية حوضا صغيرا مستطيل الشكل محلى بمربعات من الخزف المزخرف يستقبل الماء من عين قريية، والتي تصبُّ عن طريق ثلاثة صنابير من المعدن مركزة، في وسط بلاطات من الرخام، وهي محمية من خلال إفريز من الأرز مغطاة بالقرميد الأخضر... أما سقاية الصفارين فهي مسندة على الحائط الخارجي لمسجد القرويين في الساحة الصغيرة للصفارين، فالماء يصب من خلال صفيحة رخام منقوشة ومزينة...

ويوجد في حوالة فاس السليمانية(32) ترجمة بتوصية السقايات فترد التفاصيل هكذا:

وصية سقاية رحبة صفاح العدو

وصية سقاية حارة قيس

وصية سقاية ثغر (كذا) بالفخارين

فيض نقير الصباغين

فيض ماء سقاية البليدة

فيض سقاية غدير الجوزاء.(33)

\* \* \*

### السقايات الوقفية في مدينة مكناس :

عرض ابن غازي(34) لعصر أبي الحسن الذي امتاز بوفرة الآثار التي خلفها في مدينة مكناس، ويقول: «...ثم نوّه بها أبو الحسن المريني، فبنى

(32) خ.ع، قسم الحوالات رقم : 23.

(33) محمد المنوني، بحث مقدم في ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم الإسلامي والعربي، أقامها معهد البحوث، والدراسات العربية بالرباط - 18 - 20 نيسان عام 1983.

(34) «الروض الهمتون ص : 34.

فيها مرافق كثيرة كزاوية الفرجة... وغير ذلك من السقايات والقناطر في طرقاتها ونحوها...». «وشارع سبع أنابيب» يحمل اسم السقاية الواقعة به، وتذكرها الوثائق القديمة باسم السقاية الكبرى، أو سقاية الجمعة، وهي من تأسيس الحاكم المريني باني الحمام بها... ويذكر أنه كان أمام هذه السقاية صخرة كبيرة توضع عليها أواني الفخار، ومن تكسرت له آنية، يأتي بها ليأخذ من القيم على الوقف أخرى سليمة بالمجان، كما كان يوجد لهذا التقليد نظيره بمدينة فاس.

ولابد من أن نلمح إلى سقاية المستشفى العناني عن يسار مدخله في حمام الجديد، ويترجح أنها من إشارة، أبي عنان باني المستشفى، ثم سبيل حي السويقة، ويعرف - الآن - بسقاية سبع عنانب، تلميحا لعدد أنابيبها، وكانت تعرف - قديما - بالسقاية الكبرى، وبسقاية الجمعة كما في عرض ابن غازي الأنف الذكر. وهي مبنية في قاعة عريضة مستطيلة، يغطيها سقف عال محمول على ثلاثة أساطين، ولا تزال تحتفظ بأثر الفن المريني، في زليج واجهتها، وفي زخرفة سقفها الخشبي، بالنقش الغائر، وقد خصصت لأوقافها ترجمة - على حدة - ضمن الحوالة الحبسية للمساجد الصغرى بمكناس. (35)

\* \* \*

وفي «الروض» لابن غازي : قال : إن الإمام أبا زكرياء الوطاسي لما دخل مكناس في القرن التاسع جدد بعض رسومها الدارسة... ويقال: بلغت عمارتها إلى أن كان بها أربعمائة مسجد... قال الأستاذ ابن جابر: «وحول كل مسجد سقاية». (36)

(35) «التخطيط المعماري لمدينة مكناس» / مج الثقافة المغربية ع: 7/ ص: 45 - 46.

(36) «الاتحاف» ج: 1/ ص 95. - «الروض الهتون، في أخبار مكناسة الزيتون» لابن غازي ص: 27، ط: الملكية.

وفي كلام ابن غازي تنبيهه على ما كان للمتقدمين من الاعتناء  
بالمشروعات.

وانظر إلى الحد الذي بلغه اعتناء أهل الدين بمحال تعبيدهم، وكل ما  
ينضاف إليها مما يتوقف عليه المتعبد، وناهيك بما قد بلغ من الاعتناء بماء  
عين «تاجما» وغيرها من وقوع الحبس على إصلاح مجاريه حتى لا يقع  
مانع من وصوله للمسجد الأعظم. (37)

\* \* \*

وقد جدد المولى إسماعيل المسجد الأعظم عام 1107هـ، ووقف السقاية  
من المسجد المذكور، ومما هو منقوش بأعلى السقاية من المسجد، ولفظه:  
الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده:

تأمل بعد حمد الله حسني

وصل على محمد الشفيـع

فما أبصرت في الدنيا كشكلي

أذكر زهر أيام الربيع

ولـورد أسقي سلسبـيلا

فلي فخر بذاك على الجميع

فجامعنا الكبير سموت فخرا

علا شرفي، بجانبها المنيع

بأمر إمامنا المنصور شادوا

بنائي الرائق الأبهى الرفيع

وتاريخي (امعطاش) هنيئاً

وقاك الله من ظمٍ وجوع (38)

\* \* \*

---

(37) المصدر السابق ج : 1/ ص : 95.

(38) الاتحاف ج : 1/ ص : 165.



ومن المآثر الإسماعيلية بمدينة مكناس تجديد سقاية أبي الحسن بن منون، وإحداث أنبوبين للسبيل بزقاق «رَوَى مُزِيل» وتجديد سقاية جامع الزيتونة، وتجديد سقاية حومة الحمام الجديد، وسقاية الصباغين، وسقاية النجارين، وسقاية درب القرع، وسقاية التوتة، وسقاية ضريح أبي محمد عبد القادر العلمي، وسقاية سبع أنابيب مع تجديد سقفها، وترصيف أرض مباحها، وسقاية حمادشة (39) بتزيمي الصغرى، وسقاية تزيمي الكبرى، وسقاية بركة، وسقاية حومة جامع الساباط، وسقاية الغمادين داخل باب الجديد، وإحداث سقاية وكنف بالوسعة داخل باب السبية، وتجديد سقاية العوادين، وسقف سقاية الشرشرة، وسقاية تبربارين، (40) ومنها تزليج السقايات السلیمانية الكائنة داخل باب الحُفَاة. (41)

\* \* \*

ولقد كانت اهتمامات المولى إسماعيل بتزويد مدينة مكناس بالمياه وبناء السقايات من الأولويات التي يهتم بها رحمه الله يستفاد ذلك من نص ظهير إسماعيلي جدد فيه، رحمه الله، تحبیس مياه «عين تاجمة» على المسجد الأعظم: «...إلا ما كان أجري منه فيما هو للأوقاف والمساجد والمدارس والحمامات والسقايات بعد أدائهم من أوقاف للمسجد الجامع الكبير ما أنفقته من حبسه على إجراء الماء المذكور...». (42) وقد بلغ قدر الماء المجلوب من «عين تاكمة» مائة وخمسة وثلاثين شكلاً، (43) منها شكلان لسقاية التوتة، وشكلان لسقاية سويقة الجمعة،

(39) تنسب هذه السقاية إلى أبي البركات سيدي محمد المدعو إسماعيل بن عمران الشريف العلمي العروسي الولي الشهير دفن جبل زرهون... وقد ألف بعض العلماء في مناقبه تأليفاً أسماه: «الذهب المنقوش، في مناقب ولي الله تعالى سيدي علي بن حمدوش» [الاتحاف: ج: 5/ص: 459].

(40) الاتحاف: ص: 223/1.

(41) المصدر السابق ج: 1/ص: 224.

(42) حوالة الأحباس الكبرى رقم 5 ص: 297.

(43) الشكل: يساوي ما بين 3.13 لتر في الثانية.

وأربعة أشكال لسقاية جامع باب البرادعيين، وبالقرب من ضريح سيدي بوزكري مدت من واد بوفكران عدة سواقي نحو قصبة هدراش.

وهكذا، وبفضل عناية المولى إسماعيل زودت مدينة مكناس بالماء الذي وزع بشكل أكثر تنظيماً، وحبست على قواديس الجامع عدة أملاك للعناية بها وإصلاحها... كما تم تزويد مدينة مكناس بمجموعة من السقايات وقفت لصالح العموم، منها على سبيل المثال: سقاية الذهب التي بناها المولى إسماعيل، قريباً من قنطرة دردورة، وسقاية باب الجديد، وسقاية باب البرادعيين، وسقاية ضريح سيدي عبد الرحمن القرشي، وسقاية باب الرايس، وسقاية قصبة هدراش، وسقاية الهديم، وسقاية جامع الرياض العنبري، وسقاية باب منصور العلي، وسقاية مشهد سيدي علي منون. (44)

\* \* \*

### الوقوف المائية في العهد العلوي :

حَقَلَ العهد العلوي بعدة وقوف للسقايات، من ذلك سقاية السبيل المعروفة «بسقاية الذهب» الواقعة بقنطرة «دردورة» وذلك واحد ومائة وألف، وقد اعتنى المولى إسماعيل بشأنها، واهتم بها اهتماماً زائداً، وأوقف عليها أوقافاً مهمة وقد وقف مولاي عبد الرحمن بن زيدان (45) على عدة عقود تتضمن التحبيس عليها من ذلك ما لفظه: الحمد لله، شهد لدى شهيديه، أمين الدار، العالية بالله، وناظر سائر الإيالة الشريفة المعلم محمد

(44) «وثائق ونصوص» للأستاذ محمد المنوني، انظر : «حوالة أحباس المساجد الصفار رقم:

4/ص 217، وحوالة الأحباس الكبرى رقم 5/ص: 13، و14.

(45) «المنزح اللطيف، في التلميح لمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف» مخطوط تحت رقم: 595 / حرف: ج. قسم المخطوطات، الخزنة العامة بالرباط ص: 391 - 392 وقد طبع أخيراً.

ابن محمد الكاتب الأندلسي، أن مولانا المنصور بالله تعالى مولانا أمير المؤمنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، مولانا إسماعيل، أمد الله أوامره، وخلص مفاخره الكريمة ومآثره، آمين حبس جميع الحوش المستدير بالحيطان غير ربع واحد منه بلا حائط الكائن بقصبة «تريمي» المجاوز من أسفل الحوش، حبس مسجد صواغة، الذي بيد الوقاد على وجه الجزء على إصلاح الماء المجلوب «لسقاية الذهب» التي أحدث بناءها مولانا المذكور «بقنطرة دردورة» خارج مدينة مكناس، وهذا العقد بتاريخ جمادى الأولى عام 1117هـ، واقتفى إثره في التحبيس عليها غير واحد من أنجاله، وعظماء ولاته، وقد أورد بعض ذلك المولى عبد الرحمن في كتابه: الاتحاف...

ومن ذلك بمدينة مكناس، «سقاية قصر الهديم»، وسقاية «باب منصور العلي» وسقايتا باب الرايس، وسقاية أبي الحسن علي منون، وسقايات قصبة هدراش، وباب الناعورة، والسقاية التي بمحج حومة راس الشراطين من فاس القرويين حسبما وقع التصريح بذلك في قطعة شعرية منقوشة في زليج بأعلى السقاية المذكورة، كان أزيل ذلك الزليج، ثم أعيد منكسا أي تنكيس، اختل بسبب ذلك نظام ترتيب الأبيات، فصار لا يفهم منها غير بعض الأشرطة، وبيت التصريح باسم المترجم...

وفي مكناسة أيضا، السقاية المجاورة للقيسارية، قرب الجامع الأعظم، وقد جاء عنها في وثيقة: «حوالة أوقاف المساكين» شهوده يعرفون سقاية الماء الكائنة بالشهود، داخل مكناس المحتوية على ثلاثة أنابيب من الماء المجلوب من ماء عين «تاكمة»، ويشهدون مع ذلك بأن فيض السقاية المذكورة هو ماء حمام حومة الكدية المعروف بحمام المساكين، وتفيد تاريخ هذه الوثيقة (1110هـ) استمرار هذا الماء بالمدينة حتى العصر العلوي، وجاء في وثيقة أخرى تحمل تاريخ شهر ذي القعدة عام (1116هـ) أن هذا الماء كان يتوزع في داخل نفس المدينة بين مساجدها وسقاياتها

وحماماتها، وسائر ما يستعمل فيه ماء العين المذكورة... وهناك وثيقة  
ثالثة تمدد وجود ماء «تاكما» بالمدينة حتى العصر السليماني، وبعد هذا  
يضمحل مجرى هذا العين، ويختلط ماؤها بوادي أبي فكران.  
وكان مجرى هذه العين يقع في قناة خصوصية، ومتسعة مبدؤها في  
السور القريب من وادي أبي فكران إلى أن تتصل بالمعدة المجاورة للجامع  
الكبير حذاء باب الجنائز من جهة باب عيسى...

\* \* \*

ومن مآثر السلطان المولى يوسف تجديد سيدي يحيى وسقايته بمدينة  
مكناس. (46)

وقد جدد المولى يوسف السقاية التي ببطحاء الهديم باب منصور  
العلج... «تلك السقاية العجيبة الشكل، العديمة النظير والمثال، والتي لم  
ينسج على منوالها في حاضر الأزمان ولا في غابرها ناسج... فما شئت  
من تزويق وتنميق، ونقش رقيق، يستلفت الأنظار، ويستوقف الأبصار»،  
وكان تجديده لهذه السقاية عام 1332هـ.

ويدل لذلك ما هو منقوش بأعاليها، ولفظه :

يا ناظرأ في بهائي

ورونقي وازدهائي

فبغيتي ومنمائي

منك جميل الدعاء

إلى جناب تسامي

به ابتداء انتهاءي

مولاي يوسف أضحى

محبوب دان، ونائي

---

(46) الاتحاد ص : 1/219.

مع المقيم العمومي  
رئيس ناس السواء  
وأهل مجلس نصح  
وهممة في ارتقاء  
فادع لكل بخير  
شكرا على جري ماء  
وقل : مؤرخ هذا  
تاريخ زين بنائي

وأشار بالتاريخ المومي إليه بحروف الشطر الأخير من القطعة... وقد علق المولى عبد الرحمن بن زيدان في تاريخه بأنه مع الأسف فقد مَدَّ الخراب لهذه السقاية يد الاعتداء، ولم تجد منجدا، فإن دام حالها هكذا، رجعت إلى ما كانت آلت إليه قبل... فإن هذه السقاية هي التي يعبر عنها في العقود الحبسية القديمة بالسقاية الكبرى، ففي بعض العقود الحبسية مالفظه: «أرباب البصر سئل منهم الوقوف على عين مسجد زواغة الكائن بالهديم من الحضرة المذكورة، المجاور للسقاية الكبرى التي هناك».(47) وقد كان الدهر أخنى على هذه السقاية حتى تعطل وصول الماء إليها، وصارت مقر الأوساخ والأزبال.

\* \* \*

ومن تأسيسات المولى عبد العزيز بن الحسن الأول تجديد بعض القنوات التي يجري فيها الماء للمساجد والمدارس بمدينة مكناس وغيرها... ومنها بناء الساقية مع القنطرة ذات الأقواس التي يمر فوقها الماء المجلوب من «عين شانش» النابع أصلها قرب «مدشر موساوة» أحد مداشر جبل زرهون ليزاد ذلك الماء على ماء عين خيبر الداخل للحرم

---

(47) الاتحاف ج : 1/ ص 221.

الإدريسي وغيره من الأماكن التي يجري بها الماء من تلك الزاوية المباركة إلا أن هذا الماء لم يحصل منه المقصود الذي جلب لأجله... وهذا الماء هو الجاري بأرض خيبر المعروف بالبير، ولسائر فروعه... (48)

\*\*\*

ومن مآثر المولى محمد الخامس بمدينة مكناس إجراء ماء عين تاكمة بسقايات السبيل بالمدينة العتيقة مكناسة أيضا... وإدخاله لبعض دوره المفتقرة إليه، وذلك على زيادة ماء واديها القديم الذي كان أدخله إليها المولى إسماعيل، وحبس الفاضل عن كفاية دوره وقصوره، وما أنعم به على بعض أعيان دولته على المسجد الأعظم، والحمامات وسقايات السبيل، ولذلك لم يكن جريانُه عاما في جميع دور البلد، ومد قنوات للوادي المضاف زيادة على أودية المدينة الإسماعيلية، المحكمة البناء والاتقان، كما أجرى الماء لمستشفى أبي عثمان سعيد المشتراي خارج باب وجه العروس ومن مآثر محمد الخامس رضي الله عنه تجديد سقاية السبيل الواقعة بساحة فئة الخياطين بين بابي ابن القاري الداخلي وعروسة البحراوي، وتجديد سقاية الهديم، وترصيع جدارها بالفسيفساء.

\*\*\*

### في مدينة الدار البيضاء :

بمدينة الدار البيضاء كان لمولانا محمد الخامس مآثرة أخرى هي إصلاح جامع البيضاء بفاس المرينية والسقاية العمومية خارجه، وإصلاح مدرسة الأندلس بفاس، وإدخال الماء الجديد إليها... وإدخال ماء عين الشقف وغيرها... وإجراؤه بأزقة البلدين البيضاء والإدريسية زيادة على مائي عمير والوادي القديمين... وإجراؤه ببعض المساجد والزوايا

والأضرحة والدور والحوامات المفتقرة إليه قبل، كحومة ابن جيدة، وجعل سقايات للسبيل، ومن مآثره أيضا رضي الله عنه بمدينة وزان إنشاء سقايات للسبيل ببعض حومات المدينة وأزقتها وبالسويقة، وإجراء الماء بها من بير أولاد زيان...

\*\*\*

ومن أسمى وأسنَى مآثر مولانا محمد الخامس جلب الماء من الفُؤارات إلى العدوتين الرباط وسلا، وإجراؤه إلى ثغر الدار البيضاء منهما، وإدخال الماء للجامع اليوسفي، وإجراء الماء بباب مراكش، وإصلاح مجاري مiazza جامع القرية، وإنشاء عدة سقايات للسبيل.

\*\*\*

### السقايات الوقفية بمدينة الرباط :

السقايات العمومية بمدينة الرباط كانت توجد في أغلبية الأزقة الرئيسية - زنقة سيدي فاتح - زنقة بوقرون - زنقة القناصل - زنقة سوق الغزل، زنقة سقاية ابن المكي، وهذه السقايات لا تقدم فائدة فنية، ما عدا واحدة منها تستحق إشارة خاصة، تلك هي «سقاية المارستان العزيزي» قُبالة المسجد الأعظم في الطرف الشمالي لزنقة باب شالة. (49) وهذه السقاية كان قد بناها السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز بن علي (ت1372م) وتبرز، كما يقول: جاك كايي Jacques Caillé في تاريخه، (50) سمات لا يناقش فيها... البناء معتنى به للواجهة... قوة الأعمدة الثلاثة، الوضوح في السطور للكتابة المشبكة المعمارية، ودقة في الزينة فإفريز

(49) لست أدري كيف تحولت هذه السقاية إلى مكتبة! ؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله، إن اعتنينا بالآثار فنحن لا نعبدها ولا نقدسها، ضل من يقدر ترابا، ويعبد حجرا، ولكن نذكر فيها ماضينا، أي ننظر إلى أنفسنا في أمسنا، فأمكنة الآثار، هي أوعية التاريخ.

(50) مدينة الرباط إلى الحماية ص 200. 199.

"La ville de RABAT jusqu'au protectorat".

راقٍ، كل هذا يجعلها عملاً ذاقيمة فنية... وقد تحولت هذه السقاية إلى محل  
لتجارة الكتب...!

\* \* \*

وفي الوقت الذي نستقدم فيه العلماء الأركيولوجيين للكشف عن الآثار  
العافية، والرسوم البالية، نعمل، نحن، على طمس معالم حضارتنا، بل  
ونهمل آثار السلف في المحافظة على الآثار الخالدة، بعدما عانت كثيرا من  
الإهمال، وغطى واجهات بعضها بضاعة الباعة المتجولين... (51)

\* \* \*

#### اهتمام الأقدمين بالتراث والآثار :

لقد كان الأقدمون رضي الله عنهم يحتفظون بالآثار القديمة، فمعاوية  
تَغَالَى فِي بُرْدَةِ كَعْبٍ؛ واحتفظ خالد وأبو زَمْعَةَ وغيرُهما بِشَعَرِ رَسُولِ  
الله ﷺ كما هو معروف، كما حافظت أمُّ أنس على عرف رسول الله...  
وفي العتبية : مالك سئل عن نَعْلِ رَسُولِ الله ﷺ التي رآها كيف كان  
حَدُوهَا؟. قال: رأيتها إلى التدوير ما هي، وبحصرها في مؤخرها، وهي  
معقبة من خلفها... قلت: أكان لها زمامان؟ قال: ذلك الذي أظن... وكانت  
عند آل أبي ربيعة المخزبيين من قبل أم كلثوم أمّهم، وسمعت مالكا يذكر  
أن عِنْدَ عبد الرحمن ابن عبد العزيز بواش من شعر، وَجَرَسَ لحفصة....  
فقلت له: ما قصة الجرس؟ قال: لا أدري...

قال ابن رشد في البيان والتحصيل : الأجراس كانت تعلق في أعناق  
الإبل لتعرف مواضعها بأصواتها أن شدت أو ضلت، ومعنى السؤال في

---

(51) وهذا ما جعل بعض المسؤولين ليعرضوا لبعض التجار هدم السقاية العزيرية قبالة المسجد  
الأعظم في الطرف الشمالي لزنقة باب شالة، وقرب مجموعة مدارس محمد الخامس بالرباط  
مقابل أشياء وأشياء، فإننا لله وإنا إليه راجعون.



هذه الحكاية من قصة الجرس، إنما هو لم كانوا يحبونه ويرفعونه، وقد جاء النهي في استعماله، فلم يجب على سؤاله، والجواب فيه، أن استعماله، وإن كان لا يجوز، ففي حبسه منفعة، وهو أنه يذكر العهد القديم، ويترجم من أجله على من قد مات من السلف الكريم.(52)

«ومما لا ينكر في هذا الباب أن المارشال ليوتي، قد بذل جهده أيام تمثيله الحكومة الفرنسية في المغرب في المحافظة على الآثار العربية القديمة، وفي إحياء صناعة البناء العربي الأنيق بحيث تجددت فيها الرغبة، ووضعت فيها الكتب، وتقيدت منها النفائس بالتأليف والتخليد مما يمكننا أن نذكره بالشكر، لأنه من قبيل الإنصاف الذي طبعت الجبلية البشرية على استحسانه، وياليت الأروبيين اطرءوا الإنصاف في سائر الأمور.(53)

\*\*\*

وقد اقتبس بنو عبد المومن من الأساليب الأندلسية، لا سيما في بناء السواقي وجلب المياه... فقد أسست قنوات نقلت مياه «عين غبولة» إلى الرباط وسلا،(54) حيث وضعت أنابيب ثانوية لإيصال الماء إلى الجامع الكبير، والزاوية التيجانية... ومناعة تبليط هذه القناة، لا تقل عن قوة الأسوار الموحدية بالرباط.(55)

وهناك قنوات أخرى ترجع لهذا العصر في مراكش وفاس، وباقي مدن المغرب.

وفي شأن السواقي وماء العيون والأنهار والآبار، وجه وزير الأوقاف السيد أحمد الجاي إلى ناظر الرباط للكشف عن الآبار والسواقي في هذه

(52) انظر «التراتب الإدارية» ج : 2 / ص : 446.

(53) «حاضر العالم الإسلامي» ج : 1 / ص 112.

(54) راجع التاريخ الصغير للرباط، للأستاذ كأيي.

(55) القرطاس، ط : سلا ص : 146. وكتابا حول القنطرة الموحدية لنقل الماء بالرباط - هنري

باسي - المجلة الافريقية. انظر «تاريخ الضعيف» ص 178 - 179، «والأنيس المطرب» ص

192 - 264

المدينة، وإحصاء المياه التي تسقى منها، مع تحرير بيان عدد الآبار التي بعراصي الأحباس داخل المدينة، والآبار المحبسة حبسا عموميا للسقي منها عند فَقْدِ ماء عين عتيق التي بجانب الأحباس المسلم لإدارة البلدية لتتولى هي تفريقه على مقتضى الكتاب الشريف، المؤرخ بحجة 4 عام 1332، والمسجل ببنيفة الوزارة الوقفية رقم 76 على الشروط المجعولة فيه التي منها المصادقة عليها من سيادتكم، ومن جانبي الصدر الأعظم، والمقيم العام، وأمضاه الناظر... وكتب في عام 1336 - امحمد ملين...

وفيما يلي تقييد مياه الآبار الحبسية العمومية، وشهادة بإحصاء المياه التي تسقى منها عراصي الأحباس بزاوية شالة مع قائمة ببيان عدد الآبار التي بعراص الأحباس...

الحمد لله وحده،

تقييد مياه الآبار الحبسية العمومية :

- 1 - ممر بدرب جناوة مخرج من أروى بلافريج
- 2 - أُخْرَى إمام السجن ينسب لأولاد ابن مسعود
- 3 - أُخْرَى بركنة باب الخرازين
- 4 - أُخْرَى بتريبعة الفوقي
- 5 - أُخْرَى بزنقة أم الكنايش بحائط أروى الأحباس بالسويقة
- 6 - أُخْرَى بسوق السمارين قرب باب الجديد
- 7 - أُخْرَى بحائط الزاوية العيساوية
- 8 - أُخْرَى بداخل الزاوية المذكورة
- 9 - أُخْرَى بزنقة البير بحومة الجزاء
- 10 - أُخْرَى مخرج من أروى الأحباس بتحت الحمام في شركة غنام

وبركاش

- 11 - أُخْرَى بِحَائِطِ حَمَامِ الْعُلُو
- 12 - أُخْرَى بِالْقَرَّاشِيِّينَ
- 13 - أُخْرَى بِسُوقِ الصَّبَاغِينَ
- 14 - أُخْرَى بِالرَّحْبَةِ الْقَدِيمَةِ
- 15 - أُخْرَى مَخْرَجَ مَنْ ضَرِيحَ سَيِّدِي الْحَسَنِ بْنِ سَعِيدٍ
- 16 - أُخْرَى بِمَطْهَرَةِ الْأَعْظَمِ
- 17 - أُخْرَى بِمَطْهَرَةِ الْعِطَارِينَ
- 18 - أُخْرَى بِمَطْهَرَةِ أُمِّ الْكُنَابِيشِ
- 19 - أُخْرَى بِمَطْهَرَةِ مَدْرَسَةِ دَرْبِ وَالزَّهْرَاءِ
- 20 - أُخْرَى بِمَطْهَرَةِ الْقَيْسَارِيَةِ
- 21 - أُخْرَى بِمَطْهَرَةِ قَصْبَةِ الْأَوْدَايَةِ
- 22 - أُخْرَى بِمَطْهَرَةِ زَاوِيَةِ حَنْصَالَةِ
- 23 - أُخْرَى بِالزَّوَايَةِ الْمُبَارَكِيَّةِ
- 24 - أُخْرَى بِالزَّوَايَةِ الْقَاسِمِيَّةِ
- 25 - أُخْرَى بِالزَّوَايَةِ الرَّحْمَانِيَّةِ
- 26 - أُخْرَى بِرَوْضِ سَيِّدِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَوِيثِيِّ
- 27 - أُخْرَى بِسَيِّدِي الْغَنْدُورِ
- 28 - أُخْرَى بِزَاوِيَةِ سَيِّدِي الْغَازِيِّ بْنِ قَاسِمٍ
- 29 - أُخْرَى بِزَاوِيَةِ سَيِّدِي الْغَازِيِّ أَمَامَ حَمَامِ الْقَصْرِيِّ
- 30 - أُخْرَى بِالزَّوَايَةِ الْحَمْدُوشِيَّةِ
- 31 - أُخْرَى بِمَسْجِدِ شَكْلَانُطَ بِمَطْمَرَتِهِ
- 32 - أُخْرَى بِزَاوِيَةِ مَوْلَايَ الْعَرَبِيِّ الدَّرَقَاوِيِّ
- 33 - أُخْرَى بِالزَّوَايَةِ الْبَنَانِيَّةِ
- 34 - أُخْرَى بِالزَّوَايَةِ الْمَعْطُويَةِ

- 35 - أُخْرَى بِسَيْدِي مَحْمَد الْغَانِي  
 36 - أُخْرَى سَيْدِي مَحْمَد الدَّرَاوِي  
 37 - أُخْرَى بِمَطْهَرَة سَيْدِي الْقَجْرِي  
 38 - أُخْرَى سَيْدِي عَبْدَ اللَّهِ الْيَبُورِي  
 39 - أُخْرَى بِسَيْدِي السَّعِيدِي  
 40 - أُخْرَى بِالزَّوَايَة الْقَادِرِيَّة  
 41 - أُخْرَى بِسَيْدِي عَبْدَ الْقَادِرِ بْنِ أَحْمَد  
 42 - أُخْرَى بِالزَّوَايَة التَّجَانِيَّة  
 43 - أُخْرَى بِسَيْدِي أَحْمَد التَّلْمَسَانِي

### تَقْيِيدُ الْآبَارِ الَّتِي بِعَرَاصِي الْأَحْبَاسِ :

- بِيرَانِ بِمَدَارَتِي عَرَصَة ابْنِ الْغَازِي 2  
 كَذَلِكَ بِعَرَصَة الرَّحَامَنَة 2  
 وَبِالْغَازِيَةِ كَذَلِكَ بِبَيْتْرَان 2  
 وَبِجَنَانِ السُّلْطَانِ كَذَلِكَ 2  
 وَبِنَصْفِ بُوْظَهْرَةِ الْأَحْبَاسِ بِيرٍ وَاحِدَةٍ

### تَقْيِيدُ آبَارِ الْحَمَامَاتِ :

- بِمَدَارَةِ حَمَامِ الْعُلُوِّ بَيْتْرٍ وَاحِدَةٍ  
 وَبِمَدَارَةِ الْقَصْرِ كَذَلِكَ 1  
 وَبِمَدَارَةِ حَمَامِ السُّوقِ كَذَلِكَ 1  
 وَبِمَدَارَةِ حَمَامِ أَجْدِيرَةٍ كَذَلِكَ 1

ومن جملة المياه التي لجانب الأحباس :

ماء عين عتيق المسلم للإدارة البلدية لِتَتَوَلَّى تعريفه على مقتضى  
الكتاب الشريف المؤرخ رابع حجة 1332/76  
المسجل ببنيقة الوزارة الوقفية على الشروط المفعولة فيه.

### جواب ناظر أحباس الرباط 1017

عما أذن به من إحصاء مياه الأحباس في كناش خاص.  
بأنه وجه طيه شهادة بإحصاء المياه التي تسقى منها عراصي الأحباس  
بزاوية شالة مع قائمة ببيان عدد الآبار التي بعراصي الأحباس والآبار  
المحبسة حبسا عموميا للسقي منها عند فقد ماء عين عتيق التي للأحباس  
المسلم للإدارة البلدية على مقتضى الكتاب الشريف المؤرخ 4 بحجة  
عام 34.

وقد حبس السيد الحاج أحمد بن الحاج أحمد بلافريج جميع الأراضي  
الكائنة خارج باب شالة بالرباط المعروف بقبيبة ابن زاكور على الضعفاء  
والمساكين، وأن لا يمنع أحد من المارين عليها من الشرب من مائها، ولا  
من شرب البهائم، رجاء أن يرحمه الله بذلك حبسا مؤبدا، ووفقاً مخلدا،  
قصد بذلك وجه الله العظيم وثوابه. (56) جمادى 2/1302هـ.

كما وقف السيد الحاج أحمد بن السيد ج أحمد بلافريج والد عبد  
السلام للآبار الثلاثة التي حبسها بالرباط بإشهاده، وهي البير المخرجة  
من الأروى قرب الفرن المذكور، والبير المتصلة بالحوانيت التي بحومة  
الجزء... والبير الكائنة بالتريبة الجديدة من الدلاء والحبال وغير  
ذلك... (57) وذلك في عام 5 رمضان 1295هـ.

(56) العدول : علي بن أحمد دينية، وإبراهيم بن محمد بن الجناري.

(57) بإشهاد : أحمد بن محمد بناني. ومحمد بن المكي بن الهاشمي بن عمرو الأوسي.

## وقوف المياه في مدينة مراكش :

وفي مدينة مراكش نجد فيه السقايات ذات الأهمية، فسقاية المواسين المجاورة لمسجد المواسين كانت قد بنيت عام 1563م في عهد السلطان السعدي عبد الله بن غالب، قال اليفرنى: وفي عشرة السبعين وتسعمائة، أنشأ السلطان الغالب بالله جامع الاشراف بحومة المواسين من مراكش، والسقاية المتصلة به التي عليها مدار المدينة، والمارستان الذي ظهر نفعه، ووقف عليه أوقافا عظيمة.(58)

هذه السقاية تشتمل في اليسار على حوض كبير، فوقه رواق مع زخرفة بالجبس المنقوش، وبساکفٍ (أعلى الباب الذي يقابل العتبة) من الخشب المنقوش أو المصبوغ، وهي مخصصة لسكان الحي الذين ياتون للتزود بالماء على اليسار، وهي مفصولة بجذع شجرة لمنع الحيوانات من تلويث الماء، ثلاثة أحواض أخرى من أربع إلى خمسة أمتار جانبية محمية بأقبية مع أروقة، وهي معدة لسقي البهائم، والكل فوقه أفريز رائع مغطى بالقرميد الأخضر، كما توجد سقاية سيدي «الحسن أو علي» على مقربة لمسجد باب دكالة، وهي صورة طبق الأصل لسقاية المواسين مع فرق، وهو أن الواجهة المزخرفة في اليسار، في حين أن واجهة المواسين توجد في اليمين، والسقاية الثالثة الأثرية الموجودة في حي مدرسة ابن يوسف وهي المسماة بـ«شُرْب وشوف» وهي مهياة لتدعيم حائط، واجهتها الخشبية المنقوشة محمية بإفريز على هابطة» راسب كلسي متحجر في سقوف المغاور» وسقايات أخرى تقدم فائدة فنية، خصوصا مزار سيدي سليمان الجزولي وضريح سيدي بلعباس السبتي.(59)

(58) ص : 1/89، الاعلام...

(59) «انظر المؤسسات الخيرية». د. جوزيف لوسيونى ص 74، 75، ط : الملكية.

Les fondations picuses (Habous au Maroc depuis les origines jusqu'à 1956).

وباعتبارها عملاً صالحاً، غالباً ما تظهر السقاية كملحقة لمسجد. وكذلك الحال بالنسبة لسقايات مراكش، كسقاية «باب دكالة» و«المواسين» المجاورة لمزارات من نفس الاسم، وسقاية «المواسين» أكثر فخامة بناها مولاي عبد الله السعدي في 970 / 1562. في أحواض كبيرة من 4 إلى 5 أمتار في كل جانب، محمية بعقد القبة، وهي تستعمل للحيوانات، ويجاور هذه الأحواض حوض رابع خاص بالناس، ويعطوه افريز جميل مغطى بقرميد يحمله حاملو الافريز متقدماً فوق عضادات. بين هذه العضادات يوجد افريز. وهناك تنضيد لافريزات من اللوح المنقوش والمدهون بسلسلة عقود وعدة نقوش.

الجهة السفلى لهذه الزخرفة ترتكز على حاملتي افريز، التي منها جبهات عمودية تتجابه و(تتقابل)، للنحول الخارجة التي تحيط بفتحات الأروقة منذ عهد المورسكيين.

مرافق هذه السقايات (مورد وحوض) تتلاقى بسقاية سيدي لحسن أوغلي جارة للمسجد (965/1557). المورد طوله 15 متراً، وعرضه 5 أمتار.

وسقاية سيدي بن سليمان الجزولي (1515) أكثر بساطة من ناحية التصميم. وكذلك الحال بالنسبة للسقاية المسماة «اشْرُب وشُوف»، حيث إن أحواضها مغطاةً بمشكاة ذات قعر منبسط، والإفريز العادي يعلو مجموع الزخارف. أما الساكن السفلي فهو يؤسس فوق أعمدة.

وتساعد الخزفيات على الزخرفة في سقاية «سيدي بن سليمان»، وهي كذلك من زخرفة سقاية «فاس»، التي تزين الساحة القريبة من «فندق النجارين».

أما الجهة ما قبل الحوض، وقعر سلسلة العقد المركبة من حدوة جوار  
مكسرة، فمغطاة بمرصعات.

ومن كل جهة من سلسلة العُقَيْدَات، يحمل عمودين الأسكفة والافريز  
الذي يعلو تلك الاسكفة.

"L'Architecture Musulmane D'Occident" CHAP VII. p. 410 - 413.

Par Georges MARCAIS (Membre de la Direction de l'interieur et des Beaux - Arts,  
Antiquités et monuments historiques.



صورة للسقايات



## نظافة الجسم بالماء، رقي صحي، ومظهر حضاري

روى أبو هريرة أنه قال : نزلت آية : ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا، والله يحب المطهرين﴾، (1) قال : «كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم هذه الآية».

وقال الشعبي : هم أهل مسجد قُباء، أنزل الله فيهم هذا.. وقال قتادة : لما نزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ لأهل قُباء : «إن الله سبحانه، قد أحسن عليكم بالثناء في التطهر، فما تصنعون؟» قالوا : «إنا نغسل أثر الغائط» (2) والبول بالماء» (3).

وروى الدارقطني، عن طلحة بن نافع قال : حدثني أبو أيوب وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك الأنصاريون، عن رسول الله ﷺ في هذه الآية : ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا، والله يحب المطهرين﴾، فقال : «يا معشر الأنصار، إن الله قد أثنى عليكم خيرا في الطهر، فما طهوركم هذا؟ قالوا : يا رسول الله، نتوضأ للصلاة، ونغتسل من الجنابة... فقال رسول الله ﷺ : فهل مع ذلك من غيره؟ فقالوا : لا غير، إن أحدنا إذا خرج من الغائط، أحب أن يستنجى بالماء.. قال : هو ذاك، فعليكموه» (4).

\*\*\*

(1) سورة يونس، رقم الآية : 108.

(2) الغائط : أصله ما انخفض من الأرض، والمجمع الغيطان أو الأغواط، وسمى «غوطه دمشق» وكانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء حاجتها تسترا عن أعين الناس، ثم سمي الحدث الخارج من الإنسان غائطا للمقارنة.. وغاط في الأرض يغوط : إذا غاب.

(3) رواه أبو داود.

(4) القرطبي، ج : 8/ ص : 259 - 260.

وهذا لعمرى مَظْهَرٌ حضاري إنساني، ورقي صحي، بلغته الحضارة الإسلامية في عهودها الأولى؛ ولا سيما في العهد المحمدي، في المدينة الإسلامية الأولى...

قال ابن العربي : والوضوء أصلٌ في الدين، وطهارة المسلمين، وخصوصا لهذه الأمة في العالمين...

ولا بد من الإشارة والإشادة، في هذه الدراسة الميدانية، المتعلقة بالماء، إلى ما بلغه الرقي الصحي، في الوسط الإسلامي خلال عصوره القديمة والحديثة، إلى أنه كان توجد بجوار المساجد الإسلامية مراحيض عامة، يقضي الناس فيها حاجتهم، بدون مقابل، وحيث يُسبغون وضوءهم لأجل الصلاة.

وكان لاهتمام الإسلام بهذه المرافق أثره في نظام مساجد المسلمين، فكلُّ مسجدٍ من مساجدهم تلحق به ميضآت لقضاء الحاجة، وفيها من الماء الموقوف ما يلزم للطهارة، وهذا نظام فريد ينفع طبقة الفقراء الذين تخلو بيوتهم من هذه الميضآت، وبه تمتاز مساجد المسلمين عن أماكن العبادة عند غيرهم، فهي بيوت للعبادة والطهارة معا، وهي تؤدي في هذا وظيفة دينية، وتؤدي معها وظيفة مدنية، وقد سبق المسلمون بهذا النظام غيرهم من الأمم الحديثة التي تُعنى بإنشاء الميضآت للناس في الأماكن العامة لتوفر لهم وسائل الراحة والنظافة...

فالواقف لبناء المسجد يحرص أن يتخذ له، في تصميمه، طور البناء، مراحيض يتدفق الماء منها بغزارة، ويقصدها الناس بقصد الطهارة وإسباغ الوضوء... وهذه المراحيض تكون تابعة للمسجد، وغالبا ما تشتمل على حوض للماء الجاري للوضوء، وبزابيز وصنابير متعددة، وتكون بعيدة عن

المسجد أو في ركن من أركانه، بعيدة عن المصلين، وفي كثير من الأحيان تكون خارجة حتى يتسنى للعموم أن يقضي حاجته بدون أن يقدم رسوماً أو مالاً...

\*\*\*

وللإسلام أدب طهارة البدن، وقد أخذ به المسلمون منذ عصورهم الأولى، ليمتازوا عن الحيوان الأعجم، وليكون المسلم مثالا للإنسان النظيف الفاضل في هذه الناحية...

وقد اهتم الإسلام بالاستنجاء حتى جعله شرطاً في صحة الصلاة ليعطيه شيئاً من معنى العبادة، وهو أن الإسلام يفرضه التطهر، قبل إسباغ الوضوء، استعداد للدخول في الصلاة ينبّه الناس إلى خطر القاذورات على صحتهم، فيتنبهون إلى استعمال وسائل التطهير فيها حتى لا تتراكم في مدنهم وقراهم، من كنس للبيوت، والشوارع إلى رشها بالماء ونحوه، وقد تنبه المسلمون إلى شيء من هذا في عصر مبكر، حتى إنه كان يُوجد شيء منه بالمدينة، في عهد النبي عليه السلام، فنظافة مجموع الجسد أوجبها الشارع ﷺ بقوله : «طهّروا هذه الأجساد، طهّركم الله».

\*\*\*

وللنظافة من التأثير البين في صحة الإنسان وسلامته من الأمراض ما هو معلوم...

وما دام الإنسان مسلماً، كان عليه أن يراعي هذا الواجب، لأن ديننا مبني عليه كما جاء صراحة في قوله عليه السلام :  
الطهور شرط الإيمان.  
النظافة من الإيمان.  
بُني الإسلام على النظافة.

\*\*\*

وأمر الشارع لنا معشر المسلمين بنظافة الجسم وتطهيره المرة بعد المرة - اغتسالا ووضوء - إنما السرُّ الحقيقي فيه تنبيهنا إلى تطهير نفوسنا من الرذائل، ورديء الأخلاق، وإلا فالمسلم الذي يبالغ في تطهير ظاهره من الأدران، وهو مُعْرِضٌ عن تطهير باطنه من خواطر السوء، وفاسد الطباع، ومساوئ الأخلاق، لا يكون في عمله، ولا تطهير جسده، مرضيا لله، ولا مهتديا إلى السر من شرائع الإسلام، وآدابه الرائعة التي كان متحليا بها شارع عليه السلام.

\*\*\*

والصحة من حقوق الجسد التي له أن يطالب بها، وهو معنى الحديث : «إن لجسدك عليك حقا»، فهذا الحديث يدل بفحواه على أن مراعاة الصحة، وإنعاش البدن وتقويته واجب على المرء كسائر الواجبات الشخصية والاجتماعية الأخرى...

ومن القوانين الصحية - بل من أجدرها بالعناية والاهتمام - النظافة المائية، وقد حض عليها الشرع الإسلامي حِضًّا لم يساوه فيه دين من الأديان، ناهيك أنه جعلها من جملة فروض الدين التي تتوقف عليها صحة العبادة، فمن لم يغتسل، ولم يغسل أطرافه، الفَيْئَةَ بعد الفَيْئَةِ، لا تصح صلاته، وقد جعلها أيضا من الإيمان صراحة...

فالشارع عليه السلام، حض المومنين على النظافة، وإن كان مراعى فيه الغرض الديني، وهو صحة العبادات، والغرض الشخصي والاجتماعي، وهو أن يُصبح المرء مُكْرَمًا بين إخوانه، محببا إلى قلوبهم، روعي فيه، أيضا، الغرض الصحي لأن علاقة الصحة بالنظافة لاتخفى على الجاهل البليد، فضلا عن الشارع الحكيم..

من أجل هذا المعنى، قال بعض علماء الأخلاق المعاصرين : «ليس من المروءة ولا الفضيلة في شيء أن يلبس الإنسان الوَسَخَ الرَّثَّ من الثياب،



عمود... وقال آخر : ليس له ميضأة.. فجمع الناس، وقال : أما المحراب،  
فإني رأيت رسول الله ﷺ، وقد خطه لي.. وأما العمدة باني هذا الجامع من  
مال حلال، وهو الكنز، وما كنت لأبويه بغيره.. وهذا العمدة، إما أن تكون من  
مسجد، أو كنيسة، فنزّهته عنها. وأما الميضأة، فها أنا أبنيها خلفه، ثم عمل  
في مؤخره ميضأة، وخزانة شراب، فيها جميع الأشربة والأدوية، وعليها  
خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث من الحاضرين  
للصلاة..(8)

\*\*\*

وذكر ابن بَشْكُوَال أن الحكم المستنصر(9) هدم الميضأة القديمة التي  
كانت بفناء جامع قرطبة، يستسقى لها الماء من بئر السانية، وبني  
موضعها أربع ميضآت في كل جانب من جانبي المسجد الشرقي والغربي  
منها، إثنان كبرى للرجال، وصغرى للنساء، أجرى، وقفاً، في جميعها  
الماء في قناة اجتلبها من سفح جبل قرطبة إلى أن صبت ماءها في  
أحواض رُخَام لا ينقطع جريانه الليل والنهار، وأجرى فضل هذا الماء العذب  
إلى سقايات اتخذهن على أبواب هذا المسجد بجهاته الثلاث الشرقية  
والغربية والشمالية، أجراها هنالك إلى ثلاثة جَوَابٍ من حياض الرخام  
استقطعها بمقطع المُنستير، بسفح جبل قرطبة بالمال الكثير، وألقاه  
الرخامون هنالك، واحتفروا أجوافها بمناقيدهم في المدة الطويلة حتى  
استوت في صورها البديعة لأعين الناس، فخفف ذلك من ثقلها، وأمكن من  
إهباطها إلى أماكن نصبها بأكناف المسجد الجامع، وأمد الله تعالى على  
ذلك بمعاونته، فتهياً حمل الواحدة منها فوق عجلة كبيرة اتخذت من ضخام

(8) «حسن المحاضرة» ج : 2 / ص : 137.

(9) الحكم المستنصر، تولى الخلافة بعد أبيه الناصر لدين الله، أنظر ترجمته في النفع، ج  
1 / ص : 382.

خشب البلوط على فلكٍ موثقة بالحديد المثقّف، محفوفة بوثق الحبال، قُرن لجرها سبعون دابة من أشد الدواب، وسهلت قدامها الطرق والمسالك، وسهل الله تعالى حملها واحدة بعد أخرى على هذه الصفة في مدة اثني عشر يوماً، فنصببت في الأقباء المعقودة لها..(10)

وفي الناحية الشرقية من صحن مسجد قرطبة الجامع تقوم الميضاة البديعة التي أنشأها المنصور محمد بن أبي عامر، وأجرى لها الماء في قناة تحت الأرض، وهذه القناة تصب في حوض واسع مقسم إلى تسعة أحواض، كانت تقوم فوقها تسع قباب صغيرة، والغالب أن المتوضىء كان ينزل بضعة سلالم حتى يكون في مستوى الماء...

وهذه الميضاة، لاتدخل في تكوين المسجد بصورة أساسية، فهي أقل عناصر المسجد لزوماً له، وعندما نفكر، قليلاً، نجد أن وجود الميضاة، داخل المسجد يقلل من هَيْبَتِهِ وحُرْمَتِهِ، فهي موضع غير نظيف، وإذا أضيف إليها دورة مياه، أصبحت موضعاً غير طاهر لايجوز وجوده داخل المسجد..

والمفروض أن المسلم يذهب إلى المسجد طاهراً متوضئاً، وليس المفروض - على أي حال - أن يتنظف، ويتوضأ في المسجد..

ولقد كان وجود الميضاة في المسجد مفهوماً - رغم ذلك، في العصور الماضية - عندما كانت معظم البيوت تخلو من المياه الجارية ودورات المياه، أما اليوم، فلم يعد لذلك معنى أصلاً، وإذا كان مما لا بد منه، فلينشأ خارج المسجد مكان للوضوء على صورة تختلف عن صور الميضاة الحالية، لأنها بوضعها الحالي لاتعين على نظافة أو طهارة، أما دورة المياه، فلا بد من استبعادها من المساجد تماماً..(11)

(10) النفح، ج : 1 / ص : 555.

(11) حسين مؤنس - المساجد، ص : 93.

وهكذا اقْجَمَت الميضأة على المساجد في الماضي، وأنها كانت دائما شائنة. (12)

\*\*\*

### بيوت بدون كُنف :

لقد كانت بعض البيوت أو معظمها قديما، تخلو من المياه الجارية، أو دورة للمياه.. ولقد كتب المرحوم المختار السوسي عن خلو معظم البيوت من دورة للمياه حيث قال : ويجب أن يعرف خلو البيوت من المراحيض عن القطر السوسي حتى في «تزنيت»، فلم تعرف الكُنف إلا أخيرا في الدور.. وأما البادية، فإلى الآن، قلما تجدها إلا عند مَنْ ومن، ولكن الناس يتنبهون لمزايا أمثال ذلك الآن.

قال المختار السوسي رحمه الله : وقد بتنا عند القائد ليلة باستدعائه، وما قَصَّر جزاه الله بكل خير، وهو يبني رياضاً جميلاً، متسعاً أفِيحٌ مُونِقاً، لكنه لَمَّا يَتَمَّه إلى الآن، وقد رأينا الزليج مهيباً للتزليج، وهو المحل الحضري الوحيد هناك من هذا النوع، ولم أر بين كل ما رأيته في هذه الجهة مثله؛ حتى إننا لانجد الكُنف في الدور، حتى في دار القاضي الذي رأى مثل ذلك في الحواضر، وقد عزم أن يبني كل ما يحتاجه الضيف في داره بتنبهيه له.. (13)

\*\*\*

فالكنف لا بد منها في البيت أو في الشارع لراحة الناس، وهذا ما أشار إليه الشاعر الماجن ابن الحجاج بقوله:

وشعري سُخْفَةٌ لا بَدَّ منها  
فقد طَبْنَا، وزال الاحتشام  
وهل دارٌ تكون بلا كنيفٍ  
فيمكن، عاقلا فيها، المُقام

(12) المصدر السابق، ص : 147. «عالم المعرفة».

(13) «خلال جزولة» ج : 3 / ص : 83.



أو كما قال :

تراني ساكناً حانوت عطرٍ

فإن أنشئت ثار لك الكنيف(14)

وبعكس ما كان يوجد في بعض الجهات من ندرة دَوْرَات المياه، فإن في «توات» وبمدينة «تِغُورَارِين» أي المخيمات البربرية، وقد عُربت على شكل فوارة، تمتاز بالأراضي الصالحة للزراعة، ولكن يجب ريها بمياه الآبار، وتسميدها بالسَّمَاد، لأن هذه الأراضي جافة وغير خصيبة، ولهذا يُعَيرون مساكنهم للغرباء بدون تعويض، كي يحصلوا على سماد الخيل، وِبِرَاز الأدميين.. وأكبر ما يغضب صاحب المنزل، هو أن يقضي الضيف حاجته خارج البيت..! وإذا رأى صاحب البيت، اغتم وصرخ : «ألا يُوجَد مِرْحاض في بيتي حتى تضطر لقضاء حاجتك في الخارج ؟!»(15)

\*\*\*

### عناصر معمارية مساجدية :

في حديثنا عن عمارة المساجد الأولى تحدثنا عن الميضاة وقلنا إنها أقحمت على المساجد في الماضي، وأنها كانت دائما شائنة لعمارة المسجد شائبة لنظافته. وإذا كان المعماريون لم يوفقوا إلى بناء ميضآت تيسر الضوء على المصلين دون أن تسيء إلى نظافة الجامع، فهم معذورون في ذلك، لأن الميضاة تحتاج إلى الماء الجاري، ولم يكن الماء الجاري

---

(14) ولعل أجمل ما قيل في الكنيف قول أحدهم :

ولقد سألت الدار عن أخبارهم

فتبسَّمت، عَجَبُلاً، ولم تُبَيِّد

حتى مَرَرْتُ على الكنيف، فقال لي :

أخبارهم، ونسألهم، عندي

(15) «وصف إفريقية»، لحسن الوزان، ص : 505 - 506.

ميسرا في العصور الماضية. وكان موضع إقامة الميضاة دائما مشكلة وذلك لتجنب تأثير المياه في مباني المسجد؛ ومن المعروف أن جلب الماء قد يكون سهلا ولكن العسير حقا هو التخلص من الماء الزائد أو الماء المستعمل، ولهذا فقد أصاب المساجد ضرر كبير من جراء مشكلة تصريف المياه الزائدة.

\*\*\*

ولهذا كان المعماريون يميلون إلى إنشاء الميضاة في الصحن المكشوف، في جانب منه أو في وسطه، فذلك أعون على تجفيف ذلك الماء الزائد، ولم يوفق المعماريون - مع ذلك - في إقامة ميضات ذات هيئة فنية جديدة بأن تذكر، فيما عدا ما يقال من أن المنصور بن أبي عامر الأندلسي أنشأ ميضاة بديعة في جانب من صحن جامع قرطبة، فجلب لها الماء من الجبل في قنوات تحت الأرض، وأنشأ الميضاة في هيئة جوسق صغير ذي تسع قباب زخرفية، وقد عثر على آثار هذه الميضاة.

وإذا كانت الميضاة مشكلة كبيرة بالنسبة للمعماريين، فإن تضخيمها وتحويلها إلى دورة مياه كاملة كان مشكلة أكبر؛ وعلى الرغم من تيسر المياه الجارية ووسائل الصرف اليوم فإن دورات المياه هذه ضرر شديد على المساجد دون أن تؤدي وظيفة ضرورية، وإذا نحن قلنا إن وجود الميضاة يعين الناس على الصلاة فإن دورة المياه لا أساس لها إطلاقا ولا بد من الاستغناء عنها على أي حال، خاصة وأن المساجد في أحياء المتاجر والأسواق وازدحام الناس، تستخدم أحيانا كثيرة دورات مياه، وهذا ضرر شديد، وإذا لم يكن من الأمر بد، فليكن لدورة المياه مبنى آخر منفصل عن المسجد حتى لا يصيب المسجد ضررها. (16)

\*\*\*

---

(16) «المساجد»، حسين مؤنس، ص : 148.

ولقد كفروا الشيخ محمد عبده حين دعا إلى استخدام ماء الصنبور في  
الوضوء بدلا من الميضة التي كانت «تعج بالجراثيم». (17)

\*\*\*

وكان لمراد الثالث في «أيا صوفيا» آثار كثيرة، فهو الذي جعل عند  
الباب حوضين يسع كل منهما 1150 ليترا من الماء لأجل الوضوء. (18)  
ثم أن السلطان محمود الأول جعل بجانب مسجد أيا صوفيا سبيلا لماء  
الوضوء ومدرسة. (19)

\*\*\*

وقد بنى الأمير عبد الرحمن كتحذا المدرسة الطبرسية وأنشأها إنشاءً  
جديداً، وجعلها مع مدرسة الأقبغاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير  
الذي أنشأه خارجها جهة القبو الموصل للمشهد الحسيني، وخان  
الجراكسة، وهو عبارة عن بابين عظيمين، كل باب بِمِصْرَاعَيْنِ، وعلى  
يمينهما منارة، وفوقه مكتب، أيضاً، وبداخله على يمين السالك بظاهر  
الطبرسية ميضة، وأنشأ لها ساقية لخصوص إجراء الماء إليها، وبداخل  
باب الميضة دُرُجٌ يصعد منه للمنارة، ورواق البغداديين والهنود، فجاء هذا  
الباب، وما بداخله من الطبرسية والإقبغاوية والأروقة من أحسن المباني  
في العِظَمِ والوَجَاهَةِ، والفخامة، وأرّخ بعضهم ذلك بهذه الأبيات الركيكة...

تبارك الله، باب الأزهر انفتحا

وعاد أحسن مما كان، وانصلحا

نقر عينا إذا شاهدت بهجته

بإخلاص بانیه للعلماء والصلحا

(17) مجلة «العربي» ع : 320/ص : 69، يوليو 1985.

(18) «حاضر العالم الإسلامي» للأمير شكيب أرسلان، ج : 1/ص : 226.

(19) نفس المصدر، ج : 1/226.

وادخل على أدب تلق الهداة به  
قد قروا حكما ميزانها رجحا  
بالباب قد بدأ الأكوان أرخه  
بعبد رحمن باب الأزهر انفتحا (20)

\*\*\*

وكان لكل مسجدا وجامع لمدينة فاس (21) نصيبه من هذا الماء، بل إن كل معهد إسلامي بمدينة فاس يرى الناظر إليه بركة فاخرة من رخام سعة تُسقيتها بطتين من الماء، (22) ويخترق هذا المعهد جدول ماء يجري في قناة صغيرة قاعها وخوافيها مبلطة بالرخام وبالمايورقي. (23) بل إنه يوجد بين مساجد مدينة فاس صنابير جميلة جدا، والمصنوعة من رخام، ومن حجارة أخرى من التي لا يرى مثلاً في إيطاليا. (24)

---

(20) «عجائب الآثار» للجبرتي، ج : 2 / ص : 7.

(21) وصف إفريقيا - للوزان، ص : 227.

(22) النبطية : تعادل 4، 933 لترا، أي أن سعة الفستقية كان حوالي : 50.1 لترا.

(23) وصف إفريقيا - ص : 232 - والمايورقي نسبة إلى جزيرة مايورقة التي كان يحكمها أولاد غانية، وهم من المرابطين، وهي إحدى جزر «البليار» الإسبانية. - وفي مدينة ميورقة، يقول ابن اللبّانة (ت : 507هـ).

بلدُّ أعارته الحمامة طوقها

وكساه حلةً ريشه الطاووس

فكأنما الأنهار، فيه مدامة

وكان ساحات الدياركؤوس

وينسب البيتان لابن قلاقس الأسكندري قالهما في مدينة «مسينا» بصقلية، حين زارها، أو لابن حمديس، وقال يخاطب ملكها ذلك الوقت :

وغمرت بالإحسان أرض ميورقة

وبنيت ما لم يبنه الأسكندر

[نفع الطيب، ج : 1 / ص : 169].

(24) وصف إفريقيا، ص : 229.

ولما دخل أبو الحسن المريني تونس، لم يكن عنده أهم من النظر في ردّ مائها الجاري في القديم إلى الجامع الأعظم، جامع الزيتونة، فأمر بجمع الرصاص وعمله، الطيفور الذي ينتقل لوسط الجامع وموضع الميضأة. (25) وقد وصف بعض هذه المراحيض الحسن الوزان بأنها أبنية مربعة الشكل تحوي على طرفيها حجيرات ذات أبواب صغيرة، ويوجد في كل مرحاض حوض، ويخرج الماء من الجدار، ويجري في ميزابٍ من الرخام... ولما كان تيار الماء، في فاس، وعلى عهد الوزان، على قدر، لا بأس به من السرعة، فإن هذا الماء ينظف المراحيض، ويكسح فضلاتها وأوساخ المدينة، ويقذف بها في النهر، وفي وسط هذا البناء توجد بركة عمقها ثلاثة أذرع، وعرضها حوالي إثنا عشرة ذراعا. (26) وقد صنعت مجار حول البركة تصرف الماء الجاري لأسفل المراحيض، وفي هذه المدينة مائة وخمسون مرحاضا من هذا النوع. (27) وتمتاز بعض المراحيض المغربية بزخرفة فنية عالية تعمل فيها اليد الصناع ما تقوم به في جهات أخرى... وبعضها يمتاز بفنّ عال... ولعل من أحسن المراحيض الموجودة، قديما، في المغرب هو مرحاض المدرسة البوعنانية (28) بمدينة فاس، كما أن هناك بعض المساجد (29) في بلاد المغرب، كمسجد السعديين بتارودانت، والجامع الأعظم بأزميز يكون الماء فيها في فصل الشتاء ساخنا حتى يتسنى للمصلين أن يسبغوا وضوءهم في اطمئنان...

(25) المسند الصحيح الحسن، ص : 417 - 418، لمحمد بن مرزوق التلمساني - تحقيق ماريّا خيسوس بيغرا.

(26) بما أن الذراغ الروماني يساوي 67 سم، فيكون العمق حوالي المترين، والعرض 70.2 م والطول : 7 م.

(27) وصف إفريقيّا : للوزان، ص : 227 - 228.

(28) أنظر ص : 88 من كتاب المؤسسات الخيرية لجوزيف لوسيني : ط : الملكية - الرباط.

(29) نفس المصدر، ص : 52 - 53.

كما توجد قنوات وأحواض مائية في مداخل المساجد يستعملها الحفاة الواردون على المسجد لغسل أرجلهم قبل الدخول، وحتى لا يحملوا الأوساخ إلى الحُصر داخل المسجد.

بل إن الوزن حينما تكلم عن الفنادق الفخمة البنيان لمدينة فاس قال : «بأنها تتجهز كلها ببرك ماء... وبمراحيض مع بالوعات لتفريغ الأقدار.. ولم أرمطلقا، في إيطاليا أبنية مماثلة، اللهم إلا في معهد الإسبان الموجود في مدينة بولونيا،(30) وفي قصر «الكاردينال» في دير الخضر الواقع في روما...

وقد علق الدكتور عبد الرحمن احميدة على هذا المظهر الحضاري الإسلامي والتطور الاجتماعي، والرقى الصحي للمدن المغربية، ولا سيما مدينة فاس، فإن فقرات الحسن الوزان تعطي فكرة عن الرقي الصحي في المدن الإسلامية القديمة، كما في دمشق وحلب داخل الأسوار، وهو ما لا يتوافر، مع الأسف في كثير من مدننا الحديثة، ولا سيما في الأحياء الأروبية الطران.

\*\*\*

أما في روما فكان أول من أوجد هذه المراحيض العامة هو الإمبراطور «فيسباسيان» الذي حكم بين 60 و 79م، وفرض رسوما معينة على هذه المراحيض العامة تجبى من الذين يترددون عليها.. ولما اعترض ابنه : «تيتوس(31) على ذلك، مد يده لولده، وفيها قطعة نقود، وقال له : «شمها!!» الدراهم ليس لها رائحة».

---

(30) مدينة في شمالي إيطاليا شرق جنوة، سبق للحسن الوزان أن درّس اللغة العربية في معاهدها.  
(31) تيتوس Titus. ابن فسيسيناس هو الإمبراطور الروماني فاتح أورشليم (70) اشتهر بحمله وإحسانه، كان يقول : «لقد فقدت نهاري» إذا ما قضى نهاره، ولم يصنع لأحد خيرا، على أيامه ثار بركان «فيسوف»(79).

## الباب السابع عشر :

### خوارق كونية مائية

#### خوارق كونية :

المعجزة هي حدوث شيء ما، من غير تدخل للعوامل الطبيعية فيه، مما يشكل حدوثه خرقاً للقوانين المألوفة لدى الإنسان.

فالله جل وعلا، يضع قوانين الطبيعة لحكمة، ويخرقها لحكمة، وتعالى الله عن العبث في غير معنى، فلا يكون خرقُ القوانين، وخلقُ المعجزات لغير قصد يعلمه شهود المعجزة التي تخالف مألوفهم، ومجرى العادات أمامهم كل يوم..

وفي هذا الباب، نتناول معجزات وكرامات، وخوارق لها علاقة بالماء، وذلك كالمشي على الماء، وفوران الماء من بين أصابع النبي عليه السلام، وتفجير العيون من الصخر، والطوفان، والماء والعرافون.. الخ..

وقد قسمنا هذا الباب، الخاتمة، إلى ثمانية فصول :

**الفصل الأول :** فَوْرَان الماء من بين أصابع النبي عليه السلام.

**الفصل الثاني :** تفجير العيون من الصخر.

**الفصل الثالث :** عبور بني إسرائيل على أرض البحر.

**الفصل الرابع :** المشي فوق الماء..

**الفصل الخامس :** الطوفان..

**الفصل السادس :** الماء لضبط وقياس الزمن.

**الفصل السابع :** الماء في المنام..

**الفصل الثامن :** الماء والعرافون.





## فَورَان الماء من بين أصابع النبي محمد عليه السلام

تفجيرُ العيون من الصخر ! والمشي فوق الماء، وعبورُ بني إسرائيل أرض البحر، والطوفانُ الذي كان في عهد نوح، ونبعُ الماء من أصابع رسول الله محمد عليه السلام... تلك عناوين لمعجزات كونية خارقة للمألوف الذي درج عليه الناس، وخوارق كونية جاءت في القديم لتخرق قانون الوجود، ولتؤكد دعوى نبوة رسول من المرسل...

فما هي المعجزة (1)؟ وما هي الحوادث التي خرقت القانون؟ إن كل شيء في هذه الحياة تتحكم فيه مجموعة «عوامل» طبيعية تؤدي إلى وجوده، وإن كافة الأمور تجري بأسبابها الخاصة بها، بحيث لو استطعنا أن نعرف تلك العوامل لاستطعنا أن نتنبأ بها بشكل قاطع... وهكذا، فالطبيعة تخضع لنظام ثابت لا يحتمل التقلب مع الهوى، وهذا النظام العام يشمل كافة الظواهر الطبيعية على أساس أن كل طائفة من الأسباب المعينة، تقابلها طائفة من النتائج المعينة...

ولولا هذا الأمر لما نشأت العلوم الطبيعية أو تقدمت؛ فتاريخ العلوم يشهد بأنها لم تخط خطوَات واسعة في الكشف عن القوانين الطبيعية، إلا منذ اعتقد الإنسان أن الطبيعة تخضع لنظام عام ثابت...

فالمعجزة هي حدوث شيء ما، من غير تدخل للعوامل الطبيعية فيه، مما يشكل حدوثه خرقاً للقوانين المألوفة لدى الإنسان... ويُقصد من المعجزة، ذلك العمل الذي تقوم به «إرادة» تلك القدرة التي خلقت في الأسباب السَّبَبِيَّة، وفي النتائج المسببة...

وهل يعقل أن يكون خالق «القوانين الطبيعية» عاجزاً عن خرقها؟

---

(1) لمحمد بن البناء الأزدي (ت 721هـ) رسالة في الفرق بين الخوارق الثلاثة · المعجزة · والكرامة · والسحر. [جذوة الاقتباس ج : 2 ص : 152].

إن المعجزة كحدث طبيعي لإرادة الله، يجب أن تدرس، وليس علينا إزائها إلا محاولة فهمها فهما منطقيا: فخالقها، خارقها...

\*\*\*

المعجزة : هي الأمر الخارق للعادة، المقارن لدعوى الرسالة المُتَحَدِّى به، قبل وقوعه الذي يعجز من يبغي معارضته عن الإتيان بمثله، فهي أمور خارقة، أي غير خاضعة لناموس الكون، ولا لقانون الوجود، فالكون، له قانون يسير عليه، فإذا جاء أمرٌ خارج ذلك القانون، فنقول، إن هناك حادثةً جاءت وخرقت القانون، وما دامت خرقت القانون، فنتساءل، كيف يخرق القانون؟ بديهي أنه لا يمكن أن يخرق القانون، إلا خالق القانون...

وما الفرق بين قانون الإنسان، وقانون الحق سبحانه وتعالى؟ أجب عن هذا السؤال فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في حديث أذيع بالتلفزة المغربية حيث قال : «...إن الإنسان يملك أن يطلق القانون أو... لا يُطلقه، ولكنه إذا أطلق القانون، فلا يملك أن يتحكم فيه، فإذا كان هناك إنسانٌ يجيد أن يُصيب الهدف، ومعه بندقيةٌ سليمة، وفيها الرصاصة، وهو يُحسن التصويب، فإن له أن يصوب ويطلق أو... لا يصوب ولا يطلق، هو مختار في هذا، ولكنه حين يضع يده على الزناد، ويطلق الرصاصة على الهدف، وهو يجيد التصويب، فلا يستطيع أن يتحكم في الرصاصة ليقول لها : «يارصاصة، لا تصيبي الهدف...» فقد خرج القانون من يده... ولكن الحق سبحانه يطلق القانون، ويقول للقانون، «قف ولا تفعل...» إذن فالمعجزة هي خرق لنواميس الكون، وخرقٌ لقوانين الوجود تدلني على أن الذي فعل ذلك، هو الذي خلق الناموس، وخلق الوجود، وخلق قوانين الوجود، ولكن هذا الخرق إن كان أمراً مادياً، يحدث مرةً واحدة... ثم قال الأستاذ محمد متولي الشعراوي :

إذا كان التاريخ والسيرة تحدثنا بأن معجزاتٍ حدثت كنبع الماء من بين أصابعه عليه السلام أو حنين الجذع، وكإشباع جيش أو عدد كبير بحفنات من طعام وغير هذا، إذا حدثنا بهذا نقول للمسلم : «استقبلها بما يأتي أو لا لست أنت الغائب عن المعجزة المقصود بهذه المعجزة، وإنما المقصود بها هو من رآها، لأنهم كانوا في بداية الإسلام، وفي حاجة إلى تثبيت، وهذا التثبيت يحدث في فترات... القوم الذين شاهدوا هذا... شاهدوا أن ماءً نبع من بين أصابعه ﷺ... أيمن أن نقول لهم : لا، لم ينبع، لا... فهو قد نبع، والمراد تثبيت يقينهم هم، أما أنا، فالقرآن كافيني حقا...

\*\*\*

### قدرة الله تفوق كل العقول :

وليست المعجزات، بالقياس إلى قدرة الله، خالق الكون إلا كالمألوفات التي تجري بها العادات في كل يوم، فإذا كانت الموجودات مخلوقة بخصائصها، فالذي خلقنا وخلق خصائصها، يملك تغييرها وتبديلها، ويأتي بالمعجزات كما يأتي بالمنظور المطرد من النواميس والعادات... فالرسول محمد عليه السلام، هو البشر الوحيد الذي فُتِحَتْ له أبواب السماء، حتى وصل إلى سِدْرَةِ المنتهى بالجسد والروح معا... فإن كان الإسراء آيةً أرضية من مكة المكرمة إلى بيت المقدس... فالمراد بها أن يتأكد الناس أن الله تعالى قد خرق قوانين الأرض لرسول الله ﷺ، وأن الله قادرٌ على أن يخرق له، أيضا، قانون السماء، فالزمان والمكان هما من خلق الله سبحانه وتعالى.

فقدرة الله تفوق كل العقول التي تحكم العقل والمنطق....

\*\*\*

وعقيدتنا في ذلك عقيدة الإمام الغزالي رحمه الله حيث قال غير ما مرة : «إن الحوادث تجري عند حصول الأسباب، ولا تجري بحصول تلك الأسباب، فليس خصائص المادة من فعلها وإرادتها، ولكن المادة

وخصائصها جميعاً من فعل الحكمة الإلهية التي تسخر كل شيء بمقدار...

فالله جل وعلا يضع قوانين الطبيعة لحكمة، ويخرقها لحكمة، وتعالى الله عن العبث في غير معنى، فلا يكون خرق القوانين، وخلق المعجزات لغير قصد يعلمه شهود المعجزة التي تخالف مألوفهم، ومجرى العادات أمامهم كل يوم...

\*\*\*

وقد تكلم العلماء عن المعجزات، وعقدوا لها الأبواب والفصول، وبمستويات مختلفة، ونظريات متفاوتة، وأثرت على الفكر الإسلامي حتى كانت موضع الأخذ والرد، وسيطرت على الفلسفة الإسلامية... لهذا نرى الإمام الغزالي برده على الفلاسفة من المسائل التي أثارها عليهم العشرين هي المعجزات، ونظرية السببية... فقد هاجم الإمام الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة»، ونرى ابن رشد الحفيد يرد على الإمام الغزالي مدافعاً عن الفلاسفة في كتابه : «تهافت التهافت»... ومثار الخلاف في مسألة المعجزات بين الإمام الغزالي والفلاسفة، هو الخلاف بينه وبينهم في نظرية السببية الطبيعية حيث أخذ عليهم القول بالأسباب الطبيعية، والتلازم الضروري فيها وبين مسبباتها لما يترتب عليه، بل لما رتبوه بالفعل، كما يقول رواية عنهم عن إنكار المعجزات التي يثبتها القرآن للأنبياء عليهم السلام، فالفلاسفة، ومن تأثر بهم سلفاً وخلفاً ينظرون إلى المعجزات بعدم جواز إمكان وقوعها بناء على الأسباب الطبيعية، وضرورة التلازم بينها وبين مسبباتها...

ولذلك اضطروا إلى تأويل آيات القرآن في المعجزات، تأويلاً يخرجها عن ظاهرها، ولا يتمشى مع الحق والواقع ليخرجوها من دائرة المعجزات إلى دائرة التمثيل والتشبيه لمعان لا تتفق والواقع.

## الكرامة (2) :

الكرامات، هي للأولياء والصالحين، «وكرامات الأولياء حق» كما غي «جمع الجوامع» لابن السبكي، وهي في الحقيقة معجزات لمتبوعهم وهي كما قال البوصيري في همزيته :

والكرامات منهم معجزات

نَالَهَا مِنْ نَوَالِكِ الْأَوْلِيَاءِ

والكرامة متواترة في الجملة عن الصحابة وغيرهم، وإن كانت التفاصيل أحاداً، كجريان النيل بكتاب عمر، كما تقدم.

ومما رواه آلاف العلماء وشاهدوه من أولياء، وكرامات لهم تفوق الحصر، ومن ذلك ما روي أن الملائكة كانت تسلم على عمران بن حصين رضي الله عنه، وأن سلمان الفارسي، وأبَا الدرداء رضي الله عنهما كانا يأكلان في صحفة، فسبحت الصفحة أو الطعام فيها، وأن خُبیباً رضي الله عنه كان أسيراً عند المشركين بمكة، فكان يوتى بعنب يأكله، وليس بمكة من عنب، وأن البراء بن عازب رضي الله عنه، كان إذا أقسم على الله في شيء استجاب الله له، حتى كان يوم القادسية، أقسم على الله أن يمكن المسلمين من رقاب المشركين، وأن يكون أول شهيد في المعركة، فكان كما طلب، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يخطب على منبر رسول الله ﷺ بالمدينة، فإذا به يقول : «يا سارية الجبل! يا سارية الجبل! يوجه قائد معركة يقال له : سارية، فسمع سارية صوته، وانحاز الجيش

---

(2) ألفت في الكرامات كثير من الكتب، نذكر منها على سبيل المثال، لا الحصر : «جامع كرامات الأولياء» للنباهي، «وتحفة الأحباب، في الكلام على الأولياء» للسخاوي، «ونسمات الأسحار، في كرامات الأولياء الأخيار» للشيخ علوان الحمون، و«حلية الأولياء في الحديث» للحافظ أبي نعيم الأصبهاني (ت : 430هـ) مجلد ضخ، واختصره ابن الجوزي اختصاراً حسناً؛ و«حلية الأولياء في طبقاتهم»، لإبراهيم بن بشار، و«حلية الرجال»، في الأقطاب والنجباء والأبدال»، و«كرامة الأولياء» لأبي محمد الخلال. انظر: «فصل جامع لأنواع الكرامات»، التشوف ص: 74، لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي عُرِفَ بابن الزيات (ت: 617هـ).

إلى الجبل، فكان في ذلك نصرهم، وانهزام أعدائهم من المشركين، ورجع سارية، فأخبر عمرَ والصحابَة بما سمع من صوت عمر رضي الله عنه، وأن العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه كان يقول في دعائه : يا عليم يا حكيم... يا علي، يا عظيم، فيستجاب له، حتى إنه خاض البحر بسرية معه، فلم تبطل سروج خيوله، وأن الحسن البصري دعا الله على رجل كان يؤذيه، فخر ميتا في الحال، وأن رجلا من النخع، كان له حمار، فمات له في طريق سفره، فتوضأ وصلى ركعتين، ودعا الله عز وجل، فأحيا له حماره، وحمل عليه متاعه، إلى غير ذلك من الكرامات التي لا تعد ولا تحصى، والتي شاهدها آلاف الناس...

\*\*\*

وقد كثرت الكرامات فيما بعد زمن الصحابة والتابعين... وكتب المذهب كالحلية لأبي نعيم، وغيرها متضمنة لكثير منها، ولا يلزم من ذلك فضل من بعدهم عليهم، لأن الكرامات، من توابع المعجزات، فتؤكد الإيمان بما جاءت به الرسل وتقويه... والأوائل من الصحابة والتابعين لهم كانوا مستغنيين بنور النبوة وقربهم من زمنها، بخلاف غيرهم، فكثرت على أيديهم الكرامات تقوية لقلوب أصحابهم، ومعاصريهم ممن لم يبلغ رتبهم... ثم جمهور أهل السنة، أن كل ما جاز أن يكون معجزة لنبي، جاز أن يكون كرامة لولي... (3)

قال إبراهيم اللقاني رحمه الله :

وَأَثْبَتَ لِلْأُولَى الْكَرَامَةَ وَمَنْ نَفَاهَا، فَانْبِذَ كَلَامَهُ

وقال القشيري : «الكرامات تكون خارقة، ولكن لا تنتهي إلى حصول الإنسان بلا أبوين أو قلب جماد بهيمة أو نحو ذلك...»

(3) انظر «منهاج المسلم» لأبي بكر الجزائري، ص : 56-57.

قال ابن حجر من شرح البخاري، وهو أعدل المذاهب، واعترضه الزركشي في شرح جمع الجوامع بأنه ضعيف، قائلًا : «والجمهور على خلافه، وقد أنكره عليه حتى ولده أبو نصر في كتابه «المرشد»، وإمام الحرمين في «الإرشاد»، والنووي في «شرح مسلم».

\*\*\*

### نبيع الماء من بين أصابعه عليه السلام :

قصة نبيع الماء وتكثر الطعام رواها الثقات، والعدد الكثير، عن الجماء الغفير، عن العدد الكثير من الصحابة، ومنها ما رواه الكافة عن الكافة، متصلاً عمّن حدّث بها من جملة الصحابة وأخبارهم، إن ذلك كان في موطن اجتماع الكثير منهم في يوم الخندق، وفي غزوة بواط، وعُمرة الحُدَيْبِيَّةِ وغزوة تبوك، وأمثالها من محافل المسلمين، ومجمع العساكر، ولم تؤثر عن أحد من الصحابة، كما قال القاضي عياض في «الشفاء» مخالفة للراوي فيما حكاها، ولا إنكاراً عما ذكر عنهم أنهم رأوه، كما رواه، فسكوت الساكّة منهم كنطق الناطق، إذ هم المنزهون عن السكوت على باطل، والمداهنة في كذب، وليس هناك رغبة ولا رهبة تمنعهم، ولو كان ما سمعوه منكراً عندهم، وغير معروف لديهم لأنكروه، كما أنكر بعضهم على بعض أشياء رواها من السنن والسّير وحروف القرآن، وخطأ بعضهم بعضاً، ووهمهم في ذلك مما هو معلوم، فهذا النوع كله يلحق بالقطعي من معجزاته عليه السلام لما بيناه، وأيضاً؛ فإن أمثال الأخبار التي لا أصل لها، وبُنيّت على باطل، لا بد مع مرور الأزمان، وتداول الناس وأهل البحث من انكشاف ضعفها، وخمول ذكرها، كما يشاهد في كثير من الأخبار الكاذبة، والأراجيف الطارئة....».

ففي الصحيح عن سالم بن أبي الجعد عن جابر رضي الله عنه، عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه رَكْوَةٌ، فتوضأ منها، وأقبل الناس نحوه، وقالوا : «ليس عندنا ماء، إلا ما في رَكْوَتِكَ، فوضع النبي ﷺ

يَدَهُ فِي الرِّكْوَةِ، فَجَعَلَ الْمَاءَ يَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعَيُونِ، وَفِيهِ فَقُلْتُ : كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ : لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكُنَّا، كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً...

\*\*\*

وَفِي رِوَايَةِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنْهُ فِي حَدِيثِ مُسْلِمِ الطَّوِيلِ فِي ذِكْرِ غَزْوَةِ بُوَاطٍ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : يَا جَابِرُ : نَادِ الْوَضُوءَ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوْلِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ إِلَّا قَطْرَةً فِي عِزْلَاءَ شَجَبٍ، فَأَتَى بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَغَمَزَهُ، وَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ لَا أُدْرِي مَا هُوَ، وَقَالَ، نَادِ بِجَفْنَةِ الرِّكْبِ، فَأَتَيْتُ فَوَضَعْتُهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَسَطَ يَدَهُ فِي الْجَفْنَةِ، وَفَرَّقَ أَصَابِعَهُ، وَصَبَّ جَابِرٌ عَلَيْهِ، وَقَالَ : بِاسْمِ اللَّهِ. قَالَ : فَرَأَيْتُ الْمَاءَ يَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، ثُمَّ فَارَتِ الْجَفْنَةُ وَاسْتَدَارَتْ، حَتَّى امْتَلَأَتْ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالِاسْتِقَاءِ، فَاسْتَقَوْا حَتَّى رَوَوْا، فَقُلْتُ، هَلْ بَقِيَ أَحَدٌ لَهُ حَاجَةٌ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ مِنْ هَذِهِ الْجَفْنَةِ وَهِيَ مَلَأَى...»

وَإِنَّ الْجَهَالَ تَظُنُّ أَنَّ الْمَاءَ كَانَ يَشُقُّ الْأَصَابِعَ وَيُخْرِجُ مِنْ خِلَالِ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا بَوَضَعَهُ أَصَابِعَهُ الْكَرِيمَةَ فِيهِ حَلَّتْ فِيهِ الْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ وَالْمَدَدَ، فَجَعَلَ يَفُورُ حَتَّى خَرَجَ مِنْ بَيْنِ الْأَصَابِعِ، وَقَدْ جَرَى لَهُ هَذَا مَرَارًا عَدِيدَةً بِمَشْهَدِ أَصْحَابِهِ.

\*\*\*

وَقَدْ ذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ عَنْ بَعْضِ بَنِي الْمِصْطَلِقِ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفَدَّ صَدَاءً، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا انْصَرَفَ مِنَ الْجِعْرَانَةِ، بَعَثَ بُعُوثًا؛ وَهِيَأُ بَعَثَا اسْتَعْمَلَ عَلَيْهِ قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ، وَعَقَدَ لَهُ لَوَاءً أَبْيَضَ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ رَايَةَ سُودَاءَ، وَعَسَكَرَ بِنَاحِيَةِ قَنَاةٍ فِي أَرْبَعِمِائَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَطَأَ نَاحِيَةَ مِنَ الْيَمَنِ كَانَ فِيهَا صَدَاءٌ؛ فَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ مِنْهُمْ، وَعَلِمَ بِالْجَيْشِ... فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : «جِئْتُكَ وَافِدًا عَلَى مَنْ وَرَائِي، فَارْدُدْ الْجَيْشَ وَأَنَا لَكَ بِقَوْمِي...» فَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَيْسَ بْنَ



سعد من صدر قناة، وخرج الصدائي إلى قومه، فقدم على رسول الله ﷺ خمسة عشر رجلاً منهم، فقال سعد بن عباد : «يا رسول الله، دعهم ينزلوا علي، فنزلوا عليه، فحياهم، وأكرمهم وكساهم، ثم راح بهم إلى رسول الله ﷺ، فبايعوه على الإسلام، فقالوا : «نحن لك على من وراءنا من قومنا» فرجعوا إلى قومهم، ففشا فيهم الإسلام، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل في حجة الوداع...

\*\*\*

### ما أدركنا لها قعرا حتى الساعة :

ذكر عن حديث زياد بن الحارث الصدائي أنه الذي قدم على رسول الله ﷺ، فقال له : «أردد الجيش وأنا لك بقومي» فردهم، قال : وقدم وفد قومي عليه، فقال لي يا أخا صداء : «إنك لمطاع في قومك» قال : «قلت بلى يا رسول الله مَنْ من الله عز وجل ورسوله...» وكان زياد هذا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، قال، فاعتشى رسول الله ﷺ أي سار ليلاً، واعتشينا معه، وكنت رجلاً قويا، قال : فجعل أصحابه يتفرقون عنه، ولزمت غرزه، فلما كان في السحر، قال : «أذن يا أخا صداء» فأذنت على راحلتي، ثم سرنا حتى ذهبنا، فنزل لحاجته، ثم رجع، فقال : «يا أخا صداء، هل معك ماء؟» قال : «فقلت معي شيء في الإداوة» فقال : «هاته» فجئت به، فقال : «صب» فصببت ما في الإداوة في القعب، فجعل أصحابه يتلاحقون، ثم وضع كفه على الإناء، فرأيت بين كل أصبعين من أصابعه عينا تفور، ثم قال : «يا أخا صداء، لولا أنني أستحي من ربي عز وجل سقينا واسقينا» ثم توضأ، وقال : «أذن في أصحابي، من كانت له حاجة بالوضوء، فليرد» قال : «فوردوا عن آخرهم» ثم جاء بلال يقيم، فقال : «إن أخا صداء أذن، ومن أذن فهو يقيم» فأقيمت، ثم تقدم رسول الله ﷺ، فصلى بنا، وكنت سألته قبل أن يؤمرني على قومي، ويكتب لي بذلك كتاباً، ففعل، لما فرغ من صلاته، قام رجل يشتكي من عامله، فقال : «يا رسول الله، إنه أخذنا بدخول كانت بيننا وبينه في الجاهلية!» فقال رسول الله ﷺ :

«لا خير في الإمارة لرجل مسلم» ثم قام آخر؛ فقال : «يا رسول الله أعطني من الصدقة» فقال رسول الله : «إن الله لم يكل قسمتها إلى ملك مقرب، ولا نبي مُرْسَل، حتى جزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت جزءاً منها، أعطيتك، وإن كنت غنيا عنها فإنما هي صُدَاعٌ في الرأس، وداء في البطن» فقلت في نفسي : «هاتان خصلتان حين سألت الإمارة، وأنا رجل مسلم، وسألته من الصدقة وأنا غني عنها» فقلت : «يا رسول الله، هاذان كتاباك فاقبلهما» فقال محمد عليه السلام : «ولم؟» فقلت : «إني سمعتك تقول : «لاخير في الإمارة لرجل مسلم، وأنا مسلم، وسمعتك تقول من سأل عن الصدقة وهو غني عنها، فإنما هي صداع في الرأس، وداء في البطن وأنا غني» فقال النبي عليه السلام أما إن الذي قلت كما قلت فقبلهما رسول الله ﷺ، ثم قال لي : «دُلّني على رجل من قومه استعمله» فدللته على رجل منهم، فاستعمله، قلت «يا رسول الله، إن لنا بئرا، إذا كان الشتاء كفانا ماءها، وإذا كان الصيف قل علينا» فتفرقنا على المياه، والإسلام فينا قليل، ونحن نخاف، فادع الله عز وجل لنا في بئرننا، فقال النبي عليه السلام : «ناولني سبع حصيات» فناولته فعركهن بيده، ثم دفعهن إلي، وقال : «إذا انتهيت إليها، فألق فيها حصاة حصاة وسم الله» قال، ففعلت فما أدركنا لها قعرا حتى الساعة...

\* \* \*

قال زين الدين عبد الرحيم العراقي في الفية السيرة :

ونَبَعَ الماء فجَاش كثرة

من بين أصبعيه غير مرة

فنبع الماء من بين أصابع النبي عليه السلام في مواطن متعددة، كما ذكرنا... وهذه المعجزة أعظم من تفجر الماء من الحجر، كما وقع لموسى

عليه السلام، فإن ذلك من عادة الحجر في الجملة، وأما من لحم ودم، فلم يعهد من غيره عليه السلام. (4)

\*\*\*

ولا يمكن التحدث عن هذه المعجزة، إلا على وفق الصدق حذراً من التكذيب، وإنما حصل للنبي الله ﷺ، أولاً الماء القليل، أو الطعام القليل، ثم كثره، ولم يخترع من بدء الأمر من العدم إلى الوجود الماء الكثير، أو الطعام الكثير، مراعاةً للأدب بحسب الظاهر، ليعلم أن الموجد هو الله، وإنما حصلت البركة بسبب النبي عليه السلام، وإن كان التكثير، أيضاً، في الحقيقة من جانب الله كالإيجاد. (5)

ورحم الله شرف الدين محمد البوصيري في همزيتة إذ يقول :

أو بتقبيل راحةٍ كان للـ  
ـه، وبالله أخذها والعطاء  
تتقي بأسها الملوک، وتحظى  
بالغنا من نوالها الفقراء  
لا تسل سيل جودها، إنما يكـ  
ـفك من وكفٍ سحِبها الأنداء  
درت الشاة حين مرّت عليها  
فلها ثروة بها ونماء  
نَبع الماء، أثمر النخل في عا  
م بها، سبّحت بها الحصباء  
أُخِيَتِ المُرملين من موت جهدٍ  
أعوز القوم فيه زاد وماء

(4) «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله الهندي ج : 481/2.

(5) المصدر السابق ج : 484/2.

فتغذى بالصَّاعِ ألفَ جِياغٍ  
وتروى بالصَّاعِ ألفَ ظمأ

تفجير الماء ببركة الرسول محمد عليه السلام :

قال القاضي عياض في الشفا : «ومما يشبه هذا من معجزاته تفجير الماء ببركته وإبتعائه بمسه ودَعْوَتِهِ...»

وروى مالك في الموطأ عن معاذ بن جبل في قصة غزاة تبوك، وأنهم وردوا العين، وهي تَبَصُّ بشيء، ثم غسل رسول الله ﷺ وجهه، ويديه وأعادها فيها، فجرت بماء كثير، فاستقى الناس...

قال في حديث ابن إسحاق : «فانخرق من الماء مَالَهُ حِس كَحِس الصواعق ثم قال : «يوشك يا مُعَادُ إن طالت بك حياة، أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنانا...»

وعن أبي قتادة، وذكر أن الناس شكوا إلى رسول الله ﷺ العطش في بعض أسفاره، فدعا بالمِيضَاء - آلة الوضوء - فجعلها في ضَبْنِهِ، ثم التقم فَمَهَا، فالله أعلم نفت فيها أم لا، فشرب الناس حتى رواء، وملأوا كل إناء معهم، فخيل إلي أنها كما أخذها مِنِّي، وكانوا اثنين وسبعين رجلا.

\*\*\*

ومما يروى من بركة يخلف بن خزر الأوربي الفقيه المدرس المفتي بمدينة فاس أنه قعد بموضع عين أبي خزر، (6) من مدينة فاس، وليس هناك ماء لوضوئه، فلم يجده، فركز عكازه بالأرض، وجذبه، فخرجت هناك عين ماء ثرة عذبة، فسميت العين به، فقليل : «عين أبي خزر.» (7)

(6) تقع هذه العين بحومة «روس الرحي» قرب مجمع الدولة، وماؤها هو الواصل إلى زاوية سيدي عبد القادر الفاسي بمدخل حومة القلقلين. انظر : ترجمة أبو خَزَر ابن خَزَر الأوربي، «التشوف إلى رجال التصوف» ص : 177 - وترجم له ابن القاضي في الجذوة ص : 561.

(7) أنظر : ج : الاقتباس ج : 2/ ص : 561، - وسلوة الأنفاس ج : - 2/ 49.

## الفصل الثاني :

### تفجير العيون من الصخر

كان الصخر والحجر في العهد القديم (1) يرمز إلى المعاني الدالة على الطمانينة والالتجاء، والقوة الحامية النافعة، ونحو ذلك من المعاني، حيث يأخذ بعض عناصر الطبيعة في العهد القديم مفهوماً خاصاً، إذ له تاريخٌ طويل مع بني إسرائيل، فقد كان آية لهم حين انبجست منه اثنتا عشرة عينا!! شرب منها أسباط بني إسرائيل الاثنا عشر... فكان هذا المفهوم يتكرر في العهد القديم بين الحين والآخر، فمن مثل ذلك ما ورد في المزامير (2) أن الرب : «شق صخوراً في البرية، وسقاهم كأنه من لجج عظيمة - أخرج مجاري من صخرة، وأجرى مياهها كالأنهار... قالوا : هل يقدر الله أن يرتب مائدة في البرية... هو ذا ضرب الصخرة، فجرت المياه، وفاضت الأودية» (3)

يقول الدكتور «غوستاف لوبون» في كتابه، (4) وهو يشير إلى علاقة الحجر بعقيدة العبرانيين : «وقد مثل يهوه في تابوت العهد، بحجرين سقطا على الصحراء، تحت نظر بني إسرائيل المبهوتين»؛ والصخر والحجر في القرآن يأخذ مفهوماً مغايراً، تماماً، لذلك المفهوم القديم... فالحجر في كتاب الله يقترن حديثه بالقسوة في الغالب، ويكون عنصراً هاماً في صور العذاب الدنيوية، والأخروية فيه... ومما ورد فيه من

---

(1) يطلق «العهد القديم» على الأناجيل الأربعة : متى - مرقس - لوقا - يوحنا، وأعمال الرسل، ورسائل الرسل : بولس - يعقوب - ويطرس - ويوحنا - ويهوذا - ورؤيا يوحنا.

(2) المزامير. سفر هي مجموعة 150 نشيداً تُوِّلف سفرًا من العهد القديم، تنسب إلى سيدنا داود النبي الملك، ولكن غير محتمل يكون هو مؤلف المجموعة كلها، ولسفر المزامير الشأن الرفيع في صلوات ورتب الكنائس المسيحية.

(3) مزامير 78 : 14 - 20.

(4) «اليهود في تاريخ حضارات العبرانيين» الأولى ص : 68 ترجمة عادل زعيتري.

الدلائل على الانتفاع بالحجر، وكونه من النعم الإلهية في ظروف خاصة، فإنما كان إخباراً عن الأمم السالفة... أما مفهومه الذي جاء به القرآن، وخاطب به العرب، فلم يخرج عما بينا آنفاً، واقتترانه بالنعمة والرزق والمنفعة، إنما كان عند الحديث عن بني إسرائيل الذين جعل الله سبحانه لهم عيونا تجري من حجر كان موسى عليه السلام يضربه بعصاه، فتنفجر منه اثنتا عشرة عينا، يشرب منها الناس، وينعمون بها، إلا أنهم لم يكونوا بمستوى ذلك الإناعام الرباني، بل كانوا ينكصون من حين لآخر ما يُسخط الباري عز وجل.

\* \* \*

إن الحجر والصخر في القرآن يأخذ مفهومًا مغايرًا للمفهوم القديم، فهو في كتاب الله يقتدرن حديثه بالقسوة، وصور العذاب، ولنقرأ بعض الآيات التي تشير إلى هذا المفهوم، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحَجَارَةُ﴾ (5) وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ، فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (6) و﴿إِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ (7) وقوله : ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ، فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ (8) ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حَجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ مَنْضُودٍ﴾ (9) ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حَجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ﴾ (10) ﴿قُلْ كُونُوا حَجَارَةً، أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ، فِي صُدُورِكُمْ﴾ (11) بمعنى، أنكم لو كنتم حجارة أو حديدًا لأعاديكم

(5) سورة البقرة، رقم الآية : 24.

(6) سورة البقرة، رقم الآية : 74.

(7) سورة البقرة، رقم الآية : 74.

(8) سورة الأنفال، رقم الآية : 32.

(9) سورة هود، رقم الآية : 82.

(10) سورة الحجر رقم الآية 74.

(11) سورة الإسراء، رقم الآية : 50.

كما بدأكم، ولأماتكم، ثم أحياكم، أي كونوا ماشئتم، فستعادون، وقوله تعالى : ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْم مجرمين لنرسل عليهم حجارة﴾ (12) ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، (13) ﴿وَأُرْسِلْ عَلَيْهِمْ طِيْرًا أَبَابِيلٌ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سَجِيلٍ﴾. (14)

\*\*\*

يقصد بالحجارة في بعض هذه الآيات والتي يراد بها العذاب هي حجارة الكبريت الأسود، وخصت بذلك، لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب :

- 1 - سرعة الاتقاد.
- 2 - نتن الرائحة.
- 3 - كثرة الدخان.
- 4 - شدة الالتصاق بالأبدان.
- 5 - قوة حرّها إذا حميت... (15)

\*\*\*

والحجارة، هي جمع حجر، والمراد بها، الأصنام التي نَحَتُّوها، وَقَرَنُوا بها أَنْفُسَهُمْ، وَعَبَدُوهَا طَمَعاً في شفاعتها، والانتفاع بها، واستدْفَاعِ الْمَضَارِّ بمكانتها، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، عَذَّبُوا، فما هو منشأ جرمهم، كما عذب الكافرون بما كَنَزُوهُ، أو بنقيض ما كانوا يتوقعون، زيادة في تحسيرهم.

(12) سورة الذاريات، رقم الآية : 33.

(13) سورة التحريم، رقم الآية : 6.

(14) سورة الفيل، رقم الآية : 4، والسجيل، الشديد الكثير، والسجيل، والسجين الشديد من الحجر والضرب، قال ابن مقل :

ورجلة يضربون البيض ضاحية  
ضرباً تَوَاصَى به الأبطال سجيناً

(15) القرطبي، ج : 11 / 235.

فالحجارة والأصنام التي عبدوها، يعذب بها المشركون الذين عبدوها، فتكون زيادة في غمهم وحسرتهم، فنار جهنم، وقودها الناس والحجارة، تلك الحجارة يرمى بها في النار توبيخاً للكفار حيث عبدوها، وهي جماد لا تضر ولا تنفع... (16)

فالصورة القرآنية، إذا في جمع الناس والحجارة في جهنم المتقدمة، معبرة عن مفهوم جديد، هذا المفهوم موجه لكسر مفهوم قديم، يرتكز على تعظيم الحجارة وتقديسها، والنظر إليها ميثولوجيا... وصدق الله العظيم : ﴿إِنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، حَصْبُ جَهَنَّمَ، أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ، لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً، مَا وَرَدُوهَا، وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ، لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ، وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾. (17)

وقوله تعالى : ﴿إِنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ قال ابن عباس : آية لا يسألني الناس عنها! لا أدري أعرفوها، فلم يسألوا عنها، أو جهلوها، فلا يسألون عنها؛ فقليل : وما هي؟ قال : ﴿إِنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ لما نزلت شقَّ على كفار قريش، وقالوا : شَتَمَ آلِهَتَنَا، وَأَتَوْا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وأخبروه، فقال : لو حضرته لرددت عليه، قالوا : «وما كنت تقول له؟ قال : كنت أقول له : هذا المسيح تعبد به النصارى، واليهود تعبد عُزَيْرًا، أفهما من حَصْبِ جَهَنَّمَ؟ فَعَجِبَتْ قَرِيشٌ مِنْ مَقَالَتِهِ، وَرَأَوْا أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ خُصِمَ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْ الْحُسْنَى، أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ وفيه نزل : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مِثْلًا﴾ يعني ابن الزُّبَيْرِ، ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصاد، أي يضجون... (18)

\*\*\*

(16) «تفسير البيضاوي» 1/ 51.

(17) سورة الأنبياء، رقم الآية 98 - 100.

(18) تفسير القرطبي ج : 11/ ص 343.



وكان لا يظعن من مكة ظاعن، إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، فحيثما حلوا، وضعوه وطأوا به كطوافهم بالكعبة صَبَابَةً بها وَحُبًّا، وهم على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتماد... وكان لمالك ومِلْكَان ابْنِي كِنَانَةَ بساحل جدة صنمٌ، يقال هل «سعد»، وكان صخرة طويلة يعظمها الجاهليون، ويقدسونها، فأقبل رجل من بني مِلْكَان، بإبل له مُؤَبَّلَةٌ ليقفها عليه، ابتغاء بركته، فيما يزعم، فلما أدناها منه ورأته، وكان يُهَرَّاق ويصب عليه الدَّمَاء، نفرت منه، فذهبت من كل وجه، فغضب ربُّها، فتناول حجراً، فرماه به، وقال :

«لا بارك الله، فيك، إلهاها، أنفرت على إِبلي، ثم خرج في طلبها، حتى جمعها، ثم انصرف منشداً وهو يقول :

أتينا إلى «سعد» ليجمع شملنا  
 فشتتنا «سعد»، فلا نحن من «سعد»  
 وهل «سعد» إلا صخرة بَتْنُوفَةٍ (19)  
 من الأرض، لا يدعو لغي ولا رشد

\*\*\*

ولما استسقى موسى عليه السلام لقومه، أمر أن يضرب عند استسقائه بعصاه الحجر، قيل مربعا، من الطور، على قدر رأس الشاة يلقي في كسر جُوالق، ويُرحل به، فإذا نزلوا، وُضع في رأس محلتهم... وذكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر، لكنهم كانوا يجدونه في كل مرحلة في منزلته من المرحلة الأولى، وهذا أعظم في الآية والإعجاز. (20) وقد كان تعالى قادرا على تفجير الماء وقلق الحجر من غير ضرب، لكن أراد أن

(19) التنوفة : المفازة والقفر من الأرض، وقيل الأرض الواسعة لا ماء فيها ولا أنيس، ج : تناثف.

(20) تفسير القرطبي، ج : 12 ص : 420.

يربط المسببات بالأسباب، حكمة منه للعباد في وصولهم إلى المُرَاد،  
وليرتب على ذلك ثوابهم، وعقابهم في المعاد... (21)

وما أوتي نبينا محمد ﷺ من نبع الماء، وانفجاره من يده، وبين أصابعه  
أعظم في المعجزة، فإننا نشاهد الماء يتفجر من الأحجار، آناء الليل، وأطراف  
النهار، ومعجزة نبينا عليه السلام لم تكن لنبي قبل نبينا عليه السلام،  
يخرج الماء من بين لحم ودم...

روى الأئمة الثقات، والفقهاء الأثبات، عن عبد الله، قال : كنا مع  
النبي ﷺ، فلم نجد ماءً فَأَتَيْ بَتَّورَ، (22) فأدخل يده فيه، فلقد رأيت الماء  
يتفجر من بين أصابعه، ويقول : «حي على الطهور» قال الأعمش، فحدثني  
سالم بن أبي الجعد، قال : قلت لجابر : كم كنتم يومئذ، قال : ألفا  
وخمسمائة. (23)

لا تخش يا بن رسول الله من حجر  
رأى المكارم في كفيك، فانفجرا  
فإن سعدك سعدٌ لا نظير له  
فاق السعود، فأضحى يفلق الحجر

\*\*\*

لقد أَلَفَ بنو إسرائيل وثنية المصريين، وقلدوهم في عبادتهم، ولم  
يؤمن بموسى، إلا ذريةً من قومه على خَوْفٍ من فرعونَ وَمَلَأَهُمْ أَنْ  
يفتنهم... ولم تكن المعجزات والعجائب التي ضرب الله بها فرعون وقومه  
لتصددهم حتى يَرْعَوْا عن غِيَّهم، وَيُؤْوِبُوا إلى رشدهم، وينصاعوا لأمر  
موسى، وينزلوا على حكمه... وهكذا لقي موسى عليه السلام الأَمْرَيْنِ

(21) المصدر السابق ج : 1 ص : 419.

(22) التَّوْرُ : إناء من صفر، أو حجارة يشرب منه، أو يتوضأ.

(23) القرطبي : ج : 1 / 421.

وَالْعَنَتِ وَالْعِنَادَ فِي إِنْقَاذِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ، وَتَحْمَلُ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ الْإِهَانَةَ وَالسَّخِرِيَّةَ، وَالتَّهْدِيدَ بِالْقَتْلِ وَالتَّكْذِيبَ، وَرَمَى بِأَنَّهُ سَاحِرٌ مَجْنُونٌ، وَقَدْ أُلْقِيَ عَلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ الدُّرُوسَ وَالْعِظَاتِ، وَرَأَى قَوْمَهُ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ مِنْ انْفِلَاقِ الْبَحْرِ لَهُمْ حَتَّى جَاوَزَهُ، عَلَى يَبَسٍ قَاعِهِ لَمْ تَبْتَلْ أَقْدَامَهُمْ وَلَا بِغَالِهِمْ، وَلَمْ يَفْقِدُوا نَقِيرًا وَلَا قَطْمِيرًا...

لَمَّا جَاوَزَ قَوْمَهُ الْبَحْرَ، وَجَاؤَا إِلَى الشَّاطِئِ الْشَّرْقِيِّ لَمْ يَجِدُوا مَاءً يَنْقَعُ غَلْتَهُمْ، وَيَبِيلُ صَدَاهُمْ، وَتَسْقَى بِهِ دَاوِبُهُمْ وَمَوَاشِيَهُمْ، فَرِيعَ الْآمِنِ، وَاسْتُطِيرَ السَّائِكُنَ، وَذَهَلَتِ الْعُقُولُ فَرَعًا، وَذَابَتِ الْأَكْبَادُ جَزَعًا، وَمَنَعَتِ السَّمَاءُ دَرَّهَا، وَأُرْسِلَتْ ذُكَاةُ حَرِّهَا، فَفَزَعُوا إِلَى مُوسَى مُتَذَمِّرِينَ مُتَأَلِّمِينَ، طَالِبِينَ مِنْهُ السُّقْيَا، فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَضْرِبَ الْحَجَرَ بِعَصَاهُ، فَلَمَّا ضَرَبَهُ، انْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، لِكُلِّ مِنَ الْأَسْبَاطِ (24) عَيْنٌ تَجْرِي بِالماء العذب الزلال يشرب منها... قال ابن عطية : ولا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربعا، تَطَرَّدُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، ثَلَاثَ عَيُونٍ إِذَا ضَرَبَهُ مُوسَى، وَإِذَا اسْتَغْنَوْا عَنِ الْمَاءِ وَرَحَلُوا جَفَّتِ الْعَيُونُ. وَمَا زَالَتْ هَذِهِ الْعَيُونُ مَوْجُودَةً بِالْبَرِّ الشَّرْقِيِّ غَيْرَ بَعِيدَةٍ مِنْ مَدِينَةِ السُّوَيْسِ تَعْرِفُ «بَعْيُونِ مُوسَى» إِلَّا أَنَّ مَاءَهُ قَلَّ الْيَوْمَ، وَنَضَبَ مَعِينَهَا، بَلْ إِنْ بَعْضُهَا طُمَسَتْ آثَارُهُ، وَعَفَتْ مَعَالِمُهُ، وَيَزْرَعُ عَلَى تِلْكَ الْمِيَاهِ بَعْضُ النَّخِيلِ، وَقَدْ حَصَلَ ضَرْبُ الْحَجَرِ لَانْبِجَاسِ الْمَاءِ مِنْهُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ...

وَيُرِيدُ اللَّهُ بِذِكْرِ الْحَجَرِ، وَضَرْبِ مُوسَى لَهُ بِالعصا أَنْ يَقْرَعَ الْعُقُولَ، وَيُنْبِذَ الْأَذْهَانَ، وَيُثِيرَ الْحَمَاسَ، وَيَلْفِتَ الْأَنْظَارَ لِتَدْرِكَ السَّرَّ الْمَصُونِ فِي الطَّبِيعَةِ الْكَامِنِ فِي الْأَحْجَارِ، وَهَذَا السَّرُّ هُوَ اخْتِصَاصُ الثَّلْجِ بِأَنَّهُ يَكُونُ

---

(24) الأسباط : الفرق والقبائل، فالأسباط من وُلد إِسْحَاقَ بِمَنْزِلَةِ الْقِبَائِلِ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، أَوْ الْأَسْبَاطُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَالْقِبَائِلِ مِنَ الْعَرَبِ... وَاسْمُهَا بِالْأَسْبَاطِ، مِنَ السَّبْطِ، وَهُوَ التَّنَائُفُ، وَكَانَ لِكُلِّ سَبْطٍ عَيْنٌ مِنْ تِلْكَ الْعَيُونِ لَا يَتَعَدَّاهَا.

أكبر من حجمه إذا جمد، وليس سواه من الموائع بهذه الخاصة، وقد جعل الله ذلك ليجعله وسيلة لتكسير الصخور، فتفتح، فتجري الأنهار والينابيع في الجداول والغدران، وتُحيي البلد المَيّت...

ولا بد من أن نشير إلى بعض الآيات البينات التي تحدثت عن تفجير العيون من الصخر.

فقد قال الله تعالى في هذه المعجزة من سورة الأعراف : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ، إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ، فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنِّ وَالسَّلْوَىٰ، كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ، وَمَا ظَلَمُونَا، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. (25)

وقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَإِذَا اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ، فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ، كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ، وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ﴾. (26)

ففي هذه الآية الكريمة يقول تعالى موجهًا الخطاب إلى بني إسرائيل : أذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم في إجابتي لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقاني لكم، وتيسيري لكم الماء، وإخراجه لكم من حجر يحملُ معكم، وتفجيرِي الماء لكم منه من ثنتي عشرة عينا؛ لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المَنِّ والسَّلْوَى، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعي منكم ولا كد، واعبدوا الذي سخر لكم ذلك، ولا تعتوا في الأرض مفسدين ولا تقابلوا النعم

(25) سورة الأعراف، رقم الآية : 160.

(26) سورة البقرة، رقم الآية : 60.

بالعصيان، فتُسلبوها، فمن لم يشكر النعم، فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها...

\*\*\*

ومن كرامات عبد الله بن ياسين الجزولي، أن المرابطين، خرجوا معه في بعض غزواته ببلاد السودان، فنفيذ ما معهم من الماء، حتى إذا أشرفوا على الهلاك، فقام عبد الله، فتييم، وصلى ركعتين، ودعا الله تعالى، وأمن المرابطون على دعائه، فلما فرغ من الدعاء، قال لهم : «احفروا تحت مصلاي هذا...» فحفروا، فصادقوا الماء على نحو شبر من الأرض عذبا زللاً بارداً!! فشربوا، واستقوا، وملأوا أوعيتهم.(27)

...ولم يكن بالموضع ماء بمراكش، فحفر الناس آباراً، فظهر لهم الماء على قرب فاستوطنوها، وبنوا بها.(28)

وشق الأرض، فانبجست عيونا

وأنهاراً من العذب الزلال(29)

وقد قال أبو عبد الله ابن الصفار، وهو من بيت القضاء والعلم بقرطبة :

لا تحسب الناس، سواء متى

ما اشتبهوا، فالناس أطوار

وانظر إلى الأحجار في بعضها

ماء، وبعض ضمنه نار(30)

(27) الاستقصا ج : 2 - ص : 18.

(28) الاستقصا ج : 2 - ص 23.

(29) الاتحاف : 159.

(30) نفح الطيب ج : 4/406.

## عبور بني إسرائيل على أرض البحر

أوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى، بأن يسري بقومه بني إسرائيل من أرض مصر، متوجهاً إلى أرض فلسطين، بعد ما طال مُقام موسى عليه السلام ببلاذ مصر، وأقام حُجَجَ الله وبراهينه، على فرعونَ وملائه، وهم مع ذلك يكابرون، ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر الله تعالى موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يومر، ففعل موسى عليه السلام، ما أمره به ربه، عز وجل، بأن يضرب لهم في البحر يَبَساً وهو ما يوحى به قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي، فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً، لَا تَخَافُ دَرْكاً وَلَا تَحْشَى...﴾ أي لا تخاف من الإدراك فلا يدركك فرعون، وجنده من ورائه ولا تخشى الغرق أمامك...

فقد ندِمَ فرعون على إرسال بني إسرائيل، أو أنه رأى أنهم انطلقوا بلا إذن منه، ولعله قد بلغه ما فعله اليهوديات بالمصريات من استعارة الحلي والزينة، وعدم ردها إليهن، فأرسل في المدائن حاشرين، فجمع جنداً عظيماً، واتبع بني إسرائيل ليردهم إلى عبوديته...

\*\*\*

وقد عرف بخروج موسى من مصر، وانطلقوا بلا إذن منه، ذلك أن موسى عليه السلام لما خرج ببني إسرائيل، أصبحوا، وليس منهم بمصر داع ولا مجيب، فغَضِبَ فرعون غضباً شديداً وأرسل في المدائن حاشرين، وجمع جنداً عظيماً، وهو يقول : «إِنْ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ، وَإِنَّهُمْ لَنَا

لغائظون» يغيظنا في كل وقت، ويصل منهم إلينا ما يَسُوءُنَا... ثم لما جمع جندَه، واستوثق له جيشُه، ساق في طلبهم، فاتبعوهم مشرقين عند طلوع الشمس، وهو في محفل عظيم، وجمع كثير هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولي الحَل والعقد، والدول من الأمراء والوزراء والرؤساء والكبراء والجنود، ليردهم إلى عبوديته، وكان بنو إسرائيل قد بلغوا ساحل البحر الأحمر على خليج السويس، واطلع عليهم مع شروق الشمس فأيقنوا بالهلاك، وأن فرعونَ باطش بهم لا المحالة، وقالوا : «إنا لَمُدْرَكُونَ»... فسكَّن موسى روعهم، وقال لهم : «إن معي ربي سيَهْدِين» ووقف موسى ببني إسرائيل، البحرُ أمامهم، وفرعونُ وجنودُه وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه: «أَنْ أَضْرِبَ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً، فَضَرْبَ الْبَحْرِ بعصاه... فانفلق، حتى ظهرت أرضُه، وكان كُلُّ فَرَق كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ... وأمر بني إسرائيل بِالْعُبُورِ، فَعَبَّرُوا مِنَ الشَّاطِئِ الْغَرْبِيِّ إِلَى الشَّاطِئِ الشَّرْقِيِّ، وأشرف في ذلك الحين فرعون على الموضع الذي عبر منه بنو إسرائيل، فرأى طريقاً في البحر لا وُغُورَة فيه، وبني إسرائيل بين فرقى الماء، لم يمسه أذى، وكان هرون عليه السلام في المقدمة، ومع يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون، وموسى عليه السلام في السَّاقَة، وبعث الله الريحَ إِلَى قَعْرِ الْبَحْرِ، فلفحته فصار يَبَساً كوجه الأرض، فطمع فرعون اللعين، أن يعبرَ في أثرهم، فيردّهم هو وجنوده، فاقتحموا الطريق اليابس في البحر خلف بني إسرائيل، فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ، وأصابهم من البحر، ما غَشِيَهُمْ، أي غَشِيَهُمْ ما لا يعلم كنهَه أحدٌ من الناس ففيه تهويل، وقُرْئِي : غَشَّاهُمْ مَا غَشَّاهُمْ، أي غَطَّاهُمْ ما غَطَّاهُمْ، وَحِينَ تَوَسَّطَ فَرَعَوْنُ الْبَحْرَ هُوَ وَجَنُودُهُ، انطبق عليهم، وعاد كما كان أولاً، وغرق فرعون وجنودُه، ولم يفلت منهم أحدٌ ممن اقتحم الماء؛ وموضع العبور لم يعرف بالضبط...

\*\*\*

ولما انفلق البحر، صار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقف الماء بينها كالطود (1) العظيم... فصار لموسى وأصحابه طريقاً في البحر يَبْساً... فلما خرج أصحاب موسى، وتكامل آخر أصحاب فرعون انصب (2) عليهم، وغرق فرعون، فقال بعض أصحاب موسى : ما غرق فرعون، فنبتذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه...

والتوراة تورد أسماء أمكنة مرَّ بها بنو إسرائيل، حتى أتوا إلى مكان العبور، وموضع العبور، لم يعلم الضبط، وهذه الأمكنة ليست مسمياتها معروفة اليوم، والبحارة في البحر الأحمر يسمون مكانا في خليج السويس (بركة فرعون)، ويقولون إن العبور كان بها، وهي بعيدة عن السويس كثيراً (3)... وقد ذكر الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه، بأنه أطلع على أطلس تاريخي للأستاذ محمد رفعت، وقد رسم فيه طريق عبور بني إسرائيل بين السويس، وبين البحيرة المرة، ورسم خطين يدلان على أن خليج السويس كان متصلاً بالبحيرة المرة، قال : وأحسبه على صواب...

\* \* \*

وقد ورد أن اليوم الذي وقع فيه غرق فرعون، كان يوم عاشوراء، كما قال الإمام أحمد، وعن ابن عباس قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة، فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال : « ما هذا اليوم الذي تصومون؟ » قالوا: « هذا يوم صالح، هذا يوم، نجى الله عز وجل فيه بني إسرائيل من

(1) الطود : الجبل، وفيه يقول امرؤ القيس :

فبيننا المرء في الأحياء «طود»

رماه الناس عن كَنَبٍ... فَمَلاً!!

ويقول الأسود بن يَغْفَر :

حَلُّوا بأنقرة، يَسِيلُ عليهم

ماء الفرات يَجِيء من «أطواد»

(2) القرطبي ج : 8/ ص 338.

(3) «قصص الأنبياء» للمرحوم عبد الوهاب النجار ص : 203.



عدوهم، فصامه موسى عليه السلام، فقال رسول الله ﷺ : «أنا أحق بموسى منكم» فصامه رسول الله، وأمر بصومه... (4)

\*\*\*

### آيات قرآنية تتحدث عن هذا العبور ...

نشير في النهاية إلى الآيات التي تحدثت عن هذا العبور عن أرض البحر كما وردت في كتاب الله : يقول الحق سبحانه : ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ، فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ،﴾ (5) بأنهم كذبوا بآياتنا، وكانوا غافلين ﴿(6) ويقول : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ، فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ، قَالَ : آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (7) ويقول سبحانه : ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ مِنْ الْأَرْضِ، فَأَغْرَقْنَاهُ، وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا...﴾ (8) ويقول : ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي، فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ﴾ (9) يَبْسًا، لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى، فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ، فَغَشَّيْهِمْ مِنْ الْيَمِّ مَا غَشَّيْهِمْ﴾، (10) ويقول الحق سبحانه : ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ،

(4) روى هذا الحديث البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة...

(5) اليم : قال قتادة : اليم : هو بحر من وراء مصر، يقال له «إساف»، أغرقهم الله فيه ويقول السدي: المكان الذي أغرقهم الله فيه بناحية القلزم، يقال له «بطن مُرِيْرَة»، وقال مقاتل : يعني نهر النيل، قال القرطبي : «وهذا ضعيف، والمشهور، الأول، الجامع لأحكام القرآن ج : 3، ص : 289.

(6) سورة الأعراف، الآية : 136.

(7) سورة يونس، الآية : 90.

(8) سورة الإسراء، الآية : 103.

(9) البحر، سمى بذلك لاتساعه، يقال «فرس بحر»، إذا كان واسع الجري أي كثيره ومن ذلك قول رسول الله عليه السلام : في مندوب فرس أبي طلحة : «وإن وجدنا لبحرا، ويقال أبحر الماء : مُلِح، قال نصيب :

وقد عاد ماء الأرض بحرا، فزادني

إلى مرضي أن أبحر المشرب العذب

(10) سورة طه الآية 78.

فأنجيناكم، وأغرقنا آل فرعون، وأنتم تنظرون﴾ (11) ويقول سبحانه : ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أسر بعبادي، إنكم متبعون، فأرسل فرعون في المدائن حاشرين، إن هؤلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ، وإنهم لنا لغاظون، وإنا لجميع حذرون، فأخرجناهم من جنات وعيون، وكنوز، ومقام كريم، كذلك، وأورثناها بني إسرائيل، فاتبعوهم مشرقين، فلما تراءى الجمعان، قال أصحاب موسى، إنا لَمُدْرِكُونَ، قال : كلا؛ إن معي ربي سيهدين، فأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر، فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، وأزلفنا ثَمَّ الآخرين، وأنجينا موسى، ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين، إن في ذلك لآية، وما كان أكثرهم مومنين، وأن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ (12) ويقول سبحانه : ﴿وفي موسى إذا أرسلناه إلى فرعون بسُلطان مُبِينٍ، فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ، وقال ساحراً أو مجنوناً، فأخذناه وجنوده، فنبذناهم في اليم، وهو ملهم﴾ (13) ويقول الحق سبحانه في آية أخرى : ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون، فأخذناه وجنوده، فنبذناهم في اليم، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ (14).

(11) سورة البقرة : الآية : 50.

(12) سورة الشعراء، الآية : 63.

(13) سورة الذاريات، الآية خ 40.

(14) سورة القصص : الآية : 40.

## المشي فوق الماء

وَمَنْ مَنَا لَمْ يَقْرَأْ قَصِيدَةَ شَوْقِي رَحِمَهُ اللَّهُ الَّتِي غَنَّاها الموسيقار  
المرحوم محمد عبد الوهاب بين يدي ملك العراق المغفور له فيصل الأول  
بمناسبة زيارته للعراق في عام 1932، والتي يقول في مطلعها :

يَا شِرَاعاً وَرَاءَ دِجْلَةٍ يَجْرِي  
فِي دُمُوعِي، تَجَنَّبْتُكَ الْعَوَادِي  
سِرُّ عَلَى الْمَاءِ كَالْمَسِيحِ رُويْدَاً  
وَاسِرُّ كَالْيَمِّ كَالشَّعَاعِ الْهَادِي

\*\*\*

أنشد شوقي القصيدة على مسرح المعرض الذي أقيم في بغداد عام  
1932، وأنشدها أمام الملك في قصره، بحضور رجال الدولة، وكبار  
الساسة، وأعيان البلد، وجمهور المستمعين من شتى الطبقات، وقد شاعت  
هذه القصيدة، وذاعت على الأفواه...

ومطلع القصيدة، وبيت آخر، قد كُتِرَ حولهما كَلَامُ الناس في بغداد،  
وانتقدهما غيرُ واحدٍ مِنَ الشعراء، وكان أَكْثَرُ هؤلاء المنتقدين، يجهلون  
معنى البيت جهلاً تاماً، وبهذا الجهل انحدروا إلى التهجم على شاعرية  
شوقي... والبيت هو : يَا شِرَاعاً وَرَاءَ دِجْلَةٍ يَجْرِي...

رأى كثيرٌ من الشعراء والأدباء أن المخاطب بهذا البيت، هو جلالة الملك  
فيصل، والحقائق أن المخاطب بهذا البيت هو محمد عبد الوهاب لعدم إمكان  
حَمْلِهِ على غيره، ولدلالة الأبيات التي تلي هذا البيت، وهما :

سِرُّ عَلَى الْمَاءِ كَالْمَسِيحِ رُويْدَاً  
وَاجِرٌ فِي الْيَمِّ كَالشَّعَاعِ الْهَادِي

وَأَتَتْ قَاعاً، كَرَفَرَفِ الْخُلْدِ طَيْباً  
أَوْ كَفَرُ دَوْسِهِ بِشَاشَةٍ وَادِي

وقد شبّه الشاعرُ محمداً عبد الوهاب بالشُّراع، لما شاع وذاع من أمرِ  
غِنَائِهِ في البلاد، وأراد بقوله : وراء دجلة، يقصد دجلة، وذلك عند اعتزام  
المغني السفر إلى العراق...

ولما كان محمد عبد الوهاب دائمَ التَّغريد بما يؤلف له شوقي من قطع  
الشعرِ والقصائد، وكانت أكثرية هذه القصائد تُعجُّ بِلَوَاعِجِ الْهَوَى، بحيث  
تحمل دموع الشاعر الغزيرة من أثرِ الحُبِّ فيه، جعل الشُّراع جارياً في هذه  
الدموع بإنشاد المُغَنِّي قصائد الشاعر، فكأن شوقي يقول : يا مَنْ اعتزم  
السفر إلى العراق، وهو كأنه الشُّراع في الشُّهرة، مُرَتِّلاً قصائدي التي هي  
كالدموع في الهوى، وهو يجري فيها، كالشُّراع، تجنبتك العوادي، وحفظك  
الله من كل مكروه...

وهذا البيت من أنبغ الشعر، وهو ابن العبقريّة التي أصبح فيها لشوقي  
الخلود، وللغة الضاد التيه والفخر.

\*\*\*

هل كان المسيح يمشي على الماء ؟

وبعد؛

فهل كان المسيح عليه السلام، يسير فوق الماء؟ وهل من معجزات  
عيسى أنه كان يمشي على الماء؟ وهل هذه الخصوصية كانت له، أم كان  
لغيره منها نصيب؟

ويمكن قبل الإجابة على هذا السؤال، أن نسترشد بالقصة التالية كما  
ساقها القاضي ابنُ خلكان الذي قال : حكى تاجُ العُلا أبو زيد المعروف  
بالنسابة، قال : حدثني أبو الأصبغ نباتة بن الأصبغ بن زيد بن محمد  
الحارثي الأندلسي عن جده زيد بن محمد قال : بعث المعتمد بن عباد

صاحبُ إشبيلية إلى أبي العرب (1) الزبيري خمسمائة دينار، وأمره أن  
يتجهز بها، ويتوجه إليه، وكان بجزيرة صقلية، وهو من أهلها، وبعث  
مِثْلَهَا إلى أبي الحسن الحُصْري (2) القيرواني، وهو بالقيروان، فكتب أبو  
العرب :

لا تعجبَنَّ لرأسي كيف شابَ أسيَّ  
واعجبَ لأَسْوَدَ عيني كَيْفَ لم يَشِبْ  
البحرُ لِلرُّومِ، لا يَجْري السَّفِينُ به  
إِلا على غَرَرٍ، والبحرُ لِلْعَرَبِ  
وكتب إليه الحصري :

أَمَرْتَنِي بِرُكُوبِ البحرِ أَذْرَعُهُ  
غيري - لَكَ الخيرُ - فاخْصُصْهُ بِذا الدَّاءِ  
ما أَنْتَ نوحٌ، فَتُنْجِنِي سَفِينَتُهُ  
ولا المَسِيحُ أنا... أَمْشي على الماء (3)

\*\*\*

لقد تحدث كثير من الإخباريين عن سيدنا المسيح عيسى ابن مريم  
الذي مشى فوق الماء، فقالوا : «وجاء الهزيع الأخير من الليل، فهبت  
الرياح، وصفرت في الفضاء، وعيسى عليه السلام في خشوعه يدعو الله،  
حتى إذا انتهى من مناجاته وصلاته قام ذاهباً إلى البحيرة، فرأى المراكب  
في الغَبْشِ تعابثها الرياح، والأمواج ثائرة، مزمجرة، ترفعها في غضب

(1) أبو العرب مصعب (ت : 506هـ)، وقيل كان حيا عام 507.

(2) الحصري، بضم الحاء المهملة، وسكون الصاد المهملة، وبعدها راء مهملة، نسبة إلى الحُصْر أو  
بيعهما، كما ذكر ابن خلكان، القيرواني نسبة إلى مدينة القيروان، اشتملت عليه مدينة طنجة بعد  
خلع ملوك الطوائف وتوفي بها عام 488هـ.

(3) أنظر مقدمة «زهر الآداب»، وثمر «الآلباب» بقلم المرحوم د. زكي مبارك ص، 7.

وتحطها في استياء، ولمح حواريه يغالبون الموج، فانطلق إليهم يمشي على الماء...!!

نظر الحواريون، فألفوا شبحا يسير على الماء، عليه كساء، نصفه إزار، ونصفه رداء، فانقبضت قلوبهم خوفاً، وصرخوا في رعب، فقد حسبوه خيالاً، فإذا بصوته العذب، يمس آذانهم : «لا تخافوا».

فنزلت بهم طمأنينة وأمن، وهذأت مخاوفهم، وصاح بطرس (4) باندفاعه المعهود : - يا معلم، إن كنت أنت هو، فمُرني أن آتي إليك!! فقال له عيسى: «تعال»، فنهض بطرس، ووضع إحدى رجليه على الماء، ثم ذهب ليضع الأخرى، فحقق قلبه واضطرب!! فصاح، وهو يهوى!! «غَرقت يا نبي الله، نجني!!» - أرني يدك يا قليل الإيمان... ومدَّ يده وانتشله، وصعد إلى السفينة، فالتفت كل من فيها حوله يرمقونه في دهش، فالتفت إليهم وقال: «لو كان لابن آدم من اليقين قدرُ شعيرة لَمْشى على الماء...» وسكنت الرياح، واستوت السفينة على الماء، وانسابت في طريقها، والمسيح يحدث تلاميذه وهم يصغون، لم يكتبوا أقواله، لأن ملكوت السموات صار قريباً... وبلغت السفينة الشاطئ، وقد ولد فجر يوم جديد، وهبط عيسى وتلاميذه، فلما رآه الناس دهشوا، فتلاميذه أقلعوا، وهو على الشاطئ، وقد تفرقوا، وهو في الفضاء، وحده يناجي ربه، فكيف لحق بحواريه؟

وتجمعت الجمهوع حوله، وانطلقوا إلى مجمع «كَفَرَنَّاخُوم» (5)، وانتشر خبر إطعامه الناس، فأقبلت الوفود، يداعب نفوسهم الجشع أمل إطعامهم، وكأنما قرأ عيسى ما تخفي صدورهم، فقال لهم : «الحق. الحق. أقول لكم،

---

(4) بطرس القديس توفي في روما، وهو ابن يونا وأخو أندراوس، كان اسمه سمعان وكان يرتزق من صيد الأسماك في بحيرة طبرية، فدعاه السيد المسيح إلى التبشير، وسماه كيفا أو بطرس (أي الصخرة) وجعله رئيس الرسل ورئيس الكنيسة في مهدها...  
(5) «كَفَرَنَّاخُوم» مدينة في فلسطين، سكنها بطرس، وأندراوس، وفيها ألقى المسيح تعاليمه، وصنع العجايب... على أنقاضها في يومنا توجد بلدة الطابغة...

أنتم تطلبونني، لا لأنكم رأيتم آلايات، بل لأنكم أكلتم من الخبز وشبعتم. (6)

وفي الإصحاح 14 مَتَّى (7) ف 22 : ولوقت الزم يسوع تلاميذه أن يدخلوا السفينة، ويسبقوه إلى البحر حتى يصرف الجموع، وبعدما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليُصَلِّي، ولما صار المساء كان هناك وحده، وأما السفينة، فكانت قد صارت في وسط البحر معذبة من الأمواج لأن الرياح مضادة، وفي الهزيع الرابع من الليل مضى إليهم يسوع ماشياً على البحر، فلما أبصره التلاميذ ماشياً على البحر، اضطربوا قائلين، إنه خيال، ومن الخوف صرخوا، فلوقت كلمهم يسوع قائلاً، تشجعوا، أنا هو، لا تخافوا، فأجابه بطرس، وقال : يا سيِّد : إن كنت أنت، فمُرني، أن آتي إليك على الماء، وذهب ليأتي إلى يسوع، ولكن لما رأى الرياح شديدة خاف، وإذا ابتداء يغرق، صرخ قائلاً : «يارب، نجني»، ففي الحال مد يسوع يده، وأمسك به، وقال له : «يا قليل الإيمان لما شككت، ولما دخلا في السفينة، سكنت الرياح، والذين في السفينة جاؤوا وسجدوا له، قائلين بالحقيقة، أنت ابن الله»... انتهى... (8)

وقد ذكر هذه الحكاية كل من مُرْقُس (9) ويوحنا مع اختلاف مع متى، في بعض تفاصيلها وأهمها لوقا. (10)

---

(6) أنظر : « المسيح ابن مريم عيسى » للأستاذ عبد الحميد جودة السحار.

(7) مَتَّى : من تلامذة المسيح الاثنى عشر، كان عَشَّاراً في «كفر ناحوم»، استشهد دون أن نعرف يقينا متى وأين كان ذلك، له «إنجيل مَتَّى» كتبه لمسيحيي فلسطين اليهودي...

(8) «قصص الأنبياء» لعبد الوهاب النجار ص : 419.

(9) مرقس : القديس الإنجيلي من تلامذة بطرس، ينسب إليه تأسيس كنيسة الإسكندرية، مات شهيداً (68 ؟) له : «إنجيل مرقس»، وهو إحدى البشارات الأربع.

(10) لُوقَا قديس، ورفيق «بولس الرسول» في أسفاره، من المرجح أنه كان طبيباً، (تد : نحو 70) نقلت ذخائره إلى القسطنطينية بعد وفاته... كتب : «إنجيل لوقا» وسفر أعمال الرسل.

وقد أشار إلى هذه الحكاية المعري في بعض قصائده، إذ يقول لخيال المحبوبة :

سريت إلينا، والركابُ سفائنٌ  
كعادك فينا، والركائبُ أجمال  
أُعمت إلينا، أم فعال ابن (11) مريم  
فعلت، وهل يعطى النبوة مِكْسَال  
ورحم الله أحمد شوقي وهو يصف النيل وكان له اطلاع واسع في  
شؤون الديانات :

وخطى المسيح عليك روحاً طاهراً  
بركات ربك، والنعيم الغيدق

\*\*\*

ومعلوم أن السيد المسيح كان - كما روته الكتب الأربعة - يعتمد عليه السلام إلى خارق العادة في الطبيعة من أجل حمل الناس على الإيمان، حتى إنه لا يكاد يقوم دليل على صدق نبوته إلا بهذه الوسيلة، فنحن نقرأ مثلاً في «إنجيل متى» ولما دخل السفينة تبعه تلاميذه، وإذا اضطراب عظيم حدث في البحر حتى غطت الأمواج السفينة، وكان هو نائماً، فتقدم تلاميذه، وأيقظوه قائلين يا سيد، إننا نهلك، فقال لهم : «ما بالكم خائفين يا قليلي الإيمان، ثم قام وانتهر الرياح والبحر، فصار هدوء عظيم، فتعجب الناس قائلين!! أي إنسان هذا؟ فإن الرياح والبحر، جميعاً، تطيعه»... (12) ونقرأ في مكان آخر من إنجيل متى، أيضاً، عن هذا الخرق الذي يحصل في الطبيعة ليحمل المشاهدين على الإيمان والتصديق بنبوة عيسى عليه السلام، وكونه رسولا من الله، فنحن نقرأ في إنجيل متى : «وفي الهزيع

(11) أم فعال ابن مريم : أي مشيت على الماء، كما مشى عيسى ابن مريم...

(12) متى : 23 - 27.



الرابع من الليل مضى إليهم يسوع ماشيا على البحر، اضطربوا قائلين إنه خيال، ومن الخوف صرخوا، فللوقت كلمهم يسوع قائلاً، تشجعوا، أنا هو، لا تخافوا، فأجابه بطرس، قال : يا سيد، إن كنت أنت هو، فمُرني أن آتي إليك على الماء... فقال : تعال، فنزل بطرس من السفينة، ومشى على الماء ليأتي إلى يسوع... ولكنه لما رأى الريح شديدة خاف، وإذا ابتداءً يغرق صرخ قائلاً، يا رب نجني، ففي الحال مد يسوع يده، وأمسك به، وقال له : يا قليل الإيمان، لماذا شككت؟ ولما دخلا السفينة سكنت الريح، والذين في السفينة جاؤوا وسجدوا له قائلين بالحقيقة أنت ابن الله...» (13)

\*\*\*

يتضح من النصوص المذكورة التي وردت في «إنجيل متى» و «لوقا» أنها تدل على أن ما حصل من خرق في الطبيعة، ومغايرة للمألوف من نواميس الطبيعة وسننها، إنما كان بينةً ودليلاً على التصديق بالمسيح والإيمان به... وأن السيد المسيح عليه السلام كما بدا في تلك النصوص، كان يتخذ من عناصر الطبيعة كالبحر، والمشى عليه، وسكون وسائل لحمل أتباعه وغيرهم على الإيمان به، والتصديق برسالته...

وقد أشار الشيخ محمد عبده رحمه الله إلى علاقة الخرق بالإيمان في المسيحية، فقال : «أول أصل قام عليه الدين المسيحي، وأقوى عماد له، هو خوارق العادات، تقرأ الأناجيل، فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلاً على صدقه إلا ما كان يصنع من الخوارق، وعددها في الأناجيل يطول شرحه، ثم إنه جعل ذلك دليلاً على صحة الدين لمن يأتي بعده بجعل لإصحابه ذلك، كما تراه في الأصحاح العاشر من «إنجيل متى» وغيره، وإذا تتبعت ما قاله الأولون من أهل هذا الدين، تجد خوارق العادات من أظهر الآيات على

صحة الاعتقادات، ولا يخفى أن خارق هذا الأمر الذي يصدر مخالفا لشرائع الكون ونواميسه، فإذا ساغ أن يكون ذلك لكل من علا كعبه في الدين، لم يبق عند صاحب الدين ناموس يعرف له حكم مخصوص... زاد الإنجيل على هذا أن الإيمان، ولو كان مثل حبة خردل، كاف في خرق نواميس الكون، كما في الأصحاح (14) : «فالحق أقول لكم، لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل، لكنتم تقولون لهذا الجبل : انتقل من هنا إلى هناك، فينتقل، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم». (15)

\*\*\*

وقد ربط الإمام القرافي ظاهرة الخرق بطبائع الأمم التي نزلت فيها الديانات السابقة للإسلام، فقال : «ولما كانت الأمم المتقدمة أكثر طبعا، وأصعب انقيادا وسمعا، جعل معجزهم في الصور الكثيفة، والآيات القاهرة العنيفة، في تنقّ الجبال، وشق البحار، وبروز الحيوان من الصخرة الصماء؛ ومقتضى الحكمة، علاج كل مريض بما يناسبه، فالنسمة الشريفة بشراب الرمان، والجبلّة الكثيفة بالحطب والنيران»... (16)

وقال الدكتور أحمد شلبي مشيراً إلى علاقة الخرق بالإيمان في المسيحية أيضاً : «ومسيحية العهد الجديد، تصور الإيمان يفعل الأعاجيب، وتنقل الجبال فليس ذلك إلا لقلة الإيمان»... (17)

\*\*\*

---

(14) السابع عشر من متى 10.

(15) «الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية» ص : 22.

(16) «الأجوبة الفاخرة، على الأسئلة الفاجرة» ص : 208، للقرافي، بهامش - كتاب : «الفارق، بين المخلوق والخالق».

(17) «المسيحية» ص : 164/د. أحمد شلبي.

## الإرادة والترويض :

الإنسان يستطيع بالإرادة والترويض المستمر أن يحقق المعجزات... والإنسان أكبر وأعظم وأروع مما يتصور... ولكنه لا يدري... فلا عنده وقت، ولا عنده صبر، ولا له رغبة... فهو ضحية دنياه الضيقة...

والممارسة أهم جدا من قراءة أي شيء عن ذلك... فالصوفية أصحاب «تجربة»؛ أو أصحاب «محنة»، أو «معاناة»، أو «مجاهدة»... ثم هذه القصة التي ترمز إلى هذه المعاني...

يقال إن أحد الصوفية، كان يتمشي متأملا على شاطئ بحيرة... ويقال إنه سمع صوتا يجيء من بعيد، يتغنى بصوت صوفي، وضاق الصديق بهذا الصوت القبيح، والذي يخطئ، أيضا، في نطق الكلمات، فركب زورقا، وذهب إلى الرجل الذي يغني، وقال :

يا مولانا، أنت لا تحسن النطق... فقال له الرجل : علمني يا سيدي... وعلمه كيف ينطق، وكيف يغني، وتركه إلى زورقه، وعاد إلى الشاطئ، وأثناء العودة، فوجيء بالرجل يناديه قائلا : «نسيت.. لقد نسيت! علمني من جديد... ولكن الصوفي لا حظ أن الرجل يمشي على سطح الماء، وأصابه ذهول، ثم ركع أمامه، وهو يقول : «بل علمني أنت يا سيدي ومولاي، وتاج رأسي، وقرّة عيني، في الحياة...»

إنه إذن ليس العلم، ولكنها التجربة... فالرجل الذي يعلم، لا يمشي على الماء، ويمشي على الماء من كان عنده تجربة نفسية ومعاناة وجدانية، فصارت له قدرات خارقة...

فاختصاص بعض النفوس من الفطرة بأمر غريب، لا يوجد مثله لغيرها، كما ذكر، أن في الهند قوما إذا اهتموا بشيء، اعتزلوا عن الناس، وصرفوا همتهم إلى ذلك الشيء فيقع على وفق اهتمامهم، ومن هذا القبيل ما حكى أن السلطان محمود، غزا بلاد الهند، وكان فيها مدينة، كل من

قصدها مرض، فسأل عن ذلك، فقالوا : إن عندهم جمعا من الهند يصرفون همهم على ذلك، فيقع المرض على وفق اهتمامهم، فأشار إليه بعض أصحابه بدق الطبول، ونفخ البوقات الكثيرة، ليشوِّش همَّهم، ففعلوا ذلك، فزال المرض، واستخلصوا المدينة... (18)

\*\*\*

لا بد أن الإنسان كانت له خواص أخرى اختفت، أو أن الكثير من خواصه الغريبة سوف تتلاشى، وأنه لذلك سيقوم بعمليات تعويض هائلة ليحقق بقوة العلم ما كان يحققه بقوة الوجدان، أو بقوة الروح... إن إحصائيات رسمية صدرت عام 1961، تقول إن إحدى الهيآت أطلقت ثمانية آلاف حمامة زاجلة... ومن العجيب أن 7950 حمامة قد ضلت طريقها، تماماً، إلى العودة، مع أن المسافة لم تتجاوز 400 كلم... وكان حمام الزاجل، قبل ذلك يقطع ألوف الأميال، كأنه قذيفة موجهة لا تخطيء!! هناك تفسير لذلك: إن الموجات الكهربائية والمجالات المغناطيسية اللانهائية التي تطلقها مواترات المصانع والآلات ومحطات الإذاعة والتلفزيون وشبكات الرادار كلها قد خلقت تشويشا على هذا الطائر العجيب، كلها صنعت «ضبابا» جعل حمام الزاجل مجرد حمام بلا موهبة خارقة...

بل إن هذا التشويش المعقد الرهيب، قد أصاب عقول الناس، أيضا، بالارتباك... لقد أصاب وضوح الرؤية، وجلاء، السمع، وشفافية الفكر، ورقة الإحساس عند الناس جميعا، وليس حمام الزاجل إلا إنذارا خطيرا لما حدث، أو سوف يحدث، ومن المؤكد أنه أسوأ مما نتصور...

\*\*\*

إذا نحن رجعنا إلى الأساطير القديمة في أميركا، وفي مصر الفرعونية، وفي الصين، نجد أن هناك نصوصا تقول : إن أي إنسان لديه

---

(18) «عجائب المخلوقات» للقزويني على هامش حياة الحيوان ج : 1/ ص : 19.

القدرة على أن يطير إذا أراد، وفي استطاعته أن يجعل الأشياء تفعل ذلك، أيضا.

ومن الغريب أننا نجد في كل اللغات العالمية مثل هذا التعبير : «طار من الفرخ، أو من الخوف»، «أسلم رجله للريح»... ولكن من المؤكد أن التعبيرات الباقية، ليست مجرد تلاعب بالألفاظ.. إنها تشير إلى حقائق قديمة... لم نعد نجد لها نظيراً، الآن - إنها مأساة حمام الزاجل مرة أخرى... والذين يزورون كنيسة القديس «دومينك» في مدينة «نابولي» يجدون المكان الذي وقف فيه القديس الفيلسوف «توماس الاكوينى»، (19) فقد كان القديس في إحدى حالات التجلي النفسى، فارتفع بقدميه في الهواء ثلاثة أمتار أمام ألوف الناس...

وفي إسبانيا يتحدثون عن القديسة «دافيليا» التي ارتفعت في الهواء عشرين متراً، أمام كل راهبات ورهبان الدير، وقد كتبت القديسة : «تريزة» في مذكراتها التي عنوانها : «كتاب حياتي» لا أعرف ماذا يحدث لي، ولكن أجد قوة غريبة تملأ كل جوانبي، وفجأة أجدني ارتفعت عن الأرض، أحاول أن أهبط إلى الأرض، فلا أستطيع، فجأة أحس كأنني سحابة، أو كأنني فوق سحابة، أو كأنني نسر... أو كأنني على جناح نسر، وكثيراً ما قاومت هذا الذي في داخلي أو خارجي... ولكن لم أفلح، ولذلك أستسلم وأقف في الهواء... وأشهر حوادث الطيران الإنسانى ما رآه أهل مدريد، فقد جلس الملك فيليب الثاني، وطلب إلى «دومينك» أن يظهر كراماته، فوقف القديس

---

(19) توما الاكوينى (1225 - 1274) راهب دومنيكاني، معلم الكنيسة، وحجة في اللاهوت والفلسفة والتعليم الكاثوليكي المدرسي، وقد اطلع على آراء ابن سينا والغزالي وابن رشد عن طريق الترجمات اللاتينية وانتقدها من مؤلفاته العديدة «الخلاصة اللاهوتية» و«الخلاصة ضد الأمم» من يهود وغيرهم رداً على حججهم ضد الدين المسيحى.

دومينك، وارتفع تدريجيا، كأنه في داخل مصعد خفي إلى أعلى، وظل معلقا في الهواء ساعات...

\*\*\*

إن العلم الحديث قد اهتدى إلى خلق منطقة انعدام الوزن على الأرض، ففي قواعد إطلاق سفن الفضاء نجد قاعات كبرى، يتدرب عليها رواد الفضاء... هذه القاعات قد جردت من الجاذبية، فإذا نحن رأينا في التاريخ القديم، أن كثيرين مشوا في الهواء... أي استطاعوا أن يخففوا من جاذبية الأرض... فلا بُد أن نقول : إنهم طبقوا قوانين أخرى لا نعرفها، إن أجسادهم ذات خواص نادرة، لا نعرفها، أو أنهم استطاعوا بتجارب نفسية أو معاناة وجدانية أن يكونوا أخف وزنا...

ولذلك، فالعقل يقبل جداً أن يكون المسيح قد سار على سطح الماء، والعقل يقتنع، أيضاً، بالآية الكريمة التي تقول : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام، إلى المسجد الأقصى﴾.

ولا بد أن تكون لهؤلاء النادرين من الناس مزايا وخصائص فريدة، وأن هذه الخصائص لا تتوافر لكل الناس...

\*\*\*

### الكرامات : حسية ومعنوية :

لقد قسم ابن عربي في الفتوحات المكية الكرامات إلى قسمين : حسية ومعنوية، أما الكرامات الحسية، فهي للعامة، ومن أمثلتها الإخبار بالماضي والحاضر والمستقبل، والمشي على الماء، وإمساك النار، وطَيّ الأرض، ونحو ذلك... أما الكرامات المعنوية، فهي للخاصة، وتنحصر في التمسك بأداب الشريعة قولاً وعملاً...

روى الخفاجي، عن هذه الكرامات وأنواعها، أن بعض الأئمة حدد أنواعها بعشرين نوعاً من النوع الحسي... منها : انفلاق البحر، والمشي على الماء، وهذا النوع كثير الحدوث... ومنها مقام التصريف، وهذا النوع كثير، لا

ينكره إلا معاند، من ذلك ما قاله عبد الوهاب بن أحمد الشعراني في كتابه :  
«الجواهر المصون، والسر المرقوم، فيما تنتجه الخلوة من الأسرار،  
والعلوم»، فيمشي الوالي على الماء والهواء، ويدخل النار، فلا تحرق له ثوبا  
ولا جسدا... إلى بقية الكرامات العشرين.

\*\*\*

### السطح المائي :

إن السطح المائي الساكن يسلك كما لو كان جلدًا مرنا مشدودا، وقد  
عرفت هذه الخاصية بعض أنواع البقّ المائي منذ وقت بعيد، فهيأت أقدامها  
لتلائم السير فوق الماء، وربما تكون قد شاهدها، وهي تجري هنا وهناك،  
فوق سطح بركة ساكنة... فهي لا تخترق السطح، بل لا تبتل أقدامها،  
وبوسعك، لو كُنْتَ حريصا، أن تضع إبرة صغيرة فوق سطح الماء، بحيث  
تبدو طافية، والواقع أنها ترتكز على قشرة الماء الخارجية، إذ أنها تغوص  
إذا ما أحدثت اضطرابا في السطح... (20)

وهذا موضوع يتناوله المختصون في دراسة ما يفعله التوتر السطحي،  
والجاذبية الشعرية، والتناضح أو الارتشاح الغشائي.  
وهذا مظهر لتماسك جزيئات الماء، وهو أن تلك الجزيئات تجعل سطح  
الماء، كأنه غشاء قوي مرن، وهذه ظاهرة تعرف بالتوتر السطحي Capillarité  
فإنك لو وضعت في رفق إبرة من جديد، فوق سطح الماء، ظلت فوقه،  
وكأنها محمولة بغشاء يحول بينها، وبين أن تغوص فيه نظرا لزيادة  
كثافتها كثيرا عن الماء... وكثير من صغار الكائنات تستطيع أن تمشي  
مشيا فوق سطح الماء، وكأنها تمارس سحرا، كما أن بعضها الآخر يتدلى  
في الماء متعلقا بذلك السطح العجيب...

---

(20) طومسون كينج ص : 22.

وإنك لو شاهدت قطرة الماء تتحلب من الصنوبر هابطة في تودة، وكأنها لؤلؤة صلبة مشدودة بسلك من فضة أدركت معنى التماسك والتوتر السطحي...

وتماسك الماء، وقابليته للالتصاق يجعلانه يصعد في الأنابيب الشعرية الدقيقة ضد جاذبية الأرض أي أنه يكتسب خاصية ثالثة هي «الشعرية»... (21)

لذلك فإننا نجد أن كثافة الماء تبلغ حوالي 800 ضعف، كثافة الهواء، من أجل ذلك، فإن الماء يحاول أن يسحب إلى أسفل كل جسم يحاول السير فوقه بسرعة، ما عدا خوارق العادة التي قدمنا، وسنقدم بعض النماذج منها والتي تبلغ أحياناً حد المعجزات.

\*\*\*

في عام 262هـ، توفي عبد الله المروزي أحد الأبدال، (22) وكان يقيم بقزوين، وكان يمشي على الماء، ويقف له نهر جِيحون. (23) ويحكى أنه قيل لأبي محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد المرتعش (ت : 328هـ - 940م) إن فلانا يمشي على الماء، فقال : «عندي أن من مكنه الله تعالى من مخالفة هواه، فهو أعظم من المشي في الهواء»... (24)

ويحكى عن أبي يزيد البسطامي (ت : 261هـ - 874م) أنه قيل له : فلان يمشي في ليلة إلى مكة، فقال : «الشیطان يمشي في ساعة من المشرق إلى المغرب في لعنة الله، وقيل له : فلان يمشي على الماء، ويطير في الهواء، فقال : الطير يطير في الهواء، والسماك يمر على الماء...، وقد قال

(21) «العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم»، «عالم الفكر» ص : 85.

(22) آدم ميتز، ص : 2/47.

(23) أبو المحاسن، ص : 37 عن آدم ميتز، ص : 2/51.

(24) القشيري.



الليث بن سعد : لو رأيت صاحب بدعة يمشي على الماء ما قبلته» فقال الشافعي : إنه ما قصر لو رأيت يمشي على الهواء ما قبلته، هكذا ذكر الحافظ جمال الدين ابن الجوزي البغدادي في كتابه (25)... وكان أبو سهل التستري (ت : 273هـ أو 283هـ) يعتد بإظهار الكرامات، فكان جزاؤه أن أضيف إليه كرامات، ويحكي عنه أنه قال : أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً هي أخلاقك...

وجاء رجل إلى سهل، وقال له : إن الناس يقولون إنك تمشي على الماء، فقال : «سل مؤذن المحلة، فإنه رجل صالح لا يكذب، قال : فسألته، فقال المؤذن : لا أدري هذا، ولكنه نزل الحوض في بعض الأيام ليتطهر، فوقع في الماء، فلو لم أكن أنا لبقى فيه...

وقد قال الجنيد رضي الله عنه : «مشى رجال باليقين على الماء، ومات رجال بالعطش، وهم أفضل منهم...

وإنما صار المنكر للكرامات، منكرًا لها من طريق مراعاة الأسباب، فيستحيل عنده الطيران في الهواء من غير حامل، والمشي على الماء من غير حائل، وغير ذلك من الكرامات، وقد يقبض الله للولي من لطفه، ويسبب له ما أراد من الأسباب الحاملة له... (26)

ويقول الكتاني في «المستفاد» : «كان يقول أبو يعزى - يَلَنُور ابن ميمون (ت : 572هـ 1177م) لهؤلاء المنكرين كرامات الأولياء؟ والله لو كنت قريباً من البحر، لأريتهم المشي على الماء عياناً»... (27)

وكان الولي الصالح العابد الناسك، الزاهد المجاهد، رافع لواء الإسلام سيدي محمد العياشي كلما سمع بظلم البرتغاليين للمسلمين إلا تغير،

(25) «تلبس إبليس»، في باب : ذم البدع والمبتدعين، ص : 14.

(26) «المقصد الشريف» لعبد الحق البادسي ص : 41.

(27) «جذوة الاقتباس» ج : 2/ ص 564، ط : دار المنصور.

وبات لا يلتذ بطعام ولا منام، ثم عزم على قصد الجديدة، فذكروا له، أن وادي أم الربيع، في نهاية المد والامتلاء، فلم ينته عن ذلك وسار حتى بلغ الوادي المذكور على مشرع أبي الأعوان، فوجده ممتلئاً جداً، لا يكاد يدخله أحد إلا غرق، فقال لأصحابه، وسائر من معه : «توكلوا على الله، واجتهدوا في الدعاء» ثم اقتحم الوادي بفرسه، وتبعه الناس، فعبروا جميعاً، ولم يتأذ منهم أحد، وكان الماء يصل إلى قريب من ركب خيلهم، مع أن مد ذلك النهر حين امتلائه لا يدرك له قعر، كما هو شهير، وهذه كرامة عظيمة، وقعت له رضي الله عنه، وكان القاضي أبو زيد الغنامي حاضراً لها وشاهدها، ولم يقع مثل هذا فيما علمناه إلا للصحابه رضي الله عنهم، مثل ما وقع لسعد بن أبي وقاص في عبوره دجلة لفتح المدائن، ومثل ما وقع للعلاء بن الحضرمي في فتح بعض بلاد فارس... (28) وسيأتي الكلام عن هذه الفتوح في آخر البحث... وفي هذه الغزوة يقول الكاتب الأديب أبو عبد الرحمن بن أحمد المكلاطي مادحاً لسيدي محمد العياشي، ومشيراً إلى الكرامة التي وقعت له في عبور النهر :

حديث العلا عنكم يسير به الركب

وينقله في صحفه الشرق والغرب

إلى أن يقول :

ولم أر بحراً جاوز البحر قبلكم

تجود لمستجد أنامله السحب

وما يستوي البحرين عندي، فإن ذا

أجاج لعمرى في المذاق وذا عذب

وفي ترجمة الشيخ محمد اليستثني تحدث عنه عبد الحق البادسي (29)

قال :

(28) «الاستقصاء»، الناصري ص : 87/ج : 6. انظر : «التشوف» ص : 63 - 64.

(29) المقصد الشريف، ص : 88.

حدثني الشيخ الحاج علي بن ماخوخ، قال : كان بين الشيخ محمد، وبين الشيخ أبي إسحاق بن عبيد النفزي الذي استوطن غرناطة، مراسلة، وكان يوجه إليه في كل سنة معجون الترنج من غرناطة، فتأخر سنة واحدة، فسأله الشيخ محمد : من يصل منكم إلى غرناطة إلى الشيخ أبي إسحاق، فيأتي من عنده بمعجون الترنج، قال : فتوجه أحد الفقراء، فجاز البحر بنفسه من غير قارب، وجاء بالمعجون في أقرب وقت.. فقلت : لم يسم لي الشيخ علي الذي جاز البحر، وأظنه هو... والله أعلم...

وفي ترجمة الشيخ أبي يعلى، وهو الفتوح بن أبي بكر المتيوي، ذكر البادسي(30) أنه حدثه بعض أصحابه، قال : قال أبو يعلى : قعدت يوما على حجر في وسط البحر أتفكر، في المشي على الماء، فنازعني نفسي إلى ذلك، فقست ذلك، فغرقته، وخرجت، وقعدت مغتما، فرأيت شبه سحابة، قد أقبلت من ميناء سبتة، فما كان إلا قليلا، حتى وصل إلي رجل، فمشى على الماء حين قاربني حتى وصل إلي، وقال : يا أبا يعلى : هكذا يكون المشي على الماء... فقضيت العجب؛ من ذلك!.

\*\*\*

وتذكر بعض المؤلفات، بما فيها المصادر الأجنبية، أن الولي الزاهد العلامة الواصل أبا العباس أحمد بن عاشر الأندلسي دفين مدينة سلا (تـ : 765هـ 1364م) لما اعتذر ذات يوم لشيخه أبي عبد الله الياقوبي الفقيه المغربي عن وصوله متأخرا للدرس، بأنه لم يجد مركبا يقطع عليه «وادي أبي رقرق» الذي يفصل بين مدينتي سلا والرباط، مكنه الشيخ سيدي أحمد الياقوبي من بطاقة، كان يستطيع عندما يحملها معه من المشي على صفحة الماء...

\*\*\*

---

(30) المقصد الشريف ص : 110.

يقول الشيخ علي بن محمد المراكشي : سكنت بقوس مدة، فذكر لي عن سيد في الأقصور يعرف بيوسف الأقصوري، وهو من كبار مشايخ الصوفية، فأردت زيارته، فتخلفت عنه أياماً، فجئت يوماً، فسمعت قائلاً يقول لي : قم إلى الشيخ يوسف، فإنه خرج ليجتمع به، فلم أكذب، فخرجت إما أن ألقاه، وإما أن أمشي إلى منزله على وجه الزيارة، فمشيت على ساحل النيل حتى انتهيت إلى موضع المعديّة، فلم أجد المعدي الذي يعدي الناس، فعدت أنتظره، فإذا الرجل قد أقبل من الجانب الآخر، وبيده عصا، فرمى برجله على الماء، وهو يخط بعصاه على الماء حتى صار إليّ، فتعجبت من كرامات الأولياء، وارتعبت منه.(31)

وقد تحدث عن أبيه، الشيخ الصالح محمد ابن أبي القاسم الصبان الفاسي فقال : «... فلما كان آخر يوم من شعبان من السنة المقبلة، ورأينا الهلال عشية هلال رمضان، وأقبل الرجل على عادته على الماء، فأحيا به الشهر كله على العادة المتقدمة، فلما صلى بنا صلاة العيد، وأراد الانصراف، قلت للشاب : قد كنت خرجت برسم الحج، وقد تعبدت هنا ما شاء الله، فأريد الانصراف، فكلم لي هذا الرجل، عساه يحملني معه إلى أنبر المتصل، فقام إليه وكلمه، فقال باسم الله، قال : فودعت الشاب وأمه، وسرت خلف الرجل أضع قدمي حيث يضع قدميه، فأحس الماء تحت قدمي مثل الرصاص...»(32)

\*\*\*

هكذا يبقى الولي متدرجاً في معارج الكمال، فإذا أراد الله تعالى أن يزيده كرامة، نقله من حالة التوكل إلى حالة اليقين، ثم يقوى يقينه، وذلك بفضل سابق من الحق، وخصوصية، يختص برحمته من يشاء، و«كذلك

---

(31) المصدر السابق ص : 76.

(32) ترجمة ابن القاسم الصبان من كتاب المقصد الشريف ص : 66.

نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين»، (33) فيريده الله المشي على الماء، والسير في الهواء، ويظهر له الجبال والرمال ذهباً وفضة، فلا يلتفت إليها، ويعرض عنها، وينأى بجانبه...

قال عبد الحق البادسي في ترجمة الشيخ أبي محمد المساري : حدثني الجمهور من بقوة عن الشيخ بأنواع الكرامات من المشي على الماء، والطيران في الهواء، وغير ذلك من طي الأرض، وآلف السباع، (34) وقيل لأبي طاهر العلام (35) يوما : إلى أين يبلغ الماء ممن يمشي عليه؟ فقال : أما أنا فإلى شراك النعل، وفيه يقول قائلهم :

قوم مشوا فوق المياه، وصيروا

من تحتهم متن الهواء ركائباً

إن المشي فوق الماء ورد في كثير من الكتب التي تتحدث عن كرامات الأولياء، أو ممن اختصهم الله بالسير فوقه، وهي كثيرة، ونشير بصفة خاصة، إلى كتاب : «المقصد الشريف، والمنزعة اللطيف، في التعريف بصلحاء الريف» لعبد الحق ابن إسماعيل البادسي. (36)

\*\*\*

بل إننا نقرأ في التاريخ الإسلامي جيشاً عرمرما يخوض نهراً، فلقد كان المسلمون في فجر الإسلام أقوياء، بإيمانهم، أقوياء بهذا الدين الذي كانوا يؤمنون به، أقوياء بأنهم كانوا يؤمنون بحقائق يكفر بها، أو لا يعرفها الآخرون...

(33) سورة «الأنعام» رقم الآية : 75.

(34) عبد الحق البادسي المقصد الشريف ص : 93.

(35) أنظر ترجمته في المقصد ص : 89. أنظر أيضاً نماذج من هؤلاء الذين لهم هذه الخصوصية في الصفحات : 123 - 128 - 138.

(36) توجد نسخة منه بقسم المخطوطات التابع للمكتبة الوطنية تحت رقم D 1419، في مجموع من ورقة : 55 - 115، ولا سيما في صفحات 73 - 75 (وقد طبع أخيراً).

ونذكر هنا وقعة المدائن، لما بلغ سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه بجيشه إلى دجلة، وهي تفيض، وترمي بالزبد، وقف هنيهة وقفة تأمل، ووقفة استعراض، وقال لسلمان الفارسي، ماذا ترى؟ هل نخوض هذا النهر؟ أو تنتظر السفن؟ فقال سلمان رضي الله عنه : «إن هذا الدين لجديد، أي أن الله تعالى، اختار هذا الدين وقرر أنه سيظهره على الأديان كلها، وأنه يحيي به الإنسانية التي ماتت، فأنا لا أصدق أن هذا الدين سينهزم، ويتراجع أمام نهر من الأنهار، ولماذا لا يخضع هذا النهر أمام هذا الدين؟ هذه العقلية المومنة هي التي كانت تسيطر على نفوس المسلمين، ثم قال له سلمان، ولكن أنظر في الجيش، هل ظهرت فيه ذنوب وانتشرت؟ فإذا رأيت أن هذا الجيش بعيد من هذه الذنوب، فصدق أن الله سبحانه وتعالى ناصرُهُ، وأنه سيتغلب على هذه الحقيقة، وكذلك كان، تقرأون في التاريخ أن جيش المسلمين قد خاض النهر، وكان المسلمون يتحدث بعضهم إلى بعض، كأنما يمشون على البر، فلما رأهم الفرس، قالوا، كما نقله الطبري بالنص، : «ديوان آصدند، ديوان آمدند» يعني جاء الجيش، جاء العفاريث...

ولقد قال المقري في نفح الطيب عن يوم افتتاح الأندلس عام 92هـ بقيادة طارق بن زياد : ذكر عن طارق بن زياد أنه كان نائماً وقت العبور في المركبة، فرأى النبي ﷺ، والخلفاء الأربعة رضي الله عنهم يمشون على الماء، حتى مروا به، فيبشره النبي ﷺ بالفتح، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد...

\*\*\*

### العلاء بن الحضرمي يقتحم البحر :

لم يزل العلاء بن الحضرمي مقيماً في عسكر المشركين حتى رجعت إليه الكتب من عند من كان كتب إليه من بكر بن وائل، وبلغه عنهم القيام بأمر الله، والغضب لدينه، فلما جاءه عنهم من ذلك ما كان يشتهي، أيقن أنه

لن يوتى من خَلْفِهِ، بشيء يكرهه على أحد منهم من أهل البحرين، وندب الناس إلى دارين، ثم جمعهم وخطبهم، وقال : إن الله قد جمع أحزاب الشيطان، وشراد الحرب في هذا البحر، وقد أراكم من آياته في البر، لتعتبروا بها في البحر، فانهضوا إلى عدوكم، ثم استعرضوا البحر إليهم، فإن الله قد جمعهم، فقالوا : نفعل، ولا نهاب والله بعد الدهناء هَؤُلا ما بقينا....

**اقتحام البحر :** وبعد أن تجمع اللواء الثاني على الساحل، وعدده أربعة آلاف، اقتحم بهم العلاء ابن الحضرمي البحر، فعبروه ومشوا فيه مسافة يوم وليلة حتى وصلوا إلى «دارين»، وهناك اقتحموا المدينة، ودار قتال شديد بين المسلمين والكافرين، حتى أباد المسلمون المرتدين، وحلفاءهم المجوس، والزُّط، ولم يبقوا على أحدٍ منهم، ثم قادوا بالغنائم والذراري، وكانت شيئاً عظيماً...

وفي خوض الجيش البحر إلى دارين، وردت روايات كثيرة تدل على أنهم بعد دعاء دعا به العلاء بن الحضرمي، ودعا به الجيش - حَبَسَ الله عنهم البحر، حتى عبروا، ورجعوا على اليايسة، وأن ذلك من آيات الله أكرم الله بها العلاء وجيشه، وكان العلاء من كبار صالحى الصحابة، ومشهوراً بإجابة الدعوة، وروايات العبور هذه جاءت في عدة من أمهات التاريخ، قالوا فيها : «ثم ركب المسلمون في آثار المنهزمين يقتلونهم بكل طريق، وذهب من فَرَّ منهم، وأكثرهم في البحر إلى «دارين»، ركبوا السفن إليها، ثم شرع العلاء في قسم الغنيمة، ونقل الأثقال، وفرغ من ذلك وقال للمسلمين : إنذهبوا بنا إلى «دارين» لنغزو من بها من الأعداء، فأجابوا إلى ذلك سريعاً، فسار بهم حتى أتى ساحل البحر ليركبوا السفن، فرأى أن الشقة بعيدة، لا يصلون إليها في السفن حتى يذهب أعداء الله، فاقتحم البحر بفرسه، وهو

يقول : «يا أرحم الراحمين، يا حكيم يا كريم، يا أحد يا صمد، يا حي يا مُحي، يا قيوم، ياذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، يا ربنا»... وأمر الجيش أن يقولوا ذلك، ويقتحموا، ففعلوا ذلك، فأجاز بهم الخليج بإذن الله يمشون على مثل رملة دمتة، فوقها ماء، لا يغمر أخفاف الإبل ولا يصل إلى ركب الخيل، ومسيرته للسفن يوم وليلة، فقطعه إلى الساحل الآخر، فقال عدوه، وقهرهم، واحتاز غنائمهم، ثم رجع، فقطعه إلى الجانب الآخر، فعاد إلى موضعه الأول، وذلك كله في يوم، ولم يترك من العدو مُخبراً، واستاق الذراري والأنعام والأموال، ولم يفقد المسلمون في البحر شيئاً سوى عليقة فرس لرجل من المسلمين، ومع رجوع العلاء، فجاء بها، ثم قسم غنائم المسلمين فيهم، فبلغ نَقْلُ الفارس ستة آلاف، والراجل الفين... وفي عبورهم البحر على تلك الصورة، قال عفيف بن المنذر :

ألم تر أن الله ذلَّلَ بِحُرَّةٍ  
وأنزل بالكفار إحدى الجلائل  
دعونا الذي شقَّ البحار فحاءنا  
بأعجبَ من فُلُق البحار الأوائل

فهم يرون أنها كرامة جاء الله بها على يدي العلاء بن الحضرمي... وفي رواية : «أتينا على خليج من البحر، ما خيض فيه قبل ذلك اليوم، ولا خيض بعد، فلم نجد سفناً، وكان المرتدون، قد أحرقوا السفن فصلى العلاء ركعتين ثم قال : يا حليم، يا عليم، يا علي، يا عظيم... أجزنا، ثم أخذ بعنان فرسه، ثم قال : جوزوا باسم الله، قال أبو هريرة، فمشينا على الماء، فوالله ما ابتل لنا قدم، ولا خف ولا حافر، وكان الجيش أربعة آلاف، وفي رواية أخرى عن إبراهيم بن أبي حبيبة : حُبِسَ لهم البحر، حتى خاضوا



إليهم، وجاوزه العلاء، وأصحابه مشياً على أرجلهم، وكانت تجري فيه السفن قبل، ثم جرت فيه بعد... (38)

\*\*\*

### قوة الإيمان، وصلابة العقيدة :

لقد كانت النار تفقد خاصيتها وتفقد حقيقتها، وطبيعتها أمام هذا الإيمان، لأن الإيمان إذا كان أكثر التهاباً، وإذا كان أكثر قوة، وإذا كان أكثر حقيقة من النار، فقد تكون تلك النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام، وعلى مَنْ أكرمه الله...

ونسوق قصة تدل على قوة الإيمان وصلابة العقيدة، ومثانة الدين لرجل صالح، ومسلم كامل هو أبو الخولاني الذي امتحن في دينه، ولحقته من الفتن والبلايا والرزايا ما دل على عزة نفس، وصبر جميل، وقد ساق هذه القصة وبسطها أبو نعيم في الحلية، وابن الأثير في أسد الغابة، وابن عبد البر في الاستيعاب، وابن حجر في الإصابة وهي تشير إلى التربية الإسلامية القديمة التي أعطت للإنسان كرامته، وأحلته المحل الذي يستحقه في هذه الحياة...

فهذا أبو مُسلم الخولاني الذي كان يسمى بعبد الله بن ثُوب، وهو من قبيلة «خولان» المشهورة في بلاد اليمن، كان رجلاً ناسكاً عابداً، يعد من كبار التابعين، أسلم في حياة الرسول ﷺ وقبل وفاته، ولما جاء مهاجراً إلى المدينة، وجد الرسول عليه السلام قد مات، فهو لم يره، ولم يجتمع

---

(37) ذكر ذلك ابن بشكوال، نقلاً عن الناصري في «الاستقصا» ج : 1 / ص : 97، و«النفح» ط 1949 / ص : 2/239.

(38) أنظر «حروب الردة» لمحمد أحمد بأشميل ط : 1 - 1399 - 1979، ص : 234 - 235. انظر كتاب «التشوف، إلى رجال التصوف»، لابن الزيات ص : 63 - 64 - تحقيق : د. أحمد التوفيق.

به، كما هو الشرط في الصحبة، لهذا فهو غير صاحب، جاء إلى المدينة المنورة في خلافة (أبي بكر) الصديق رضي الله عنه، فهو يمني من اليمن، ووقع له مع النبي الكذاب (الأسود العنسي) الذي ادعى النبوة في اليمن ما دل على قوة إيمانه وصدقه في ذلك الإيمان.

ذلك أن «الأسود العنسي» المذكور لما تنبأ في زمن الرسول محمد ﷺ بعث إلى أبي مسلم ليحضر إليه، فلما جاءه قال له : أنتشهد أنني رسول الله؟ فقال له أبو مسلم؛ ما أسمع، فقال له الأسود العنسي : أنتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال نعم، فأعاد عليه الأسود العنسي قوله الأول، وأعاد عليه أبو مسلم قوله الأول كذلك، ووقع هذا بينهما مرات، فكل منهما تمسك بقوله، ولما لم يؤمن أبو مسلم الخولاني بالنبي الكذاب الأسود العنسي وآمن بالرسول الصادق محمد ﷺ اغتاض لذلك الأسود العنسي وأمر بنار عظيمة فأججت ثم ألقي فيها أبو مسلم الخولاني، فلم تضره النار بشيء، وخرج منها بعد خمودها فلم تحرق حتى ثيابه، عند هذا قيل للأسود العنسي : أنفِه عنك وأخرجه من بلدك وإلا أقسد عليك من أتبعك، فأمره بالرحيل والخروج من بلده، فخرج أبو مسلم الخولاني من اليمن قاصداً الهجرة إلى المدينة المنورة، فأتاها، وصل إليها وجد الرسول ﷺ قد قبض، واستخلف أبو بكر رضي الله عنه، فأناخ راحلته عند باب المسجد النبوي الشريف، ثم أتى المسجد وقام يصلي إلى سارية، فَبَصُرَ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وكان حاضراً في المسجد - فقام إليه عمر وهو لا يعرفه، غير أنه سمع بما وقع له من المحن مع النبي الكذاب الأسود العنسي، فقال له عمر : ممن الرجل؟ فقال أبو مسلم : من أهل اليمن، قال عمر : ما فعل الرجل الذي أحرقه الكذاب بالنار؟ قال : ذلك عبد الله بن

ثوب، قال عمر : أنشدك الله أأنت هو؟ قال : اللهم نعم، فارتمى عليه عمر وقبله بين عينيه وبكى، ثم ذهب به إلى أبي بكر وكان جالسا في إحدى نواحي المسجد وأجلسه بينهما وعرفه به ثم قال : عمر - الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد ﷺ من فعل به ما فعل بإبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم.

\*\*\*

ولقد وقع حريق - أيضا - في بيت زين العابدين بن الحسين، وهو ساجد، فجعل الناس يقولون له : يا بن رسول الله : النار، النار، فما رفع رأسه فقليل له في ذلك بعد تمام الصلاة، وقد انطفأت النار، فقال : «ألهمتني عنها النار الكبرى».

## الطوفان

اختلف العلماء في كلمة «الطوفان» ومعناه، فعن ابن عباس : «الأمطار الغزيرة، المغرقة المُتلفة للزروع والثمار»، وبه قال الضحاك بن مزاحم، وعن ابن عباس في رواية أخرى هو «كثرة الموت»، وكذا قال عطاء، وقال مجاهد : الطوفان : «الماء والطاعون على كل حال»، وقال عليه السلام عن عائشة : الطوفان الموت».

\*\*\*

ولا بد من أن نقدم بين يدي نَجْوَى هذا البحث للقارىء الكريم، وقبل الحديث عن موضوع الطوفان، نقول بأن الأرض متفاوتة الحظوظ من المطر، فمنها أماكن يكثر فيها، ومنها ما حظها منه قليل وهي كما قال أبو العلاء المعري :

فَرَبْعٌ يُخْطَى الْغَمَامُ  
وَرَبْعٌ يُجَارُ، وَرَبْعٌ يُدَثُّ

ويُدَثُّ، أي ينال قليلا من المطر،... وبالتالي فإن الماء يتوزع بصورة غير منتظمة على سطح الكرة الأرضية، إذ أن مجموع اليابسة لا تزيد على 149 مليون كلم<sup>2</sup> أي حوالي 2.29٪ من مجموع مساحة الكرة الأرضية بأكملها، والتي تقدر بحوالي 510 مليون كلم<sup>2</sup> أي حوالي 8.70٪ من مجموع المساحة العامة للأرض، وبالإضافة إلى ذلك، فإن توزيع الماء واليابس لا يتجانس على نصفي الكرة الأرضية (في الشمال والجنوب) فأكثر نسبة في اليابسة تقع في النصف الشمالي، بينما النسبة العالية من الماء تتركز في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية...

\*\*\*

وإن متناقضات العالم كثيرة ومدهشة، فبينما ينحبس المطر تماماً في بلد ما، نجده في قطر آخر، يسقط بغزارة إلى درجة يصبح نقمة على الخلق، والزرع والضرع، ويبيت الغيثُ عيثاً!!!  
والرَّزقُ كالماء، بين الناس مُنْقَسِمٌ

هَذَا غَرِيقٌ، وَهَذَا يَشْتَهِي الْمَطَرَ

أَوْ كَمَا قَالَ أَبُو تَمَامٍ :

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الْبِلَادَ، رَأَيْتَهَا

تَثْرِي كَمَا تَثْرِي الرِّجَالُ وَتُعْدَمُ

حَظَّ تَعَاوُرُهُ الْبِقَاعُ لَوَقْتِهِ

وَإِذْ بِهِ صِفَرٌ، وَآخِرٌ مَفْعَمٌ

وهذا امرؤ القيس يشبه فرسه، في وثبها، بالسحاب الذي يسير فوق الأودية، فيتخطى بعضها، ويمطر البعض الآخر، حيث يقول :

لَهَا وَثَبَاتٌ، كَصُوبِ السَّحَابِ

فَوَادٍ خَطَاءٌ، وَوَادٍ مُطَرٌّ

وما أحلى ما قاله الحسين بن سراج :

بُثَّ الصَّنَائِعُ لَا تَحْفَلُ بِمَوْقِعِهَا

فِيمَنْ نَأَى، أَوْ دَنَا، مَا كُنْتَ مَقْتَدِرًا

فَالْغَيْثُ لَيْسَ يِبَالِي حَيْثُمَا انْسَكَبَتْ

مِنْهُ الْغَمَائِمُ تُرْبَاءً، كَانَ، أَوْ حَجَرًا

\*\*\*

فالماء صديق الإنسان وعدوه، خادمه وسيده، فأحد الناس يموت في الصحراء، لأنه لا يستطيع، حتى على قطرات من الماء، تحفظ له حياته، بينما يغرق آخر، لأنه لا يستطيع الإفلات من الماء الزائد عن حده، ونحن نتحكم في الماء بواسطة المسالك والقنوات لتحويل الصحراء الجرداء، ذات الرمال الوعساء، إلى حديقة غناء، ذات أزهار فيحاء، بينما هو يفيض في ظروف أخرى، ويتلف بيوتنا، وحقولنا على الرغم منا...

لذلك فهناك مناطق تعيش بلا تساقط الأمطار لسنوات عدة، وتنشد الماء فلا تجده، فقد ظلت «أكوبك» في الشيلي تعاني القحط والجفاف أربعة عشر عاما، وتعيش مدن الصحراء الكبرى وجنوب جمهورية مصر، والجزيرة العربية، ووسط استراليا وصحاري آسيا الوسطى فترات حادة جافة، من امتسак السقيا، وتوقف الحيا، وهي تنشد الماء والمعجزة... ولكن الطبيعة الشحيحة تأبى أن تستجيب لآهات الجفاف القاتل، والتربة الجرداء، والحر اللافح، والجو الخانق... بينما نجد في الطرف الآخر جهات تعيش خصوبة ممرعة، تشكو غزارة الماء وتعيش تحت رحمة الفيضانات المخربة المدمرة، والطوفان العارم المبيد الذي يشكل خطراً على الأرواح والممتلكات، وأداة تخريب لا تدّر من شيء أتت عليه إلا جعلته طافيا فوق السطح كالغذاء، وقد أهلك الحرث والنسل...

ومن المفيد أن نذكر هنا، وفي هذا المجال أنه حتى في المدن التي تعتمد على أخطار أكيدة في سدّ احتياجاتها من الموارد المائية، فإن الظروف المناخية المتغيرة قد تثير المتاعب، وتخلق من المشاكل ما لا يكاد يتوقعه الناس، ففي عام 1950، مثلاً، انخفضت المياه في خزانات مدينة «نيويورك» بحيث اضطر عمدة المدينة إلى تأجير عمال لإسقاط المطر الاصطناعي من الغيوم المنزرعة لهذا الغرض...

\*\*\*

ويثير تباين توزيع المياه - من حيث الزمن - مشكلات تتعلق بالضبط والاستعمال... ففي أحيان كثيرة لا تتوافر المياه حينما تقوم الحاجة إليها أو أنها لا تتوفر بالكميات المنشودة، ولذلك يتعين نقل المياه بواسطة أنابيب أو قنوات من مصدرها، وحتى نقطة استهلاكها.

أما الجفاف فيمثل أقصى طرف في مشكلة المياه، فمن المؤكد أن مئات الآلاف من البشر، ومن الماشية قد هلكوا في إقليم الساحل الإفريقي، وفي شمال «إثيوبيا» خلال عام 1975، وكذلك بعض المناطق الكبيرة في إفريقيا الغربية بسبب الجفاف الذي استمر فترة طويلة، كما تعرضت أروبا الغربية إلى أسوأ فترة جفاف عرفها الإنسان خلال صيف عام 1976، ما أضر

بالجرث والماشية، والزراعة والصناعة؛ أما الفيضانات فهي تمثل الطرف الآخر في مشكلة المياه، كذلك تتعاقب الفيضانات والجفاف في نفس المنطقة مما يترتب عليه نتائج مدمرة وآثار سيئة، وعواقب وخيمة بالنسبة للأراضي المنجرفة التي نزعت عنها تربتها السطحية الخصبة من جراء التآكل والتعرية...

وقد أسست لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية في آسيا والشرق الأقصى مكتب مكافحة الفيضانات، وتشجيع الإنماء المائي منذ عام 1949.

### التحكم في فيضان الماء :

يلاحظ في كثير من البلدان بأن مياه الأمطار في مناطق المدن تجد الآن طريقها مباشرة إلى شبكات مصارف المياه، وبعد ذلك تتدفق عبر أقصر طريق ممكن إلى أقرب نهر، ويترتب على ذلك أن فيضان مثل هذه الأنهار يزداد، وهي ظاهرة لم تكن موجودة قبل نمو المدن واتساعها...

ففي أحد الأودية «بألمانيا» تسبب هطول الأمطار في ارتفاع منسوب مياه هذا الوادي مرتين في إحدى السنين... وأظهر بحث أجري في الولايات الأمريكية بأن الفيضان بات يحدث بصورة متكررة، ويشكل خطراً أكبر على مناطق المدن التي تقع غالباً بالقرب من الأنهار...

وتزداد درجة الفيضان بحسب نطاق اتساع المدن وتطورها، وحدثت بالقرب من «مرسيليا» في فرنسا في منطقة تشهد حركة عمران ضخمة منذ خمسة عشر عاماً... وقيل إن الإسمنت كان العامل الرئيسي في هذه الكارثة وأصبح من الأهمية بمكان التحكم في فيضان الأنهار، وذلك عن طريق بناء السدود وخزانات المياه، وبات إلزاماً تشييد هذه السدود والخزانات الاصطناعية لتؤدي دور الموانع الطبيعية التي تمت إزالتها...

## وبعد؛ فما عن طوفان... نوح وسفينته؟

إن قصة الطوفان اليهودية لا تقبل دفاعاً، وهي تستغرق في المبالغات والمغالطات والسذاجة، ولا يسلم بصحتها في الوقت الحاضر إلا رجل يفكر في القرن العشرين بعد الميلاد تفكير الذين كانوا يعيشون في القرن العشرين قبل الميلاد... رجلاً يتمتع بعقل كعقول الأطفال، وأحلام العسافير، وتصديق ساذج كتصديق العجائز.

وإننا سنعتمد الاعتماد الكلي في قصة الطوفان على ما ورد في كتاب الله عز وجل، ثم بعد ذلك نثبت ما أورده الثوراة في مسألة الطوفان لنعقب عليها، وندحض افتراءها...

### الطوفان... وسفينة نوح!!

نجد حديث الطوفان في القرآن يتكرر في أكثر من موضع، مع الكلام على جهاد النبي نوح عليه السلام، فيذكر لنا القرآن، أن هذا الطوفان، كان عقاباً لقوم نوح حين كذبوا نبيهم، ولم يأخذوا بما جاء به من الحق، ولم يسمعوا لما أراد لهم من الخير.

والقرآن يذكر العقوبات الطبيعية التي سلطت على الأمم المكذبة لاستثارة العبرة، واستجاشة الموعظة والتذكير بما أصاب الذين كذبوا رسلهم من الآفات، وقد تكرر حديث الطوفان في سورة هود، وقص القرآن علينا في بداية الأمر دعوة نوح، عليه السلام، قومه إلى عبادة الله وحده.

\*\*\*

وكان قوم نوح قد عكفوا على عبادة غير الله، واتخذوا لهم أصناماً يعبدونها من دونه... وقد بذل نوح عليه السلام منتهى وسعه، واجتهد بغاية، إمكانيه أن يتبعه قومه في الإيمان بالله، وكان كلما دعاهم ليغفر الله لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً!!

\*\*\*



ولما بلغ نوح درجة اليأس من إيمان قومه بعد خمسين وتسعمائة سنة، على ما نصه القرآن، أقامها فيهم يدعوه ولا يألوهم نصحا، كان ما قصه الله بقوله :

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ، فَلَا تَبْتَئِسْ، بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وتوجه نوح إلى ربه بالدعاء عليهم فقال : «رَبِّ، لَا تَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ، وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا».

\*\*\*

وأخيرا أمره الله بعمل الفلك لتكون أداة لنجاته ومن معه من الغرق العتيد أن يأتي على القوم، فصاروا إذا مروا عليه سخرُوا منه ومن عمله، ولعل أشد ما أثار سخريتهم منه، أن علموا أنه يعمل تلك السفينة لينجُو بها ومن معه من العذاب النازل بهم استبعادا منهم لوقوعه؛ فكان هو، أيضا، يسخر منهم، ومن غفلتهم عن الحق، وبلادتهم عن أخذ الحيطة لأنفسهم باتباعه بإحسان، وتنجية أنفسهم، وصار يتهدهم بذلك العذاب المهين!!

\*\*\*

فلما أتم نوح عدته، وجاء الموعد، ورأى الأمانة التي بينه وبين ربه على ابتداء أمر الطوفان، وهو أن يفور تَنُورُ أهله الذين يعملون فيه الخبز، بأن يَنْبِثُ الماء فيه... أمره الله تعالى أن يحمل في السفينة أهله، ويدخل فيها من كل حيوان وطيور ووحش زوجين اثنين وأهله إلا زوجه!! وأن يأخذ معه من آمن من قومه، وكانوا قليلا، قيل كانوا ستة، وقالوا، بعضهم كانوا أربعين رجلا وامرأة، فلما استووا على ظهر السفينة، حلت عزاليها السماء، وانفجرت عيون الأرض، وحملت المياه السفينة ومَن فيها، ومكثت ما شاء الله أن تمكث إلى أن غرق كل ما على الأرض من إنسان وحيوان، ثم استقرت السفينة على الجودي...

ولما أراد نوح دخول السفينة نادى ابنه، وكان في معزل عنه، وقال :  
﴿يا بني اركب معنا، ولا تكن مع الكافرين!!﴾ فأبى أن يلبي نداء والده  
المشفق، لأنه لا يثق بصدق والده من أن كل من كان خارجا عن السفينة  
هالك... «قال: سأوي إلى جبل يعصمني من الماء» فهلك ذلك الولد...

\*\*\*

وأراد نوح أن يستنجز وعد الله بنجاة أهله، فقال : «رب، إن ابني من  
أهلي، وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين» فرد الله عليه بأنه ليس  
من أهله... وعاتبه في أن يسأله ما ليس له به علم، إذ كان من حق نوح أن  
يعلم أن من كان خارج السفينة فليس ممن وعده الله بنجاتهم، فاعتذر نوح  
عن ذلك، وطلب المغفرة والرحمة على ما فرط منه، إلى أن تمت المدة التي  
لم يكن للسفينة أن تقر فيها على الأرض، واستوت السفينة على جبل  
الجودي من «ديار بكر» وخرج من في السفينة وبارك الله فيهم، فكثروا،  
وملأوا الأرض، ولم ينسل من كان مع نوح من غير أبنائه، قال الله تعالى :  
﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ وهكذا رسا الفلك أخيرا على جبل «إرارات»  
وانبعثت الحياة من جديد...

يقول الله عز وجل، في سورة هود :

﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم  
مغرقون، ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه!! قال:  
إن تسخروا منا، فإنا نسخر منكم، كما تسخرون، فسوف تعلمون من  
يأتيه عذاب يُخزيه ويحلُّ عليه عذابٌ مقيم، حتى إذا جاء أمرنا، وفارَ  
التَّنُّور، قلنا : احمِلِ فيها من كل زوجين اثنين واهلك، إلا من سبق عليه  
القول، ومن آمن، وما آمن معه إلا قليل!!! وقال: اركبوا فيها باسم الله  
مجرأها ومُرسأها، إن ربي لغفور رحيم، وهي تجري بهم، في موجٍ  
كالجبال، ونادى نوح ابنه، وكان في معزل، يا بني اركب معنا، ولا

تكن مع الكافرين! قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، قال: «لا عاصم، اليوم، من أمر الله إلا من رحم»، وحال بينهم الموج، فكان من المغرقين، وقيل : يا أرض أبلعي ماءك، ويا سماء اقلعي، وغيض الماء، وقضي الأمر، واستوت على الجودي، وقيل بُعداً للقوم الظالمين، ونادى نوحُ ربّه، فقال : ربّ إنّ ابني، من أهلي، وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين... قال : يا نوحُ إنه ليس من أهلك، إنه عملٌ غير صالح، فلا تسألني ما ليس لك به علم، إني أعظك أن تكون مع الجاهلين، قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم.. وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين، قيل : يا نوح، اهبط بسلام منا، وبركاتٍ عليك، وعلى أمم ممن معك، وأمم سنمتعهم، ثم يمسهم منا عذابٌ أليم...﴿

\*\*\*

- ويجدر بنا بعد أن أتينا بهذه الآيات البينات من سورة «هود» أن نطرح، كغيرنا، عدة تساؤلات يقتضيها المقام، وهي :
- 1 - أين الجودي الذي استوت عليه سفينة سيدنا نوح؟
  - 2 - ما حجم سفينة نوح.
  - 3 - ما هي مسألة نوح في ابنه؟ وهل كان ابنه حقيقة؟
  - 4 - ما ذنب الأطفال من قوم نوح حتى هلكوا مع الهالكين من آبائهم؟
  - 5 - هل عم طوفان نوح الكرة الأرضية؟

\*\*\*

### أين استوت سفينة نوح ؟

الجواب عن السؤال الأول، فالتوراة تذكر بالإشارة إلى أن السفينة استقرت بجبال «أرارات»، ويسلم الجميع بأن «أرارات» لم تكن تعني في ذلك الحين جبلا محددا، بل منطقة واسعة جدا، سميت فيما بعد «أرمينيا»، وهي تشمل أجزاء من تركيا الحديثة وإيران والعراق والاتحاد السوفياتي ومات من القمم...

وفي الحقيقة فإن معظم المسلمين، مع عدد كبير من النصارى واليهود الشرقيين، لا يعتقدون أن الفلك رسا على ما يسمى اليوم جبل «أراراط»، لكن الأرمن، الذين عاشوا حول جبل «أراراط» منذ فجر التاريخ كانوا دائما متأكدين تماما من أن الفلك استقر هناك...

وبما أن «أراراط» أكثر الجبال ارتفاعا في تلك المنطقة كلها، فلا بد من أن تكون قمته هي الأولى التي برزت فوق الماء، وبالتالي المكان الذي رست فيه السفينة...

إن جبل «أراراط» أو «أغري داغ» كما يسميه الأتراك، يستثير الوقار، لا شك في أن هناك جبالا كثيرة تفوق علوه البالغ 5,165 مترا، لكنها محاطة بجبال مخفوضة تحد من جلالها...

أما «أراراط» فينتصب منعزلا متشامخا إلى ارتفاع 4,267 مترا، فوق السهول في أطول منحدر متناسق في العالم، ويبلغ قمة تكتسي بالجليد الأبدي والثلوج والسحر...

\*\*\*

إن الأساطير عن مثل هذا الطوفان قديمة ومستمرة كالزمن، فمنذ 6,000 عاما على الأقل، أي قبل كتابة التوراة بوقت طويل، كان الشرق الأوسط مسرحا لقصة مثيلة لسفر التكوين تطلق فيها على نوح أسماء مثل «اينا بشتيم» أو «كسيسوثروس» ودامت فيها السيول الجارفة ستة أو أربعة أيام بدلا من أربعين يوما، وتقول الرواية البابلية، إن الآلهة أغرقت الجنس البشري لسبب بسيط، هو أن الإنسان قام بضوضاء صاخبة حرمت الآلهة النوم!!!

\*\*\*

أما الأرمن فكانوا واثقين من أن السفينة رست فوق قمة جبلهم المقدس، وكانوا مقتنعين كذلك بأن أحدا لم يتسلق القمة على الإطلاق، أو

يستطيع أن يصل إليها بالنظر إلى ما هي عليه من الارتفاع والرهبة، وقد ذهبوا عندما قام الأستاذ الألماني الروسي «ج.ج، فريدريك باروت» متجاهلاً محرماتهم بتسلقها عام 1829م؛ وهناك عشرات المتسلقين بلغوا القمة بعد «باروت».

أما الزعيم بين «الأثريين» فهو «إيرل كامينغز» من مدينة «فارمنتغون» من ولاية نيو مكسيكو الأمريكية الذي تسلق «أراراط» خمس مرات، وأن ملفاته الواسعة عن ألغاز الفلك موجودة ومتوفرة لأي باحث محتمل، وهي تنطوي على كل شيء ابتداء من الترجمات لقصص الطوفان السومري المحفورة في لوحات صلصالية منذ آلاف السنين، وانتهاء بقصاصات من جرائد الأمس؛ وأن بعض مواده هي مخطوطات علمية، أما أغليبيتها فهي غامضة ومنسوبة بأفكار التمنيات الذاتية، هذا ما كتبه الأستاذان «كريستيان هيرالد»، و«غوردون غاسكيل» في مجلة، المختار.

\*\*\*

هناك حكاية شعبية في الأردن، وخصوصاً في منطقة «الكرك» جنوب الأردن، تقول : «إن سفينة نوح استقرت على أحد الجبال الذي يقع غرب «مدينة الكرك»، وبوسع أي مواطن كركي أن يثبت لزمائره ما يؤكد «الحكاية» بأن يدلّه على الجبل الذي تأخذُ قمته شكل السفينة الحجرية، ويقول لك : «ها هو الجبل الذي استقرت عليه السفينة، وإذا سألته عن أي دليل علمي أو تاريخي يؤكد ذلك، ينظر إليك مستهجنًا، لأنك تلقي بظلال من الشك على حكاية شعبية توارثها الناس جيلاً بعد جيل...»

والحكاية بطبيعة الحال، تبتعد كثيراً وكثيراً جداً، عن المنطوق التاريخي والعلمي الذي يحدد قمة جبل «أراراط» في تركيا في أقصى شرق الأناضول كمكان محتمل لرسو سفينة سيدنا نوح بعد الطوفان...

\*\*\*

رائد الفضاء الأمريكي «جيمس إيروين» أول من سار فوق سطح القمر عام 1971، كَرَسَ حياته في ما بعد، لتسلق جبل «أرارات» في محاولة للوصول إلى قمته للبحث عن السفينة الراسية، والتي قاومت الطوقان...

«إيروين» حاول الوصول إلى قمة الجبل أربع مرات خلال سنوات السبعينات، ولكن محاولاته أسفرت عن لا شيء، رغم أنه أعلن في المرة الأخيرة في عام 1987 أنه لن ينزل عن الجبل، إلا بعد العثور على آثار السفينة الأسطورية، لكنه قرر العدول عن أبحاثه، والاستمرار في رحلته، وهو على مقربة من القمة بسبب حالة الإرهاق الشديد التي أصابت أحد رفاقه من جراء الارتفاع!

ويُعتبر «أيروين» واحداً من العلماء الأصوليين المسيحيين في أمريكا، والذين يتخذون من مدينة «سبرينجر» في ولاية «كلورادو» مقراً لهم، ووضعوا صوب أعينهم البحث عن السفينة معتمدين على ما جاء في «سفر التكوين» من أنها رست في نهاية الطوفان على قمة جبل «أرارات»

وبطبيعة الحال، فإن جمعية «إيروين» ليست الجمعية الوحيدة التي تحاول العثور على سفينة نوح فوق قمة «أرارات» انطلاقاً مما ورد في سفر التكوين «العهد القديم» بهذا الصدد، حين حاول رجال دين مسيحيون، وعلماء أصوليون على مدار أكثر من ثلاثة عقود، التنافس فيما بينهم للوصول إلى قمة ذلك الجبل، بحثاً عن السفينة إلى حد أن الأمريكي «رون وايت» من مدينة «ناشفيل» بولاية «تنسي» الأمريكية، قام برحلة على رأس مجموعة من الأصوليين المسيحيين إلى هناك، وخرج بنظرية جديدة تقول : إن السفينة ليست على قمة بركان «أرارات»، بل تقع على بعد حوالي ثلاثين كليمتراً جنوب البركان...

ورغم تأكيدات «وايت»، فإنه لم يستطع في ما بعد إثبات ما ذهب إليه... وأما الأمريكي الأصولي «مارفن ستيفنز» الذي قام بمحاولات مماثلة، فقد دخل في جدل حاد مع «إيروين» ومع «وايت» حيث تقول

وجهة نظره، بأن السفينة ليست على القمة، وليست بعيدة عنها في الجنوب كما ذكر «وايت» بل أكد «ستيفنز» بدوره أن السفينة تقع على سفح الجبل على ارتفاع (1585) متراً...

وفي ضوء التنافس الأصولي المسيحي في البحث عن سفينة الطوفان، تظل حقيقة السفينة خالدة لا لبس ولا شك في وجودها حيث ورد ذكرها في القرآن الكريم(1)... ولكن المشكلة في ما يبدو تكمن عند عدد من المغامرين الغربيين الذين يعشقون مزاجية الحقائق الدينية بحقائق مادية ملموسة، وذلك على اعتبار أن «سفر التكوين» ورد فيه فصل عن المكان المحدد الذي رست عليه سفينة نوح، إلا أن جهود البحث والتنقيب في نفس المكان المزعوم أثبتت حتى الآن أنها لا تختلف كثيراً عن الحكاية الشعبية المتوارثة، وإن كانت حكاية أهل «الرك» قادرة على الأقل أن تقدم الدليل الملموس على وجود السفينة... ويبقى بعد ذلك أن تصدق ما ذهب إليه الحكاية، أو تنتظر كي يثبت الأصوليون المسيحيون المتنافسون أنهم عثروا على السفينة...

وقد أجاب عن هذا السؤال، أيضاً، المرحوم الأستاذ العالم الجليل عبد الوهاب النجار مدرس التاريخ الإسلامي بكلية أصول الدين، وناظر مدرسة المرحوم عثمان ماهر باشا في كتابه القيم «قصص الأنبياء» حيث قال : «إن جبل «الجودي» في نواحي «ديار بكر» من بلاد الجزيرة، وهو يتصل

---

(1) وهو استقرار السفينة على جبل الجودي في العاشر من المحرم يوم عاشوراء، فصامه نوح ومن معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها فصاموه شكراً لله تعالى... استوت السفينة على الجودي، وبقيت عليه أعوادها... وفي الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال : «لقد بقي منها شيء، أدركه أوائل هذه الأمة» وقيل إن الجودي اسم لكل جبل ومنه قول ابن زيد ابن عمرو بن نفيل :

سبحانه، ثم سُبْحَاناً يَعودُ له

وقيلنا سَبَّحَ الجودي والجَمَدُ

ويقال : أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر : الجودي بنوح، وطور سيناء بموسى، وحراء بمحمد عليه السلام.

بجبال أرمينية... قال في القاموس : «والجودي : جبل بالجزيرة، استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، ويسمى في التوراة «أراراط».

**أما الجواب عن السؤال الثاني الذي يتضمن «حجم سفينة نوح»؟**  
شكل الفلك لا يصفه سفر التكوين إلا بأنه يشبه السفينة، بل كل ما يذكره هو صندوق خشبي مستطيل وضخم، قادر على العوم، تحت وطأة الريح والموج... لكن أي صندوق هو؟ إن طوله 274 متراً، وعرضه 46 متراً، وارتفاعه 27 متراً، ولو أخذنا أقصر ذراع عند القدماء، لظهر الفلك لنا بطول 137 متراً، وبعرض 23 متراً، وبارتفاع 14 متراً أي نصف قياس سفينة «كوين ماري».

\*\*\*

أما شكل الفلك في القرآن أو حجم سفينة نوح، فيقال بأن حجمها وأبعادها لم ينص عليها في القرآن، وإنما وصفت بأنها : «الفلك المشحون» وبأنها : «ذات ألواح ودُسُرٍ» أي مسامير...  
أما التوراة فقد ذكر حجمها في صفحة 6 تكوين 14 : «أصنع لنفسك فلكا من خشب جفر، تجعل الفلك مساكن، وتطليه من داخل وخارج بالقار، 15 وهكذا تصنع ثلاثمائة ذراع يكون طول الفلك، وخمسين ذراعا عرضه، وثلاثين ذراعا ارتفاعه، 16 وتصنع كُؤاً للفلك، وتكملة إلى مد ذراع من فوق، وتضع باب الفلك في جانبه مساكن سفلية، ومتوسطة، وعلوية تجمله» : «التوراة».

**أما السؤال الثالث والمتعلق بمسألة «نوح في ابنه؟ وهل كان ابنه حقيقة؟**

وأجيب. أما كونه ابنه، فظاهر القرآن أنه ابنه حقيقة، وإنما نفى كونه من أهل نوح، لأن النجاة إنما تكون للمؤمن، فأخذ نوح بظاهر قوله تعالى :



﴿إنا منجوك وأهلك﴾ وغفل عن شرط النجاة، وهو الإيمان بنبوة نوح، وما جاء به من الحق، وأن الأهلية الحقيقية تكون معدومة الثمرة مع الكبر، ومجانبة الإيمان، ومخالفة الداعي إليه، فهي وسيلة لاغية وسبب منقضب، وهو الرأي الذي مال إليه عبد الوهاب النجار صاحب الكتاب المذكور؛ وقال آخرون : إنه كان ابنَ إمرأته من غيره، ولم يكن ابنا حقيقيا له، بل كان ربيباً نشأ على أن يناديه نوح بلفظ ابنه، وكان كافراً وظن نوح أن وجوده في حجره يدخله في أهله الذين وعد من الله بنجاتهم... وقال غيرهم : إنه كان من الزنا، ونوح لا يعلم بذلك، ويستأنسون لذلك بقوله تعالى : ﴿إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح﴾ وبقوله تعالى : ﴿ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة نوح، وامرأة لوط، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين، فخانتاهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا، وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ والذين يخالفونهم يستبعدونه ويعدون أن تكون امرأة أحد الأنبياء زانية، لما في ذلك من الهجنة على النبي، وقد فات هؤلاء، كما قال الشيخ عبد الوهاب النجار، أن الكفر أشد من الزنا ذنبا، وامرأة نوح قد ضربها الله مثلا في الكفر، ومن أتى الذنب الأكبر، يهون عليه أن يأتي بما هو أصغر منه، قال عبد الوهاب النجار : وإن كنت لا أقول إنه من الزنا، وإنما أنا أناقش مبدأ عصمة نساء الأنبياء فقط وما كان من الأمر، فالمناقشة غير مجدية، ولا نخلص منها إلى رأي قاطع في الموضوع، وإنما هي احتمالات، وقد علمتم ميلي الرأي الأول وهو أنه ابنه حقيقة...

\*\*\*

ولعل الذين يريدون إبعاد ابن نوح الهالك عنه يرون عظيما أن يكون ابن النبي المرسل كافرا، فهم يريدون إبعاده عنه بكل وسيلة... أما الأستاذ عبد الوهاب النجار، فلا يرى بُعداً في ذلك، ولا غضاظة منه على النبي،

وأى فرق بين أن يكون ابنه كافرا، وبين أن يكون أبوه كافرا، وقد كان إبراهيم مرسلا نبيا، وأبوه كافرا يعبد الأصنام، وينحتها، ويبيعها من عبادها... وهؤلاء اليهود أبناء يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم، قد كفر بعضهم، ولعنهم الله، وهم بنو الأنبياء : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

**بقي السؤال الرابع، والذي يبحث عن ذنب الأطفال من قوم نوح... لماذا هلكوا مع الهالكين؟ وما هو ذنبهم؟ فهل أثموا مع الآثمين آبائهم وأمهاتهم؟**

من القواعد العامة أن «لكل نفس بما كسبت رهينة»، «ولاتزر وازرةٌ وزرَ أخرى»... وقد درجت عادة الله وسنته أن المصيبة لا تصيب الذين ظلموا خاصة؛ فإذا علم الظالمون المشركون بهلاك أولادهم معهم، فإن ذلك مما يقطع نياط قلوبهم، ويزيد في تعذيبهم وتبكيته، على أننا في كل يوم نرى الأطفال يهلكون بمختلف الأمراض، وليس ذلك عقابا بالأطفال على ذنوب ارتكبوها، وجرائم اجترحوها أو آثام اقترفوها، لكن ذلك من باب وجود المسبب عنه وجود سببه، وتلك الأسباب هي العلل والأمراض التي هي جند الله : «وما يعلم جنود ربك إلا هو» والنبي عليه السلام يقول : «أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : نعم، إذا كثر الخبث!!»

وقد تكلف بعض المفسرين والعلماء فقالوا : إن الله تعالى أعقم أرحام نساء قوم نوح قبل الطوفان بأربعين سنة، فلم يولد لهم في تلك المدة مولود، وبذلك اشترك جميع قومه في الإثم والضلال، وهم مكلفون، فحقت عليهم كلمات ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم، فذاقوا وبال أمرهم، وحق بهم الهلاك، وسيُمو الخسف والهوان، ولهم عذاب أليم...

والسؤال الأخير والخامس هو، «هل عَمَّ الطوفان الكرة الأرضية؟»

قد تحدث الأستاذ عصام الدين حفني ناصف في كتابه «اليهودية في العقيدة والتاريخ» عن مدى ما وصل إليه طوفان نوح في بقاع الأرض فقال: «إن صناع التوراة لم يرقهم أن يكون شأن نبيهم العبري نوح هينا كشأن النبي العربي صالح، ولم يُرضهم أن ينحصر طوفان نبيهم وراء حدوده المحلية، ولم يقنعوا بأقل من إغراق الكوكب الأرضي من أكنافه الأربعة، ورأوا ألا تكون قصة الطوفان قصة مستقلة، قائمة بنفسها، فوصلوها بغيرها، ليجعلوا منها فصلاً هاماً في ملحمة صهيونية يهودية طويلة مفادها، أن الله اختبر عباده فأبدى بنو آدم من بادئ الأمر كثيراً من سوء السيرة، وخبث السريرة، وما فتئت ذرية آدم تزداد على الزمن ارتداً في الأحوال، وإيغالا في الآثام حتى أصبحت لا تطاق فلم يجد خالق الأرض مندوحة عن إغراقها : ما عليها ومن عليها، لم يستحيي من بني آدم كلهم غير نوح وبني نوح وزوجاتهم، فجماع البشرية في الوقت الحاضر هم بنو نوح، كما أنهم بنو آدم...»

على أن الطوفان الذي أغرق الناس لم يفرق الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس، ومن ثم لم يبرح الناس سادرين في مهاوي الغواية، لا ينبو عنهم في ذلك سوى بني إسرائيل، فاتخذهم الله شعباً مختاراً له، وارتضى لهم الصهيونية شعاراً، وإبادة جيرانهم العرب مذهباً، وواثقهم على أن يقطعهم أخصب الأودية المعروفة في ذلك الزمان، وسائر البقعة الوسيطة من الأرض المترامية بين النيل والفرات.

«في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً : لِنَسْكِ أُعْطِيَ هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات»...

\*\*\*

إن قصة قوم نوح في القرآن الكريم لمختلفة في الأهمية كثيرا عن قصص عاد وثمود وغيرهم بل هم سواء :

﴿ألم ياتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، لا يعلمهم إلا الله، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم، وقالوا : إنا كفرنا بما أُرسلتم به، وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾.

وهكذا عرض القرآن الكريم لطوفان نوح غير ما مرة، وذلك عندما استغلظ أمر المشركين، ولقي الرسول منهم عنتاً فادحا، نزلت آيات من القرآن تترى تندرهم بوخامة عاقبتهم، وتبصرهم بما حل بأقوام قبلهم، بغوا على أنبيائهم فأهلكهم الله بوسائل شتى...

\*\*\*

وإن مسرح الأحداث في كل قصة من قصص القرآن لم يكن يتجاوز قرية واحدة أو بضع قُرى متجاورات، وليس يشذ الأمر عن ذلك فيما يتصل بقوم نوح، فقد أهلك الله قريتهم بالطوفان، أي بفيضان عارم من دجلة والفرات كان عنيفا مخيفا، كذلك الذي دهم أهل العراق في أوائل من عام 1839، إذ طمت أمواه الرافدين، فطغت في شوارع بغداد وما إليها حتى ناهزت مترين، وركبت البلاد، حتى كانت السفن تمخر فيها، وكان المرء لا يبصر أينما ضرب ببصره غير لُجّة، لا يدرك الطرف مداها، ولا يبرز منها غير ذُرى المآذن، وشطب النخيل، وهو سعتها الأخضر.

على أن الأستاذ عبد الوهاب النجار، أجاب بأن العلماء يميل إلى عمومته؛ ويقول علماء الجيولوجيا، إننا كلما بحثنا في أعالي الجبال، وجدنا بقايا حيوانية من الأحياء التي لا تعيش إلا في الماء، وهذا يستدعي وجود طوفان على هذه الجبال، بل عدد من الطوفانات لوجود الاختلاف في عمر

هذه البقايا، فلا مانع من أن يكون طوفان نوح أحدها، ويكون قد عمّ، ويستأنس لذلك بقوله تعالى : ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾.

\*\*\*

ويميل فريق إلى أن الطوفان لم يكن عاما، بل طغيان الماء كان على الجهة التي كان يسكنها نوح وقومه، وإما بقية بقاع الأرض، فلم يعمها هذا الطوفان، ويستأنس لذلك بأن الهند كانوا يزعمون أن عمران بلادهم يمتد في الماضي إلى تاريخ أبعد من الذي قدرته التوراة لنوح وطوفانه، وأن عمرانهم متصل من أعمق أجيال التاريخ إلى اليوم. وأنتم تعلمون أنني غير واثق من التاريخ الذي تقدره التوراة؛ فربما كان نوح أبعد من ذلك بعدا يشمل ما يدعيه أهل الهند...

وعلى كل حال، فالمسألة ليس فيها نص من القرآن، بل كل ما فيه من هذه الناحية أن قوم نوح كفروا وعصوا الرسول، فأغرقهم الله بالطوفان ونجى نوحا، ومن معه في الفلك، وجعل ذريته الباقين، فالعموم محتمل، والخصوص محتمل...

والذين يميل إليه الأستاذ المرحوم عبد الوهاب النجار أن يكون الطوفان خاصا، وأن النوع الإنساني لم يكن منتشرا في جميع الكرة، بل كانوا منحصرين في الناحية التي عمها الطوفان، وأنهم قد هلكوا، وبقي نوح وذريته...

### متى ابتدأ الطوفان؟ ومتى انتهى؟

ذكرت التوراة أن الطوفان ابتدأ في السنة الأولى بعد ستمائة من ولادة نوح عليه السلام... وأن نوحا مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما... بل إننا نجد كثيرا من الأنبياء وغيرهم في غابر الأحقاب والأزمان، وفي دنيا

الماضي البعيد عمروا عمرا مديدا... طالما أننا لا نجد في العصور المتأخرة  
من عمر عمرا مثل تلك الأعمار...

فكيف تفسير ذلك؟

هناك عدة آراء، وهي أن الأقوام الأولين كانوا كل شهر عاما، فإذا قالوا  
ألف ومائتي سنة، فإنما يعنون مائة عام من أعوامنا.

قال تعالى في سورة المعارج : ﴿تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ  
كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. يقول تعالى في الآية التي قدم فيها  
الملائكة، لأنهم في عالم الأرواح، واتبعهم بأرواح المومنين، فإنها تذهب  
صاعدة عند الموت إلى مصاعد صعودها الملائكة، يقتفون آثارهم على  
مقدار مراتبهم، فيصعد هذان الصنفان إلى عرش الله، ومهبط أمره في يوم  
طويل مقداره خمسون ألف سنة من سني الدنيا، وليس ذكر الخمسين ألف  
سنة، ولا ذكر سنة للتحديد بالمدة، بل المقصود أن مقام القدس الإلهي  
بعيد المدى عن مقام العباد...

فهذا هو العروج الذي تعرجه الأرواح، وهذا العروج لا نهاية له، فليعد  
بألف بخمسين ألف سنة، أو فليعد بأضعافها، فالمقصد المراتب العظيمة...  
ولا مفهوم للعدد...

قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿تَعْرِجُ  
الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال : «هو  
يوم القيامة جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، وقد  
وردت أحاديث في معنى ذلك... قال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن  
موسى، حدثنا ابن لهيعة عن ابن سعيد قال : «قيل لرسول الله ﷺ : «في  
يوم كان مقداره خمسين ألف سنة... ما أطول هذا اليوم!!» فقال رسول  
الله ﷺ : «والذي نفسي بيده، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه  
من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا...»

وقال تعالى في سورة الحج : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ، وَإِنْ يَوْمًا  
عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعْدُونَ﴾.

السنن واحدة، وسيكون ما سيحل بكم مضاهيا لما حل بمن كان قبلكم،  
وإذا قلت قد طال العهد، ولم يحلّ العذاب... فأين العذاب؟؟!!

إن الله حلیم، وألف سنة عنده، كيوم عندكم، بل ليس عند ربك صباح  
ولا مساء، بل الصباح والمساء والزمان تحت أمره، والسموات مطويات  
بيمينه، وعلى ذلك ينفذ وعده بعد أمدٍ طويل عندكم، قريب عنده، كما قال  
﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾. إن كل ما هو آت قريب، وذلك إشارة  
لعذاب الآخرة، فإذا تأخر عشرين ألف سنة مثلا، فهي كعشرين يوما  
عندكم، وهذا شيء قليل... ولا يكون ذلك، إطلاقاً، إخلافاً للوعد...

روى الترمذي والنسائي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «يدخل  
فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم. قلت : «وما مقدار  
نصف يوم؟ قال : «أو ما تقرأ القرآن؟ قلت : «بلى» قال : ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ  
رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعْدُونَ﴾.

وعن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ : «إني لأرجو أن لا تعجز أمتي  
عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم» قيل لسعد، وما نصف يوم؟ قال :  
«خمسائة سنة».

وعن عكرمة عن ابن عباس : ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا  
تَعْدُونَ﴾، قال : «من الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض» وقد  
نص عليه أحمد بن حنبل في كتاب «الرد على الجهمية» وقال مجاهد :  
«هذه الآية كقوله : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ يَعْرِجُ إِلَيْهِ  
فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعْدُونَ﴾» (2).

(2) للكندي فيلسوف العرب : «رسالة فيما حكى من أعمار الناس في الزمن القديم» [ج : 6 ص: 539  
هدية العارفين].

وقد روى بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة...

قلنا إن الأقوام الأولين كانوا يحسبون كل شهر عاما.

هذا أبو العلاء المعري، يعجب من اختلاف الناس في العقائد والفرائض، والمحللات والمحرمات، واشتراط المهور في الزواج، وإباحته في السبايا، فيما الموت واحد، يأتي على الجميع لا يفرق بين حاكم ومحكوم، بل إنه يقول بأن الناس تجاوزوا الاعتقاد والعرف إلى المعقول والمحال، فأحالوا المعقول، وقبلوا المحال، نظير الأعمار التي بلغت مآت السنين، ولعلمهم اعتبروا الشهر عاما، بدأ بالهلال، وانتهى بالمحاق، وإلا كان الخل، إما في الخبر، وإما في العقل! فَحَمِّلُوا الْمُتَقِلَاتِ، وتحملوا المشقات العظام، ثم بليت ظهورهم في بطون القبور.

أسمعه يقول :

إِخْتِلَافٌ قَدْ عَمَّنَا فِي اعْتِقَادِ

وَصَلَاةٍ لِرَبِّنَا وَطُهُورِ

وَنِسَاءٍ مَمْهُورَةٍ فِي الْبَرَائِيَا

وَسَبَايَا سَيِّقَتْ بِغَيْرِ مَهْوَرِ

وَرَأَيْتِ الْجَمَامَ يَأْتِي عَلَى الْعَا

لَمٍ مِنْ قَاهِرٍ، وَمِنْ مَقْهُورِ

وَرَوَوْا لِلْمَعْمُورِينَ أَمْوَرًا

لَسْتُ أَدْرِي مَا هُنَّ فِي الْمَشْهُورِ

أَتَرَاهُمْ فِيهِمَا تَقْضَى مِنَ الْأَ

يَامِ عَدُّوا سِنِّيَهُمْ بِالشَّهْوَرِ

كَلِمًا لَاحَ لِلْعِيُونِ هَالًا

كَانَ عَامًا لَدِيهِمُوهَا فِي الدَّهْوَرِ



هكذا ينبغي؛ وإلا فإن الـ  
عقل يُثْنَى في حالة المبهور  
حُمِّلُوا الْمُتَقِلَّاتِ ثَمَّتَ أَضْحَى  
في بطون الأحداث بالي الظهور

\*\*\*

هذا رأي مقبول ومعقول، وهناك رأي يأخذ به الأستاذ عبد الوهاب النجار، وهو أنه لا يرى مانعا من أن يعمر آدم، ومن قرب منه أعمارا طويلة، لأن النوع الإنساني كان في بدء نشأته لم يحمل هموما، ولم تعتوره الأمراض المختلفة، ولم تنهكه قوة الأطفمة التي لا يقدر على هضمها، فكان من المعقول أن يعيش طويلا، وأما نحن وأمثالنا ممن كانوا قبل أربعين قرنا فقد جئنا بعد أن أنهكت النوع الأنساني الأمراض وطحنته الأدوية، فالواحد منا عصارة آلاف الأمراض التي انتابت آباءه وأمهاته، فلم تعد قوانا تتحمل العمر الطويل...

ويقول بعض علماء الألمان وغيرهم : إن إنسان هذا الزمان يمكن أن يعيش ثلاثمائة سنة إذا اتبع نظاما خاصا...

ونجد في الأدب الكبير لابن المفقع ما يؤكد هذا المعنى، قال : «إنا وجدنا الناس قبلنا أعظم أجساما، وأوفرَ مع أجسامهم أحلاما، وأشدَّ قوة، وأحسنَ بقوتهم للأُمور إتقاناً، وأطول أعماراً، وأفضل بأعمارهم للأشياء اختياراً...»

فكان صاحب الدين منهم أبلغ في أمر الدين عملا وعلمًا من صاحب الدين منا، وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل...

وجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضل الذي قُسم لأنفسهم، حتى أشركونا معهم فيما أدركوا من علم الأولى والآخرة، فكتبوا به الكتب الباقية، وضربوا الأمثال الشافية، وكفونا به مؤونة التجارب والفِطَن...

وبلغ من اهتمامهم بذلك أن الرجل منهم كان يُفْتَحُ له الباب من العلم، أو الكلمة من الصواب، وهو في البلد غير المأهول، فيكْتَبُّه على الصخور مبادرةً للأجل، وكراهيةً منه أن يسقط ذلك عَمَّن بعده، فمنتهى عِلْمِنا من هذا الزمان، أن يأخذ من علمهم، وغاية إحسان مُحْسِنِنا أن يقتدي بسيرتهم...

\*\*\*

وإنِّي لعلی خلاف مع ابن المقفع في بعض ما أورده؛ إن معارف الإنسان ومعلوماته اليوم بلغت حدا لم تبلغه في الماضي، إلا أن هذا الفيض من المعارف والمعلومات، جعل الإنسان حائراً، لا يَدْرِي ماذا ينتقي؟ وهذه الحيرة مردها إلى سوء أساليب التربية الفكرية التي تهتم بنقل المعلومات دون الاهتمام بتدريب العقل أو الذكاء على التفكير القويم... القضية ليست في المعارف الكثيرة، بل في غرلة هذه المعارف والربط بينها، واستنتاج القاعدة التي ينبغي اعتمادها للعمل... لتكوين مثقفٍ حَقاً وصدقاً...

### قصة طوفان نوح من التوراة...

ذكرت قصة طوفان نوح بتفصيل في التوراة بعبارات واسعة حيث لجأ كتابها إلى محاولة إسقاط مروءة الشعوب المعروفة لهم، فألصقوا وبزعمائها من المخازي ما يسف بهم إلى دركات أحط من درك اليهود وأقاموا في سفر التكوين سلسلة من المصافي تحجز كل مصفاة منها شعباً من الشعوب بعد أن يحمله الأخبار المؤلفون من ضخام الأوزار ما تضيق إزاءه ثقوب المصفاة عن إمراره.. وكان طوفان نوح هو المصفاة الأولى، وقد سدَّت الطريق في وجوه بني آدم ليقصر المرور على بني نوح، وهم طلائع بني إسرائيل...

وَأِنَّ قِصَّة طوفان نوح في التوراة تخالف تماماً ما جاء في القرآن الكريم مخالفة سلبية، بمعنى أنها سكّنت عن بعض الأشياء المذكورة في القرآن فلم تتعرض لها... فهي لم تتحدث عن :

1 - مسألة ابن نوح، واسمه كنعان...

2 - مسألة زوج نوح، لم تذكر أن نوحا كانت زوجته كافرة، وهلك مع قومه الكافرين الهالكين، بل ذكرت أنه أمر أن يدخل مع قومه الكافرين الهالكين، بل ذكرت أنه أمر أن يدخل زوجته السفينة مع من دخلها من المؤمنين، فدخلت ونجت، وهذا ليس دليلاً على أن نوحاً لم تكن له زوجة كافرة... لاحتمال أنه كان له زوجتان، إحداهما كافرة هلكت، والأخرى كانت مومنة نجت...

3 - إن القرآن لم يتعرض لعموم كل الأرض بالطوفان، والتوراة تعرضت لذلك، ونصت على أن الأرض قد علاها الماء خمس عشر ذراعاً، وباد كل ذي حياة من إنسان ووحش وطير وذبابات على وجه الأرض، والقرآن لم يذكر إلا إغراق قوم نوح وامراته، وأنه جعل ذريته هم الباقين.

### قصة الطوفان في الأدب العربي :

ليس في الكتاب الكريم، بعد ذكر التكوين، واقعٌ أخطر من الطوفان في عهد نوح؛ ولا شك أن عرب الجاهلية نقلوا الخبر عن أهل الكتاب، ولا سيما النصارى، منهم الأعشى الكبير حيث قال يمدح إياساً، ويشبّهه بنوح في صنع سفينته (3) :

جزى الإلاه إياساً خير نعمته  
كما جزى المرء نوحاً بعد ما شابا

(3) «شعراء النصارانية» ص : 389.

في فلكه، إذ تبذرها ليصنعها  
وظل يجمع ألواحها، وأبوابها(4)

ومنهم أمية بن أبي الصلت، روى الجاحظ له في كتاب الحيوان،  
والمقدسي في كتاب «البدء» أبياتاً منها قوله يذكر نجاة نوح وأهله، وحلوله  
على جبل الجودي الذي فوقه نزلت سفينته على ما قال العرب :

إلى أن يفوت المرء رحمة ربّه  
وإن كان تحت الأرض سبعون واديا  
كرحمة نوح، يوم حلّ سفينة  
لشيعته، كانوا جميعا، ثمانيا  
فلما استنار الله تنور أرضه  
فقدار، وكان الماء في الأرض ساحيا  
ترفع في حبري، كأن أطيطة  
صريف محال، يستعيد الدواليبا  
على ظهر جوف لم يعد لراكب  
سراه، وغيم البس الماء داجيا  
ومثلها قوله :

منجي ذي الخير من سفينة نوح  
يوم بادت لبنان من أخراها  
فارتنوره، وجاش بماء  
طم فوق الجبال حتى علاها  
قيل للعبد سر، فاسر وبالله  
به، على الهول سيرها وسراها  
قيل : فاهبط، فقد تناهت بك الفلـ  
ك على رأس شاهق مرساها...

---

(4) «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية» القسم 2 ص : 261، للأب لويس شيخو اليسوعي.

## الماء، لضبط وقياس الزمن

كان سكان الريف، قديما، وفي دنيا الماضي السحيق، لا يحتاجون إلى مثل هذه الآلات الساعاتية التي أصبحت في متناول الجميع، يستعملونها لضبط الوقت، وقياس الزمن... فقد استغنوا عنها قرونا طويلة، وأماذا بعيدة... لأن الطبيعة الخلابة حبتهم بشدو الطيور، وزقزقة العصافير، وتغريدها في ساعات معينة طرفي النهار وَزُلْفَى من الليل...

وقد كان الفلاحون في القديم يبدأون كفاحهم اليومي وسط المروج الممرعة، والروابي الخضراء، والحقول الخصبة، والزهور الجميلة، والرياحين ذات العطر والشذا، التي تنفتح وتنغلق في مواقيت معينة، وساعات منتظمة أَلْفُوهَا، واعتادوا عليها أحقابا وأزماناً... هَذَاهُمْ إليها الصانع القادر الحكيم، فاستطاعوا من خلال هذه الظواهر الغريبة معرفة الزمن، وتحديد الوقت، لضبط العمل...

«فما ترى في خلق الرحمان من تفاوت... فارجع البصر هل ترى من فطور...؟!» (1)

ولم يقتصر الإنسان على سماع شدة الطيور، وقوقأة الدجاج، ومشاهدة الزهور لتقدير الزمن... بل إن الصينيين القدماء قَدَّرُوا وقتهم، إن لم يكن أثناء الليل، فعلى الأقل من الفجر حينما ينشق عموده إلى أن تغيب الشمس في حواشي الأفق، بالتطلع إلى عيون القطط، فقد شاهدوا، ملاحظين، حدقة عيون الجنس الفليني تنكمش في ضوء النهار، وتمدد في ظلام الليل بانتظام عجيب مدهش... ففي الصباح تكون حدقة العين بيضوية، بعد أن كانت مستديرة أثناء الليل، فهي تنكمش وتقلص من

(1) سورة تبارك - الملك، الآية رقم 3 :

الصباح حتى الظهيرة إلى أن تصبح مجرد مستقيم أفقي، ولكنها تتحول تدريجياً بوضوح إلى شكلها البيضي من الظهر حتى المساء...

\*\*\*

والعجيب أن سكان الريف لم يكونوا في حاجة إلى مثل هذه الآلات التي نستخدمها اليوم، لأن أعمالهم لم تكن تتطلب الدقة والضبط كما هو المطلوب اليوم، فقد استغنوا عنها قروناً طويلة... فالطبيعة البديعة عوّضتهم بتغريد الطير، وشدو العصافير، وهديل الحمام في ساعات منتظمة...

\*\*\*

إن اليوم والشهر والفصل والسنة تقسيمات طبيعية للزمن من صنع العلي القدير، استنبطها الإنسان - بقوة فضوله وملاحظاته - من تلك المشاهدات الفلكية التي يحيط بها هذا الكون الرحيب، كحركة الشمس، والكواكب السيارة في أفلاكها، وأوجه الأقمار والنجوم في مسارها ومسالكها، وهذا فضل من الله عظيم... ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ، فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. (2) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ، وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

\*\*\*

وبعد قياس الزمن بضياء الشمس والظلال أثناء النهار، شعر الناس بحاجتهم إلى وسيلة لمعرفة الوقت أثناء الليل، والأيام الملبدة بالسحب والغيوم صنعوا الساعات المائية والرملية...

فكيف استطاع الإنسان القديم أن يصل إلى هذه الكشوف؟ وكيف وصل اليوم إلى قياس الدقائق والثواني وأجزائها؟ بعد أن كان يقدر الزمن باليوم

---

(2) سورة يس، الآية رقم : 38 - 40.

أو نصفه أو رבעه أو ساعاته عن طريق الظلال، أو تسرب الماء، أو نزول الرمال، أو احتراق الشموع؟

\*\*\*

### أفلاطون أول من اخترع الساعة المائية :

إن أفلاطون هو أول من اخترع الساعة المائية، وكان لها صوت يوقظه في الصباح،<sup>(3)</sup> ويقول المؤرخون بأن الساعات المائية كانت قد نشأت، أصلاً؛ في مصر، وكان الإغريق والرومان، يطلقون عليها اسم «كليبسيديرا» Clepsydra أي الساعة المائية، ويستخدمونها في تحديد الخطب التي تلقى في ساحات المحاكم، وهي فكرة وجيهة، حبذا لو طبقت اليوم...

ومن هذا الاستخدام للساعات جاءت عبارات : «يحافظ على الماء»، To goc Water، «يضيع الماء» To waste Water، التي تشير إلى الخطباء الذين كانوا يحافظون على الوقت، أو يضيعونه...<sup>(4)</sup>

فالساعة المائية شاعت عند الكلدان والهنود، فهي كالساعة الرملية، بإبدال الرمل بالماء، وكانت أقل دقة منها، لأن اختلاف الجو برداً وقيظاً، كان ينقص معدل الماء...

واشتهر في تلك العصور كثيرٌ من المهندسين العرب الذين تخصصوا في صنع الساعات، وكانوا يديرون آلاتها بواسطة الماء، إلى أن جاء ابن الشاطر (ت : 777هـ) المهندس الدمشقي فسعى في ترقيتها، وتوصل لجعلها صغيرة الحجم بالنسبة لغيرها من الساعات، وأصبحت تعلق على الجدران، ولا تحتاج آلاتها إلى الماء، فكانت أقرب ما تكون إلى الساعات المستعملة اليوم.

\*\*\*

---

(3) يوجد كتاب «ساعات آلات الماء التي ترمي بالبنادق» وهو مقالة «لارشميدس».. - «كشف الظنون» ج : 2، ص : 1423.

(4) طومسون كينج ص : 146.

وهكذا اهتم المسلمون بآلات تحديد الوقت، فاستقادوا مما كان موجودا من العلوم السابقة بهذا الخصوص، وطوروا وابتكروا ما يناسب حاجاتهم، وذكر الإمام أبو حامد الغزالي كيفية «المنجانة» بأوعب ما يكون في كتابه: «المقصد الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى»، عند شرحه لاسم الله: «الحكيم»... (5)

ومهما تعددت أساليب قياس الوقت، فإن الأجهزة المستعملة كانت بحسب نظامين :

- 1 - الساعات الزمانية : وهي تقسيمات تتماثل من حيث العدد لا الفترة الزمنية التي تقيسها بالمقارنة مع بعضها.
- 2 - الساعات المستوية، وهي التي تقيس ساعات منتظمة مثل ساعتنا.

وساعة ابن الهيثم، (6) تختلف عن عدد كبير من الساعات التي شرحها من عمل في هذا المجال، لذلك خصها : الخازن، في «ميزان الحكمة» بالذكر، حيث قال : إن أحد المعاني التي لا يستغنى عنه في معرفة الأوقات، وفي تقدير الحركات، وتحصيل أجزاء الزمان، هي آلات الماء والرمل التي يستخرج بها مقادير الساعات، وقد عملها الناس عمل صور كثيرة، إلا أنها تخرج الساعات والأجزاء الكبار من الساعات، وليس في جميع ما يخرج أجزاء الساعات الواحدة التي هي مساوية لأجزاء الفلك إلا «البنكان» الذي ذكرها ابن الهيثم... (7)

---

(5) الجزائى ص : 53 - ولأبي عمر محمد بن عبد الواحد غلام ثعلب (ت : 345هـ) «كتاب الساعات [كشف الظنون ج : 2، ص : 1423].

(6) مخطوط لم ينشر لأبي علي بن الحسن ابن الهيثم أحد الثلاثة الأعلام الأفذاذ من علماء النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، وهم البيروني وابن الهيثم وابن سينا...

(7) الخازن، عبد الرحمن، «ميزان الحكمة» ص : 4/153.



ويسمى المخطوط : «رسالة في البنكام» (8) والبنكام أو البنكان، أو المنجانة بلسان عرب المغرب مصطلحات يقصد بها الساعة... (9) ويحتل المخطوط المذكور الصفحات من (138 - 140)، وهو مكتوب بِحَبْرٍ قهواني بسطور متراسة مزدحمة الكلمات... وقد قدمه الأستاذ «معمر أولكر» مدير مكتبة مخطوطات السلیمانیة بإسطنبول... (10)

\*\*\*

### تركيب الساعات المائية :

تتركب الساعات المائية التي عرفها المصريون واليهود والبابليون والإغريق والرومان قبل التاريخ المسيحي؛ كما وصفها أثينا في ذلك العصر، من أنية فخارية أو معدنية تملأ بالماء، ثم تعلق في كوة خاصة غير نافذة، وتوضع في جوار الأنية بالقرب من قاعها أنبوبة رفيعة يتسرب منها الماء قطرة قطرة، ويتساقط، في إناء آخر مقسم إلى أقسام تبين الوقت.

وقد كان العيب الأكبر في دقة هذه الساعات هو تناقص معدل التدفق كلما هبط الماء... ويمكن تصحيح هذا العيب بإضافة الماء حتى يحتفظ بمستوى ثابت، وقياس الماء المنصرف، أو بجعل المقطع العرض للإناء أكبر في قمته منه في قاعه، وهو الحل الأنسب...

- 
- (8) يعني الصور والأشكال المصنوعة لمعرفة الساعات المستوية والزمانية، ولفظ «بنكام» فارسي معرب، والبنكام، تنقسم إلى رملية، وإلى بنكامات مائية (ج : 1/ ص : 255 كشف الظنون).
- (9) يراجع كتاب : «مقدمة لعلم الميكانيك في الحضارة العربية» للأستاذ ماجد عبد الله الشمس ص: 49 - 50، وقد نشر الأستاذ ماجد المخطوط كاملاً في مجلة «النقط والتنمية» في العدد الخاص «عن التنمية في العراق عبر العصور» عدد : 7 - 8 مارس 1981.
- (10) ومن الكتب المصنفة في علم «البنكامات» : «الكواكب الدرية، والطرق السيئة، في الآلات الروحانية في بنكامات الماء» للعلامة تقي الدين الرّاصِد.

وبعد انتهاء اليوم، جمعوا الماء، وقسموه إلى 24 جزءاً، ثم قاسوا الجزء الواحد، فكان مجموع الماء الذي ينزل في ساعة... صنعت، أيضاً ساعة أفضل منها، إنها الساعة المائية الدقاقة التي أهداها الخليفة العباسي هرون الرشيد إلى شارلمان كما سيأتي...

وكانت هناك ساعة مائية في الأسكندرية حوالي عام (135 ق.م) تدور بواسطة عجلات مائية تحرك شاخصاً صغيراً، يحمل مؤشراً يشير به إلى الساعات المكتوبة، فوق مقياس مدرج...

وفي عام 1904 عثر الأثريون على ساعة مائية تشابه هذه الساعة إلى حد بعيد في «مقابر الكرنك» وهي معروضة بمتحف القاهرة، بعد ترميمها وإعادة ترميمها إلى حالتها الأصلية... وتعتبر هذه الساعة الفرعونية، تحفة رائعة نادرة في الفن، وهي عبارة عن إناء من «الالبستر» على شكل مخروطي ناقص قطر قاعدته الصغرى 23 سنتمتراً، والكبرى 6.44 سنتمتراً، وارتفاعه 6.30 سم، زخرف سطحه الخارجي بزخارف بديعة بالأحجار الملونة والكتابة الهيروغليفية، وقسم الارتفاع حول المحيط إلى ثلاثة أقسام متوازية، وقد جُزئ القسم السفلي، منها إلى ستة أجزاء يحوي كل منها شهرين من شهور السنة، رسمت على القسم الأوسط نقوش تدل على أيام الأسبوع... أما القسم العلوي، فنقشت عليه الكواكب والنجوم الثابتة في أبراجها لتحديد موضع الشمس خلال السنة كلها... وحافة الساعة بارزة مقسمة حول محيطها الدائري إلى أقسام توضح شهور السنة مرتبة حسب الفيزيانات العالية، ونقشت على محيط الجدار من الداخل منحنيات تبين الزمن في الأيام القصيرة والطويلة سواء أكان ذلك شتاءً أو صيفاً...

\*\*\*

## عناية الكتاب التاسع بالساعات المائية :

عني الكتاب التاسع لفترفيوس بالمزاول أو الساعات المائية، ولم يعثر على نص يوناني لكتاب «فيلون» (11) في «الحيل الروحانية، وميخانيقات الماء» إلا بالعربية، الأمر الذي يؤكد أنه كان لدى الأمم السابقة اهتمام بمسألة الوقت وتحديده من جهة، وأن العرب قد اطلعوا عليها من ناحية أخرى... (12)

\*\*\*

## عرب الجاهلية.. واهتمامهم بأمر التوقيت...

اهتم عرب الجاهلية بأمر التوقيت لعوامل تتعلق بشؤون حياتهم اليومية، فالزراعات فرضت عليهم الالتفات إلى تقلبات الجو، كما أن الأعياد، وأمور العبادة، جعلت رجال الدين في المعابد والكهان يقومون بضبط الوقت اعتماداً على الفلك والنجوم والأنواء، ويبدو أن تحديد الزمن بواسطة الآلة، مكن عرب الجاهلية في تسمية كل ساعة من ساعات النهار الأربع والعشرين باسم خاص، فساعات النهار هي الذرور، والبزوغ، والضحي، والغزاة، والهجرة، والزوال، والدلوك، والعصر، والأصيل، والصبوب، والحدود، والغروب، وساعات الليل هي : الشاهد، والغسق، والعتمة، والفحمة، والموهن، والقطع، والجوشن، والعبة، والتباشير، والفجر الأول، والمعترض، والإسفار. (13)

وقد تحدث عبد الرحمان بن عيسى الهمذاني في كتابه، (14) عن ساعات النهار وساعات الليل، فقال حكاية عن تسمية العرب : يقال لأول ساعة من النهار الصباح ثم البكور، قبل طلوع الشمس، ثم الغداة بعد طلوعها، ثم

(11) «فيلون» Philon. (20 ق.م - 54م) ولد في الإسكندرية؛ فيلسوف يهودي، حاول أن يفصح عن معتقده الديني مستعيناً بتعابير الفلسفة اليونانية. كان يكثر استعمال الطريقة الرمزية، له تأثير على آباء الكنيسة الشرقية.

(12) جواد علي : «المفصل، في تاريخ العرب قبل الإسلام» 469/8، ابن سيده : المخصص 44/9.

(13) «أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب» مقالة، علم الميقات لدافيد كنج - 391.

(14) «الألفاظ الكتابية» ص : 287 - 288.

الضحى، ورأى الضحى، ثم الإشراق، ثم الضحاء، ثم الشروق، ثم الزوال والجنوح، ثم الهاجرة والهجيرة ثم الظهيرة، ثم الرواح بعد ذلك، ثم الأصيل، ثم المساء بعد ذلك، ثم العصر والقصر، ثم الطُفول والطفّل، ثم العشيّة، وهو آخر ساعة من النهار...

ويقال لأول ساعة من الليل : الشفق، وهو وقت صلاة المغرب، ثم العشاء بعد ما يغيب الشفق، ثم العتمة بعد ذلك (إذا اشتدت ظلمة الليل، وهدأت العيون) ثم السَّحَرَة بعد ذلك، ثم الغلس، ثم التنوير بعد الصلاة... وقد اشتق من هذه الكلمات الدالة على ساعات الليل والنهار، أفعال استعملوها في تعابيرهم، فيقول : غَلَسَ القوم، إذا ارتحلوا في وقت الغَلَس، وغَلَسْنَا في الخروج، وبَكَرُوا، وأَبَكروا، إذا ارتحلوا بُكْرَة، وغدوا : إذا ارتحلوا بالغداة، وأضحوا : إذا خرجوا وقت الضحى، وراحوا : إذا ارتحلوا بالرواح، وظهروا : إذا ارتحلوا وقت الظهيرة؛ وهجروا وتهجّروا : إذا ارتحلوا وقت الهاجرة...

وهكذا فرضت ظاهرة شروق الشمس وغروبها على الإنسان القديم فترات زمنية معينة نظم وفقها حياته، فعمل في النهار، وسمى له ألفاظا دالة استمدها من حركات الشمس، ونام في الليل، وسمى له ألفاظا استمدها من حركات النجوم أو ظهور القمر، أو للقيام في جنح الليل لعمل أو لأداء العبادة...

### كيف تسير هذه الساعة المائية؟

تسير هذه الساعة المائية على النظام التالي :

يملاً الوعاء بالماء كل ليلة؛ فيتسرب بحساب دقيق من ثقب رفيع بالجدار بالقرب من القاع... وينخفض منسوب الماء داخل الوعاء مبينا الوقت بواسطة التقسيمات الهندسية الداخلية التي أشرنا إليها، والتي تبرهن على غزير علم، ومعرفة بالأرصاد الفلكية...

ولقد أُدخِلَتْ على الساعة المائية تعديلات متتالية : فصنع «ارشميدس» (15) ساعته المشهورة المحتوية على تروس هيدروليكية لأول مرة، كما صنع «كتسيابيس» في الإسكندرية عام (150 ق.م) ساعته المائية التي طبق عليها نظرية «الأواني المستطرقة» المعروفة في علم الطبيعة لأول مرة... وكان ملك الفرس «شاهبور» الأول (241 - 272) يملك ساعة مائية عظيمة مصنوعة من زجاج الكريستال حتى إنها كانت مضرب الأمثال من ناحية الفن الزخرفي في عصرها...

وقد أشار الكاتب الإغريقي «بليتارك» (16) Plutarque (145 و 50 - 125) الذي كان من حكماء اليونان ومؤرخيهم، في بعض كتبه إلى آلة «هيدروليكية» تشابه ساعة الإسكندرية، وذكر «يوليوس قيصر» عندما تحدث عن بلاد الإنجليز أنه شاهد هناك عددا كبيرا من الساعات المائية...

وتحدث الجيزويت الفرنسيون والأسبان قبل التاريخ المسيحي عن الساعات المائية التي شاهدها في بلاد الصين واليابان والجزر المجاورة... فالساعة المائية عرفت قبل مولد عيسى عليه السلام... بمائة عام على الأقل، واستخدمت في جميع الأمم المتحضرة، وتعددت أشكالها وأنواعها في عصر، «بومباي» لدرجة أنها كانت تعد من قطع الأثاث الضرورية في كل منزل...

\*\*\*

---

(15) أرشميدس Archimède (278 - 212 ق.م) ولد وتوفي في صقلية. عالم يوناني له الاكتشافات العديدة، والقانون المعروف باسمه.

(16) بلوتارك Plutarque، من حكماء اليونان ومؤرخيهم، تعلم في «أثينا»، رحل إلى آسيا، ومصر، وسوريا، له : «سير الرجال العظام».

## ساعة هارون الرشيد المائية :

لا نستطيع التحدث عن آلات الزمن التاريخية دون ذكر الساعة المائية التي أهداها هارون الرشيد إلى الملك «شارلمان» Charlemagne (742 - 814) ملك الإفرنج، وإمبراطور الغرب وأول من بسطَ حمايته على الأرض المقدسة، لأنها تعد من أشهر الساعات التاريخية التي ما زال الناس يذكرونها إلى الآن، كلما تحدثوا عن الساعات... وتعتبر ساعة هارون الرشيد كأحدى عجائب الصناعة لدقتها، وفخامة روعة زخارفها... وقد وصفها كاتم سر الملك شارلمان وصفا جذابا، فقال : «إنها مصنوعة من النحاس الأحمر المطلي بالذهب، بها عدة تروس، وإنها تبين الوقت على ميناء، وتدق الساعات على جرس عند سقوط كرات صغيرة من الحديد يساوي عددها عدد الساعات التي تدقها، ويبينها المؤشر، وإن بها اثنتا عشر نافذة تفتح من تلقاء نفسها عند الدق، ويخرج من كل نافذة فارس يتحرك حركة عسكرية حول نفسه، فيعود مرة أخرى، فيختفي داخل جهاز الساعة».

وظن الناس من عجبهم أن فيها شيطانا يحركها، ويأتي بهذه الأعاجيب، وعقب ظهور هذه الساعة العجيبة، قام أحد الكهنة بفرنسا بعد ذلك بسنوات قليلة بتقليد ساعة مشابهة لها، ولكنها كانت أكثر عظمة ودقة من كل الساعات المائية التي صنعت حتى ذلك الحين... فكانت تبين الوقت والشهور وأيام الأسبوع وأوجه القمر والظواهر الفلكية الأخرى، ولم يكن ينقصها سوى الثقل المحرك...

وهكذا تعد الساعة التي أهداها الخليفة هارون الرشيد إلى شارلمان، وساعة المسجد الأموي بدمشق تحفا علمية غاية في الدقة، وقمة في الصنعة... ومن صانعي الساعات العرب المشهورين نذكر ابن الشاطر، (17)

(17) علاء الدين بن الشاطر، موقت بالجامع الأموي بدمشق (ت : 1375م) ألف عدة كتب في الفلك منها : «مختصر في العمل بالأسطرلاب، ورُبِعَ المقنطرات، وربيع المجيب» مخطوط في لندن.

ومحمد بن نصر القسرواني، والمهذب بن النقاش، وأبا العز الجزري المعروف.

\*\*\*

هكذا ظلت الساعات المائية الآلات الوحيدة التي استعملها القدماء لقياس الزمن في أرسادهم الفلكية بجانب مراقبة النجوم ورصدها، ولم تكن تلك الساعات تحقق رغبة علماء الفلك، لقصور دقتها، فراحت هي الأخرى في ذمة التاريخ، بعد أن استخدمت 700 سنة منذ عصر «بومباي» حيث لم يحدث أي تطور في آلات قياس الوقت طوال هذه الحقبة من الزمن...

وقد استمر استخدام الساعات المائية في بعض البلدان حتى اكتشف «جاليليو» (18) أن الوقت الذي يستغرقه بندول ذو طول معين لإكمال ذبذبة يكون ثابتاً، سواء أكانت الذبذبة طويلة أم قصيرة... وأدت هذه المعرفة إلى ضبط الساعات التي تدور بالأشغال أو الزنبرك بطريقة دقيقة يمكن الاعتماد عليها.

\*\*\*

إن الساعة المائية التي صنعها البابليون كانت أحياناً غير دقيقة، وذلك لتأثرها بالرياح وحرارة الجو وبرودته... فابتكروا الساعة الرملية، وهي عبارة عن وعاءين يتصل أحدهما بالآخر من خلال فتحة ضيقة تسمح بمرور قدر معين من الرمال... وهذا الرمل يمر خلال مدة زمنية معينة... ولعل من أبرز وظائف الساعة المائية اتخاذها كأداة لتنظيم، وضبط الفترة التي يتراجع فيها المحامون أمام القضاء، أو يخطب فيها السياسيون في الاجتماعات حيث كان يراقب الساعة المائية ضابط يوزع الزمن

---

(18) غاليليو Galileo (1564 - 1642) أحد كبار علماء زمانه بالحساب والفلك والفيزياء، من مخترعاته «ميزان الحرارة»، اكتشف حركة دوران الأرض حول الشمس.

بالقسط بين الناس تحقيقا للعدالة، وكان المحامون في ذلك العصر يحتجون قائلين : «إن الماء يتسرب بسرعة، وأنهم تحت رحمته». ولم يكن حراس الساعة المائية بعيدين عن الشك والشبهات، وقيل إنهم تحايّلوا، وتلاعبوا لإطالة أو اختصار الوقت المحدد للمرافعات حسب أهوائهم، واتسعت الاتهامات الموجهة إليهم بعد المظالم التي كابدها الناس، ويؤسوا من الإصلاح يوم رأوا أن «شيشرون»<sup>(19)</sup> لم يتحدث أكثر من نصف ساعة للدفاع عن «رابيربيس»، بينما تمكن الادعاء من توجيه اتهاماته إلى «مليون» أكثر من ساعتين...

وجدير بالذكر أن الألمان قلّدوا ساعة الاسكندرية المائية لطرافتها، فشاهد الزائرون بالمتحف الوطني الألماني «بمونيخ» هذه الساعة المائية المقلدة، كما أن الكثيرين من رواد حدائق «مونت بينيسيو» الشهيرة بروما يعرفون ساعتها المائية التي تؤدي عملها إلى الآن...

\* \* \*

### ساعات مائية مغربية :

لقد عرفت كثير من الأقطار، قديما، الساعات المائية، واستعملتها لضبط أغراضها، وتحديد مواقيتها... وكان المغرب بين تلك الأقطار، أكثر استعمالا لهذا النوع من الساعات المائية...

ومما تجدر الإشارة إليه أن المرينيين، وجهوا عناية خاصة لمشاكل المياه، سواء كانت بقصد المنفعة، أو للزخرفة، إما في داخل مبانيهم الخاصة، كالبرك والأحواض والصحاريج وغيرها، وإما للعموم كالمساجد والصوامع والمدارس والنواعير والنافورات... وفي إمكاننا أن نشاهد، حتى

---

(19) شيشرون : Ciceron ( 107 - 43، ق.م) من رجال السياسة في روما، ومن أفصح خطبائها، من أشهر خطبه، الدفاع عن ميلو، وعن مورينا، والطلب بمحاكمة كاتيلينا.



الآن، آثار بعض هذه الساعات في بعض شوارع مدينة فاس، أو في غرفة بصومعة جامعة القرويين..

فنهاك ساعة مائية بمدينة فاس، وبالمدرسة البوعنانية تأسست هذه الساعة المائية عام 1357م وبما أنها تعتبر من قديم الزمان ساعة مصلصلة تبرز مميزاتا فيما يلي : فهذه الساعة المائية لها ثلاثة عشر من الأجراس الموضوعه على الحوامل، ولها اثنا عشر من النوافذ الموضوعه تماما فوق بين الحوامل... ويلاحظ أن أجهزة الإرسال تركت آثارا مرئية... ويقال بأن الأشغال قائمة على قدم وساق، اليوم، من أجل إصلاح وترميم الجبس والخشب المنقوش...

وقد اقترح المهندس الأستاذ عبد الهادي لحلو مشروعا لاستخدام الساعة المائية بالمدرسة البوعنانية بمدينة فاس، وذلك بالتعرض إلى طريقة جديدة تعتمد على تحويل الطاقة المائية إلى طاقة آلية (ميكانيكية) بدون استعمال طاقة تكميلية، مع إمكان استغلال بعض الأدوات التي كانت موجودة في عصر المرينيين... وسيصدر الماء من مجرى يكون محله في دار المكانة، ومزود مباشرة من واد فاس...

وتمتاز الساعة المائية التي بجامع القرويين نسبيا عن غيرها بخصائص خاصة، وقد تم صنعها عام 1317م، ويبلغ طولها ثلاثة أمتار، وعلوها ستون سنتم، وهي مصنوعة من خشب الأرز المنقوش والمصبوغ، وتقع في قمة صومعة القرويين، وتتركب من أجهزة تتصل بأربعة وعشرين باباً، ولها جرس لإعلان كل ساعة من اليوم، ثم إن طريقة عمل هذه الساعة المنقولة عن المخطوطات اليونانية المحفوظة في خزانة الإسكندرية بمصر، ماثلة لطريقة الساعات المائية في أثينا وروما، ويمكن وصفها كما يلي :

يجذب الماء الصادر من خزان، فتحة الأبواب بارتباط مع السلسلة، والتي تحدث دويا للأجراس والوقت هو وظيفة الأبواب المفتوحة والذي تعلنه الرنات المتعددة...

\* \* \*

وفي أيام الفقيه الخطيب أبي عبد الله محمد بن أبي الصبر أيوب بن يكنول، عمل المعدل أبو عبد الله محمد بن الحباك بدنا من فخار بالقبة العليا، وفيه الماء، وجعل على وجه الماء طنجيرا من نحاس فيه خطوط وأنقاب، ويخرج منها الماء بقدر معلوم إلى أن يصل للخطوط، فتعلم بذلك أيضا، أوقات الليل والنهار في أيام الغيم ولياليها، وذلك في عام 686هـ.

وقد وصف علي الجزنائي في كتابه (20) : ساعة مائية بمدينة فاس صنعت بغرفة لمعرفة الأوقات، فإن الشيخ المعدل أبا عبد الله محمد بن عبد الله الصنهاجي النطاع أحدثها هناك، ورسمها له أبو عبد الله محمد بن الصدينية «القرطسوني»، وتطوع بعض المسلمين بالإنفاق فيها عام 717هـ وذلك أنه جعل في ركن الغرفة عن يسار المستقبل جبعا من خشب الأرن، وجعل في داخله بدنين كبيرين من فخار أحدهما أعلا من الآخر، وجعل الماء في الأعلى منهما، وبأسفله أنبوب من نحاس مموه بالذهب، محكم العمل يهبط منه الماء في البدن الأسفل بقدر معلوم، وجعل جوف الجبع مغطسا، ورسم في جانبي التفطيسة بروج الأفلاك والأشهر العجمية والساعات ودقائقها، وجعل في الوسط مسطرة رسم فيها أيضا الساعات ودقائقها، وأوقات الليل والنهار، وجعل المسطرة معلقة في خارج من الجبع يجري في حفر التفطيسة المذكورة طالعا وهابطا، وجعل على وجه الماء الذي يجتمع في البدن الأسفل جسما مجوفا من نحاس على هيئة الأترجة معلقا في الطرف الذي يلي من الغلور، فإذا طلع الجسم بطلوع الماء الذي

---

(20) «جنى زهرة الآس»، ص 51.

يجتمع في البدن الأسفل، طلع طرف الغلور الخارج من التفطيسة، وطلعت بطلوعه المسطرة، وكلما طلعت بطول الأزمان ظهر فيها الوقت المطلوب، فإذا تم النهار واللييلة المقبلة له رد الماء من البدن الأسفل للبدن الأعلى، وعلق المسطرة كما كانت...

وقد غفل عن ذلك... إلى أن تقدم للنظر في الأوقات، والرعاية للمؤذنين أبو عبد الله محمد بن محمد بن العربي رحمه الله عام 747هـ، فجدد «المنجاة» المذكورة على وجه أتقن من الوجه الأول، ولم يزل يجتهد في ذلك صدر إيالة المتوكل ابن عنان رحمه الله، فأكثر الاجتهاد في خدمته، وجعل خارج الجبح المذكور، تجاهه المستقبل له دائرة، وعليها شبكة، كشبكة الأسطربلاب، ورسومه تدور متى طلعت المسطرة المذكورة، ويعرف بها أيضا أوقات الليل والنهار... وأعد هناك، أيضا، رمليات لاختبار الأوقات وجملة اسطرلابات، موقف ذلك على من يستعمله، وينظر فيه أجزاء الليل والنهار...

وحكى أن السلطان أبا عنان بن أبي الحسن المريني صعد الصومعة، ليعتبر في المدينة وترتيبها... ووقف على «المنجاة»، وما اتصل بها، فاستحسن ذلك، وأنعم على الناظر فيها بمرتب، وسع عليه ليستعين به على القيام بشعائر الإسلام، وذلك في عام 749هـ، ومما قيل في مثل هذه المنجاة :

روح من الماء في جسم من الصفر  
مولد بلطيف الحـذق والنظر  
مستعبر لم يقف عن عينه سكن  
ولم يبت من ذوي ضعن على حذر  
وفي أعاليه حسابان يفصله  
للناظرين بلا ذهن ولا فكر

إذا بكى دار في أحشائه فلن  
خاف المسير، وإن لم يبك لم يدر  
مترجم عن مواقيت يخبرنا  
بها، فيوجد فيها صادق الخبر  
نقضي بها الخمس في وقت الوجوب، وإن  
غطى على الشمس ستر الغيم والمطر  
محدد كل ميقات تخبره  
ذوو التمييز للأسفار والحضر  
ومُخْرِج لك بالأجزاء أطفها  
من النهار وقوس الليل والسحر  
نتيجة العلم والتفكير صورته  
يا حبذا بدع الأفكار في الصور(21)

وأجزم أن هذه القصيدة الأخيرة... برمتها مأخوذة من قصيدة للشاعر  
كشاجم في وصفه البنكام، يقول في مطلعها :  
روح من الماء في جسم الصُّفْرِ  
مؤلف بلطيف الحسِّ والنَّظْرِ  
تَنَشَّأَلُهُ حركاتٌ في أسافله  
كأنها حركاتُ الماء في الشجر(22)

\*\*\*

(21) جذوة الاقتباس ص : 1/55. - ولأبي علي الحسن المراكشي (ت: 660 - 1262) مصنف هو :  
«جامع المباديء والغايات، إلى علم الميقات» يتحدث فيه عن التوقيت وفي صنع الساعات  
الشمسية، أي المزاويل [كراتشكوفسكي ج 1/113].  
(22) الديوان ص : 243. وانظر : العمدة لابن رشيق ج : 2 / ص : 1069.

ومن المهم أن نسمع في هذا الصدد أن الساعات المائية لم تقتصر على القواعد المغربية ولكنها تجاوزتها حتى إلى المدن الصغيرة بل إلى الأقاليم الصحراوية حيث نجدها تستعمل لضبط المياه على الواحات والحقول. وهكذا وجدنا مثلاً في مدينة «فكيك» اثنين وثلاثين ساعة مائية تتكون - على نحو ساعة ابن الحباك في جامع القرويين - من حوض مليء بالماء يطفو على سطحه إناء في شكل نصف كرة من النحاس، على حجم معين يوجد في أسفله ثقب يتسرب إليه الماء قليلاً قليلاً حتى إذا امتلأ وقع في الحوض.. وحينئذ تنتهي الساعة التي تسمى في اصطلاح المنطقة «الخروبة»، وهي كما نرى تعتمد على قياس الماء بالزمن لا بالحجم كما نجده مثلاً في المناطق الصحراوية الأخرى.

\*\*\*

### ساعات مائية في القطر السوسي :

وكما في عهد المرينيين كان إلى عهد قريب، وبالقطر السوسي في المغرب ساعات مائية رومانية، لعلها من بقايا الآثار الرومانية عند السوسيين... وقد قص علينا خبرها المرحوم الأستاذ محمد المختار السوسي في كتابه (23)، وذلك أنه في سنة 1345هـ وهي سنة جوع وقحط في سوس، نزل الأستاذ المختار في «تيمولاي العليا» وأطلق له القائد من أملاكه الواسعة هناك ثلاثة وعشرين بستاناً و 175 طاسة ماء لتسقى بها البساتين، والمقصود بالطاسة : نصيب خاص من الماء، والعادة عند غالب أصحاب العيون الجارية في سوس أن يقسموا مياهها ستين قسمة متواطئاً عليها، بين الليل والنهار، وتوازي ستين طاسة بحيث لا تزيد ولا تنقص على أربع وعشرين ساعة، وهي التي في الليل والنهار - والطاسة هي التي

---

(23) المعسول : ج : 20، ص 152.

يكون بها ميزان الماء، وهي إناء صغير مصنوع صنعا خاصا من النحاس، فيثقب قعرها ثقباً صغيراً، فتجعل في سطل ماء، فيتسرب الماء من الثقب من أسفلها شيئاً فشيئاً حتى تمتليء، فتغطس في ماء السطل، فهي الطاسة الواحدة وعلى مثلها قسمت الساعات الستون المتواضع عليها التي يقسم عليها الماء بين الليل والنهار، فيجتمع الناس دائماً بالمناسبة في مكان خاص معلوم عندهم ليلاً ونهاراً، وهو مجتمع أهل القرية الدائم، فكلما امتلأت الطاسة يصرخ الصارخ بذلك... فيسمعه من يسقي بالماء في الحقول، فيعلم أن الطاسة قد انقضت، فإن انقضى مأؤه، يبادر من تليه نوبته، فيميل الماء من أعلى المجرى إلى حقوله أيضاً... وهكذا دواليك، ثم تباع الطاسات وحدها وتشتري، فلكل إنسان طاسته أو طاسة واحدة أو نصف الطاسة أو ربعها، وقد وسم في وسط الطاسة داخلاً : النصف والربع بخطوط مستديرة محبوكة الصنع، فلكل نصيبه الذي في ملكه، وقد عم هذا العمل غالب سوس... وقلنا فيما سبق إن هذه الساعة المائية رومانية الأصل، وهي من بقايا الآثار الرومانية عند السوسيين، وفي رأس كل سنة يجتمع الناس ليجربوا الثقب في أسفل الطاسة، أبقى على حاله أم اتسع، فإن ظهر منه اتسع أصلحوه حتى يرجع كما كان، وهذه الطاسة تسمى (تَانَأْسْت) أي النحاسية، لأنها لا تصنع إلا من النحاس... والكلمة كما ترى عربية شلحت...

\*\*\*

لقد ألفت الناس الساعات، وسعدوا بها مع أنها تعد سويغات أعمارهم!! ولم يقنعوا بهذا، وشاؤوا الاستماع إلى توالي ساعات ليلهم، ولعلهم شاؤوا التخلص من مشقة التطلع إلى الساعات نهاراً، وقد أرهقتهم وألهتهم مشاغل الحياة فاخترعوا الساعات الدقاقة لتنبئهم بأنغامها عن الوقت، لأن العلم كلما تقدم، والفكر كلما ارتقى نمت الحضارة، وازدهرت المدنية، وعمّ

الترف، وما الساعات الدقاقة سوى سلسلة المحاولات والابتكارات التي قام بها الفنيون في صبر وَجَلَد، ولولاهم ما أحطنا بأسرار هذه المخترعات العجيبة التي تقع عليها أبصارنا أينما سرنا في كل مكان... ومعرفة الزمن عن طريق السمع فكرة قديمة، لأن الحاجة أم الاختراع، فقد صنع «أفلاطون» في أثينا (400 ق.م) ساعة مائية، تعلن الوقت ليلاً بأنغام الناي،... وكذلك فعل الصينيون، كما أهدى هرون الرشيد ساعته الدقاقة التي طبقت شهرتها الآفاق إلى الملك شارلمان، كما هو معروف.

\*\*\*

وأخيراً... وبفضل اكتشاف المعادن الجديدة صنعت ساعات ضد الماء «ووتر بروف» يستخدمها السباحون بكثرة، وتحرص المصانع على اختبارها اختباراً دقيقاً للتأكد من أن قطرة ماء واحدة لا تتسرب إليها، فتقضي عليها...

\*\*\*

وفي الأعوام الأخيرة، شوهد إعادة بناء ساعات الجَزْري بمناسبة المهرجان الإسلامي العالمي بالمملكة المتحدة، حيث جرى هذا المهرجان في أبريل عام 1976، وقد كانت اللجنة التي عهد إليها بأمر إعادة البناء، تتألف من د. دايفد توماس (متحف العلوم) والسيد فرانسيس ماديوس مدير «متحف تاريخ العلوم» بأكسفورد، والسيد ثورتون، والسيد هاوارد والدكتور «دونالدهيل» صاحب كتاب الساعات المائية العربية الذي صدر مؤخراً بالإنجليزية عن معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب - سوريا.

## الماء في.. المنام

دَلَّت المشاهدات والمُعَايَنَات والتجارب على أن لكل حُلْم يراه الإنسان في منامه، معنىً خاصاً.. ولكي يستطيعَ الحالمُ أن يفسرَ حُلْمه، وجب عليه أن يعرف دلائل المراثيات، ثم يربط بعضُها ببعض، وعندئذ يستقيم معنى ومغزى الحُلْم...

وليس كل إنسان يستطيع أن يفسر الأحلام تفسيراً حقيقياً، ولكن الذي يستطيع ذلك هو الذي منحه الله موهبة إلهية... وهذه الموهبة المولدية، فيها رؤية بَصَرِيَّة، وفيها إعلام لأُمُور غيبية يستطيع بها صاحبها أن يسلط روحه بطبيعتها على تفسير الأحلام، وأن يفسرها تفسيراً ملائماً ينطبق على الحقيقة، ويأتي بالغيبيات... وأما من ليس فيهم هذه الخواص المولدية، فكثيراً ما تكون أجوبتهم كاذبة...

\*\*\*

ومن أصحاب هذه الخاصية المولدية سيدنا محمد ﷺ، وكذا سيدنا آدم، وسيدنا يعقوب، وسيدنا يوسف، وكذا كثيرٌ من الصحابة، وذوي الفضل؛ وهذه الموهبة المولدية، قال عنها رسول الله ﷺ في حديثه الصحيح : «إن منكم محدثين، وإن منهم عمر» أي أن عمر يخبر بالأمور الغيبية، فالشخص الموهوب بتلك المزية الخاصة، والموهبة المولدية إن سلط روحه على أي أمر يمكنه أن يفعله، ويأتي بالغيبيات...

\*\*\*

والأديان السماوية تؤكد، بصفة زائدة، أن لبعض الرؤى والأحلام قيمةً تنبئية... فالتوراة والإنجيل والقرآن، حافلة بالرؤى ذات القيم التنبؤية،



والتحقيقات، الحتمية... ففي القرآن الكريم قوله تعالى : في دخول مكة، ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا، بِالْحَقِّ، لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ، وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (1) وفي قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ افْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾، «وهذا تأويل رؤيائي من قبل قد جعلها ربي حقاً» (2) وقال عليه السلام : «من لم يؤمن بالرؤيا الصالحة، لم يؤمن بالله، واليوم الآخر»؛ وقال ﷺ : «أصدقكم حديثاً، أصدقكم رؤياً»، وفي التوراة - سفر التكوين - الأصحاح السابع والثلاثون أخبار بحلم يوسف وقصته مع إخوته، كما هو معلوم...

\*\*\*

ويقول عليه السلام : «أعبر أمتي للرؤيا أبو بكر، وأسماء بنت عميس»، وفي الصحيحين ذكر مرأتي تقدم أبو بكر لتعبيرها، ثم سأل رسول الله عن تعبيره، فقال : «أصبت بعضاً، وأخطأت بعضاً».. وفي ترجمة أبي بكر من «تاريخ الخلفاء» للسيوطي، وكان الصديق غاية في علم تعبیر الرؤيا، وكان يُعَبِّرُ الرؤيا، في زمن النبي عليه السلام... وترجم في الإصاية لأسماء بنت أبي بكر، فقال : كان عُمَرُ يسألها عن تعبیر الرؤيا، ونقل عنها أشياء من ذلك، ومن غيره...

ومن شرح الشيخ زروق على الرسالة : قيل لمالك : أيعبر الرؤيا من لا علم له بها؟ قال : «أبالنبوة يلعب؟! قال جُسُوس : أي لأن النبي عليه السلام جعل الرؤيا من أجزاء النبوة، وقد أخذ ﷺ الحكم من مرأتي أصحابه، كما في رؤيا الأذان، ورؤيا ليلة القدر، وكل ذلك بناء على أنها وحي، كما أشار إليه القرطبي، ونقله الأبي...

(1) سورة الفتح : الآية رقم : 27.

(2) سورة يوسف : الآية رقم : 100.

وقال الشيخ أبو الحسن التازي عليها، فإن قيل، فالذي ينظر في الفروع التي وضعها من ألف في تعبير المنام كعلي بن أبي طالب القيرواني وغيره، فيجد نص من رأى، والجواب عليه قبل هذا كالمقلد في الفروع، ينظر نص المسألة وجوابها، وقد يغلط في التنظير(3)...

\*\*\*

والكتب المنسوية إلى ابن سيرين في علم تعبير الرؤيا من أهجى ما كذب على السلف، ولا يتصور من التابعين أن يكون هذا أول ما ألفوا فيه من أبواب العلم... والتصنيف إنما شاع بعد ذلك...

قال الشهاب المرجاني(4)، ألف فيه علماء الإسلام، أي علم التعبير، إبراهيم بن عبد الله الكرمانى، ثم صنف فيه علماء الإسلام، وأكثروا... ونسب الغالب منها، في زماننا هذا إلى ابن سيرين... ولما تكلم ابن القيم(5) على الذين أنكروا من السلف التدوين ما نصه : «وكان ابن سيرين وأصحابه لا يكتبون الحديث، فكيف بالرؤيا»، فإذا كان ابن سيرين لا يرى كتابة الحديث، فكيف يدون تعبير الرؤيا(6)، وفي طبقات ابن سعد عن الواقدي، وللحسين الخلال الحافظ كتاب : «طبقات المعبرين»، ذكر فيه خمسة آلاف وخمسمائة معبر من المشاهير الذين ضربوا في هذا العلم، وأخذوا منه بقسم، وجعلهم خمسة عشر قسما، الأول من الأنبياء، والثاني من الصحابة، والثالث من التابعين، والرابع من الفقهاء، والخامس من المؤلفين... وهكذا صنفت كتب كثيرة جداً في علم التعبير، فهناك : «الآثار الرابعة، في أسرار الواقعة»(7) للشيخ تاج الدين علي بن محمد ابن دريهم

---

(3) التراتيب الإدارية 1/16.

(4) «وقيات الأسلاف وتحية الأخلاف» ص : 298.

(5) «الطرق الحكيمة» ص : 256.

(6) التراتيب الإدارية 1/26.

(7) «كشف، الظنون» ج : 1 - ص : 9.

الموصللي (ت : 762هـ)، و«أرجوزة في تعبير الرؤيا على صفة خلق الإنسان» (8)، للشيخ أبي الحسن ابن السكن المعافري، و«أصول دانيال» (9)، وإرشاد جابر المغربي؛ و«البدر المنير، في علم التعبير» (10) للشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن المقدسي (ت : 697هـ)، وهو من الكتب المتوسطة، وشرحه الحنبلي؛ «وبيان التعبير» (11) لِعَبْدُوس بن عبد الله بن عبدوس العبدي الهمداني (ت : 490هـ)؛ و«تحفة الملوك في التعبير» (12) مختصر للشيخ أبي العباس أحمد بن خلف بن أحمد السجستاني، وهي على تسع وخمسين مقالة؛ و«تعبير بن أشعث» (ت : 360هـ) أي إسماعيل بن أشعث، و«تعبير ابن المقري» (ت : 523هـ)، و«تعبير ابن سهل المسيحي»، وهو عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني الطبيب النصراني (13)، و«التعبير الماموني»، أي محمد هرون بن العباس البغدادي (ت : 572هـ) وهناك «تعبير أرسطو - وأفلاطون - إقليدس - بطليموس - الجاحظ - جالينوس»..

يخلص من هذا، أن تعبير الرؤيا هو علم يتعرف منه المناسبة بين التخييلات النفسانية، والأمور الغيبية لينتقل من الأولى إلى الثانية، وليستدل بذلك على الأحوال النفسانية في الخارج، أو على الأحوال الخارجية في الآفاق، ومنفعته البشرية أو الإعذار بما يروونه.

وأورد أبو الخير في فروع العلم الطبيعي، وذكر فيه أيضا ماهية الرؤيا وأقسامها، وكذا فعل ابن صدر الدين (14) وصنف عبد الغني بن إسماعيل

(8) كشف، ج : 1 / ص : 62.

(9) كشف، ص : 1/113.

(10) كشف، ص : 1/231.

(11) كشف، ص : ج 1 / ص : 260.

(12) ج : 1، ص : 375، كشف.

(13) ج : 1 - ص : 416.

(14) كشف، ج : 1 / ص : 416، وللعالم ابستمولوجي الفيلسوف الفرنسي جاستون باشلار

GASTON Bachelard (ت : 1962) «الماء والأحلام» عام 1942.

النايلسي كتاباً بعنوان : «تأثير الأنام، في تفسير الأحلام» الذي طبع مرات عديدة. (15)

\*\*\*

وقد وجدت عدة أماكن في العالم لتفسير الأحلام، وتعبير الرؤى المنامية... وتدعيما لتعبير الرؤيا المنامية تعبيراً دينياً وعلمياً، فقد قامت هيآت علمية متخصصة على سبيل التطوع الخالص باسم المكاتب العلمية لتعبير الرؤيا المنامية لدراسة أحوال الرائي، دراسة ميدانية، وتعبير رؤياه على أساس ديني وعلمي وروحي، وقد ضَمَّ هذا المكتب نخبة صالحة من العلماء في مجالات الدين والطب وعلم النفس والاجتماع المتخصصين والمهتمين بشؤون الأحلام في الشرق العربي...

\*\*\*

وقد ذكر علماء هذا الفن أن المضمون الكامن للحلم، هو ما ينطوي عليه الحلم من مغزى ودلالة، وهو عبارة عن الأفكار الدفينة، والرغبات اللاشعورية، والنزعات المكبوتة التي تعيش في الأعماق، والدوافع الحقيقية التي تحاول البروز إلى السطح، والتي تفصح عن نفسها بصورة رمزية في الحلم...

فالفاتاة المراهقة الصغيرة تحلم بأبن الجيران يقطر لها قطرة في عينها، مثلاً، فالمضمون الكامن للحلم، من وجهة التحليل النفسي، هو مضمون جنسي يفصح لأول وهلة عن رغبة جنسية... والرغبة الجنسية للحالمة أفصحت عن نفسها في هذا الحلم بصورة رمزية موحية متخفية أو مقنعة...

وهناك تحليل وظيفي، وهو يعني في تفسير الأحلام بالمضمون الصريح أو الظاهر للحلم - هو الحلم كما يراه الحالم، وكما يرويهِ،

---

(15) «الأدب الجغرافي عند العرب» لكراتشكوفسكي ج : 2 / ص : 758.

وهو عبارة عن صور بصرية، مثل رؤية ورواية الحلم السابق بلفظه وصورته.

\*\*\*

### التحليل الاجتماعي في تفسير الأحلام :

التحليل الاجتماعي في تفسير الأحلام يُعنى بمضمون الحلم الظاهر والكامن، إذ هو يهتم برواية الحلم الظاهرة الصريحة، كما رآها الحالم، ويهتم فوق ذلك، بما ينطوي عليه الحلم من دلالة ومغزى في المجال الاجتماعي من الإفصاح أو التلميح في الرؤيا عن التنبيهات والتحذيرات والتوجيهات والبُشُريّات والتنبؤات، وفي الأحلام العادية عن الأفكار الدينية والرغبات اللاشعورية، والنزعات المكبوتة، والدوافع الحقيقية التي أفصحت عن نفسها بصور رمزية في الحلم.(16)

ومما لا ريب فيه أن من الأحلام ما هو متنفس لما يحتبس في النفس، ومنها ما هو مجرى لآمال وتطلعات، ومن تم دار حولها منذ القدم كلام كثير، وتصارعت الآراء والنظريات في منشئها وتفسيرها، والتعبير عما فيها من رموز، وعن صحتها أو كذبها...

وفي كتاب «التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام» (17)، ينقل عن ابن سينا ما يلي : «إن الأحداث منقوشة في لوح محفوظ في العالم العلوي، وفي وُسع بعض الناس، الاتصال به عن طريق مخيلتهم القوية، فيقع لهم هذا أثناء نومهم... واللوح المحفوظ، مرآة نقشت عليها المقادير بغير حروف، ولو ظهرت تجاهها مرآة أخرى لانكشف فيها صورة الأولى إلا إذا قام بينهما حجاب، وليست المرآة الثانية إلا القلب، والحجاب هو الشهوات والحواس، وينجلي هذا في اليقظة، أما النوم ففيه يرتفع الحجاب ويزول، وبذلك تظهر في مرآة القلب صور اللوح المحفوظ، وتنكشف للنفس آفاق

(16) «تفسير الأحلام من وحي الدين» تأليف د. عبد المنعم بدر، والأستاذ أحمد الصباحي عوض.

(17) ص : 73 : للدكتور توفيق الطويل.

العالم المجهول، فإذا سلمنا بأن النفس تكون عند النوم في أعظم حالاتها زال العجب من وقوع العلم بالغيب». (18)

\*\*\*

وكما قدمنا فإن أسلافنا أسهموا في بحث الأحلام والاهتمام بها، حيث تركوا لنا تراثا كبيرا نستهدي به ونسترشد، وفي مقدمة رعيهم العالم الموهوب محمد بن سيرين إمام التعبير عند المسلمين (ت: 105 هـ) الذي له «تعبير الرؤيا» (19)، وللشيخ عبد الغني النابلسي: «تعطير الأنام، في تعبیر المنام»، وبهامشه: «منتخب الكلام، في تفسير الأحلام» لابن سيرين، و«الإشارات في علم العبارات» لابن شاهين... وغير أولئك كثير من العلماء الذين أثروا المكتبات الفكرية بأرائهم وأبحاثهم في موضوع تعبیر الرؤى...

\*\*\*

وجاء العصر الحديث، وظهر علماء في الميدان، وتفاوتت فيهم الآراء والأفكار في دلالة الرؤى والأحلام، وتعددت النظريات في بواعثها وأسبابها... حيث استردت الأحلام مكانتها في ظل العلم والتجارب، باعتبارها ظاهرة إنسانية كبرى، وأخذت الصدارة من تفكير الإنسان... فباسم العلم المادي الحديث نزل إلى ميدان الأحلام «سيجموند فرود» (20)

(18) المصدر السابق، ص: 32.

(19) موجود في الخزانة العامة بالرباط، قسم المخطوطات، تحت رقم: D 1527 تكلم عنه سركيس في معجمه ص: 126 - 127.

(20) «فرويد» Freud (1856 - 1939) طبيب فيلسوف نمساوي، يهودي مؤسس طريقة التحليل النفسي.. أفرط في أهمية الدوافع والعواطف و«التحت شعورية»، وأهمية العوامل النفسية لا سيما في طور الطفولة.

في عام 1912 أسس فرويد جماعة سرية كلفت بالسهر على أرثوذكسية التحليل النفسي. وقد منح لكل واحد من السبعة أعضاء، حجرا محفورا ومنقوشا، تم تركيبه في خام الشعارات الذي يضعونه في الأصبع كرمز غامض.

إن «فيليس غروسكيرت» الذي سبق وأن ألف سيرة ذاتية رائعة عن «ميلاني كلين»، يسجل في كتاب «فرويد والجماعة السرية» التشتت المحتوم لهذه الجماعة والطرق التي تفصل بين الإخلاص والخيانة.

صدر هذا المؤلف عن (Puf) ويقع في 242 صفحة.

وقدم نظرياته عن العقل الباطن، والعقل الواعي، ورغبات الجنس المكبوتة، وأصبحت الأحلام في تقديره تعبيراً عن الرغبات والنوازع في العقل الباطن، فلا يكاد العقل الواعي يفقد رقابته، حتى تنبعث هذه الرغبات الحبيسة المكظومة المضغوطة، وتحاول أن تحقق في النوم وفي الخيال ما عجزت عن تحقيقه في دنيا الواقع، وعالم الناس...

\*\*\*

وبالرجوع إلى عدة مصادر في موضوع تعبير الرؤى المتعلقة بتفسير الماء، موضوع دراستنا، في المنام، استطعنا أن نجمع، من عدة مصادر ومطالعات ومراجع هذه المعلومات عن تفسير ما يراه الرائي في منامه بقصد الاسترشاد والاستيناس ما دامت النفس البشرية تتطلع إلى حل رموز الغيب المحجب، وتستشرف، في لَهْفٍ وشوق، إلى كشف المستور، ومعرفة المصير المجهول فيما يَطْرَأُ لَهَا أو يتصل بها لتسير في الخَطِّ اللاحب الصاعد للحياة...

فما هو تفسير رؤية الماء في المنام، موضوع الدراسة، وما هو تعبير مشتقاته، وكل ما يتصل به؟

**فإذا رأى شخص الماء في منامه، فإن ذلك يدل على حياة طيبة وسعادة راضية، وأمل مطمئن، ومال وفير وزيادة خير، وهو ترويح لقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا، فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾، فإن كان الماء صافياً غزيراً دل على رخص الأسعار، وإقامة العدالة؛ وشرب الماء في المنام سلامة من العدو، وسنة طيبة لشاربه.. وشرب الماء بكثرة في الحُلُم دليل على حسن الحظ وطول العمر... كما أن السير على الماء في الحُلُم دليل على النجاح في الأعمال، قال ابن سيرين : «الماء في النوم فتنة في الدين» لقوله تعالى: ﴿مَاءٌ غَدَقًا لَنَفْتَنَهُمْ فِيهِ﴾ وهو بلاء، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ﴾.**

ومن رأى أنه يشرب الماء صافيا في قدح نال خيراً من ولده وزوجته،  
ومن رأى أنه يعطي الماء في قدح، كان ذلك دليل ولد...  
أما إذا كان الماء قذراً، وعلى هيئة أمواج متلاطمة فهو علامة متاعب  
يجب الكفاح في التغلب عليها خصوصاً إن كنت ظمآن جداً، وتروي  
ظمأك بشرب الماء، كما أنه من رأى أنه سقط في ماء راكد، فهو حَبْسٌ  
وغَمٌّ...

والأشربة في المنام على أنواع، فكل شراب أصفر اللون دليل على  
المرض، أما شراب البنفسج دليل على الشفاء؛ وشراب العسل والتفاح، وما  
يمثلها من الأشربة الشهية للأغنياء خير، وللفقراء رديء!! وشرب الدواء  
دليل على زوال المرض، إن كان الرائي مريضاً، وعلى وجود المرض إن  
كان الرائي غير مريض...

والشراب الملين للطبيعة دال على الكرم، وأدوية الصداع في المنام دالة  
على معالجة الخصوم والأعداء، وكذلك الأشربة المثلجة...

وقد ذكروا أن رؤية المطر في المنام خير ورزق ورحمة، فإن كان  
خفيفاً دل على الثروة والسعادة، وإن كان مصحوباً برعدٍ دلَّ على المتاعب  
والأخطار، وإن كان خاصاً بمكان معلوم دل على حزن أهله أو على هم  
يعرض للرأي بسبب فقد من يعز عليه، وإن كان المطر عاماً مؤذياً دل على  
المتاعب الكثيرة... ومَن رأى أن السماء قد أمطرت، وقطر ماء الغمام من كل  
جانب، فإن الناس ينالون سعةً وسروراً، وتنفجر العيون... كما أن من رأى  
المطر في داره، وخاصة دون الناس، نال منفعة وخيراً وكرامة...

ورؤية الفيضان في المنام تدل على سوء الحظ، وترتبط القضايا  
الخاسرة به، فإن كان كثيراً، فإن الرائي سيقابل خطراً أو متاعب، أو أن  
غريماً سيأخذ منه حبيبته... وإن كان ماء الفيضان نظيفاً، فإن المتاعب  
ستكون بسيطة...



أما إن كان الماء قَدْرًا، أو ملينا بالطين، فإن المتاعب ستطول، وإن حُلْمَ  
الرائي بأنه يعوم في أعلى الماء، فإنه سيتغلب على المتاعب والصعوبات.

ورؤية البحر في المنام يدل على ملك قوي، وهو للتاجر متاعه،  
وللتلميذ أستاذه، وللعامل رب عمله، فمن شرب منه تعلم بقدر ما شرب،  
فإن عبر البحر سابحا، غنم مال عدوه، وشفا من مرضه إن كان مريضا...

وقد ذكر الأستاذ «أحمد الصباحي عرض الله» في كتابه تفسير  
الأحلام» أن رجلا رأى في إحدى جزر «المانش» في منامه أن جماعة من  
الناس وقعوا، وهم في البحر، خطر جسيم، وأنهم يستنجدون به،  
ويستغيثون من الصخور، ثم قام مرة أخرى، فتكرر الحلم بصورة أبلغ في  
الآلم، فلما كان اليوم التالي ذهب إلى الميناء، وأدلى بالخبر إلى زملائه، فلم  
يميلوا إلى تصديقه، ولما ألحَّ عليهم امتطَوا زَوْرقاً فَمَرَّ به إلى بعض  
الصخور البعيدة، وهناك أبصروا بأشخاص أو شكوا أن يموتوا جوعا،  
وكان نتيجة لهذا الحلم أن بنيت منارة لهداية السفن في ذلك المكان...

ورؤية النهر في المنام، إن كان مأؤه رائقا، والشمس مشرقة ساطعة،  
فهو علامة طيبة بخلاف ما إذا كانت به صُخُور كثيرة، فهناك متاعب، وإن  
كان به طين كثير فهناك فشل، وقالوا، إنه لا يحمد الشرب، في المنام، من  
النهر، لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ وإذا جرى الماء في سوق،  
والناس يتوضأون منه، وينتفعون بمائه، فذلك عدل السلطان في رعيته،  
وإن جرى فوق الأسطحة، ونزل إلى الدور، بل قماش الناس، فذلك جور  
من السلطان في رعيته أو وعد ويطغى على الناس.

ومن شرب من نهر النيل في المنام، نال ذهبا بقدر ما شرب، ومن رآه  
نال سلطانا وقوة...

أما إذا ارتوى إنسان ماءً في المنام، فهو يدل على اليسر بعد العسر،  
وقضاء الحاجة، والغنى بعد الفقر...

والحلم ببحر هائج يَعْْبُ عُبابُه، وتصطخب أمواجه علامة متاعب في الحب أو العمل سواء كان الرائي بداخله أم على الشاطئء تصدمه الأمواج... وقد يحلم الإنسان بأنه يسبح في الماء، فالحلم بأنك تسبح جيداً أو بقوة في ماء صافٍ حُلْم طيب، علامة نجاح عظيم في الحب والحياة والعمل، فإن كان السابح عالماً بلغ في العلم حاجته، فإن سبح، ثم رجع إلى الساحل فإنه يطلب العلم، ثم يتركه... وقيل السباحة حبس؛ فمن رأى أنه يسبح في البحر، فإنه يحبس ويناله ضيق في حبسه، ويمكث فيه بقدر صعوبة السباحة أو سهولتها وبقدر قربه من البحر... والحلم بالسباحة بصعوبة أو أن الماء به طين أو حشرات أو أنك تكاد ترفع رأسك فوق الماء، فإن هذا كله معناه تحذير من فشل وقلق...

ومن رأى في المنام أنه قد غرق في البحر، فإنه يغرق في دنياه ويستغني، وإن خرج من البحر، ولم يغرق دل ذلك على الصلاح، ومن رأى أنه غريق، فإنه دليل على ارتكاب أخطاء، والأحلام التي تشاهد فيها شخصاً آخر يغرق دليل على حسن الحظ، أما إذا كنت أنت تغرق، فهذا دليل على متاعب قد لا تتغلب عليها...

وأن حلم الإنسان بأنه يستحم بماء نظيف، فهو وعد لك بسعادة مع عواطف طيبة، أما إذا كان الماء قذراً، فإنه ينبئ عن سماع أخبار غير سارة... كما أن الأحلام التي تظهر فيها المياه مشوبة بالقاذورات دليل على أن الناس يتحدثون عن ماضيك، ولكن إذا ألقيت عليك، كانت دليلاً على ما ينتظرك من مرض!!

أما حلم البئر في التأويل والتعبير، فهو مالٌ أو علمٌ أو تزوجٌ أو رجلٌ ضخم... فمن رأى أنه حفر بئراً، وفيها ماء تزوج امرأةً مُوسرةً، ومَكَرَ بها، وأن رآته المرأة في منامها فهو رجل حسن الخلق، وإن رآه الرجل في منامه، فهو امرأة ضاحكة مستبشرة، فإن كان ماء البئر نظيفاً، فإن رؤياه

حسنة جدا... وإن حلمت أنك تُخرج الماء من البئر، فإنه وعد بالنجاح في عمل جديد... أما الحلم بالبئر الخالي من الماء، فهو علامة فشل، أما حلمك بإنك وقعت في بئر، فإنه تحذير من مرض، أو خطر يهددك...

ورؤية الناعورة في المنام خادم يحفظ أموال الناس في السر والنواير والدواليب تفسر على دوران التجارة وانتقال الأحوال.

**والعسل في المنام دليل النقاء والطهارة، فإن كان في الشتاء بالماء البارد دل على الهموم والأمراض...**

**ورؤية الثلج في المنام دليل على حسن الطالع، وكثرة الأرزاق، وعلى الشفاء من الأمراض..** إذا اغتسل الحالم به... وربما دل الثلج والنار على الألفة والمودة والمحبة، لأن النار لا تذيب الثلج، والثلج لا يطفىء النار...

وأكل الثلج في المنام يدل على السعي وراء الثروة... وإذا كان الثلج قدرا دل على المتاعب لآكله... أما إذا رأيت ثلجا، أو كنت تكسره، فإنه علامة طيبة، لأنك إن كنت غير متزوج، بإنك ستكون موفقا في زواجك عندما يتم، والثلج الغالب تعذيب السلطان رعيته، وأخذ أموالهم وحفاه لهم، وقبح كلامه لهم لقوله تعالى : ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قيل ثلجا.

وإن حلمت أنك تتزحلق على الثلج، فإنه إنذار لك، بأن أحسن أمانيك في خطر عدم التحقيق، ولو أنك إن كنت تتزحلق جيدا، والثلج بهيجا منظره وسهلا، فإن الفشل سينتهي وتوفق.

ومن رأى ثلجا نزل من السماء، وعم الأرض، فإن كان ذلك في أماكن الزرع، وأوقات نفعه، دل على كثرة النور، وبركات الأرض وكثرة الخصب، ووفرة النماء حتى يملأ تلك الأماكن بالطعام والنبات كامتلائها بالثلج...

**والحلم بتناول المثلجات دليل على السعادة في المستقبل... أما الحلم بإن الأطفال يتناولون المثلجات، فإنه يدل على ربح نقود.**

والجليد في المنام في وقته إذا رى يدل على ذهاب الهموم والغموم وإرغام الأعداء والحساد.. وإذا جلد الماء وأهلك الشجر، وسد الأبواب دل على إبطال المعاش، وتوقف الحال، وتعذر الأسفار...

ومن رأى نفسه بجوار بركة، مأوها نظيف، فإنه حظ سعيد، وبخلاف ذلك إن كان مأوها غير نظيف، فإن كان معه صديق، فإن السعادة في انتظارهما...

وإذا حلم الإنسان بأنه ركب قارباً في بركة، حسن أيضاً، ولكن إذا رأيت قارباً يغرق فمعناه المتاعب والمشاق...

وإذا حلم الإنسان ببخت كان هذا دليلاً على مركز هام ستصل إليه، وهذا إذا كانت المياه هادئة... أما إن كانت هائجة، فإنه يدل على فقد مكانتك...

وقد ذكروا أن من رأى في المنام أنه توضأ وضوءه للصلاة، فإنه يامن مما يخافه من عدوه، ومن رأى أنه اغتسل، فإنه يظفر بشيء كان قد سرق منه، وإن رأى أنه توضأ، ودخل في الصلاة، فإنه يخرج من هم كبير... ومن رأى أنه صلى بغير وضوء، فإن كان تاجراً فإن تجارته ليس لها رأس مال، وإن كان صانعاً، فليس له مأوى، وإن كان صاحب ولاية فليس له جند... والوضوء صالح في كل الأديان... وأمان من الله تعالى...

والحمام في المنام يدل على بيت أذى، فمن دخله أصابه هم لابقاء له من قبل النساء، لأن الحمام محل الأوزار، والحمام اشتق اسمه من الحميم — فإن كان الرائي مغموماً ودخل الحمام، خرج من غمه، فإن اتخذ في الحمام مجلساً، فإنه يفجر بإمرأة، ويشتهر أمره، لأن الحمام موضع كشف العورة...

وَرَبَدَ الماء إذا رى في المنام فإنه يدل على شيء لا ينتفع به.. والسحاب يدل على الإسلام الذي به حياة الناس ونجاتهم، وهو سبب

رحمة الله لحمله الماء الذي به حياة الخلق، وربما دل السحاب على العلم والفكر والحكمة والبيان لما فيها من لطف الحكمة... وقد ذكر المعبرون للرؤيا المنامية المتعلقة بالسحاب أشياء كثيرة...

**والساقية في المنام** تدل على مجرى الرزق ومكانه وسببه كالحانوت والصناعة والسفر ونحو ذلك... وربما دلت على القروح لمدّها بالماء في مجراه مع سقيها للبساتين، وبما دلت على محبة طريق السفر... ومن رأى ساقية مملوءة زبلا وكناسة، وقد غسلها، وأزال ما فيها فإنه يحتقن، ويسهل طبيعته...

**والماء في الغدير** دليل على مكاييد وغدر...  
**وفسقية الماء في المنام** ما يتوقاه الإنسان من الفسق، وربما دلت الفسقية على المرأة الجميلة الجليلة، إن كان فيها ماء، فهي ذات مال...

**وقربة الماء في المنام** سفر، وربما كانت امرأة تحمل وتسقط، وتدل على الفكر والغنى، وتدل القربة على الدخول في المضايق.. ومن رأى قربة مملوءة ماء في منزله، فامرأته حامل...

**والندى في المنام** يدل على بشارة...  
ونجد في الجزء الثاني من كتاب «حياة الحيوان» للدميري فصلا عقده في تعبير الرؤيا وهي تخص البحر، وشرب الماء منه، والمشى فيه والغوص فيه، والسباحة فيه، وكذلك البحيرة في الرؤيا، والنهر وعين الماء...

**فالبحر في الرؤيا** يعبر بهلك وحبس لمن وقع فيه، ولم يمكنه الخروج منه، وبرجل عالم وكريم، فيقال : بحر علم، وبحر كرم، ويعبر بالدنيا، فمن رأى كأنه قاعد على متن البحر، أو مضطجع عليه، فإنه يداخل ملكا ويكون منه على خطر، لأن الماء لا يومن الغرق فيه...

ومن رأى أنه شرب من ماء البحر نال مالا من الملك، فإن شربه كله نال مال الملك...

ومن رأى البحر من بعيد، ولم يخالطه، فإن ذلك أمر يفوته...  
ومن رأى أنه شرب من مائه، وله شريك فإنه يفارقه لقوله تعالى :  
﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾.

ومن رأى كأنه يمشي في البحر في طريق يابس، فإنه يأمن من الخوف لقوله تعالى : ﴿فأضرب لهم طريقا في البحر يبسا، لا تخاف دركا ولا تخشى﴾.

ومن رأى أنه غاص في البحر ليخرج شيئا من الدر، فإنه يدخل في غامض العلم.

ومن قطع البحر سبحا إلى الجانب الآخر، فإنه ينجو من هول وغم.  
ومن سبح في البحر في زمن الشتاء ناله هم من قبل ملك، أو أصابه مرض، أو يحبس، أو يناله وجع من الرياح.

وإذا دخل البحر ولى درس الناس، وبل القماش أو أكل وحشه طعام الناس، فإن الملك يظلم أهل تلك الاناحية، وربما دل على طول الشقاء في تلك السنة لا سيما إذا كان مضطربا كثير الموج فإنه يدل على مضار كثيرة...

والبحيرة في الرؤيا تدل على القضاة والولاة والموالي الذين يفعلون الأشياء بالأمر... والبحيرة الصغيرة تدل على امرأة غنية... والبحر إذا كان هادئا دل على البطالة... والبحيرة للمسافر تدل على تعذر السفر...

وأما النهر في الرؤيا، فإنه يدل على رجل جليل... فمن دخل في نهر، فإنه يخالط رجلا من الأكابر، ولا يحمد الشرب من النهر... وقيل إنه يدل على سفر لمن دخله، لأن ماءه منقل مسافر...

ومن رأى أنه وثب من النهر إلى الجانب الآخر، فإنه ينجو من هم،  
وينصر على عدوه، والدخول في النهور دخول في عمل السلطان.  
وإذا جرى الماء في الأسواق، والناس يتوضأون، وينتفعون به، فذلك  
عدل من سلطان... فإن جرى فوق الأسطحة، وبل قماش الناس في  
دورهم، فذلك جور من السلطان أو عدو يطغى على الناس كما تقدم...  
ومن رأى نهرا خرج من داره، ولم يضر أحدا، فإنه معروف منه يصل  
إلى الناس... ومن رأى أنه صار نهرا، فإنه يموت بنزف الدم...  
ثم قال الدميري(21) فصل : «وأما رؤية عين الماء، فإنها كرامة ونعمة،  
وبلوغ أمنية، إذا كان الرائي مستورا...  
ومن رأى كأن عينا نبتت من داره، دل على مشترى جارية، فإن  
خرجت من ا لدار إلى ظاهرها، فإنه مال قد ذهب...  
والماء الراكد في الدار هم باق!! فإن كان صافيا، فهم على صحة جسم،  
ولا يكره من العيون إلا ما ركد ماؤه ولم يجر... ومن شرب من ماء عين  
أصابه هم، فإن كان باردا، فلا بأس به.. والله أعلم...

---

(21) حياة الحيوان، ج : 2 ص : 222.

## الماء والعرافون<sup>(1)</sup>

في استطاعة الساحر والعراف، في بلاد العرب وغيرها، وفي العصر الجاهلي مداواة العاشق، وإماتة عشقه بوصفة يعطيها إليه تقضي على حبه الجامح قضاءً تاماً، تسمى «السُّلوانة» والسلوان، وما هذه الوصفة إلا مادة ذات سحر عجيب يغتسل بها الإنسان أو يشربها، فتنطفئ في الحال، أو بعد أمد، كل نيران للحب مؤججة في قلب العاشق... وقد قال ابن الأعرابي: السلوانة : خَرَزَة للبغض بعد المحبة، كما تحدث عنها اللحياني فقال : السُّلوانة والسُّلوان خَرَزَة شفافة إذا دفنتها في الرمل، ثم بحثت عنها رأيتها سوداء يُسقاها الإنسان فتسليه...

والسلوانة هي شيء من تراب قبر، أو خَرَزَة تسحق ويشرب ماؤها، فيورث شاربها سلوه، وتكون الخَرَزَة شفافة تدفن في الرمل فتسود، ثم تستخرج لسحقها وشربها، وقد يكتفي بصب ماء المطر على تلك الخرزة لسقي العاشق ذلك الماء الذي يسمونه «السلوان» ليشفى من العشق، ولا بد أن يكون لاختيار الماء، وتراب القبر أو مسحوق الخرزة في معالجة العشق سبب يمكن تفسيره، بأنه لغسل قلب الميت وإماتة الحب فيه...

حكى محمد بن حيان قال(2) : حضرت الأصمعي، ونصير بن أبي نصير يعرض عليه بالري، فتدارسوا هذا البيت لرؤبة :  
مُسْلِمٌ لا أنساك ما حييْتُ      لو أشرب السُّلوان ما سليتُ  
ما بى غنى عنك، وإن غنيت

(1) أنظر مقدمة ابن خلدون، وانظر، أيضا : بلوغ الأرب، ج : 3، ص : 306.

(2) لسان العرب المحيط، للعلامة ابن منظور، ج : 2، ص : 196.



فيما عَرَضَ عليه، فقال لنصير : ما السُّلوان؟ فقال : يقال إنه خرزة  
تسحق ويشرب مأوها، فيورث شاربها سَلْوَةً... فقال : أَسَكَّتْ لا يسخر منك  
هؤلاء، إنما السُّلوان مصدر قولك : سلوتُ، أسلو، سلواناً فقال : لو أشرب  
السلوان، أي السلو، شرباً ما سلوت...

ويقول الجوهري : السُّلوانة بالضم : خرزة كانوا يقولون إذا صب عليها  
ماء المطر، فشربها العاشق سلا...

شربت على سلوانة ماء مزنة

فلا وجديد العيش، يامي، ما أسلو

واسم ذلك الماء السُّلوان، والأطباء، يسمون ذلك الماء «مُفَرِّح» ومنه:  
«عين السُّلوان» : عين نضاخة يتبرك بها ويستشفى منها بالبيت المقدس(3)  
ومنه ما أنشده «طعين عفراء»، عروة بن حزام (4)

خَلِيلِي مِنْ عُلْيَا هَلالِ بْنِ عامِرٍ  
بصنعاء عُمُوجا اليَوْمِ وانتظـراني  
ولا تزهدا في الذُّخْرِ عِندي وأجملا  
فإنكما بي اليَوْمَ مُبْتَـلِـيـانِ  
أَلَمَّا على عفراءِ إنكما غداً  
بشطح النوى والبين مُعترفان  
فيا وأشيي عفراء ويحكما بِمَنْ  
وما وإلى من جئتما تَشِـيـانِ  
بِمَنْ لو أراه عانياً لَفِدَيْتُهُ  
ومن لو رأني عانياً لَفَداني

(3) القرطبي ج : 1/ ص : 408.

(4) عروة ابن حزام أحد ا لمتممين الذين قتلهم الهوى، قيل لا يعرف له شعر إلا في «عفراء» ابنة عمه  
عقال بن مهاصر. ولذلك اثبتنا له هذه القصيدة اليتيمة.

أَغْرَكَمَا مِنِّي قَمِيصٌ لِبَسْتُهُ  
جَدِيدٌ وَبُرْدًا يَمْنَنَةٌ زَهْيَانِ  
مَتَى تَكْشِفُنَا عَنِّي الْقَمِيصَ تَبَيَّنَا  
بِی الضُّرِّ مَنْ عَفْرَاءَ يَا فَتْيَانِ  
إِذْ تَرِيَا لَحْمًا قَلِيلًا وَأَعْظَمًا  
بَلِیِّنَ وَقَلْبًا دَائِمَ الْخَفَقَانِ  
جَعَلْتَ لِعَرَافٍ (5) الْيَمَامَةَ حَكْمُهُ  
وَعَرَافٍ نَجِدُ إِنْ هُمَا شَفِيَانِي (6)  
فَمَا تَرَكََا مِنْ رُقِيَّةٍ يَعْرِفَانِيهَا  
وَلَا شَرْبَةٍ إِلَّا وَقَدْ سَقِيَانِي  
وَرَشَّاهُ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الْمَاءِ سَاعَةً  
وَقَامَا مَعَ الْعُودَادِ يَبْتَـدِرَانِ  
وَقَالَا : شَفَاكَ اللَّهُ، وَاللَّهِ مَا لَنَا  
بِمَا ضُمْنَتْ مِنْكَ الضَّلُوعُ يَدَانِ...  
فَرُحْتُ مِنَ الْعَرَافِ تَسْقُطُ عِمَّتِي  
عَنِ الرَّأْسِ مَا أَلْتَاثُهَا بَيْنَانِ  
فَوَيْلِي عَلَى عَفْرَاءٍ وَيَلًا كَأَنَّهُ  
عَلَى الصَّدْرِ وَالْأَحْشَاءِ حِدُّ سِنَانِ  
أُحِبُّ ابْنَةَ الْعَذْرَى حَبًّا وَإِنْ نَأَتْ  
وَدَانِيَتْ فِيهَا غَيْرَ مَا هُوَ دَانِي  
إِذَا رَامَ قَلْبِي هَجْرَهَا حَالَ دُونَهُ  
شَفِيعَانِ مِنْ قَلْبِي لَهَا جَزِيلَانِ

(5) عَرَافُ الْيَمَامَةِ : هُوَ رِيَّاحُ بَنِ عَجَلَةَ، وَعَرَافُ نَجْدٍ : الْأَبْلَقُ الْأَسَدِي.

(6) اللِّسَانُ : 19 - 118 وَمَا بَعْدَهَا.

إذا قلت : « لا » قال : « بلى » ثم أصبحا  
 جميعاً على الرأي الذي يريان  
 فيا ربُّ أنت المستعانُ على الذي  
 تحمَّلتُ من عفراء منذُ زمانٍ  
 كأن قطاةً علَّقتُ بجناحِها  
 على كبدي من شدةِ الخفقانِ  
 وقد تركت عفراء قلبي كأنه  
 جناحٌ غرابٍ دائمُ الخفقانِ

وقال آخر :

سقوني سلوةً فسلوت عنها  
 سقى الله المنية من سقاني  
 أي سلوت عن السلوة، واشتد بي العشق ودام، وقال الشمر دل :  
 ولقد سقيت بسلوةٍ فكأنما  
 قال ا لمداوي للخيال بها ازد

\*\*\*

في عام 322هـ 934م ظهر «بباسبند» من أعمال «الصفغانيان»، وهي من بلاد ما وراء النهر المشهورة بالتقى والصلاح - رجل ادعى النبوة، فقصدُه فوج، واتبعه خلق كثير، وحارب من خالفه، وكثر أتباعه من أهل الشاش - طشقند - كان صاحب حيل ومخاريق، فكان يدخل يده في حوض ملآن بالماء، ويخرجها مملوءة دنانير، إلى نحو ذلك، ولما كثر جمعه، وخيف شره، أنفذ إليه الحاكم جيشاً، فحاربوه، وضيقوا عليه، وقتلوه (7)...

(7) ابن الأثير، ج : 8 - ص : 216.

## مقتطفات طريفة، وحيلٌ مسلية :

أوردت مجلة : «تاريخ العرب والعالم»، (8) مقتطفات طريفة وحيل مسلية، ومفيدة من مخطوطة (9) : «كتاب الحيل» (10)، لأبناء موسى ابن شاعر، تلك المخطوطة التي تحتوي على وصف لمائة حيلة متنوعة، منها المفيدة المسلية السهلة التركيب، ومنها الغريبة المعقدة الصعبة التحقيق، ولكن جميعها إن دلت على شيء، فإنما تدل على عمق في التفكير، وسعة في الخيال، ودراية عميقة في المعلومات العلمية، حتى إن هؤلاء الإخوة استطاعوا تطويع النظريات العلمية، وفقاً لرغباتهم الشخصية، وتبعاً لأهوائهم، فسرحوا بعيداً في خيالهم، وحاولوا تحقيق ما تآقت إليه أنفسهم من حيل، وما راود خيالهم من تركيبات...

وقد اعتمد أبناء موسى بن شاعر في وصف هذه التركيبات على أسس، ومبادئ علمية صحيحة، ورثوها من الدراسات النظرية التي وضعها اليونان في هذا المضمار، غير أن أبناء موسى لم يكتفوا بالنظريات، بل حللوا، وأظهروها إلى حيز الوجود بتطبيقها فعلاً، لذلك حاولوا تركيب كل ما هو مهم ومفيد في حياتهم العملية إلى عامة الشعب، لذلك أن مخطوطتهم هذه، إلى جانب مخطوطة «آلة الزمن» تعتبر من أهم المخطوطات في علم الحيل الميكانيكية...

وقد بقي هذا العمل مهملاً في الفترة الزمنية الواقعة ما بين الحضارة اليونانية، والحضارة العربية، ورغم كل ما أعطاه بنو موسى من اهتمام لهذا العلم، فإن العلماء العرب أهملوه من بعدهم، ولم تظهر دراسات في هذا المجال إلا في القرن الثاني عشر ميلادي مع العالم الميكانيكي المشهور ابن الرزاز الجزري الذي ترك لنا كتاباً ضخماً في علم الحيل

(8) العدد : 49 - أكتوبر عام 1982، وقد كتب البحث د. منى سنجدار شعرائي.

(9) المخطوطة موجودة في مكتب الفاتيكان تحت رقم : 317.

(10) كشف الظنون، ج : 2 - ص : 1415.

تحت عنوان : «كتاب الحيل الجامع بين العلم والعمل» وهذه نماذج من الحيل السحرية :

1 - هذا إبريق نستطيع أن نصب منه، ومن فتحة واحدة، تارة ماءً حاراً، وطوراً ماءً بارداً.

2 - وذلك إبريق آخر نحاول صب الماء فيه بصورة متواصلة، فيقبل، أما إذا قطعت الصب، وأعدته مرة ثانية، رفض استقبال الماء...

3 - هذه جرة تحتوي عدة أنواع من الشراب دون أن تمتزج، وتستطيع أن تصب منها، ومن فتحة واحدة النوع الذي تريده...

4 - وتلك جرة أخرى تصب منها مقدراً معيناً من الماء، ثم ينقطع الصب تلقائياً، ثم تصب ثانية نصف المقدار، وهكذا حتى يفرغ كل ما فيها دون حاجة إلى مكيال معين.

5 - هذا تمثال وحش يرفض شرب الماء، إذا لم تشرب الحيوانات الصغيرة...

6 - وذلك تمثال آخر يزمجر غاضباً إذا حاولت بقية الحيوانات أن تشرب.

7 - هذا قدح، يخيل للناظر إليه بأنه فارغ، وإذا ما ناول الشرب منه، روى ظمأه.

8 - وهذا آخر تراه ملأنا، ولكنك لا تستطيع الشرب منه...

9 - وهذه إجانة تصب فيها رطلاً أو رطلين من الماء، وتستطيع أن تروي ألفاً أو ألفي دابة...

10 - وتلك أخرى يصب فيها الماء في فم تمثال، فإذا أخذت منها مقدراً معيناً من الماء، صب التمثال من نفسه كمية مماثلة، وإذا أخذت كمية أكبر غضب التمثال، ولم يصب شيئاً...

11 - وهذه المجموعة الضخمة من الجرار والأباريق والقناني والاجانات انتقل أبناء شاكر إلى حيل أكثر حيوية، فوصفوا فوارات على أشكال

مختلفة، هذه فوارة على شكل ترس، وأخرى على شكل سوسنة... ثم تطرقوا إلى وصف القناديل، فهذا قنديل يتغذى من نفسه، ولا ينطفئ مطلقاً... وهذا سراج يخرج الفتيل من نفسه، ويصب الزيت من نفسه، وكل من يراه يظن أن النار لا تاكل الفتيل.

\*\*\*

### العرافون والسحرة بمدينة فاس :

لقد تحدث الحسن بن محمد الوزان الزياتي المعروف بـ «ليون الإفريقي» عن العرافين السحرة الذين كانوا بمدينة فاس، وهم كثير، حيث قسمهم إلى مجموعات ثلاث...

فالمجموعة الثانية، وهي مجموعة العرافين الذين يسكبون الماء في قصعة مطلية بالدهان، ويسقطون في هذا الماء قطرة زيت، وبعد أن تصبح هذه شفافة، يقول العرافون : «إنهم رأوا فيها، كما يرون في المرأة، عصابات من الشياطين قادمة بعضها خلف بعض، كأنها كتائب جيش تعسكر وتضرب خيامها... ويأتي بعض هذه الشياطين عن طريق البحر، والبعض الآخر عن طريق البر.

وعندما يرى العراف أنهم استراحوا، يطلب منهم أشياء يود معرفتها، فيجيبه الشياطين بإشارات يومئون بها باليد أو بالعين.

قال الحسن الوزان : «فما أشد غباء الذين يعتقدون في مثل هذه الخرافات، ويضع هؤلاء العرافو القصعة أحياناً بين ولد عمره ثمانية أو تسعة أعوام، ويسأله في ما إذا رأى الشيطان الفلاني أو غيره... ويجيبهم الطفل الساذج : «نعم» ولكنهم لا يتركونه يتكلم، وللأسف من الضعفاء ثقة بهؤلاء العرافين تجعلهم ينفقون عندهم بدرات أموالهم(11).

(11) «وصف إفريقيا» ص : 265، - ط : السعودية.

ونعطي مثالا آخر من فرنسا، ومن العالم الفرنسي «ميشل نوسترا داموس» (12) الذي عاش في القرن السادس عشر (1503 - 1569) والذي كان يواجه الوباء والأمراض ويشفي الناس، والذي كانت له وصفات لا يقرها الأطباء... وقد اشتهر هذا العالم بأنه يعالج الناس روحيا، فكان يلمس المرضى ويعطيهم بعض الماء الدافئ والكثير من الأعشاب وعند ما اجتاحت الأوبئة فرنسا شمالا وجنوبا كان هذا الرجل يعطي الأمل، ويخفف الأوجاع..

لقد كان هذا الطبيب يجلس في غرفة مظلمة في منتصفها منضدة خشبية، عليها كوب من الماء، وهو يغمس أصابعه في الكوب، ويضع قطرة على جبهته، ثم أخرى على خديته، ثم بعض الماء يلقيه على قدميه العاريتين، وأخيرا يغمس طرف الثوب في الكوب، ويظل يحملق في الماء ساعات، ويمد يده إلى الورق، ويكتب، ثم يرتمي على الفراش نائما حتى الظهيرة، وهو في مدينة باريس...

لقد توقع هذا الرجل عدة أحداث غريبة، وقع بعضها - وما زال - في القرن العشرين، وقد تنبأ بما يحدث في الصحراء المغربية، فقد جاء على لسانه : «أن القوات البربرية سوف تأخذ أرضا من إسبانيا، وسوف تسيل الدماء» كذا...

إن «نوستراداموس» يذهب إلى غرفته، ويحملق في كوب الماء، ويقول إن سطح الماء، يتحول بسرعة إلى صفحة متحركة - تماما كشاشة السينما - وعليها تجري الأحداث في كل اتجاه، وعلى فترات متباعدة،

---

(12) نوستراداميس (Nostradamus (Michel de Nostre-Dame ولد بسان ريمي دي يروفانس (Saint-Remy-de-provence) (1503 — 1566 بصالون (Salon) طبيب فلكي، فرنسي صاحب كتاب (Centuries astrologiques) 1555، وهو عبارة عن رواية تاريخية، ضمنه تنبؤات كاذبة بقالب غامض معقد انخدع به العامة، وقسم الكتاب حسب القرون، وقد تم تعيينه طبيبا خاصا للعرس التاسع.

عشرات السنين، أو مآت السنين، وهو يصف الذي يراه ويقول «نوستراداموس» : إن عندي موهبة، هذه الموهبة عبارة عن قوة... القوة تملأ جسمي كله، تهزني بعنف، وأسمع صوتا، وأرى نورا.. ولا أعرف إن كنت أنا الذي يرى أو أن أحدا يرى لي، ويرى بي، أو كنت أنا الذي أسمع الأصوات أو أن قوة أخرى تسمع لي أو تسمعني، كل هذا يجري أمام عيني على سطح الماء الذي يشبه شريطا يتحرك (13).

\* \* \*

ففي الرباعيات الثانية، ينقل لنا الطقوس التي يستعملها في العرافة والتكهن.. أولا، هذه القواعد كانت تستعمل منذ القرن الرابع الميلادي، وبين قواعد «لامبلكس»، في كتابة الأسرار المصرية، (1546)، ونجد في كلامه عناصر ومكونات ممارسة السحر: الوقت، ليل، المكان غرفة كهفية، أمامه إناء من نحاس فيه ماء موضوع على حامل صغير ثلاثي الأرجل، يصدق العراف في الماء، حتى يرى الماء قد تعكر وتضرب، ثم تبدأ صورة المستقبل بالظهور، يضع صولجانه في وسط الماء، يببله، ويرش منه الماء على أهداب ثوبه وقدميه.. فيحس بالخوف من تلك الطاقات التي استنارها في داخله..

فالأمر إذن، طقس من العرافة والكهانة والسحر والتنجيم والعلوم الخفية والسريرية التي اشتهر بها عصر الطبيب الفرنسي «نوستراداموس»، وبلغ فيها أوج الاستعمال.

\* \* \*

والحمد لله رب العالمين ..

---

(13) «لعنة الفراغة» للأستاذ أنيس منصور.



## فرآن کریم

رَبِّ اجْعَلْنِي مُفِيماً لِلصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي  
رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَنَا رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ  
وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ

سورة ابراہیم الایتان 41 و 42

## دعاء

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ  
أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ  
نَفْسِي فَاعْفُرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ.



## فهرس المحتويات

274 - 3	الباب السادس عشر .....
3	وقف المياه.. حضارة إنسانية راقية .....

### الفصل الأول :

5	هيام الأعراب بمياه الوطن .....
8	وفي السماء رزقكم .....
9	من الذي أغضب الجليل حتى حلف .....
37	وأشرب فأقتنح .....
38	أجمل النماذج الشعرية في وصف الماء .....
40	بَلَدٌ أَجْرَدٌ، جُرْدٌ من زخارف الطبيعة .....
42	الطبيعة غير عادلة في توزيع المطر .....

### الفصل الثاني :

44	الوقوف للمياه في العصر الجاهلي .....
46	فكرة وُقُوفِ المياه من أهم ما يعنى به العرب وسرأتهم .....
48	سقاية الحجاج .....
49	شرف من يشرب من ماء زمزم .....
53	جود العربي وإيثاره رفيقه بالماء .....
56	النساء يقمن بسقي الجنود والجرحى في الحرب .....
58	ياقيّم الماء، فدتك نفسي .....

### الفصل الثالث :

60	ارتباط الماء بالشعائر الدينية .....
62	تقديس الماء مازال باقيا عند كثير من الشعوب .....
66	أهم ما تمتاز به عيون مكة.. مياه زمزم .....
70	فضائل بئر زمزم .....

74	هل الماء غذاء ؟ .....
77	وهو لما شُرب له .....
81	تأليف ومصنفات في بئر زمزم .....
84	اعتقاد الناس في بئر زمزم .....
87	تنظيف بئر زمزم .....
91	تحليل ماء زمزم .....
95	تحاليل مخبرية .....

#### الفصل الرابع :

97	وقوف الآبار والعيون في المدينة المنورة .....
98	في المدينة المنورة آبار وحدائق وبساتين .....
100	شجُع العطش كان يلاحق سكان شبه الجزيرة العربية .....
103	آبار المدينة المنورة .....
109	آبار موقوفة في المدينة .....
110	بئر عُرس .....
111	بئر بضاعة .....
112	بئر البُصّة .....
113	بئر حاء .....
114	بئر اليسيرة .....
115	بئر رومة .....
116	بئر فاطمة .....
116	بئر بيسان .....
117	بئر السقيا .....
118	العين الزرقاء .....
121	سبب تسميتها بالعين الزرقاء .....
124	لِعين الزرقاء، إدارة خاصة .....
125	الأوقاف في المدينة المنورة .....

#### الفصل الخامس :

##### عمل إنساني نبيل

126	عين زبيدة زوجة هارون الرشيد .....
129	مومنات ساهمن بقسط عظيم في تأسيس صرح الحضارة الإسلامية ...
130	من هي السيدة زبيدة .....

137	آثار زبيدة بين مكة والمدينة .....
138	أين تقع عين زبيدة ؟ .....
141	درب زبيدة .....
142	معاناة الحجاج في عهد المعتصم .....
144	رسالة جامعية حول درب زبيدة .....

## الفصل السادس :

### وقوف المياه في العهد الإسلامي

146	سقي الماء من أعظم القربات .....
149	ابن سبيل أحق بالماء والظل .....
152	أعمال خالد بن عبد الله القسري .....
155	الدوارق .....
160	الخلفاء .. والمصانع .....
162	سيدات تركز آثارا كبيرة في طريق الحج .....
163	أسبلة الحرم القدسي .....
166	في المسجد الأقصى عدة آبار .....

## الفصل السابع :

169	توفير الماء .. ووقوفه في طريق الحاج .....
176	يا أمير المؤمنين : تصدقت بها على الحجاج .....
181	حرص المماليك على توفير الماء .....
183	في عهود العثمانيين .....
184	ملوك وأمراء، تحرّوا الأماكن التي تغزر فيها المياه .....
187	وقفية الخديوي السلطان عباس باشا .....
189	المغاربة ووقوفهم للمياه في طريق الحج .....
191	الطرق التي بها أماكن للسقيا .....
195	إعداد خطة لتوفير مياه الشرب، لضيوف الرحمن .....
197	شبكة متكاملة للمياه في عرفات .....
198	انتهاء متاعب جُدة المائية .....
200	كان يريد الماء .. فأتاه النفط .....

## الفصل الثامن :

### مؤسسة السقايات

- 204 ..... أنظمة اقتضتها فلسفة المدينة الإسلامية  
205 ..... السقايات في الشام  
208 ..... وفي مصر  
211 ..... ثلاثة قرون، وما تزال، هذه البنات موضع عناية لهؤلاء البررة

## الفصل التاسع :

- 213 ..... الإشراف على السقائين، من اختصاص المحتسب  
216 ..... الخدمات الصحية والسكن في مدن العصر الوسيط  
217 ..... نماذج كتابية لوقف السقايات  
218 ..... حتى الحيوان له نصيب من الوقف  
220 ..... الحيوانات يواسي بعضه بعضا

## الفصل العاشر :

- 225 ..... مؤسسة السقايات في المملكة المغربية  
227 ..... وقف الماء لسيدى إبراهيم التازي  
229 ..... سقايات مدينة سبتة  
230 ..... وقف السبيل لسقي الدواب  
231 ..... سقايات مدينة فاس  
233 ..... سقايات تتحدث عن نفسها  
242 ..... السقايات الوقفية في مدينة مكناس  
246 ..... الوقوف المائية في العهد العلوي  
250 ..... في مدينة الدار البيضاء  
251 ..... السقايات الوقفية بمدينة الرباط  
252 ..... اهتمام الأقدمين بالتراث والآثار  
254 ..... تقييد مياه الآبار الوقفية العمومية بالرباط  
256 ..... تقييد الآبار التي بعراصي الأحباس  
256 ..... تقييد آبار الحمامات  
257 ..... عين عتيق من جملة المياه لجانب الأحباس  
258 ..... وقوف المياه في مدينة مراكش

### الفصل الحادي عشر :

- 261 ..... نظافة الجسم بالماء، رقي صحي، ومظهر حضاري  
268 ..... بيوت بدون كنف  
269 ..... عناصر معمارية مساجدية

### الباب السابع عشر

- 275 .....  
275 ..... خوارق كونية مائية

### الفصل الأول :

- 277 ..... قَوْرَان الماء من بين أصابع النبي محمد عليه السلام  
279 ..... قدرة الله، تفوق كل العقول  
283 ..... نبع الماء من بين أصابعه عليه السلام  
285 ..... ما أدركنا لها قعرا حتى الساعة  
288 ..... تفجير الماء ببركة الرسول عليه السلام

### الفصل الثاني :

- 289 ..... تفجير العيون من الصخر

### الفصل الثالث :

- 298 ..... عبور بني إسرائيل على أرض البحر  
301 ..... آيات قرآنية تتحدث عن هذا العبور

### الفصل الرابع :

- 303 ..... المشي فوق الماء  
304 ..... هل كان المسيح يمشي على الماء ؟  
311 ..... الإرادة.. والترويض  
314 ..... الكرامات : حسية ومعنوية  
315 ..... السطح المائي  
322 ..... العلاء بن الحضرمي، يقتحم البحر  
323 ..... اقتحام البحر  
325 ..... قوة الإيمان.. وصلابة العقيدة

### الفصل الخامس :

328	..... الطوفان
329	..... الماء صديق الإنسان.. وعدوه
331	..... التحكم في فيضان الماء
332	..... فما عن طوفان .. نوح وسفينته به
335	..... أين استوت سفينة نوح ؟
340	..... حجم سفينة نوح
340	..... نُوحٌ في ابنه، وهل كان ابنه حقيقة
242	..... ذنب الأطفال من قوم نوح، لماذا هلكوا ؟
343	..... هل عَمَّ الطوفان الكرة الأرضية ؟
345	..... متى ابتدأ الطوفان ؟ ومتى انتهى ؟
350	..... قصة طوفان نوح من التوراة
351	..... قصة الطوفان في الأدب العربي

### الفصل السادس :

353	..... الماء لضبط وقياس الزمن
355	..... أفلاطون أول من اخترع الساعة المائية
357	..... تركيب الساعات المائية
359	..... عناية الكتاب التاسع «لفترفيوس» بالساعات المائية
359	..... العرب.. واهتمامهم بأمر التوقيت
360	..... كيف تسير هذه الساعات المائية ؟
362	..... ساعة هرون الرشيد المائية
364	..... ساعات مائية مغربية
369	..... ساعات مائية في القطر السوسي

### الفصل السابع :

372	..... الماء في المنام
374	..... كتبٌ في علم التعبير، ألفها علماء الإسلام
377	..... التحليل الاجتماعي في تفسير الأحلام



## الفصل الثامن :

388	الماء والعَرَّافون .....
392	مقتطفات طريفة وحيل مسلية .....
394	العَرَّافون والسحرة بمدينة فاس .....
395	السحر بالماء.. «وميشل نسترداموس» .....
399	فهرس المحتويات .....



الإيداع القانوني: 1996/1214

**مطبعة تجالة**

زنقة ابن زيدون - المحمدية (المغرب)  
الهاتف: 32.46.45 (03) الفاكس: 32.46.43 (03)